

لورنس داريل

رباعيّة الإسكندريّة

ماونت أوليف

رواية

دار الشروق

لورنس داريل

رباعية الإسكندرية

ماونت أوليف

رواية

ترجمة

فخري لبيب

دار الشروق

طبعـة دار الشروق الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ١٣٦٣٧/٢٠٠٨
ISBN978-977-09-2469-7

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

إلى

كلود

τὸ ὄνομα τοῦ ἄγαθοῦ διάμονος

ملحوظة

جميع الشخصيات والمواقف فى هذه الرواية (وهى جزء من رباعية سبقتها «جوستين» و«بَلتازار») محض خيال، وقد استخدمت حقى كروائى فى أن أتناول بعض أحداث تاريخ الشرق الأوسط والهيكل الوظيفى للسلك الدبلوماسى بشىء من التصرف.

غرق الحلم فى اللذات، كان يستعيد مزاج حكم صائب، لم يكن للشيء غير أهمية عادية لحكاية إيذاء عقلى. الكل يعرف ذلك جيدا للغاية، ولم يغضب الأمر أحدا. ولكن واحسرتاه، فالمرء يدفع الأمر أحيانا دفعا قليلا. لماذا، يجرؤ المرء أحيانا على الدهشة، ماذا يمكن أن يكون عدم تحقق فكرة، إذا كان مجرد شكلها التجريدى، الذى يثير الخيال، قد حرك المرء بهذا العمق؟ إن حلم اليقظة الملعون مفعم بالحيوية ووجوده جريمة.

د. أ. ف. دى ساد: جوستين

يجب على الروايةأن تحكى

ستاندال

(١)

كان موظفا صغيرا يبشر بمستقبل باهر، فأرسل إلى مصر مدة عام تحسينا للغته العربية. ووجد نفسه ملحقا بالمندوب السامى فى وظيفة كتابية، فى انتظار أول منصب دبلوماسى له، فتصرف بالفعل كسكرتير شاب موفد رسميا. كان يدرك تمام الإدراك مسئوليات وظيفته المستقبلية. إلا أن ظروف العالم اليوم قد غدت، على نحو ما، أشد صعوبة مما اعتادت أن تكون، لتوفر ضمانا للمستقبل. لقد صار الإمساك بالصيد أمرا مثيرا.

كان، فى الحقيقة، قد نسى تماما كل ما كان له علاقة، ذات يوم، برداء التنس المجعد، وسترة الكلية الفضفاضة، وتلوث حذائه الأبيض المطاطى الخفيف ببقعة سوداء من رشح المياه الآسنة الصاعدة من ألواح خشب الأرضية. يبدو أن المرء فى مصر، ينسى نفسه دوما هكذا. وحمد الفرصة التى أتاحت له، مصادفة، خطاب تعريف قاده إلى أرض آل الحصنانى، إلى المنزل عتيق الطراز، الممتد فى كل اتجاه، والمشيد فوق شبكة من البحيرات والجسور قرب الإسكندرية.

اندفع قارب الصيد المدبب الطرفين، الذى يحمله، فى دفعات بطيئة، عبر المياه العكرة، ثم استدار نحو الشرق ليتخذ وضعه فى نصف الدائرة الهائل من القوارب التى كانت تقترب تدريجيا تسعى للإحاطة بمنطقة تتميز بأشواك البوص السوداء حيث توجد الأسماك. وخيم

الليل المصرى، بينما يحيطون بالمكان بدفعة فى الماء بعد دفعة - وتضاءلت كل الأشياء إلى رسوم محفورة فوق ستارة ذهبية بنفسجية. وغدت الأرض أكثر غلظة كنسيج موشى بالصور فى ضوء الغسق الليلكى، يرتعش هنا وهناك بسراب الرطوبة الصاعدة، وآفاق تتمدد تتقلص، حتى يخيل للمرء كأن العالم ينعكس، يتراءى، فى فقاعة صابون تنتفض على حافة الزوال. وغدا للأصوات، عبر المياه جرس مرتفع حينا وناعم واضح حينا آخر. وفر سعاله عبر البحيرة كخفقات أجنحة مفاجئة. كان الجو لا يزال حارا رغم العتمة، والتصق قميصه بظهره. درجات الظلام التى فى وسعهم تبينها خطوطا تحدد أشباح الجزر التى يسورها البوص كالشراشيب، وقد صنعت فواصل بين المياه أشبه بوسائد دبابيس كبيرة، كالبراثن، كحزم العشب.

كان قوس القوارب الكبير يتشكل وينغلق فى بطء من يتأمل، إلا أنه ظل، وقد أخذت الأرض والمياه تذوبان بهذا المعدل فى السرعة، يعيش فى وهم أنهم يسافرون عبر السماء، أكثر من أنهم يبحرون عبر مياه مريوط الغرينية كان فى وسعه أن يسمع، دون أن يرى طرطشة الأوز البرى ونعاقه الفظ الغليظ، وفى مكان ما، انفصلت السماء عن الماء كوردة طيارة تسحب وشائجها عبر مصب النهر الأشبه بمسطحات البحر. وتنهد ماونت أوليف وهو يحملق إلى أسفل فى المياه البنية، وقد وضع ذقنه على راحتيه. لم يكن معتادا على هذا الإحساس بالسعادة الغامرة، فسن الشباب هى سن اليأس والقنوط.

سمع من خلفه، قباع الأخ الأصغر ناروز، بشفته المشقوقة كشفة الأرنب، وهو يزمجر مع كل وخزة للمدرة الخشبية، بينما القارب يترنح فيحس أصداء هذا الترنح فى خاصرته والطين السميك كالعسل

الأسود يقطر عائدا إلى الماء فى بطء «فلوب، فلوب»، والمدرة الخشبية تمتصه فى لذة. كان ذلك آية فى الجمال، لكن كل شىء يفوح بالعطن، ولدهشته وجد نفسه أقرب إلى الاستمتاع برائحة مصب النهر العفنة. ودارت حولهم تيارات هواء قادمة من شط البحر البعيد لتنعش عقولهم. وجوقات من بعوض تطن هناك كمطر فضى فى عين الشمس المحتضرة. وأوقد الضوء المتغير، فى نسيج كبيت العنكبوت، ذهنه. فقال وهو يستمع إلى نبضات قلبه المتأنية: «ناروز، إننى غاية فى السعادة». وأطلق الشاب ضحكته الخجولة التى تشبه الفحيح. وقال وهو يخفض رأسه: «حسنا، حسنا. لكن هذا ليس بالشىء الذى يذكر. انتظر. إننا الآن نقفل الدائرة». وابتسم ماونت أوليف، وقال يحدث نفسه: «مصر». وكررها: «مصر» كما يكرر المرء اسم امرأة.

قال ناروز فى صوته الأجش الرخيم: «هنالك البط أيضا، وهو لا ينخدع، هل تعرف ذلك؟» (كانت إنجليزيته معيبة وغير طبيعية)، «وحتى يمكن اصطياده خلسة (أليست الكلمة اصطياده خلسة؟)، فإن الأمر سهل ميسور. عليك أن تغطس تحته لتمسك به من أرجله. أليس ذلك أيسر من إطلاق النار عليه. إه؟ فإن كنت ترغب فى ذلك، تتوجه إليه فى الغد». ثم زمجر فى المدرة الخشبية مرة أخرى وتنهد.

قال ماونت أوليف: «وماذا عن الحيات؟». لقد رأى العديد منها، كبيرة الحجم، تسبح بعد ظهر اليوم.

سوى ناروز كتفيه القويتين وهو يضحك ضحكته المكتومة. قال: «لا توجد هنا حيات». وأخذ يضحك مرة أخرى.

استدار ماونت أوليف جانبا ليريح ذقنه فوق خشب مقدم القارب. كان فى وسعه أن يرى بركن عينه زميله واقفا يدفع القارب بالمدرة

الخشبية، وأن يفحص ذراعيه ويديه المليئتين بالشعر، ورجليه الثابتتين القويتين. وسأله بالعربية: «هل آخذ دوراً فى دفع القارب؟». كان قد لاحظ السعادة الغامرة التى يمنحها حديثه إلى مضيفيه بلغتهم الوطنية. كانت إجاباتهم التى يعبر عنها الابتسام تعنى نوعا من الرضا والقبول. فكرر ما قال: «هل اخذ دوراً؟».

«بالقطع كلا»، قال ناروز وهو يبتسم ابتسامته القبيحة والتى لا يشفع لقبحها غير عينيه الرائعتين وصوته العميق. كان العرق يقطر من شعره الأسود المجعد وهامته التى تشبه هامة أرملة. وأضاف خشية أن يكون رفضه غير مهذب: «سوف يبدأ الصيد مع الظلام. وأنا أعرف ماذا على أن أفعل. وعليك أنت أن تنتظر وترى الأسماك». كانت قطعتا اللحم الصغيرتان الورديتان اللتان تحددان شق شفته مبتلتين بلعابه، وغمز بعينه فى مودة للشاب الإنجليزى.

أخذ الظلام يهرع نحوهما والضوء ينطفئ. صاح ناروز فجأة: «الآن جاءت اللحظة.. انظر هنالك». وصفق بكفيه عاليا. وصرخ عبر المياه مما أفزع زميله الذى تابع اتجاه أصبعه وقد رفع رأسه: «ماذا هنالك؟». وهز الهواء صوت طلق نارى كئيب صادر من أبعد قارب، وفجأة شق السماء عند المنتصف سرب جديد، أخذ يرتفع فى بطء مفرقا الأرض عن السماء، كجرح مخملى طائر، كقلب رمانة يبرز من قشرتها. ثم تحول اللون من المخملى إلى القرمزى، ثم تورد وعاد إلى اللون الأبيض هابطا إلى مستوى البحيرة. كثلج منهمر ذاب لحظة أن لمس المياه وصاحا وهما يضحكان: «طائر البشروش». وخيم الظلام عليهما فاحتواهما، مبددا العالم المرئى حولهما.

وقبعا زمنا طويلا يستريحان، يتنفسان فى عمق، تاركين أعينهما تعتاد على ما حولها. وارتفعت الأصوات والضحكات فى القوارب البعيدة العائمة عبر الممر الذى يحتويهما. وصاح أحدهم، «يا ناروز»(*)، ومرة أخرى، «يا ناروز»(*). ولم يفعل ناروز شيئا غير أن زمجر. وجاءت الآن الفقرات القصيرة الرخيمة لطبلة ـ الأصابع. وأخذت إيقاعاتها الموسيقية تطبع نفسها فى عقل ماونت أوليف، حتى إنه وجد نفسه وقد أخذت أصابعه تدق فوق ألواح الخشب. لم يعد يظهر الآن قاع البحيرة. اختفى الطين الأصفر ـ الطين الطرى المشقق، طين فوالق البحيرة فيما قبل التاريخ، الطين المعدنى القارى الذى حمله النيل وهو فى طريقه إلى البحر، كان الظلام المحيط لا يزال يحمل رائحته. وعاد النداء من جديد «يا ناروز» (*). وتعرف فيه ماونت أوليف على صوت نسيم، الأخ الأكبر، تحمله أنفاس البحر وهى تنشر الكلمات، «حان . . وقت . . الإضاءة». وأجاب ناروز فى صوت كالعواء، وزمجر راضيا وهو يبحث فى الظلام عن الثقاب. وقال فى زهو: «الآن، سوف ترى».

وضاقت حلقة القوارب تحيط بموقع الأسماك. وبدا الثقاب الحار القاتم يتوهج، وسرعان ما أينعت مصابيح الكربيد المثبتة فى مقدمة القوارب فى زهور صفراء مرتعشة، تتمايل تحدد موقع كل قارب، فيساعد ذلك تلك الخارجة عن الخط أن تصحح وضعها. ومال ناروز على ضيفه معتذرا ليتحسس مقدم القارب. وشم ماونت أوليف رائحة عرق جسده القوى عندما انحنى يفحص الأنبوبة المطاطية، ويهز صندوق المصباح القديم المصنوع من الراتنج الصناعى والمليء

(*) عربية بحروف لاتينية.

بالكاربيد. ثم أدار مفتاحا وأشعل عود ثقاب. وغمرهما، للحظة، حيث جلسا وقد أمسكا بأنفاسهما، دخان كثيف أخذ ينقشع فى سرعة. وأسفلهما كانت تزهر أيضا كبلورة ضخمة ملونة، نصف دائرة من مياه البحر، متأججة حقيقة كفانوس سحرى يعكس أطياف الأسماك وقد جفلت، تبددت، تشتتت، ثم استعادت تشكيلاتها، فى حركات تتسم بالدهشة والفضول، بل ربما بالفرحة أيضا. وأطلق ناروز أنفاسه فى حدة وقبع حيث كان. ثم استحث ماونت أوليف قائلا: «انظر إلى أسفل»، وأضاف: «لكن عليك أن تحتفظ برأسك إلى أسفل».

واستدار ماونت أوليف الذى لم يفهم تلك النصيحة الأخيرة، يستفسر منه عن مقصده فقال له: «ضع سترة حول رأسك. إن طيور القاوند الصيادة تصيبها الأسماك بالجنون. إنها لا ترى بالليل. لقد فتحت وجنتى فى المرة السابقة، وفقد صبحى واحدة من عينيه، ضع وجهك إلى الأمام وإلى أسفل».

وفعل ماونت أوليف ما أمر به. ورقد هناك طافيا فوق بحيرة تضطرب بأنوار المصابيح. لم تعد أرضيتها الآن طينية، بدت كبلورة فريدة لا نظير لها، تموج حياة بسلاحف الماء والضفادع والأسماك المنزلقة - عالم كامل من السكان أزعجه هذا الاقتحام الآتى من العالم العلوى. واهتز مقدم القارب المدبب مرة أخرى وتحرك، بينما أحاطت مياه القاع القذرة الباردة بأصابعه. كان فى وسعه أن يرى بجانب عينه نصف الدائرة الكبيرة من الأضواء، سلسلة الزهور، وقد بدأت تقترب على نحو أسرع. وارتفع الدق على الطبول والغناء بطريقة خفيضة كئيبة، وإن كانت آمرة، كأنما لينظم القوارب ويوجهها. وأحس بصدى دوران القارب فى سلسلته الفقرية مرة أخرى. ما كان فى سوف أحاسيسه أن

تستعيد ذكرى شيء ما يماثل ما يجرى الآن بهذه الفطرية الكاملة.

وغدت المياه كثيفة غليظة، أشبه بحساء الشوفان يقلب على نار هادئة ليزداد غلظه. لكنه رأى عندما نظر أكثر قربا أن هذا الوهم قد نبع لا من المياه ولكن من تكاثر الأسماك ذاتها. كانت قد بدأت تحتشد، تموج، تندفع فى جماعات يزعجها إحساسها بأعدادها، ومع ذلك كانت تنزلق وهى تناوش بعهضا البعض فى اتجاه واحد. وأخذ النطاق المضروب يضيق، أيضا، كالأنشوطة. ولم يعد يفصلهما عما يجاورهما من قوارب غير عشرين قدما من بحيرة شمعية الضياء. وبدأ النوتية يطلقون صرخات خشنة وهم يضربون الماء حولهم، وقد أثارتهم - كالهاجس - هذه الأسراب السمكية، التى اكتظ بها قاع البحيرة الرخو، والتى كانت تزداد اضطرابا كلما ازدادت المياه ضحالة، وقد أخذت تدرك أنها وقعت فى فخ الدائرة المتألقة. كان هنالك مايشبه الهذيان فى اندفاعها ودورانها. وبدأت أشباح الرجال العائمة تحل شباك الصيد داخل القوارب وقد غلظت صيحاتهم. وأحس ماونت أوليف بدمائه تنبض، من الإثارة، فى سرعة. وصاح ناروز: «لحظة - ارقد ساكنا».

وغلظت المياه كالغراء، وأخذت تقفز منها، إلى الظلام، أجسام مضيئة، لتعود فتسقط، تتألق، مثل عملات فى الظلال. وتماست دوائر الضوء وتداخلت، واكتملت الحلقة كلها. وجاءت من هنا ومن هناك ضربات عنيفة. وصخب أجسام سوداء تقفز فى المياه الضحلة، فتلتف الشباك الطويلة التى ربطت أطرافها ببعضها البعض، والتى كانت حلقاتها قد انتفخت بالفعل بأسماك تتلوى، كما تنتفخ جوارب أعياد الميلاد.

كان الخوف قد أمسك بالأسماك القافزة أيضا، وهى تشق بقفزاتها المذعورة سطح المكان كله، ملقية بالمياه الباردة على المصابيح المرتعشة. ولتسقط فى القوارب حصادا مرتجفا من الحراشيف الباردة والذيول التى تقرع كالطبول. وكان تأثير نضالاتها وهى تموت، ينتقل بنفس السرعة التى ينتقل بها تأثير قرع الطبول. واهتز الهواء بالضحك والشباك يُحكم لمها. كان فى وسع ماونت أوليف أن يرى العربان بجلابيبهم البيضاء الطويلة وقد شمرت حتى أوساطهم يدفعون شباكهم، المربوطة معا، فى بطء إلى الأمام. وتألق الضياء فوق أفخاذهم السمراء وامتلأ الظلام ببهجتهم البربرية.

وعمت السماء ظاهرة أخرى، غير متوقعة. بدأت تغلظ فوقهم كالماء تحتهم. انتفخ الظلام فجأة بأشكال بلا معالم. فقد أثار القافزون فى الماء حذر النائمين على شواطئ البحيرات. فلحق مئات الزائرين القابعين فى نبات الحلفاء، والذى يحدد الخط الخارجى للمصب، من طيور البجع والبشروش والكركى والقاوند، بالصيد وهم يطلقون صيحات حادة متقطعة. جاءوا كمقذوفات فضائية بلا نظام، تميل تنقض على الأسماك القافزة تخطفها. وعج الماء والهواء بالحياة عندما صف الصيادون شباكهم وبدأوا يجرفون الصيد الوفير إلى القوارب، أو يقلبون الشباك فتتدفق شلالات صغيرة متموجة من فضة فى القوارب، حتى غاصت كعوب قادتها فى الأجسام المنتفضة. كان هنالك ما يكفى ويفيض عن حاجة الرجال والطيور. وبينما يطوى حراس البحيرة أجنحتهم ويبسطونها بطريقة خرقاء، كما فى رسوم المظلات الصينية الخفيفة قديمة الطراز، أو تحوم، ترفرف مرتبكة فى مجموعات كالحزم فوق المياه القافزة الناهشة، جاءت طيور القاوند ونورس الرنجة، من كل صوب وحدب، فى سرعة الصواعق، شبه مجنونة لما أصابها من

اضطراب وشره، تطير بطرق انتحارية، فتتحطم رقاب بعضها، على الفور، فوق أسطح القوارب، ويدفع البعض منها مناقيره فى أجساد الصيادين السمراء، لتفتح فى الخد أو الفخذ جرحا وهى فى غمرة جشعها المرعب. وأضفى رشاش الماء والصرخات الأجشّة ونهشات المناقير والأجنحة والوشم المجنون للطبول وهى تقرع بالأصابع، على المشهد رونقا لا ينسى، أعاد إلى عقل ماونت أوليف ذكرى غائمة للوحات فرعونية مرسومة على الجص عن الضياء والظلام.

وأخذ الرجال، هنا وهناك، يدفعون الطيور يخبطون الهواء الداكن حولهم حتى غدا فى إمكان المرء أن يرى، وسط لفائف أسراب الأسماك التى اصطيدت، قوس قزح من ريش ساحر اللون، يثير الدهشة، ومناقير محطمة تقطر دما فوق الحراشيف الفضية. دام المشهد هكذا ثلاثة أرباع الساعة حتى أترعت القوارب بما حملت. كان نسيم يقف الآن بقاربه فى حذاء قاربهما، وأخذ يناديهما فى الظلام: «يجب أن نعود». وأشار إلى مصباح كان يتأرجح عبر المياه، مشكلا كهفا دافئا من الضياء، لاحت لهم فيه الاستدارة الناعمة لخاصرة حصان، والأطراف المسننة كالمنشار لسعف النخيل. وصاح نسيم: «إن والدتى هناك فى انتظارنا». وانحنت رأسه لتظهر عند حافة بركة الضوء، وهو يبتسم. كان وجهه بيزنطى السمات كتلك الوجوه التى يجدها المرء فى لوحات رافينا المرسومة فوق الجص. . كان لوزيا أسود العينين محدد التقاطيع. إلا أن ماونت أوليف ـ إن صح القول ـ كان ينظر فى وجه ليلى عبر وجه نسيم، والتى كانت وهى أمه تشبهه إلى حد كبير. وصاح نسيم فى حدة، «ناروز». كان الأخ الأصغر قد قفز إلى الماء يثبت الشبكة. «ناروز». كان من العسير أن يسمع المرء فى هذا الهرج. «يجب أن نعود».

وأخيرا استدار القاربان، ولكل منهما عين واحدة من ضياء أشبه بعينى السيكلوبس، يبحران عبر المياه الداكنة إلى المرسى البعيد حيث ليلى فى انتظارهم، نافدة الصبر ومعها الخيل، فى صمت البعوض الداوى. وارتقى كبد السماء قمر صغير.

وجاء صوتها ضاحكا عبر أجواء البحيرة المتباينة تؤنبهم لتأخيرهم. وضحك ناروز ضحكته المكتومة. وصاح نسيم: «لقد أحضرنا كميات من الأسماك». ووقفت هنالك أكثر سوادا من الظلام. والتقت أيديهما، كأنما تقودهما غريزة محكمة لا تخطئ ولا مكان لها فى عقلهما الواعى. واهتز قلب ماونت أوليف وهو يقف يتسلق المرسى بمعونتها. وصاح ناروز عندما بلغ الأخوان الشط، «لنتسابق يا نسيم، حتى المنزل». وأسرعا فى عجلة إلى حصانيهما اللذين وثبا ثم هبطا على أرجلهما الأمامية، وبدأ العدو فى هجمة سريعة ضاحكة. وصاحت الأم فى حدة: «احترسا». إلا أنه قبل أن تمضى ثانية واحدة كانا قد انطلقا، وحوافر جواديهما تدوى كالطبل فوق أرضية الجسر اللينة، وناروز يضحك ضحكته المكتومة أشبه بمفيستوفيليس رئيس الشياطين. وقالت فى استكانة ساخرة: «ماذا على أن أفعل؟» وتقدم الخادم الآن إلى الأمام ومعه جواديهما.

وامتطيا الجوادين وانطلقا نحو المنزل، وقد أمرت ليلى الخادم أن يتقدمهما بجواده ومعه المصباح. واقتربت بجوادها من ماونت أوليف حتى تقابلت ركبتاهما. وغدا تلامس جسديهما سلوى لهما يطيب خاطرهما. كان قد مضى عليهما زمن طويل ـ لا يكاد يكون عشرة أيام ـ لم يكونا فيه عاشقين، رغم أن ذلك بدا للشاب ماونت أوليف وكأنه قرن من الزمان، زمان أبدى من اليأس والبهجة.

لقد تعلم فى إنجلترا، طبقا للقواعد والأصول، ألا تنتابه الرغبة فى أن يحس ويرق. إن كل الدروس الأخرى القيمة التى برع فيها، رغم حداثته، كانت لمواجهة مشاكل صالون الاستقبال والشارع فى رزانة ورباطة جأش، أما فيما يختص بعواطفه الشخصية فلم يكن فى وسعه إلا أن يقاوم التكتم العصبى لحساسيته الوطنية والذى يكاد يكون مخدرا يفرض عليه صمتا أخرق: إنه تعليم يقوم على المنتقى من قليل الكلام والحياء والاحتشام. إن التهذيب والحساسية نادرا ما يسيران جنبا إلى جنب، رغم أن الثغرة بينهما يمكن أن تختفى فى رموز من السلوكيات وأشكال من التخاطب مع الحياة. لقد سمع وقرأ عن الهوى، إلا أنه اعتبره أمرا لا يمكن أن يصيبه. لكنه يقع هنا فيه، مندفعا فى حياة سرية، شأنه شأن كل طالب أفرط فى النمو. لقد عاش على كلمات متناقضة، وراء ستار من التسامح، قبل ما يجرى فى الحياة اليومية من سلوكيات ومعاملات، من أحاديث ومشاعر. كان الإنسان الاجتماعى فى أعماقه قد نضج واكتمل بطريقة مفرطة، قبل أن ينمو الرجل الذى فى داخله. لقد أفرغت ليلى ما بداخله كما يفرغ المرء حقيبة كبيرة قديمة، ملقية بكل ما فيه إلى الخلط والبلبلة. إنه لم يعد يرى فى نفسه الآن غير تافه تتقزز منه النفس، شاب قليل التجربة انتُهك كل ما كان عليه من تحفظ واحتشام.

وأدرك، وهو يكاد يكون ساخطا، أن شيئا ما قد وجد هنا أخيرا. شىء ربما يكون هو على استعداد للموت من أجله ـ شىء تحمل فظاظته ذاتها رسالة مجنحة اخترقت لب عقله. كان يحس حتى وهو فى الظلام، أنه يحمر خجلا. كان الأمر سخيفا. كان الحب سخيفا وكأنما هو شىء ألقى به من فوق رف المدفأة، ووجد نفسه يتساءل عما يمكن أن تفكر فيه والدته لو تصورتهما ممتطين جوادين وقد تلامست ركبتاهما

وسط أطياف أشجار النخيل إلى جوار بحيرة تعكس كالمرآة قمرا صغيرا. وهمست : «أسعيد أنت؟» . وأحس بشفتيها تمس معصمه مسا خفيفا . إن المحبين لن يجدوا فيما يقولونه لبعضهم البعض جديدا قيل أو لم يقل من قبل آلاف المرات . لقد اخترعت القبلات لتحول مثل هذا اللا شيء إلى جراح . وقالت مرة أخرى :

«ماونت أوليف . يا عزيزى دافيد» .

«نعم» .

«أنت ساكن تماما . لقد اعتقدت أنك لابد نائم» . وعبس ماونت أوليف ، وهو يواجه طبيعته الداخلية المشتتة . وقال :

«لقد كنت أفكر» .

وأحس بشفتيها مرة أخرى فوق معصمه .

«يا عزيزى» .

«يا عزيزتى» .

وسارا وقد تماست ركبتاهما حتى لاح المنزل لناظريهما ، وقد بنيت أركانه الأربعة على شبكة من الجسور فوق المصب وقنوات المياه العذبة . كان الجو مليئا بالوطاويط آكله الفاكهة ، وكانت شرفات المنزل الغليا تتوهج بالضياء . هنا جلس المعوق المقعد محنيا فى مقعده ذى العجلات ، يحملق غيران فى الليل ، فى انتظارهم . كان زوج ليلى يموت من مرض مبهم فى الجهاز العضلى ، يعانى من ضمور متقدم يؤكد فى قسوة ، فارق العمر الكبير حقا بينهما ـ كانت هى فى الأربعينيات ، وإن كانت تبدو أصغر سنا من ذلك بكثير ، وكان هو قد

تعدى الستين من عمره. كانت شيخوخته قد جوفته حتى غدا كقوقعة هزيلة مكونة من بطاطين وشيلان تبرز منها يدان طويلتان سريعتا الحساسية. كان لملامحه الساخرة المريرة ولسحنته الفظة صداها فى وجه ابنه الأصغر. كانت رأسه تميل على كتفيه وتبدو فى بعض الإضاءة كأقنعة الكرنفال المعلقة فوق العمد. بقيت إضافة، كانت ليلى تحبه!

لم يكن فى مقدور ماونت أوليف أن يفكر بعقله الصامت فى تلك الكلمات، «كانت ليلى تحبه»، دون أن يردد الكلمات زاعقا فى أعماقه كالببغاء. كيف يمكنها أن تحبه؟! لقد سأل نفسه مرارا وتكرارا: «كيف يمكنها أن تحبه؟!».

أسرع الزوج، عندما سمع وقع الحوافر فوق الأرض الحجرية لصحن الدار، يدفع كرسيه المتحرك إلى الأمام، إلى حافة الشرفة. ينادى فى نزق: «ليلى. أهذه أنت؟» فى صوت طفل عجوز على استعداد للتوجع من دفء البسمة المرسلة إليه من أسفل إلى أعلى، ومن الصوت النسائى الخفيض العميق العذب الذى أجابت به عليه، وهى تخلط الاستكانة الشرقية بنوع من تطييب الخاطر الناعم الذى لا يدركه غير الطفل: «يا عزيزى». ثم جرت تصعد درجات السلم الخشبية لتحتضنه وهى تصيح: «لقد عدنا جميعا سالمين»، وترجل ماونت أوليف عن جواده فى بطء فى صحن الدار وهو يسمع الرجل المريض يتنهد فى ارتياح، فشغل نفسه بشد للحزام، لا ضرورة له، حتى لا يراهما وهم يحضنان بعضهما البعض. لم يكن غيورا، إلا أن تشككه اخترقه وآلمه. كان بغيضا أن يكون شابا وغشيما، وأن يحس الامتثال فى أعماقه. كيف حدث كل ذلك؟ أحس أنه يبعد مليون ميل عن إنجلترا، وأن ماضيه قد انسلخ عنه انسلاخ الجلد. كان الليل الدافئ

فواحا بالياسمين والورد. سوف يكون ساكنا سكون إبرة، إن جاءت إلى حجرته فيما بعد. لن يتحدث أو يفكر. سوف يأخذ الجسد الشاب، إلى حد غريب، بين ذراعيه دون رغبة أو ندم. وأغلق عينيه كمن يقف تحت شلال ثلجي، وصعد السلم فى بطء. لقد جعلته يدرك أنه وسيم، وطويل القامة منتصبها.

ونطق الرجل العاجز فى صوت تطفو عليه مشاعر الكبرياء والشك (كما يطفو الزيت فوق الماء): «هل أعجبتك الرحلة يا ماونت أوليف؟». ودفع خادم زنجى أمامه بمنضدة ذات عجلات، وقد انتصبت فوقها قنينة الويسكى، عالم من الأشياء الفانية. أن تشرب الـ «صندوترز» مثل المستعمرين فى هذا المنزل العتيق الفسيح المليء بالسجاجيد الفاخرة، والجدران التى تغطيها الرماح الأفريقية المسلوبة من أم درمان، وأثاث من الإمبراطورية الثانية، غريب ومستهجن، تركى القالب. وقال الرجل: «اجلس» فجلس ماونت أوليف وهو يبتسم له. لقد لاحظ أنه حتى فى غرفة الاستقبال توجد هنا وهناك، كتب وروايات، ترمز إلى الجوع الذى لا يشبع الفكر، والذى لم تسمح له ليلى البتة أن يسيطر عليها. كان من الطبيعى أن تحتفظ بكتبها فى الحريم، إلا أنها كانت تفيض دوماً إلى المنزل. لم يكن لزوجها نصيب فى هذا العالم، فحاولت طاقة جهدها ألا يتنبه له، تخشى غيرته التى غدت أمرا مزعجا كلما ازداد عجزه البدنى. كان ابناه يغتسلان فى مكان ما، فقد سمع ماونت أوليف صوت المياه الجارية. سرعان ماسيجد عذرا حتى يخلو إلى نفسه، يغير ثيابه ويرتدى بزة بيضاء من أجل العشاء. شرب وتحدث إلى الرجل، الذى كان يصدر صريرا من كرسيه المتحرك، فى صوت خفيض رخيم. بدا له مروعا وغير لائق أن يكون عاشق زوجته، مع ذلك فقد كانت ترهفة الدهشة دوما وهو يرى

ليلى تمارس كل هذا الخداع بطبيعية وبساطة تامتين (صوتها المعسول رابط الجأش . . إلخ إلخ . عليه أن يحاول ألا يفكر فيها كثيرا) . وعبس وهو يرشف شرابه .

كان عسيرا للغاية أن يجد طريقه إلى تلك الأراضى ليقدم خطاب التعريف به . كان طريق السيارات ينتهى عند مخاضة النهر ، وبعدها يجب استخدام الخيل للوصول إلى المنزل ، وسط القنوات . وظل واقفا يائسا قرابة الساعة قبل أن يتعطف عليه أحد المارة ويقدم له حصانا يصل به إلى هدفه . فى ذلك اليوم لم يكن هنالك من أحد غير الرجل العاجز . ولاحظ ماونت أوليف ، وقد شد انتباهه ، أن الرجل العاجز ، كان وهو يقرأ خطاب التعريف ، المصاغ بأسلوب عربى بليغ متأنق ، يتمتم بصوت مرتفع ، فى كياسة تتسق وقواعد السلوك المرعية المجاملات المقابلة لتلك التى يقرؤها ، وكأن كاتب الرسالة حاضر أمامه . ثم نظر للحال بلطف ، إلى أعلى ، فى وجه الشاب الإنجليزى ، وتحدث إليه ، وأجابه ماونت أوليف ، فى رفق ومودة ، «سوف تحضر وتقيم معنا ـ إنها الطريقة الوحيدة لتحسين لغتك العربية . يمكنك المكوث مدة شهرين إن شئت . إن ابنىّ يعرفان الإنجليزية ، وسوف يسعدهما أن يتبادلا الحديث معك ـ وزوجتى أيضا ـ سوف ينعمان بوجود وجه جديد غريب أجنبى فى المنزل ، كما أن عزيزى نسيم فى سنته النهائية فى أكسفورد» . وتوهجت عيناه الغائرتان بالكبرياء والسعادة التى رفرفت لتترك مكانها لنظرة الألم والكدر المألوفة ، المرض يغرى بالاستخفاف بصاحبه ، والرجل المريض يعى ذلك .

وقبل ماونت أوليف ما عرض عليه . وحصل ، بتخليه عن كل من منزله وإجازته المحلية ، على إذن بالبقاء مدة شهرين فى منزل هذا المالك

القبطى الكبير . كان ذلك فراقا تاما لكل ما عرفه، ليحتوى هكذا فى نمط حياة أسرة تقوم على، وتتغذى دون قصد بأبهة إقطاعية تمتد بالقطع إلى الوراء، إلى العصور الوسطى، وربما أبعد من ذلك، عالم بورتون، بكفورد وليدى هستر . . تلك الشخصيات إذن لاتزال موجودة . ولكن هنا كما يرى، ومن خلال ميزة تواجده داخل اللوحة التى رسمها خياله، وجد فجأة أن ما هو غريب، إنما هو طبيعى تماما . كان عالمها الشعرى يشع بالأحاسيس اللا شعورية التى كانت تحياها . وبدأ ماونت أوليف الذى كان قد عثر على المفتاح السحرى (افتح يا سمسم) للغة فى متناول يده، بدأ يخترق لأول مرة بلدا أجنبيا، «عادات» (*) أجنبية . وأحس كما يحس المرء دوما، فى مثل تلك الحالة بالتحديد بسعادة كالدوامة، وذاك لفقده نفسًا عتيقة وإنمائه نفسًا جديدة تحل محلها . أحس أنه ينزلق، يفقد ـ إن جاز القول ـ جذور نفسه . هل هذا هو المعنى الحقيقى للتعليم . لقد بدأ يغرس عالما كاملا هائلا موفور الصحة من نبت خياله، فى تربة أخرى هى حياته الجديدة .

كانت أسرة حصنانى نفسها مصنفة تصنيفا غريبًا . كان نسيم الرشيق ووالدته مؤتلفى الروح ينتميان إلى ذات العالم الحميم من الذكاء والحساسية . كان الأخ الأكبر يترقب خدمة والدته، إن أرادت فتح باب أو استعادة منديل سقط منها إلى الأرض . كان يتقن الإنجليزية والفرنسية، سلوكياته لا غبار عليها، رشيق متين البنية . وكان يجلس الآخران قبالتهما، عبر ضوء الشموع، العاجز فى بطاطينه والأخ الأصغر شرسا بهيميا ككلب كبير قوى، يحيطه جو يصعب تحديده عن استعداده، أية لحظة، للاستجابة لأى دعوة يستخدم فيها ذراعيه . كان

(*) عربية بحروف لاتينية .

متين البنيان قبيحا، ومع ذلك كان رقيقا يمكن أن تستشف أين يكمن ولاء حبه، من الطريقة الودود التى يرتشف بها كل كلمة تخرج من فم أبيه. إن بساطته تلمع فى عينيه. إنه جاهز أيضا لتقديم خدماته، وهو يقوم فى الحقيقة، عندما لا تبعده أعمال الأرض عن المنزل، بصرف الخادم الخاص الصامت الذى يقف وراء الكرسى ذى العجلات، ليخدم والده بنفسه فى كبرياء متوهجة، سعيدا حتى إنه يحمله فى رقة إلى دورة المياه. كان ينظر إلى أمه نظرة أشبه بنظرة الحزن الطفولى الذى يتسم بالكبرياء والتى تتألق فى عينى المقعد العاجز. ورغم أن الأخوين كانا يفترقان عن بعضهما البعض مثل غصنى شجرة زيتون، إلا أنه لم يكن هنالك ما يقطع العلائق الودية بينهما ـ كانا من نفس الفرع. ذلك ما كانا يحسانه، كانا يحبان بعضهما البعض حبا غاليا، لأنهما فى الحقيقة يكملان بعضهما البعض. كان أحدهما قويا والآخر ضعيفا.

كان نسيم يخشى سفك الدماء والعمل اليدوى والسلوكيات السيئة: وكان ناروز يطرب لكل ذلك. وماذا عن ليلى؟ لقد وجدها ماونت أوليف لغزا جميلا، فى حين أنه لو كان أكثر خبرة لتعرف فى طبيعتها على بساطة الروح الصافية، وفى فطريتها المفرطة على رفاهة الحس. إنها وقد أنكر عليها تفتحها الحقيقى ارتدت فى رشاقة لتقبل بالحلول المهادنة المتسامحة. إن هذا الزواج، مثلا، من رجل أسن منها بكثير، كان واحدا من الأمور التى تم تدبيرها ـ ولا يزال هذا واحدا مما يجرى فى مصر. . كانت ثروة أسرتها تضارع ثروة أسرة الحصنانى ـ وتماثل هذه الزيجة، كما يحدث فى كل وحدة وائتلاف، اندماجا بين شركتين كبيرتين. وأيا كانت سعيدة أم غير سعيدة، فإنها لم تفكر ألبتة فى أن تتأمل الأمر. كانت جائعة، ذلك كل ما فى الأمر، جائعة لعالم الكتب واللقاءات التى توجد دوما خارج هذا المنزل العتيق وأعباء

الأرض الثقيلة التى تمد ثرواتهم بالدعم. كانت مطيعة، سهلة الانقياد، كحيوان رفيع المنبت. إلا أن تغيرا فى ميولها أحدق بها. لقد أنهت وهى صغيرة دراساتها فى القاهرة بامتياز وتفوق. وظلت لأعوام قليلة تغذى أملا فى أن تذهب إلى أوروبا لتكمل تعليمها. كانت تود أن تصبح طبيبة. إلا أن نساء مصر، فى ذلك الوقت، كن يعتبرن محظوظات إن هن أفلتن من الخمار الأسود ـ دع جانبا الحدود الضيقة للمجتمع والفكر المصرى. . كانت أوروبا بالنسبة للمصريين مجرد مركز للتسوق يرتاده الأثرياء للزيارة. كان من الطبيعى أن تذهب مع والديها عدة مرات إلى باريس التى أحبتها كما نحبها جميعا، إلا أنها عندما حاولت كسر حواجز التقاليد المصرية، وأن تفلت من الإسار الأسرى كله ـ وتحيا حياة كان يمكن أن تخصب عقلا ذكيا، اصطدمت بصخرة الوالدين المحافظة. قالا لها فى برود، يجب أن تتزوج وأن تكون مصر دارها. واختارا لها من بين معارفهم أكثرهم قدرة وطيبة قلب. ووجدت ليلى وهى تقف على حافة تلك الأحلام، جميلة وغنية (وهى المعروفة، بحق، فى المجتمع السكندرى، بعصفور الجنة الأسمر) كل شىء وقد غدا مبهما، معتما، واهيا وسخيفا. وكان عليها أن تمتثل. بالطبع لم يكن هنالك من أحد يبالى بزيارتها لأوروبا مع زوجها كل بضعة أعوام قليلة للتسوق أو قضاء إجازة ما. . لكن حياتها يجب أن تنتمى إلى مصر.

وأذعنت فى البداية مستجيبة فى يأس، ثم مستكينة للحياة التى دبرت لها عن قصد. كان زوجها عطوفا يرعاها، إلا أنه كان متبلدا، إلى حد ما، من الناحية العقلية. وضعضعت الحياة إرادتها. كان إخلاصها يتمثل فى انغماسها فى شئونها. تعيش كما أراد بعيدا عن العاصمة الوحيدة التى تحمل أضعف آثار نمط الحياة الأوروبية ـ

الإسكندرية. لقد أسلمت نفسها سنوات، حتى الآن، لأجواء الدلتا الخشنة، والحياة الرتيبة لأراضى الحصنانى. كانت تعيش ـ غالبا ـ من خلال نسيم، الذى حصل الجزء الأكبر من تعليمه فى الخارج، والذى كانت زياراته النادرة لها تحمل معها إلى الدار بعض الحياة. واشتركت حتى تلطف من فضولها الحاد لمعرفة العالم، فى الكتب والدوريات باللغات الأربع التى تعرفها معرفتها للغتها وربما أكثر، إذ لا يوجد من يفكر أو يحس، فقط فى إطار الاضمحلال غير المحدود للعربية. وغدا الوضع لأعوام عديدة حتى الآن، معركة للإخلاد والاستكانة، برز فيها، فقط، عامل اليأس فى صورة أمراض عصبية. كان زوجها يصف لها علاجا محددا لا يتسم بالذكاء ـ أن تقضى بالإسكندرية عشرة أيام، تعيد لها، دوما، لون الدم فى وجنتيها. إلا أن هذه الزيارات غدت مع الأيام أكثر ندرة: كانت تنزلق، دون إحساس، خارج المجتمع الذى وجدت نفسها، شيئا فشيئا، تفقد دربتها على ما يقوم عليه من أحاديث وأفكار محددة، وبعثت حياة المدينة الملل فى نفسها. كانت ضحلة ضحالة مياه البحيرة الكبرى نفسها، والتى تنتسب هى إليها. كانت قواها على الغوص فى ذاتها تزداد شحذا مع مرور السنين، تساقط أصدقائها وابتعادهم عنها، حتى لم يعد باقيا غير أسماء ووجوه قليلة ـ الطبيب بلتازار، مثلا، وأماريل وقلة أخرى. أما الإسكندرية فسرعان ما غدت تنتمى كلية إلى نسيم أكثر من انتمائها إليها. عندما أنهى دراسته. كان عليه أن يعمل بالضرورة فى أعماق البنوك بما فيها من تشعبات تقتضى السرعة، وجذور تمتد إلى عمليات شحن السفن والزيت والتنجستن، جذور تحتاج إلى الغذاء. . . إلا أن ليلى فى ذلك الوقت كانت قد غدت، فى واقع الأمر، زاهدة متوحدة.

وغرست حياة العزلة تلك فيها إحساسا ما بأنها غير معدة لاستقبال

ماونت أوليف، لوصول أجنبى للحياة فيما بينهم. فى ذلك اليوم الأول، جاءت متأخرة، كانت تقوم بجولة تمتطى الخيل فى الصحراء وانزلقت إلى مكانها بين زوجها وضيفه فى اهتمام ممتع على نحو ما. ولم ينظر ماونت أوليف إليها إلا لماما، فصوتها الأخاذ وحده دفع إلى قلبه بذبذبات قليلة غريبة، سجلها، لكنه لم يكن راغبا فى التعرف عليها. كانت ترتدى بنطلون ركوب الخيل وقميصا أصفر ووشاحا. كانت يداها بيضاوين ناعمتين بلا خواتم. ولم يظهر، فى ذلك اليوم، أى من ابنيها عند الغداء. كان عليها أن تصحبه، بعد تناول الطعام، فى جولة فى المنزل والحدائق. وكانت تحس بالفعل بدهشة ممتعة بلغة الشاب العربية التى لا بأس بها، وجرسه الفرنسى. عاملته بعناية وجلة مشفقة كتلك التى تعامل المرأة بها طفل رجلها الوحيد. وملأها اهتمامه ورغبته الصادقة فى التعلم بعواطف من الامتنان أثارت دهشتها. كان ذلك أمرا غير معقول، إلا أن أجنبيا آخر لم يظهر أى رغبة لدراسة وتقييم لغتهم وديانتهم وعاداتهم. كانت سلوكيات ماونت أوليف محكمة بنفس القدر الذى كان تحكمه فى ذاته ضعيفا. وسارا معا فى حديقة الزهور، يسمع كل منهما الآخر، وكأنهما فى نوع من الأحلام. وأحسا بأنفاسهما تتقطع وكأنهما أوشكا على الاختناق.

عندما ودع زوجها، فى تلك الليلة، وقد قبل دعوته ليعود ويبقى معهم، لم يستطع أحد العثور عليها فى أى مكان. وأحضر أحد الخدم رسالة منها تقول: إنها تحس بانحراف فى صحتها، وصداعا ألزمها الفراش. إلا أنها انتظرت عودته فى عناد وانتباه يتسم بالخوف.

لقد قابل بالطبع، الأخوين فى مساء ذلك اليوم الأول، حيث جاء نسيم فيما بعد الظهر قادما من الإسكندرية. وقد تعرف ماونت أوليف

فيه على شخص يعيش على مجموعة من القواعد والنظم، وتجاوبا معا فى توتر كما تتجاوب أنغام الموسيقى.

ومـاذا عن ناروز. «أين هذا الناروز العـجـوز؟»، سـألت ليلى زوجها، وكأن الابن الثانى كان من اختصاصه هو أكثر منها. كان سنده وركيزته فى الأرض. . «لقد حبس نفسه فى المفرخة أربعين يوما، ولسوف يعود فى الصباح». بدت ليلى مرتبكة بعض الشيء. شرحت الأمر لماونت أوليف». «سوف يكون ناروز مزارع الأسرة، أما نسيم فهو المصرفى». واحمرت خجلا، واستدارت إلى زوجها مرة أخرى وقـالت: «هل آخـذ مـاونت أوليف ليـرى ناروز وهو يعـمل؟». «بالتأكيد». وسحر ماونت أوليف نطقها لاسمه. لقد نطقته فى تنغيم فرنسى «مونتوليف». فكان له فى أذنه وقع أكثر الأسماء رومانسية. كان هذا التفكير، أيضا، جديدا عليه. وأخذت ذراعه وسارا عبر حديقة الزهور وأشجار النخيل إلى حيث أقيمت المفرخة فى مبنى طويل منخفض من الطوب اللبن، المشيد تشييدا جيدا تحت مستوى الأرض. طرقا بابا غاطسا إلى أسفل مرة واثنتين، إلا أن ليلى ـ وقد نفد صبرها ـ دفعت الباب ففتحته، ودخلا ممرا ضيقا رصت على كل جانب من جانبيه عشرة أفران طينية، الواحد منها فى مقابل الآخر.

وصاح صوت عميق: «أغلق الباب». نهض ناروز من وكر كنسيج العنكبوت، وجاء عبر الظلام يتعرف على الدخلاء، كان ماونت أوليف يخاف، بصورة ما، تقطيبة وجهه وشفته المشقوقة وخشونة صوته. كانا وكأنهما، رغم شبابه، قد تطفلا على ناسك أشعث فى كنيسة على جرف صخرى. كان جلده أصفر وعيناه متغضنتين من السهر الطويل. إلا أن ناروز ما إن رآهما حتى اعتذر، وبدا مبتهجا

أنهما كلفا نفسيهما مشقة زيارته، غدا للحال فخورا يتشوق إلى شرح أعمال مفارخه، وتركت له ليلى المجال خاليا فى لباقة. كان ماونت أوليف يعرف بالفعل أن تفريخ البيض بحرارة صناعية إنما هو فن اشتهرت به مصر منذ الأزمان القديمة البعيدة. وأسعده أن يتعرف على هذه العملية. تحدثا فى هذا المجرى القابع تحت الأرض، المليء بنسيج العنكبوت العتيق والقذارة التى لا تكنس، عن طرائق التفريخ ودرجات الحرارة. كانت عينا المرأة السوداوان بنظرتهما التى تحمل معنيين تنصب عليهما، تتفحص خصالهما وبنيانهما المتباينين، كذا صوتيهما، كانت عينا ناروز الجميلتان حيتين متألقتين بالسعادة. بدا أن اهتمام ضيفه المليء بالحيوية يثيره أيضا، فشرح له كل شيء بالتفصيل، حتى الطريقة الغريبة التى يتم بها التحكم فى حرارة البيضة إن قصر الترمومتر فى أدائه. كانت، فى بساطة، بوضع البيضة فى تجويف العين.

وقال ماونت أوليف، فيما بعد، وهما يسيران عائدين عبر حديقة الزهور: «إن ابنك ظريف للغاية». واحمرت ليلى خجلا، على غير المتوقع، وقد أحنت رأسها. وقالت فى نغمة عاطفية منخفضة: «إن ضميرنا يحملنا الكثير لأننا لم نخيط له شفته المشقوقة فى الوقت المناسب. وفيما بعد، كان أطفال القرية يغيظونه، ينادونه بالجمل. كان ذلك يضايقه. أنت تعرف أن الجمل مشقوق الشفة؟ كلا لا تعرف؟ إنه كذلك. كان هنالك الكثير الذى على ناروز أن يصارعه». وأحس الشاب السائر إلى جوارها بلوعة تعاطف مفاجئ معها، إلا أنه ظل معقود اللسان. واختفت، أيضا فى تلك الليلة.

أربكته مشاعره فى بداية الأمر إلى حد ما، إلا أنه لم يكن معتادا على تأمل دخيلته، كما أنه لم يكن يمتلك خبرة الحديث بما تقتضيه

شخصيته. لكنه، فى كلمة، أفلح فى أن يصرف كل ذلك عن ذهنه بنجاح، فقد كان شابا. (كرر كل هذا فى عقله، فيما بعد، مستدعيا فى وقار كل التفاصيل، بينما يحلق ذقنه أمام المرآة عتيقة الطراز، كأنما يتخيل نفسه، يستنفر، يسيطر على ميدان العواطف الجديد الذى أطلقته ليلى فى داخله. كان يلعن، أحيانا، هامسا: «تبا لها»، وكأنه يستعيد ذكرى كارثة مخيفة. كان كريها على نفسه أن يجبر على النمو. كان يتجاذبه الخوف والزهو المضحك الغريب).

كانا غالبا ما يمتطيان الجياد، ينطلقان فى الصحراء بناء على اقتراح من زوجها. وحدث هناك، ذات ليلة، والبدر فى تمامه، وهما راقدان معا فوق كثيب ترابى نعمته الرياح أشبه بندف الثلج أو السعوط، أن وجد نفسه أمام طور جديد من أطوار ليلى. كانا قد تناولا العشاء وهما يتحدثان فى الضوء الشبحى، عندما قالت فجأة: « انتظر، هنالك كسرة خبز على شفتك»، ومالت إلى الأمام لتأخذها برقة فوق لسانها. وأحس للحظة باللسان الصغير الدافئ لقطة مصرية فوق شفته السفلى، (هنا، عندما كان يصل إلى هذه النقطة فى عقله، كان يقول على الدوام: «تبا لها».) إذ هنا امتقع لونه وكاد الإغماء يصيبه. إلا أنها كانت هناك قريبة إلى حد بعيد، قريبة ولا تضير، تبتسم وقد تغضنت أنفها، حتى إنه لم يملك إلا أن يأخذها بين ذراعية، يتعثر إلى الأمام، تعثر رجل فى مرآة. والتقت الآن صورتاهما المهتزتان كانعكاسات فوق سطح بحيرة. وتبدد عقله إلى آلاف الأجزاء التى أخذت تحوم حولهما فى الصحراء. إن مشهد تحولهما إلى حبيبين كان بسيطا للغاية، تم فى يسر دون أى تدبير سابق، حتى إنه، للحظة، كان من العسير عليه أن يدرى بنفسه وما قد حدث. وعندما أمسك بزمام ذاته، اكتشف للحال كم كان صغيرا. وأخذ يتلعثم قائلا: «ولكن لماذا أنا يا ليلى؟». كأنما

كان أمامها أن تختار كل الاختيار فى هذا العالم الواسع، وأصابته الدهشة عندما اضطجعت إلى الخلف وهى تكرر كلماته من بعده فى احتقار موسيقى. لقد ضايقها حقا صبيانية سؤاله.

«لماذا أنت؟». ثم أخذت تتلو فى صوت عذب خفيض اقتباسا عن واحد من كتابها الأثيرين لديها، مما أثار دهشة ماونت أوليف الشديدة.

«الآن، هناك مصير محتمل لنا ـ إنه أسمى ما وضع على الإطلاق أمام أمة لتقبل به أو ترفضه. إننا لا نزال سلالة لم يصبها الانحطاط والفساد، سلالة اختلطت بأفضل دماء الشمال. ومع ذلك فإننا لسنا فاسقى الخلق، إننا لا نزال نملك الرسوخ لنحكم، والكياسة لنطيع. لقد عُلمنا ديانة هى الرحمة الخالصة، وعلينا الآن أن نتخلى عنها أو نتعلم كيف نحميها بتحقيقها. إننا أثرياء بميراث من الشرف خلفه الأقدمون لنا عبر آلاف السنين من التاريخ المجيد والذى يجب أن يكون ظمأنا اليومى أن نزيده بحرص رائع، حتى يكون الإنجليز ـ إن كان الحرص على الشرف إثما ـ هم أكثر النفوس الحية إساءة وخطأ».

واستمع ماونت أوليف إلى صوتها فى عجب وإشفاق وخجل. كان من الواضح أن ما رأته فيه إنما هو شىء أشبه بنموذج أصلى لأمة لاتزال موجودة الآن فى مخيلتها فقط. كانت تقبل وتدلل صورة زيتية لإنجلترا. وكان ذلك بالنسبة إليه أشد التجارب غرابة فى العالم. وأحس بالدموع فى عينيه عندما أكملت فذلكتها الرائعة، فى صوت يتناسب وغنائية ما تتلوه من نثر: «هل ستجعلون، يا شباب إنجلترا، بلدكم، مرة أخرى، عرشا ملكيا للملوك، جزيرة صغيرة للصولجان، مركز ضياء لكل العالم، مركزا للسلام، سيدة التعليم والفنون، الحامية الواقية للذكريات العظيمة وسط الرؤى السفيهة والزائلة، الخادم

والمخلص للمبادئ الممكنة فى زمانها، الصامدة أمام إغراء التجارب المستهترة والرغبات الخلقية الفاسقة، ووسط ما يصيب البلدان من غيرة وحسد كثير الصخب، صاحبة فضل بجسارتها الغريبة، المحبة لخير الناس؟». وبدأت الكلمات تهتز، تتذبذب، فى جمجمته.

وصرخ فى حدة: «كفى، كفى، إننا لم نعد كذلك يا ليلى». كان كتابا سخيفا يغذى الأحلام، ذلك الذى اكتشفه قبطى وترجمه. وأحس أن كل تلك الأحضان الساحرة قد نالها على أساس مزاعم باطلة ـ وكأن أفكارها، غير المعقولة قد قلصت الأمر كله وجعلت معاييره تتضاءل إلى شىء مبهم وغير حقيقى. لقد غدا الأمر وكأنه صفقة مع واحدة من نسوة الشوارع، هل يمكن أن تقع فى حب نصب تاريخى حجرى لمحارب صليبى ميت؟

سألتنى، «لماذا؟» قالتها فى ازدراء، ثم وهى تتنهد: «لأنك إنجليزى، على ما أعتقد». (كانت تثير دهشته كلما استعاد هذا المشهد، ولم يكن هنالك ما يعبر به عن دهشته غير لعنة يقولها: «تبا لها»).

وعندئذ، مثله فى ذلك مثل كل المحبين عديمى الخبرة منذ بداية العالم، لا يحس بالرضا حتى يترك الأمور تجرى فى أعنتها. يجب عليه أن يستكشفها ويقيمها فى عقله. لم تكن هنالك إجابة واحدة من أجوبتها عليه متوقعة لديه. هو إن ذكر زوجها غضبت فى الحال، قاطعته فى صراحة جافة، «إننى أحبه، ولن أقبل الحديث عنه باستخفاف. إنه رجل نبيل، ولن أقدم على فعل يسىء إليه».

«ولكن. . ولكن. .» تلعثم الشاب ماونت أوليف. وضحكت مما أصابه من ارتباك، ووضعت يدها حوله مرة أخرى وهى تقول: «دافيد، أيها الأحمق، إنه الذى طلب منى أن أتخذك حبيبا. فكر فى

ذلك. ألا تراه حكيما على طريقته؟ إنه يخشى أن يفقدنى كلية بسبب عارض سيئ. ألم تفتقد الحب أبدا؟ ألا تعرف خطورة الحب؟». كلا، إنه لا يعرف.

ماذا يمكن لإنجليزى أن يستخلص من مثل هذه الأنماط من التفكير، من ذلك الإخلاص والولاء المشوش القانع. ودهمه الخرس فلم ينطق. «فقط يجب ألا أقع فى الحب، ولن أقع». هل لهذا اختارت أن تحب إنجلترا ماونت أوليف من خلاله هو، أكثر من حبها لماونت أوليف ذاته؟ وعجز أن يجد لهذا جوابا. إن نضجه المحدود ألجم لسانه. فأغلق عينيه، وأحس كأنه يسقط إلى الوراء فى فراغ مظلم. ووجدت فيه ليلى، وقد خمنت ما أصابه، براءة محببة إليها: أعدت نفسها، على نحو ما، لتصنع منه رجلا، مستخدمة كل دفء أنثوى، كل صدق وإخلاص. كان بالنسبة إليها كلا من المحب لها ونوعا ما من الرجل ـ الطفل سيئ الحظ والذى يمكن أن توجه نموه. فقط كان عليها أن تكون حذرة من أى حفيظة محتملة يمكن أن يحس بها قبل هذه الوصاية. (وكان عليها أن تجعل هذا التحفظ واضحا لها فى عقلها). كان عليها أن تخفى خبرتها الخاصة وأن تكون بالنسبة إليه أقرب لرفيق يناظره عمره، تشاركه إنَّما يبدو غاية فى البراءة، بعيدا تماما عن الملامة والتأنيب، حتى يكاد شعوره بالجرم أن يهجع. وبدأ ينهل من خلالها عزما جديدا وثقة بالذات. قال لنفسه، وقد أخذ قرارا مماثلا: إن عليه أيضا أن يحترم تحفظاتها، وألا يقع فى الحب، إلا أن مثل ذاك الفعل كان مستحيلا بالنسبة للشباب. لم يعد فى وسعه التمييز بين حاجات مشاعره الخاصة المتنوعة، التمييز بين الحب العاطفى والحب الرومانسى الذى يقوم على النرجسية. خنقته رغبته. عجز عن التحكم فيها. أعاقه تعليمه الإنجليزى عند كل خطوة، حتى لم يكن فى وسعه أن يحس

السعادة دون الإحساس بالجرم. إلا أنه لم يكن يدرك كل ذلك بوضوح تام: توصل فقط، إلى تخمين وسط. اكتشف أنه أكثر من حبيب وأكثر من شريك فى الإثم. لم تكن ليلى فقط، أكثر منه خبرة. لقد وجد أنها قرأت أفضل منه، وبلغته، أكثر مما قرأ هو. إنها أعلم منه، مما سبب له كدرا بلا حدود. إلا أنها، كرفيق وحبيب نموذجى، لم تشعره البتة بذلك، هنالك العديد من المنابع المفتوحة أمام المرأة لتستمد منها الخبرة. كانت تتخذ من الرقة ملاذا يعبر عن نفسه مكايدة له وتحرشا به. كانت تلوم جهله وتستنفر فضوله. كان يطربها تأثير عواطفها عليه ـ تلك القبلات التى تحط عليه حارقة أشبه بلعاب فوق حديد ساخن. بدأ يرى مصر من خلال عينيها، مرة أخرى ـ إلا أنها ممتدة عبر أبعاد جديدة. أدرك الآن أن معرفته باللغة كانت لا شىء. كشفت له ليلى فراغ تلك المعرفة عندما يتحرش بها الفهم والإدراك.

غدا بحكم العادة كاتب مذكرات مدمنا متمكنا. وجد مفكرته اليومية منتفخة بمعلومات بزغت أثناء ركوبهما الخيل معا فترات طويلة، إلا أنها كانت على الدوام، معلومات عن البلدة. لم يجسر أن يخط القليل أو الكثير عن مشاعره لمجرد التسجيل، حتى اسم ليلى لم يذكره. كتب يومياته على النحو التالى:

«الأحد. بينما كنا نمتطى الجياد نجتاز قرية فقيرة تطن بالذباب أشار صاحبى إلى علامات أشبه بالحروف المسمارية مخدوشة على جدران المنازل، وسألنى إن كنت أستطيع قراءتها. قلت، كأى أحمق: لا. لكنها قد تكون باللغة الأمهرية؟ فضحك منى. وحقيقة الأمر أن بائعا مبجلا متجولا يمر من هنا عبر تجواله كل ستة شهور، يحمل حنة خاصة ـ من المدينة ـ وهى هنا تفضل تفضيلا عاليا لارتباطها بالمدينة

المقدسة. والناس هنا أفقر من أن تدفع، ولذا فإنه يتعامل بحساب طويل الأجل. وحتى لا ينسى أو ينسوا، يضع علامة فوق الجدار الطينى بكسرة من خزف».

«الاثنين. يقول «على» أن الشهب والنيازك إنما هى أحجار تلقيها الملائكة من السماء لتبعد الجن الشرير عندما يحاول استراق السمع على ما يجرى من محادثات فى الجنة ومعرفة أسرار المستقبل. كل العرب يرتعبون من الصحراء، حتى البدو. أمر يدعو للغرابة».

«إن الوقفة فى الأحاديث المتبادلة، فيما بيننا. والتى نسميها نحن بفترة «عبور الملائكة»، تحيا هنا بطريقة مختلفة. إذ بعد لحظة من الصمت يقول قائل، «وحدوه»(*) أو «الله واحد»، فيرد الجميع عليه فى حرارة شديدة، «لا إله إلا الله»(**) أو «لا إله إلا إله واحد»، قبل أن تستأنف المناقشة العادية. إن مثل تلك العادات البسيطة، أخاذة إلى أقصى الحدود.

«يستخدم مضيفى جملة غريبة عندما يتحدث عن التقاعد عن العمل. إنه يسميه: «إعداد روحه». «لم أذق من قبل طعم البن اليمنى وقد أضيفت إلى كل كوب منه ذرة من العنبر. إنه لذيذ». قدم لى محمد شباب، عندما التقيت به، لمسة من عطر الياسمين، من قارورة ذات سدادة زجاجية ـ كما نقدم نحن السجائر فى أوروبا.

«إنهم يحبون الطيور. لقد رأيت فى جبانة متداعية، قبورا بها مساق صغيرة منحوتة من الرخام. وقد أخبرنى صاحبى أن نسوة القرية القادمات للزيارة يوم الجمعة يملأنها بالماء.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) عربية بحروف لاتينية.

«أخبرنى «على» العامل الزنجى، الخصى كبير الحجم، أنهم يخشون، أكثر ما يخشون، العيون الزرقاء والشعر الأحمر باعتبارها نذر شر. ومن الغريب أن أثقل ما لملائكة الحساب، من سمات، كما جاء فى الكتب، عيون زرقاء».

دون الشاب ماونت أوليف يومياته هكذا، ممعنا التفكير فى الطرائق الغريبة للناس الذين جاء ليعيش بينهم، مدققا بما يليق بدارس لسلوكيات بعيدة كل البعد عن سلوكياته. ومع ذلك فقد وجد، فى ضرب من النشوة الروحية نوعا من الصلة الشاعرية بين الحقيقة والصورة الحالمة للشرق التى شكلها من قراءاته. كان الفرق هنا أقل من ذاك الذى بين الصورتين التوأمتين اللتين بدا أن ليلى ترعاهما ـ الصورة الشاعرية لإنجلترا ونموذجها الشاب الخجول، قليل الخبرة فى كثير من الأحيان، والذى اتخذته حبيبا. إلا أنه لم يكن أحمق تمام الحمق. كان يتعلم أكثر درسين أهمية فى الحياة: أن يمارس الحب وأن يتأمل.

ومع ذلك فقد كانت هنالك أحداث ومشاهد أخرى مست شغاف قلبه وأثارت اهتمامه بطريقة أخرى. امتطى الجميع الخيل ذات يوم عبر المزروعات لزيارة حليمة المربية القديمة والتى تعيش الآن متقاعدة شريفة النفس. كانت المربية الرئيسية للولدين ورفيقتهما أثناء طفولتهما. وقالت ليلى موضحة: «كانت مرضعتهما أيضا عندما جف لبنى».

وأطلق ناروز ضحكته المكتومة الخشنة. قال يشرح لماونت أوليف: «كانت مضاغتنا. هل تعرف معنى الكلمة؟». كان الخدم فى ذاك الوقت يقومون بتغذية الأطفال. كان عليهن أن

يمضغن الطعام أولاً ثم يضعنه فى الملاعق ليغذين الأطفال به».

كانت حليمة عبدة سوداء من السودان، أعتقت. وكانت هى أيضا «تعد روحها» الآن فى منزل صغير من الأغصان المضفورة وسط حقول قصب السكر، يحيط بها عدد لا حصر له من الأطفال والأحفاد.. كان من المستحيل تقدير عمرها. كانت سعيدة بما لا يقاس عند رؤيتها ابنىْ الحصنانى الشابين. وتأثر ماونت أوليف كثيرا بالطريقة التى ترجل بها الاثنان وهرعا إلى أحضانها. ولم تكن ليلى أقل منهما ودا. وأصرت الزنجية، عندما استعادت نفسها، أن تؤدى رقصة قصيرة على شرف زيارتهم لها: ومن الغريب أنها رقصة لا تخلو من الرشاقة. ووقف الجميع حولها فى ود يصفقون معا بينما استدارت هى أولا على أحد كعبيها ثم على الكعب الآخر. وما أن أنهت أغنيتها حتى تجددت الضحكات والأحضان. إن هذه الرقة العفوية الخالية من التصنع أسعدت ماونت أوليف. ونظرإلى معشوقته بعينين متألقتين، استطاعت هى أن تقرأ فيهما، ليس فقط حبه لها بل وأيضا نوعا جديدا من الاحترام. كان الآن يموت شوقا أن يكونا معا على انفراد، أن يحتضنها، إلا أنه استمع بصبر إلى حليمة وهى تخبره بفضائل الأسرة، وكيف أنهم مكنوها من زيارة المدينة المقدسة مرتين عرفانا بخدماتها. لقد ألقت بيدها فى رقة فوق كم ناروز، بينما تتكلم، تحملق فى وجهه، ما بين الحين والحين، فى مودة حيوان. وعندما أخرج من حقيبته الرياضية القديمة المتربة، والتى يحملها دوما، كل الهدايا التى أحضروها معهم لها، تلاعبت الابتسامات والمخاوف تباعا على وجهها العجوز، مثل خسوف القمر، وبكت.

إلا أنه كانت هنالك مشاهد أخرى ربما أقل قبولا واستساغة،

لكنها، مع ذلك، تمثل «العادات»(*) المصرية. شهد فى الصباح الباكر لأحد الأيام حادثة قصيرة وقعت فى باحة المنزل تحت نافذته. فقد وقف هنا مضطربا شاب أسمر أمام ناروز آخر مختلف عن ذاك الذى يعرفه، عابس الوجه شرسا وإن كانت شجاعته قد زايلته وهو ينظر فى هاتين العينين الزرقاوين. وسمع ماونت أوليف وهو راقد يقرأ: «سيدى، لم تكن تلك كذبة»، قيلت مرتين فى صوت خفيض واضح. فنهض وسار إلى النافذة حيث رأى ناروز يكرر، فى ذات الوقت، فى صوت خفيض عنيد كلمات كان يضغطها بين أسنانه فى صوت كالفحيح : «لقد كذبت ثانية». كان يأتى فعلا اقشعر منه بدنه لقسوته. رأى مضيفه يتناول سكينا من حزامه، ويقطع بها قطعة من شحمة أذن الصبى، فى بطء وعلى مهل، كما يقطع المرء عنقود عنب من شجرته بسكين الفواكه. وانهمرت دفقة من دم الخادم إلى أسفل، إلى عنقه، إلا أنه ظل واقفا ساكنا. وقال ناروز بنفس الفحيح الشيطانى: «اذهب الآن وأخبر أباك أننى سأقطع قطعة من لحمك أمام كل كذبة تكذبها حتى أبلغ الجزء الصادق منك، الجزء الذى لا يكذب». وفجأة اندفع الصبى مترنحا وهو يشهق واختفى. ومسح ناروز حد سكينه فى سرواله المنتفخ المتهدل، وسار يصعد السلم إلى داخل المنزل يصفر. ووقف ماونت أوليف مذهولا مما رأى!

ثم (إن هذا الضرب من الأحداث كان يثير حيرته ويشوش باله إلى أقصى الحدود) امتطى وناروز الجياد بعد ظهر ذات اليوم، وبلغا حدود الممتلكات، حيث تبدأ الصحراء. وهنا وقعا على شجرة ضخمة مقدسة، وقد علقت عليها، بكل الأشكال، نذور من لا أولاد لهم، والحزانى من القرويين. كان كل غصن يبدو وكأنه قد أينع براعم من

(*) بالفرنسية فى الأصل.

مئات خرق المالبس المتطايرة. وكان هنالك، فى الجوار، ضريح لعابد ما قديم، مات منذ زمن بعيد، يكاد يكون اسمه نسيا منسيا إلا من قلة من كبار السن القرويين. كان الضريح المتداعى، لا يزال على أى حال، مكانا للحج والشفاعة للمسلمين والمسيحيين على حد سواء. وترجل ناروز هنا فى هذا المكان، وهو يقول بأكثر الطرق طبيعية فى العالم: «إننى أصلى هنا دومًا ـ دعنا نصلّ معا، آه؟»، وارتبك ماونت أوليف، على نحو ما، إلا أنه ترجل دون أن ينطق كلمة، ووقفا معا، جنبا إلى جنب، عند الضريح الصغير المترب لقديس مفقود. وقد رفع ناروز عينيه إلى السماء وقد ارتسم على وجهه تعبير سماحة شيطانى. وقلد ماونت أوليف وقفته تماما، ضم يديه على صورة كوب واضعا إياهما على صدره. ثم أحنيا رأسيهما وأخذا يتلوان صلاة طويلة، أطلق بعدها ناروز نفسا طويلا بطيئا كالفحيح، كأنما ينفس عن نفسه، ثم مر بأصابعه على وجهه فى حركة من أعلى إلى أسفل، وكأنه يتشرب البركة التى انهمرت عليه من الصلاة. وقلده ماونت أوليف، وقد تأثر من كل ذلك تأثرا شديد.

وقال ناروز بشكل حاسم: «حسنا، لقد أدينا الآن صلاتنا»، ثم عادا يمتطيان جواديهما وانطلقا عبر الحقول التى رقدت فى سكون تحت ضوء الشمس، إلا حيث توجد الطلمبات الكابسة، تشفط المياه وتصدر أزيزا بينما تضخ مياه البركة فى قنوات الرى. والتقيا عند نهاية الزراعات الطويلة بصوت آخر أكثر ألفة، صوت حفيف عجلات ـ الماء الخشبية، الساقية(*) المصرية. وانتصبت أذنا ناروز تستمع بسماع

(*) عربية بحروف لاتينية.

الريح. قال: «استمع، استمع إلى السواقى (*). هل تعرف قصتها؟ ما يقوله القرويون على الأقل؟ لقد كان للإسكندر الأكبر أذنا حمار. ولم يكن يعرف هذا السر غير واحد هو حلاقه، الذى كان يونانيا. وإن كنت يونانيا فإنه من العسير أن تحتفظ بسر ما! ولذا ذهب الحلاق، حتى يريح نفسه، إلى الحقول وأخبر الساقية بما يعرفه. ومن ذاك الحين والسواقى تنوح فى حزن لبعضها البعض«للإسكندر أذنا حمار». أليس ذلك غريبا؟ يقول نسيم إنه توجد فى متحف الإسكندرية صورة لوجه الإسكندر يرتدى قرنى آمون. ربما كانت هذه الحكاية للإبقاء على هذه الذكرى. من ذا الذى يستطيع قول الحقيقة؟».

سارا معا لفترة. قال ماونت أوليف: «أكره فكرة فراقك الأسبوع المقبل. لقد قضينا معا وقتا رائعا». وظهر على وجه ناروز تعبير غريب، هو خليط من الشك وفرحة يشوبها التوجس، كما ظهر فيما بينهما نوع من النغمة الحيوانية، والتى أولها ماونت أوليف بأنها ربما تكون الشعور بالغيرة ـ الغيرة على والدته؟ وأخذ يراقب المنظر الجانبى لوجهه العابس فى دهشة، غير متيقن من تفسير هذه الأمور لنفسه. إن أمور ليلى، رغم كل شىء تخصها هى، أليس كذلك؟ أم أن أمور حبها قد صدمت مشاعر العائلة، عائلة الحصنانى التى ترتبط واجباتها وميولها بأوثق رباط؟ كان يود لو تحدث إلى الشقيقين، فى حرية: نسيم، على الأقل، كان سيدرك موقفه ويتعاطف معه، إلا أنه ما إن بدأ التفكير فى ناروز حتى أصابه الشك فى موقفه. إن المرء، بصورة ما، لا يستطيع الثقة تماما فى الشقيق الأصغر. إن الجو الذى استقبل به الزائر، عند مقدمه، بالامتنان والبهجة، قد تغير بطريقة ماكرة ـ رغم أنه لم

(*)عربية بحروف لاتينية.

يستطع تحديد إيماءة واضحة للبغضاء أو التحفظ. كلا، إن الأمر كان أكثر حذقا وأقل تحديدا. وفكر ماونت أوليف فجأة أنه ربما يكون هو الذى اصطنع هذه المشاعر اصطناعا كليا بسبب شعوره بالذنب؟ كان هكذا يتساءل وهو يراقب المنظر الجانبى لوجه ناروز الأسمر الحاد وقد ركب إلى جواره والفكرة تدور بعمق فى رأسه.

لم يستطع بالطبع، أن يحدد ما يشغل بال الأخ الأصغر. كان قد وقع فى الحقيقة دون معرفته على مشهد صغير، ذات ليلة منذ بضعة أسابيع مضت، بينما كان أهل الدار نياما. كان العاجز قد وضع فى رأسه أن يظل يقظا، فى بعض الأوقات، على غير المعتاد. أن يجلس فى الشرفة على كرسيه ذى العجلات، يقرأ إلى ساعة متأخرة كتابا إرشاديا فى إدارة الأملاك أو تشجير الغابات أو أشياء أخرى. وكان ناروز فى مثل تلك الأوقات يقبع فوق كنبة فى الحجرة المجاورة، ينتظر صابرا ككلب الإشارة التى يقوم بعدها بمساعدة والده للذهاب إلى فراشه. لم يكن هو نفسه يقرأ كتابا أو جريدة، وإن كان ذلك فى وسعه. لكنه كان يستمتع بالرقاد فى ضوء المصباح الأصفر ينظف أسنانه بعود ثقاب، يفكر مهموما، حتى يسمع صوت والده الحاد الخشن، ينادى اسمه.

لابد أنه أغفى فى تلك الليلة، إذ عندما استيقظ وجد، لدهشته، المكان كله غارقا فى الظلام. كان نور القمر المتلألئ يفيض على الحجرة والشرفة، إلا أن الأضواء كانت قد أطفئت بيد مجهولة. وأخذ يحملق حوله، إلا أن ما أثار عجبه، أن الشرفة كانت خالية. وللحظة اعتقد ناروز أنه يحلم، إذ إن أباه لم يذهب من قبل، على الإطلاق، إلى فراشه بمفرده، ومع ذلك، وقف يصارع إحساسه بالغموض ولاشك،

يفكر بأنه قد سمع صوت عجلات الكرسى المطاطية تتدحرج فوق الألواح الخشبية لحجرة نوم الرجل العاجز. كان ذلك خروجا على الروتين اليومى المتفق عليه. وعبر الشرفة سائرا على أطراف أصابعه، يقطع الطرقة فى عجب شديد. كان باب حجرة والده مفتوحا، فأخذ يدقق النظر داخلها. كان ضوء القمر يغمرها. وسمع تصادم العجلتين مع صوان الثياب، وخمش أصابع تتلمس مقبضا. ثم سمع درجا يفتح، وغمره إحساس بالهلع، فقد تذكر أن بهذا الدرج مسدس أبيه القديم. ووجد نفسه عاجزا عن الحركة أو الكلام عندما سمع شدة مؤخرة المسدس تنفتح، وصوت حفيف الأوراق الذى لا لبس فيه ـ صوت ترجمته للحال ذاكرته. ثم التكتكات المحددة للطلقات وهى تنزلق فى خزنة المسدس. أحس وكأنه قد وقع فى مصيدة واحد من تلك الأحلام التى يجرى المرء فيها بكل طاقته، ومع ذلك يكون عاجزا عن الحركة، بعيدا عن النقطة التى يسعى إليها. وعندما انزلقت مؤخرة المسدس إلى مكانها، وعاد السلاح مكتملا، جمع ناروز شتاته حتى يدخل الحجرة فى جسارة، لكنه وجد نفسه عاجزا عن الحركة. كان عموده الفقرى قد امتلأ بالدبابيس والإبر، وأحس بشعره منتصبا فوق قفاه. ولم يعد فى وسعه إلا أن يخطو خطوة وحيدة بطيئة إلى الأمام ليقف فى مدخل الحجرة وقد تغلبت عليه واحدة من النواهى المرعبة لطفولته المبكرة. وكز على أسنانه حتى يمنع اصطكاكها.

أضاء ضوء القمر المرآة مباشرة. واستطاع أن يرى والده فى الضوء المنعكس جالسا منتصبا فى كرسيه، يواجه صورته، وعلى وجهه تعبير لم ير ناروز له مثيلا من قبل. كان ينبئ عن الوحشية وخمود الإحساس، وقد بدا، فى ضوء المرآة الشبحى، عاريا مجردا من كل المشاعر الإنسانية، وقد سيطرت عليه تماما المشاعر التى كانت تقوضه

فى ثبات ورسوخ. وأخذ الابن الأصغر يراقبه وكأنه قد نوم تنويما مغناطيسيا. (لقد رأى فى طفولته المبكرة شيئا من هذا القبيل ـ لكنه لم يكن بهذا القدر من القسوة، ولا بهذا القدر من الوحشية، ومع ذلك فإنه شيء يماثله. حدث ذلك عندما كان والده يصف موت العامل الشرير محمود، عندما قال فى تجهم: «وهكذا جاءوا به وقيدوه إلى شجرة، وقطعوا منه أشياء حشوها فى فمه». كان كافيا له كطفل مجرد تكرار الكلمات أو استعادة التعبير الذى ارتسم على وجه أبيه حتى يحس ناروز بأنه موشك على الإغماء. وعادت تلك الحادثة الآن تتجسد فى خاطره برعب مضاعف، وهو يرى الرجل العاجز يواجه نفسه فى صورة يضيؤها القمر وهو يرفع مسدسه فى بطء يصوبه، لا إلى صدغه ولكن إلى المرآة، بينما يقول مكررا فى صوت أجش كالنقيق: «والآن أنتم تعرفون ماذا تفعلون إن كانت قد وقعت فى الحب»).

وساد الصمت الآن، إلا من شهقة جافة مرهقة وأحس ناروز بدموع التعاطف تملأ عينيه، إلا أن الذهول كان لا يزال يمسك به. كان عاجزا عن الحركة أو الكلام، بل وحتى عن أن يزفر أو يشهق بصوت مرتفع. وغاصت رأس أبيه إلى صدره. وسقطت يده التى تحمل المسدس، وسمع ناروز الدقة الواهنة لماسورته فوق الأرض. وهبط صمت مثير على الحجرة، على الطرقة والشرفة والحدائق وكل مكان.. (لابد أن ليلى كانت تتنهد الآن، فى مكان ما، أثناء نومها وهى تتقلب ضاغطة ذراعيها البيضاوين الملتهبين إلى موضع بارد بين الوسائد). وأزت بعوضة، وتلاشى الذهول.

وانسحب ناروز من الممر إلى الشرفة حيث وقف لحظة يغالب

دموعه قبل أن ينادى «أبى». كان لصوته العصبى صرير ـ كصوت تلميذ. وللحال أضيئت حجرة أبيه، وأغلق درج، وسمعت ضجة المطاط يتدحرج فوق الخشب. وانتظر لحظة طويلة حتى جاءت الهمهمة الغاضبة المتأففة المعتادة: «ناروز»، والتى أنبأته أن كل شىء على ما يرام. فمسح أنفه فى كمه وأسرع إلى حجرة النوم. كان أبوه جالسا يواجه الباب وكتاب على ركبتيه، وقال: «لم أستطع إيقاظك أيها البهيمة الغبية».

قال ناروز: «آسف»، وقد أحس بالبهجة فجأة. كان إحساسه بالراحة كبيرا حتى إنه ود فجأة أن يحقر نفسه. أن يُسب وأن يُشتم. قال فى حماس: «إننى بهيمة غبية، خنزير طائش، حبة ملح»، آملا أن يستثير أباه فيؤنبه بالمزيد مما يجرحه. كان يبتسم، يود أن يستحم، بطريقة حسية، فى غضب الرجل المريض.

قال العاجز فى إيجاز: «خذنى إلى الفراش». وانحنى الابن فى رقة تتسم بالشبق ليلملم ذلك الجسد الناحل من الكرسى ذى العجلات، وهو يحس راحة لا توصف أن أنفاسه لاتزال تتردد.

ولكن كيف كان لماونت أوليف، حقا، أن يعرف كل هذا؟ لقد أحس بنوع من التحفظ عند ناروز، إلا أن ذلك لم يكن موجودا عند نسيم الرقيق المبتسم. أما عن والد ناروز فقد كان، بكل صراحة، يثير قلقه برأسه المريض المعلق، وإشفاقه على ذاته الذى كان ينثال فى صوته. كما وقع، لسوء حظه، تصادم آخر، أثار قضية خلافية، على نحو ما. وقدم ماونت أوليف فى هذه المرة مضطرا، الفرصة بارتكابه واحدة من تلك السقطات التى يخشاها الدبلوماسيون، أكثر من أى طائفة أخرى، ويستهولونها، والتى تبقيهم ذكراها أرقين طوال الليل

سنوات. كانت زلة سخيفة بما فيه الكفاية، أمدت الرجل المريض بعذر للانفجار، الذى تعرف فيه ماونت أوليف على صفة مميزة له. حدث كل ذلك وهم جلوس إلى المائدة فى أثناء العشاء ذات مساء. وضحكت الجماعة، فى البداية، فى بساطة تامة. لم تكن هنالك مرارة فى إطار جمعهم الذى يمتد للتسلية بصورة عامة، فقط ابتسمت ليلى ابتسامة احتجاج: «ولكن يا عزيزى دافيد، إننا لسنا مسلمين، إننا مسيحيون مثلك». كان بالطبع، يعرف ذلك. كيف انزلقت منه الكلمات؟ كانت واحدة من تلك الملاحظات الفظة التى ما إن تُنطق حتى يتضح أنه لا يمكن الاعتذار عنها، بل إنه يستحيل استدراكها أيضا. وبدا نسيم، على أى حال، مبتهجا أكثر منه مستاءً. لم يسمح لنفسه، بما جبل عليه من كياسة، أن يضحك بصوت مرتفع دون أن يلمس معصم صديقه حتى لا يعتقد ماونت أوليف، عرضا، أن الضحك موجه إليه أكثر مما هو موجه إلى خطئه. ومع ذلك، فما إن تلاشى الضحك حتى أدرك، خجلا، أن جرحا قد فتح، مما آلت إليه الملامح الصوانية للرجل الجالس فى الكرسى ذى العجلات، والوحيد الذى لم يبتسم: «إننى لا أرى ما يدعو إلى الابتسام». وأخذ ينقر بأصابعه على ذراعى الكرسى المصقولين: «لا شىء البتة يدعو إلى الابتسام. إن تلك الزلة هى التعبير الدقيق عن وجهة النظر البريطانية. وجهة النظر التى كان علينا، دوما، نحن الأقباط، أن نقاومها، لم يكن هنالك أى خصام بيننا وبين المسلمين قبل مجيئهم ـ لقد علَّم البريطانيون المسلمين كراهية الأقباط والتحامل عليهم. نعم ياماونت أوليف. إنهم البريطانيون. أصغ لى واستفد من كلماتى».

«إننى آسف» قالها ماونت أوليف متلعثما، محاولا أن يكفر عن سقطته.

«لكننى لست بآسف»، قالها الرجل العاجز: «إنه من حسن الحظ أن نذكر بتلك الأمور صراحة لأننا نحن الأقباط، نحس بهذا هنا، فى أعمق أعماق قلوبنا. تحدث إلى مواطنيك، هناك، عن الأقباط، ولسوف تسمع ازدرائهم ومقتهم لنا. لقد طعموا المسلمين بذلك».

«أوه بالتأكيد يا سيدى!»، قال ماونت أوليف معتذرا فى كرب شديد.

«بالتأكيد»، قال الرجل المريض جازما، وهو يهز رأسه فوق رقبته الأشبه بعود سائب: «إننا نعرف الحقيقة». وأومأت ليلى، مضطرة، إيماءة صغيرة، تكاد تكون إشارة، كأنما توقف زوجها قبل أن يشرع فى إلقاء خطاب، إلا أنه لم يلتفت إليها. جلس مستندا إلى الوراء يمضغ قطعة خبز. قال بطريقة غامضة: «ولكن ماذا تعرف أنت أو يعرف أى إنجليزى عن الأقباط، أو ماذا يثير اهتمامكم عنهم؟ هرطقة دينية غامضة، لغة يحط من قدرها، وطقوس تثير البلبلة إلى حد اليأس بما اختلطت به من عربية ويونانية. لقد كان الأمر دوما هكذا. إذ عندما استولت الحملة الصليبية الأولى على أورشليم، منع صراحة أى قبطى من دخول المدينة ـ مدينتنا المقدسة. كان تمييز هؤلاء المسيحيين الغربيين، فيما بين المسلمين الذين هزموهم فى عسقلون وبين الأقباط ـ الفرع الوحيد من الكنيسة الذى اندمج اندماجا تاما فى الشرق، محدودا للغاية. إلا أن أسقفكم الطيب فى سالسبورى قال صراحة إنه يعتبر المسيحيين الشرقيين أسوأ من الكفار، وقام فرسانكم الصليبيون بعمل مذبحة هائلة لهم وهم سعداء فرحون». وأضاء وجهه تعبير مرير ترجم نفسه، للحظة، فى ابتسامة قاسية. وما إن عاد تعبيره المعتاد، الغاضب البائس، إلى الظهور، حتى أخذ يلعق شفتيه. ثم انغمس مرة

أخرى فى جدل حول الموضوع. وأردك ماونت أوليف، فجأة، أنه كان يضمر له ذلك منذ اليوم الأول لزيارته. كان يحتفظ، حقا، بكل ذلك النقاش، متراكما فى أعماقه، ينتظر اللحظة المناسبة لإطلاقه. وحملق ناروز فى أبيه بإعجاب المتعاطف معه ـ كانت تنطبع على ملامحه تعبيرات مختلفة طبقا لما يقال ـ الخفر والاعتزاز عند سماع كلمات، «مدينتنا المقدسة»، والغضب عند سماع كلمات، «أسوأ من الكفار». وجلست ليلى شاحبة مستغرقة، تنظر ناحية الشرفة. بدا نسيم، فقط، جادا مستريح النفس. كان يراقب أباه فى تعاطف وتوقير، لكن دون انفعال ظاهر. فقد كاد يكون مبتسما.

«هل تعرف بماذا يدعونا المسلمون؟». وارتجفت رأسه مرة أخرى، «سوف أخبرك. جنس فرعونى (*). نعم إننا جنس فرعونى ـ النسل الحقيقى للأقدمين. نخاع مصر الحقيقى. إننا ندعو أنفسنا جيبت ـ المصريين القدماء. ومع ذلك فنحن مسيحيون مثلكم. فقط السلالة الأقدم والأنقى. لقد كنا على الدوام عقول مصر ـ حتى فى زمن الخديو. إذ رغم الاضطهادات كان لنا مكانة مشرفة هنا، واحترمت، على الدوام، مسيحيتنا. هنا فى مصر، وليس هنالك فى أوروبا. نعم، إن المسلمين الذين كرهوا اليونانيين واليهود، عرفوا فى الأقباط الوارث الحقيقى للأرومة المصرية القديمة. وعندما جاء محمد على إلى مصر، وضع كل شئون البلد المالية فى أيدى القبط. وهكذا فعل إسماعيل الذى جاء من بعده. ولسوف تجد أن مصر، مرة بعد أخرى، فى كل المقاصد والأغراض، كانت محكومة بنا، بالقبط المزدرين. إن محمد على عندما جاء وجد قبطيا مسئولا عن كل شئون الدولة فجعله وزيره الأكبر».

(*) بالعربية فى حروف لاتينية

«إبراهيم الجوهرى»، قال ناروز فى زهو التلميذ المنتصر والذى فى وسعه أن يتلو درسه بطريقة صحيحة.

«بالضبط»، ردد الأب بطريقة لا تقل شعورا بالانتصار، «كان الوحيد المسموح له بتدخين غليونه فى حضرة أول خديو. وكان قبطيا».

كان ماونت أوليف يلعن الزلة التى ألقت به إلى هذا التعنيف. لكنه رغم ذلك، كان يستمع فى ذات الوقت، بانتباه شديد. كان واضحا أن هنالك أحساسا بصور من الضيم: «وعندما مات الجوهرى، إلى من استدار محمد على إلى غالى دوس»، قال ناروز مبتهجا، مرة أخرى:

«بالضبط. كان له كوزير للمالية سلطات على إيراد الدولة، وفرض الضرائب. قبطى ـ قبطى آخر. ومنح ابنه باسيليوس رتبة البكوية، وعضوية المجلس الخاص للخديو. لقد حكم هؤلاء الرجال مصر بشرف. وكان هناك الكثيرون منهم الذين أعطوا مناصب كبيرة مثل «سيداروس تكلا فى إسنا»، قال ناروز: «شحاتة حسب الله فى أسيوط، جرجس يعقوب. فى بنى سويف». وبرقت عيناه وهو يتحدث، وأشرق مثل حية فى دفء رضاء والده. «نعم»، صاح الرجل العاجز، ضاربا مسندى مقعده بيديه. «نعم، وحتى فى ظل حكم سعيد وإسماعيل لعب القبط دورهم. كان المدعى العام فى كل إقليم قبطيا. هل تعرف ماذا يعنى ذلك؟ الاطمئنان بمثل تلك الثقة فى الأقلية المسيحية. إن المسلمين يعرفوننا، يعرفون أننا مصريون أولا ومسيحيون فيما بعد. المسيحيون المصريون. هل فكرتم أنتم البريطانيين فى معنى هاتين الكلمتين؟ إنهم وحدهم المسيحيون الشرقيون الذين اندمجوا فى دولة مسلمة. إن الألمان يحلمون باكتشاف مفتاح مصر هذا. أليس

كذلك؟ مسيحيون، فى مواقع الثقة، فى كل مكان. فى مواقع مؤثرة كمديرين وحكام وهكذا. لقد تقلد أحد الأقباط، فى ظل حكم إسماعيل، وزارة الحربية».

«عياد بك حنا»، قال ناروز مستمتعا:

«نعم، حتى فى ظل عرابى كان هنالك قبطى وزيرا للعدل، ورئيس مراسيم القصر. كان كلاهما قبطيا. وغيرهم وغيرهم كثيرون».

وقال ماونت أوليف فى هدوء: «وكيف تغير كل ذلك؟». ورفع المريض نفسه، داخل بطاطينه، إلى أعلى، كأنما ترفعه رافعة، وأشار بأصبع منتفض إلى ضيفه وقال، «غيره البريطانيون لكراهيتهم للأقباط. لقد أقام «جورست» صداقة دبلوماسية مع الخديو عباس، وكانت نتيجةمشروعاته، عدم وجود قبطى واحد فى حاشية البلاط، أو حتى فى خدمة إدارتها. إنك لو تحدثت إلى الرجال الذين أحاطوا بذلك الرجل البهيمى الفاسد، والذى كان البريطانيون يدعمونه، فلابد أنك واصل إلى اعتقاد بأن العدو كان هو الجزء المسيحى من الأمة. ودعنى، بهذا الخصوص أقرأ لك شيئا ما». وهنا انزلق ناروز فى سرعة، كخادم كنيسة مدرب، إلى الحجرة المجاورة، وعاد يحمل كتابا به علامة. ووضعه مفتوحا فى حجر أبيه، وعاد كالبرق إلى مقعده. وأخذ الرجل المريض يقرأ فى صوت أجش بعد أن أجلى صوته: «عندما أمسك البريطانيون بمقاليد الأمور فى مصر كان الأقباط يحتلون عددا من أعلى المناصب فى الدولة. ثم اختفى، خلال ربع قرن كل الأقباط رؤساء الإدارات، على وجه التقريب. كانوا فيما مضى ممثلين تمثيلا تاما فى منصات القضاء، إلا أن عددهم تناقص بالتدريج حتى بلغ الصفر ـ إن عملية إبعادهم، وإغلاق باب التعيين فى وظائف جديدة فى وجوههم

سارت حتى وصل وضعهم إلى حالة تثبط العزائم وتقف على حافة اليأس». وصك الكتاب يغلقه. ثم استمر، «إن الأقباط، الآن، فى ظل الحكم البريطانى، ممنوعون من تقلد موقع الحاكم أو حتى المدير ـ الحاكم الإدارى لإقليم ما. وحتى هؤلاء الذين يعملون فى الحكومة يجبرون على العمل يوم الأحد، حيث يوم الجمعة هو يوم الصلاة إكراما للمسلمين. وليس هناك من نظام خاص بعبادات الأقباط. كما أنهم غير ممثلين تمثيلا صحيحا فى المجالس واللجان الحكومية. إنهم يدفعون تكاليف باهظة للتعليم، ولا ضير إن ذهبت هذه النقود إلى التعليم المسيحى، إنه كله تعليم إسلامى. لكننى لن أثقل عليك بباقى صور الضيم والظلم. فقط يجب أن تفهم لماذا نحس أن البريطانيين يكرهوننا ويودن إبادتنا».

«لا أعتقد أن الأمر كذلك». قال ماونت أوليف فى وهن وقد تقطعت أنفاسه، على نحو ما، بسبب ما فى النقد من صراحة. إلا أنه كان غير قادر على التعامل معه والتعليق عليه. كل هذه الأمور كانت جديدة عليه تمام الجدة. فدراسته لم تكن تشتمل إلا على «لان» المتعارف عليه باعتباره الإنجيل الحقيقى عن مصر. وأومأ الرجل المريض مرة أخرى، وكأن كل إيماءة تصدر عنه تدفع بفكرته الأكثر عمقا نحو مستقرها. وأخذ ناروز ـ الذى كان وجهه كمرآة تعكس كل مشاعر المناقشة ـ يومئ أيضا. ثم أشار الأب نحو ابنه الأكبر وقال: «نسيم، انظر إليه، إنه قبطى حقيقى، لامع وكتوم. أى درة كان يمكن أن يكون فى خدمة الدبلوماسية المصرية، آه؟ إنك كدبلوماسى يجب أن تحكم أفضل منى ولكن كلا. لن يكون كذلك، سوف يكون رجل أعمال، فالأقباط يعرفون ألا جدوى، ألا جدوى». ودق مسند كرسيه ذى العجلات فى عنف مرة أخرى، وتصاعد الزبد إلى فمه.

تلك كانت الفرصة التى ينتظرها نسيم. تناول الآن قميص أبيه وقبله فى استكانة وخضوع، قائلا، فى ذات الوقت، وهو يبتسم: «لكن دافيد كان سيتعلم كل هذا، بأى حال من الأحوال. يكفى هذا الآن». ثم استدار يبتسم لوالدته، يوافقها على إشارتها، التى جاءت كالغوث، إلى الخدم لإنهاء العشاء.

وتناولوا قهوتهم فى الشرفة، فى صمت يتسم بالحرج. جلس الرجل العاجز، على انفراد مكتئبا، يحملق فى الظلام. وتهاوت كل المحاولات القليلة لفتح مناقشة عامة. وإحقاقا للحق فإن الرجل المريض ذاته كان يشعر بالخجل لفورته تلك. لقد أقسم بينه وبين نفسه ألا يفتح هذا الموضوع فى حضرة ضيف. كان مدركا أنه قد خالف قواعد الضيافة بفعلته تلك. لكنه يرى الآن، أيضا، ألا سبيل إلى استدراك المناقشة التى تبادلوا فيها المشاعر الطيبة واستمتعوا بها ثم تعثرت تعثرا مؤقتا.

وهنا أنقذت لباقة نسيم الموقف، مرة أخرى. فقد اصطحب ليلى وماونت أوليف إلى حديقة الزهور، حيث سار ثلاثتهم، للحظة، فى صمت، يضمخ عقولهم عطر الزهور الكثيف من الليل. وعندما غدوا بعيدا عن مرمى آذان الشرفة قال الابن الأكبر مهونا: «دافيد، آمل ألا تكون قد تأثرت من انفجار والدى على العشاء. إنه يحس بعمق بهذه المسائل كلها.»

«إننى أعرف ذلك».

وقالت ليلى فى حرص وهى تحس القلق، تود لو انصرفت عن الموضوع برمته، مرة أخرى، إلى الجو الطبيعى للصداقة: «وأنت تعرف، حقيقة، أنه ليس بمخطئ من الناحية الواقعية. إنه، على أى

حال، يعبر عما بنفسه، إننا فى وضع لا نحسد عليه. وهذا كله راجع إليكم، إلى البريطانيين. إننا نعيش أقرب ما يكون إلى جمعية سرية ـ لقد كنا حقا، ذات يوم، أكثر الناس تألقا، مفتاح المجتمع فى بلدنا».

«إننى لا أستطيع فهم ذلك»، قال ماونت أوليف:

«إن الأمر ليس بهذا القدر من الصعوبة»، قال نسيم مهونا. «إن مفتاح الموقف هو الكنيسة المجاهدة. أليس غريبا، أنه بالنسبة لنا لم تكن هنالك حرب حقيقية بين الصليب والهلال؟ لقد كان ذلك كله من صنع الغرب. وهكذا أيضا كانت، فى الحقيقة، فكرة المسلم الكافر القاسى. إن المسلمين لم يضطهدونا أبدا على أساس دينى، بل على نقيض ذلك يبين القرآن ذاته أن المسيح موقر كنبى حقيقى، بشير حقا بمحمد. هل تتذكر ذلك اليوم الذى اقتبست لك ليلى فيه من إحدى الصور، صورة صغيرة للمسيح الطفل وهو ينفخ أنفاسه فى النماذج الطينية للطيور التى كان يصنعها والأطفال الآخرون؟»

«أتذكر».

«لقد ظللت صليبيا فى أعماقك». قالها نسيم فى رقة وتهكم، وإن كانت الابتسامة لم تفارق شفتيه. واستدار ليمشى الهوينى بعيدا وسط الزهور، وقد تركهما معا على انفراد. وللحال بحثت ليلى عن قبضة يده المألوفة لها. قالت فى رقة وفى صوت مختلف: «لا تبالى، سوف نجد طريقنا، يوما ما، إلى المركز، بمعاونتك أو بدونها. إن لنا ذاكرتنا وذكرياتنا الممتدة البعيدة!»

جلسا، وقد صارا بمفرديهما، جنبا إلى جنب فوق كتلة ساقطة رخامية، وأخذا يتحدثان الآن عن أشياء أخرى، وقد نسيا تلك

الموضوعات الكبيرة. «الليلة حالكة السواد. إننى لا أستطيع أن أرى غير نجم واحد. إن هذا يعنى ضبابا خفيفا. هل تعلم أنه جاء فى الإسلام أن لكل رجل نجمه الذى يظهر ساعة يولد ويختفى ساعة يموت؟ ربما كان ذلك نجمك يا دافيد ماونت أوليف».

«أو نجمك أنت؟».

«إنه أشد لمعانا من أن يكون نجمى. النجوم، كما تعرف، تشحب عندما يتقدم المرء فى العمر. يجب أن يكون نجمى شاحبا للغاية وقد تخطى الآن أواسط العمر. وعندما تغادرنا سوف يغدو أكثر شحوبًا. وتعانقا.

تحدثا فى خططهما عن اللقاء كثيرا، ما أمكن ذلك، وعن نيته فى العودة كلما حصل على إجازة. «إلا أنك لن تبقى طويلا فى مصر»، قالت وفى عينيها نظرتها المستسلمة لما يقضى به القدر، وابتسمت: «سوف تعين قريبا فى منصب ما؟ ليت شعرى، أين سيكون؟ سوف تنسانا ـ ولكن كلا، فالإنجليز دوما أوفياء لقدامى أصدقائهم. أليسوا كذلك؟ قبلنى».

«دعينا لا نفكر فى ذلك الآن»، قال ماونت أوليف، وهو يحس، حقا بأنه قد جرد من كل قدرة على مواجهة هذا الفراق رابط الجأش. «دعينا نتكلم فى أشياء أخرى. انظرى، لقد ذهبت إلى الاسكندرية أبحث هنا وهناك، حتى عثرت على شيء مناسب أعطيه لعلى والخدم الآخرين».

«وماذا كان هذا الشيء؟».

كان يوجد فى حقيبته، فى الطابق الأعلى، بعض من مياه مكة «من

بئر زمزم المقدس» محفوظة فى زجاجات زرقاء. واقترح أن يقدمها بقشيشا لهم. وتساءل فى قلق: «هل تعتقدين أنهم سيقبلونها بطيب خاطر وهى المقدمة إليهم من كافر؟». وابتهجت ليلى، «إنها فكرة جيدة يا دافيد. إنها فكرة نموذجية تتسم باللباقة. أوه. ماذا سيحل بنا عندما تغادرنا؟». وأحس أنه سعيد بنفسه سعادة فائقة. هل فى إمكانه أن يتخيل زمنا يجىء لا يتعانقان فيه كعناقهما الآن، أو يجلسان يدا فى يد فى الظلام. يحس كل منهما بنبض الآخر يحدد مرور الزمن فى صمت وهدوء ـ هل بلغت الخبرات الماضية منتهاها؟ وصرف عقله عن الفكرة يقاوم الحقيقة الصارخة فى وهن لكنها قالت: «لا تخش شيئا. لقد دبرت كيفية استمرار علاقتنا لسنوات مقبلة ـ ربما يكون من الأفضل لنا أن نكف عن معاشرة بعضنا البعض، وأن نبدأ. . نبدأ ماذا؟ إننى لا أعرف ـ نفكر فى بعضنا البعض، على نحو ما، من وضع محايد، كمحبين، أقصد، أجبرا على الفراق، كمحبين ما كان بهما أن يتحابا البتة. سأكتب لك كثيرا، ولسوف تبدأ بيننا علاقة من نوع جديد».

«كُفى، لو سمحت» قالها وهو يحس اليأس يتسلل إلى كل مشاعره.

«لماذا؟»، قالت وهى تبتسم فى رقة وتقبل صدغيه. «لسوف نرى، فأنا أكثر منك خبرة».

وتعرف تحت رقتها على شىء ما قوى مقاوم ودائم، إنها الخبرة التى يفتقدها. كانت كائنا باهرا. والباهر وحده هو الذى يظل مضيئا للقلب وقت الشدة. لكنها لم تذهب، رغم وعودها إلى حجرته فى الليلة السابقة على رحيله. كانت امرأة ناضجة تدرك لوعة الفراق وتود أن تزيدها حدة، وأن تجعلها أكثر دواما. وملأتها عيناه المتعبتان

وجـو الإرهاق الذى اكتنف الإفطار ومعاناته الواضحة بسعادة غامرة .

اصطحبته إلى المعدية ساعة غادر، لكن وجود ناروز ونسيم حال دون حديث خاص، وأحست، مرة أخرى، بالفرحة لهذه الحقيقة . لم يكن قـد بقى، حقـا، ما يقـوله أى منهـما للآخـر . وودت، دون وعى منهـا، لو تتحـاشى الترديد الممل الذى يجرى بين العاشقين، والذى يفـقد هذا العـشق، فى النهاية، طلاوته . كانت تود أن تبقى صـورتـها عنده فى البـؤرة تماما، لا تـصـدأ، لأنهـا وحـدها كـانت تـدرك أن هذا الفراق هو الفراق المثالى، كـما يـمكن أن يقـال، فـراق نهـائى إلى أبعـد الحدود، فـراق يمكن أن تفقـد فيه رجلها ماونت أوليف تماما، إن ظلت وسيلة اتصـالهما هى الكلمات والورق فقط . إنك لن تستطيع أن تكتب أكثر من دستة خطابات حـتى تجد نفسك وقـد تعثرت بحثـا عن مـادة جديدة طازجة . إن أغنى الخبرات الإنسانية، تكون أكثرها محـدودية، أيضا، عند التعبير عنها، الكلمات تقتل الحب كما تقتل كل شىء آخر . كـانـت قد خططت، بالفعل، للتحـول عن عـلاقـتـهـمـا، القـائمـة على الجماع والتواصل، إلى مستوى آخر أكثر ثراء، لكن ماونت أوليف كان لا يزال أكثر حداثة وشبابا حتى يستفيـد مما يمكن أن تقدمه إليـه ـ كنوز الخيال . كان عليها أن تمنحه الوقت لينمو . كانت تدرك بوضوح تام أنها قد أحبته حبا غاليا، وأنها قـادرة، فى ذات الوقت، على توطين نفسـها ألا تراه البتة مرة أخرى . كـان حبهـا قـد سيطر، بالفـعل، على مسـألة اختفائه ـ موته! كانت الفكـرة محـددة بوضوح فى عقلها، مما أمدها بميزة هائلة عليه ـ كان هو لا يزال يتمرغ فى البـحر المتقلـب لعواطفه المتداخله غير المنطقية، لرغبته، لاحترامه لذاته، وكل المتاعب الطفـولية وحب عمر التسنين، بينما كانت تستمد هى، بالفعل، قوة وثقة فى النفس من ذات حـالتهـا الميئوس منها . لقـد أمدتهـا كبرياء روحهـا وذكـاؤها بقـوة

جديدة لاشك فيها. ورغم إحساسها بالأسف، بجزء من عقلها وهى تراه يذهب سريعا هكذا، إلا أنها كانت فرحة لما كان يعانيه. ومع أنها أعدت نفسها ألا تراه يغادر، إلا أنها أدركت امتلاكها له بالفعل، وأنها بطريقة يناقض ظاهرها باطنها ستودعه فى يسر.

وودعوه عند المعدية. شارك أربعتهم فى عناق وداعى طويل. كان الصباح لطيفا يكتنفه ضباب منخفض يحدد حدود البحيرة الكبيرة. وكان نسيم قد أمر بأن تكون سيارته فى الانتظار تحت أبعد شجرة نخيل، فبدت كنقطة سوداء مرتعشة. ونظر ماونت أوليف حوله نظرة نهمة ـ كأنما يود أن يزود ذاكرته وإلى الأبد بتفاصيل هذه الأرض، هذه الوجوه الثلاثة المبتسمة والتى تتمنى له بلغته ولغتها حظا طيبا. وصاح: «سوف أعود!»، إلا أنها استشعرت، فى نبرة صوته، كل قلقه وألمه. ورفع ناروز يدا ملتوية، وابتسم ابتسامته المعوجة. ووضع نسيم ذراعه على كتف ليلى وهو يلوح بيده، واعيا تماما لكل ما تحس به، رغم عجزه عن العثور على كلمات تعبر عن مشاعر مبهمة للغاية وحقيقية للغاية أيضا.

وأقلع القارب بعيدا. وانتهى الأمر. انتهى.

* * *

(٢)

جاء تعيين ماونت فى أواخر الخريف. دهش، على نحو ما، إذ وجد نفسه معتمدا فى بعثة براغ، فى حين كان قد أفهم أنه قد يجد لنفسه موطئ قدم فى مكان ما من العمل القنصلى فى الشرق الأدنى، بعد هذه الممارسة النشطة الطويلة للغة العربية، حيث يمكن أن تثبت معرفته الخاصة، أنها ذات نفع. وقبل بمصيره فى سماحة، رغم ما أصابه فى البداية من جزع. ولحق باللعبة المحكمة، للكراسى الموسيقية، التى يلعبها «المكتب الأجنبى» بجدارة، لا تضع الأشخاص فى حسبانها. وكان عزاؤه الوحيد، الهزيل، أنه وجد أن كل الذين يعملون فى بعثته الأولى لا يعرفون مثله غير القليل عن لغة وسياسات هذا البلد. كان «مكتب الاستقبال» الذى يعمل به يتكون من خبيرين يابانيين وإخصائيين ثلاثة فى شئون أمريكا اللاتينية. كان الجميع عابسى الوجوه، يجمع الاكتئاب وشطحات اللغة التشيكية فيما بينهم، يحملقون من نوافذ مكتبهم إلى المساحات التى تضيئها الثلوج، والزاخرة بالهواجس السلافية الحادة. لقد غدا الآن عاملا فى الخدمة.

كان قد تمكن من رؤية ليلى، مرات قليلة، فى لقاءات بالإسكندرية. كانت لقاءات قلقة، غير متناسقة، أكثر من أن تكون مثيرة بسبب السرية المفروضة التى أحاطت بهما. كان مقضى عليه أن يحس إحساس كلب صغير ـ لكن ما انتابه، فى الحقيقة، من إحساس

كان أقرب إلى أنه وغد لئيم. لقد عاد إلى أراضى الحصنانى، مرة واحدة فقط لقضاء إجازة أيام ثلاثة ـ وهنا، على أى حال، أمسك بتلابيبه سحر المكان الخبيث القديم، ولكنى إلى حين ـ أشبه بلهيب الغسق البازغ عن نيران ربيع سابقة. بدت ليلى، على نحو ما، ذاوية مضمحلة، تتراجع على منحنى عالم له إيقاعه ـ تفصل نفسها عن ذكرياته عنها. كان صدر صورة حياته الجديدة مزدحما بالتفاهات الباهظة الزاهية ـ لحياته المهنية ـ الولائم والأعياد السنوية وأشكال من السلوك جديدة عليه. كان تركيزه يسير إلى التشتت والتبدد.

وبدا الأمر، بالنسبة لليلى ـ على أى حال ـ مختلفا. كانت عاكفة بالفعل على تجديد نفسها لتتواءم والدور الجديد الذى خططت له، حتى إنها كانت تكرره لنفسها، داخل عقلها كل يوم. وأدركت ـ لدهشتها ـ أنها كانت تنتظر فى نفاد صبر حقيقى، أن يصبح الفراق نهائيا، حتى تنقطع الوشائج القديمة. كانت مثلها مثل ممثل غير واثق فى دور جديد، ينتظر فى قلق محموم إشارة بدء العرض. لقد تاقت نفسها إلى أشد ما كان يخيفها، كلمة، «وداعا».

وأحست مع أول خطاب حزين له من براغ بإحساس جديد من الزهو ينهض فى أعماقها إنها ستغدو، الآن، فى النهاية، حرة فى امتلاك ماونت أوليف كما تشاء فى حرص شديد. كان الفرق بين عمريهما يتسع اتساع الهوات بين كتل الجليد الطافى ـ يحمل جسد كل منهما بعيدا عن جسد الآخر، بعيدا عن متناوله. لم تدم أى عهود سجلها الجسد بلغته المحببة الواعدة، تلك كلها كانت صادرة بالفعل عن جمال لم يعد فى ريعانه الأول. لكنها قدرت أن قواها الداخلية من القوة بحيث تحتفظ به لنفسها فى إطار إحساس خاص للغاية، هو أثمن

مـافى نضج الإنسـان، إن هى اسـتطاعت أن تكتسب شـجـاعة إحـلال العقل مـحل القلب. ولـم تكـن مـخطئة فى إدراكـهـا أنهـمـا لو كـانا على حريتهـمـا، فى إطلاق العنان لعواطفهـمـا إراديا، لما دامت علاقتهـمـا أكثر من اثنى عشر شهراً. إلا أن المسافة والحاجة إلى نقل ما بينهما إلى أرض جـديدة قد أنعش صورة كل منهـمـا عند الآخـر. لـم تذب صـورة ليلى بالنسبة إليه، لكن أصابهـا تحول جديد، مثير، عندمـا أخـذت شكلهـا على الورق. وحـافظت هى على خطاها مـعـه وهو ينمـو عـبـر تلك الخطابات الطويلة، جيدة الكتابة، الملتهبة والتى لـم تفصح إلا عن جوع حـاد، مـثل أى شىء يستدعـيه الجسـد حتى يشفـيه: الجوع للصـداقة والخوف من النسيان.

وانسابت هذه المراسلات من براغ، أوسلو وبرن جيئة وذهابا، يزداد حجمهـا أو يتضاءل، إلا أنها تظل على وفائها للعقـل توجهه ـ عقل ليلى النشط المكرس لذلك. ووجـد مـاونـت أوليف، وهـو ينمـو، فى هذه الخطابات الطويلة فى إنجليزية دافئة أو فرنسية مـوجزة جزلة، عـونا له يستثـيـر عـملية إنمائه. . كـانت تزرع الأفكار إلى جواره فى تربة حياته المهنية اللينة، والتى كانت تحتاج إلى القليل إضافة إلى ما فيها من سـحـر وتحفظ ـ تماما كما يزرع البستانى عصيا للبازلاء المتسلقة. إن مات حب نما آخر فى مكانه. لقد غـدت ليلى هى ناصحه الوحيد الأمين وموضع ثقـتـه، والمصـدر الوحـيـد لتشـجـيـعـه. وعلم نفـسـه كـيف يجـيد كـتـابة الإنجليزية والفرنسية حتى يستـجيب لما تطلب. علـم نفسه تذوق أشيـاء كانت عادة خارج مـدار اهتمامه ـ الرسم والموسيقى. كـان يتزود بالمعرفة ليزودها بها.

«تقـول إنك سـتكون فى زغـرب فى الشـهـر القـادم. أرجـو أن تزورها

وتصفها لى . . . » هكذا كانت تكتب إليه، أو، «كم أنت محظوظ بمرورك عبر امستردام! هنالك عرض يتعلق بالماضى، وقد أبدت الصحافة الفرنسية عليه ملاحظات هائلة بالغة الأهمية. أرجوك زيارته ووصف انطباعاتك عنه بأمانة، حتى وإن كانت بغير الرضى. أنا نفسى لم أر البتة شيئا أصيلا». تلك كانت ليلى فى الحب. الجد فى قالب الهزل، ومداعبة العقل، والتى انعكست الآن فيها الأدوار، فقد كانت هى محرومة من خصب أوروبا وثرائها، تتغذى بنهم على خطاباته الطويلة وحزم الكتب. وأرهق الشاب كل عصب من أعصابه حتى يستجيب لهذه المطالب. ووجد فجأة العوالم التى كانت مغلقة حتى الآن، كالرسم والعمارة والموسيقى والكتابة، قد انفتحت أمامه من كل صوب وحدب. وبذا فإنها منحته معرفة بالعالم، تكاد تكون مجانية، ما كان فى وسعه البتة أن يحيط بها. وحيثما تساقط فى بطء ما اعتمد عليه فى شبابه القديم، نما ماونت أوليف الجديد، بالمعنى الدقيق للكلمة، وقد وقفت، الآن، امرأة خلف قلبه.

كان الحب القديم يتحول فى بطء إلى إعجاب، فى الوقت الذى بدأ يتحول فيه اشتياقه الجسدى إليها (والذى كان مريرا فى البداية) إلى رقة مجردة ملتهبة تتغذى بغيابها بعد أن كانت تموت من هذا الغياب. وأصبحت هى بعد سنوات قليلة قادرة على الاعتراف، «إننى أحس بصورة ما، أننى اليوم أقرب إليك على الورق أكثر مما كنته قبل أن نفترق. لماذا هذا؟». كانت تعرف الإجابة تماما، إلا أنها أضافت للحال، أمانة منها واستقامة، «ربما كان هذا التفكير سقيما إلى حد ما، ويمكن أن يبدو لمن خارجنا مثيرا للشفقة والضحك إلى حد ما ـ من ذا الذى يستطيع تحديد ذلك؟ وتلك الخطابات الطويلة يا دافيد، هل هى الحلو ـ المر لمضاجعة سيڤيرينا لابن إختها فابريزيو؟ إننى كثيرا ما أتساءل

إن كانا عاشقين. إن ما بينهما من ألفة حار للغاية ووثيق. إن ستندال لم يقل بهذا بالضبط أبدا. كم وددت لو عرفت الإيطالية. هل تحولت معشوقتك إلى خالة وقد تقدم بها العمر؟ لا تجب، وإن كنت تعرف الحقيقة. ومع ذلك فإنه لمن حسن طالعنا أن كلينا وحيد، على نحو ما، مع مساحات فى القلب بيضاء خالية - كالخرائط الأولى لأفريقيا؟ - ولايزال كل منا يحتاج إلى الآخر. أعنى أنت كطفل وحيد وأمك تفكر فيك فقط، وأنا بالطبع. إن لدى الكثير مما يثير اهتمامى، لكننى أعيش فى قفص ضيق للغاية. إن وصفك لراقصة الباليه الأولى ولشئونك الغرامية كان ممتعا ومؤثرا. شكرا لك أنك أخبرتنى. خد بالك أيها الصديق العزيز، ولا تصب نفسك بما يضيرك».

كان الآن قادرا على أن يثق فيها دون تحفظ، مما يمكن اعتباره مقياسا للتفاهم الذى نما بينهما. كان يتناول معها تفصيلات حياته الشخصية وما يشغل خاطره: غرامياته مع جريشكا والتى كادت تؤدى إلى زواج سابق لأوانه، عاطفته غير الموفقة لعشيقة السفير والتى عرضته للمبارزة وربما للخزى أيضا. كانت إن أحست لوعة أو ألما، كتمته ودارته، تكتب إليه تنصحه، تواسيه بتجرد واضح دافئ. كانا صريحين معا، وكانت ردودها التى تكتبها بطريقتها المتعمدة، والتى تصيبه بصدمة حقيقية، تنصب على ما تعانيه الذات من اختبارات، لا ينقلها المرء فوق الورق إلا عندما لا يجد من يتحدث إليه عنها. كتبت إليه: «كانت صدمة رؤيتى فجأة جسد نسيم، عاريا يسبح فى المرآة، وظهره الأبيض الممشوق الذى يماثل ظهرك إلى حد بعيد وكذا الخاصرة. جلست، ولدهشتى انفجرت دموعى، وأنا أتساءل فجأة، إن لم تكن مودتى لك تكمن هنا، على نحو ما، بين رغبات القلب الواهنة الدفينة لارتكاب الفحشاء بين المحارم. إننى أعرف القليل عن خبايا الجنس ودخائله التى

يعكف الأطباء على استكشافها. إن استكشافاتهم تملؤنى خوفا وريبة. إننى أيضًا أتساءل إن لم يكن بى شىء من مصاصى الدماء، وأنا أتعلق بك بهذا القرب منذ زمن طويل، أشد كمك فى الوقت الذى يجب أن تكون قد شببت فيه لتتجاوزنى تماما. ماذا تعتقد فيما أقول؟ اكتب لى طمئننى، حتى وأنت تقبل جريشكا الصغيرة. هل ستفعل ذلك؟ إننى أرسل إليك صورة لى حديثة، حتى تستطيع أن تحكم كم تقدم العمر بى. أطلعها عليها، وقل لها إننى لا أخشى شيئا قدر خشيتى غيرتها التى لا تستند إلى أساس. إن نظرة واحدة سوف تريح قلبها. يجب ألا أنسى شكرك للبرقية التى أرسلتها إلىّ بمناسبة عيد ميلادى ـ فقد أعادت إلى ذهنى فجأة صورتك وأنت تجلس فى الشرفة تتحدث مع نسيم. إنه الآن ثرى للغاية ومستقل حتى إنه نادرا ما يكلف نفسه عبء زيارة الأراضى. إنه مشغول تماما، بأعمال عظيمة، فى المدينة. إلا أنه، رغم ذلك يحس بعمق بافتقادى، الذى أتمنى أن تحس به أنت بقوة أكثر، مما لو كنا نعيش الواحد منا فى حجر الآخر. إننا غالبا ما نتراسل، وعلى فترات طويلة. إن عقلينا يتبع الواحد منهما الآخر، ومع ذلك فإننا نترك قلوبنا حرة تحب وتنمو. آمل أن نستعيد، نحن القبط، مكانتنا فى مصر من خلاله يوما ما ـ فهى الآن فى اضمحلال. . . »

كانت تجرى كلماتها فى رباطة جأش وصفاء ذهن وحيوية عبر يدها المنسابة الطويلة فوق مختلف الأوراق الملونة والخطابات التى كان يفتحها، فى لهفة، فى حديقة القنصلية النائية، يقرؤها، ورده عليها يتشكل ليكتبه ويغلفه، ليلحق حقيبة الصادر فى الوقت المناسب. كان قد اعتاد الاعتماد على هذه الصداقة والتى لاتزال تخط الكلمات، وكأنها صيغة ما: «يا أعز من أحب». ، فى صدر خطاباتها التى تتناول، فقط، الفن مثلا أو الحب (حبه هو) أو الحياة (حياته هو).

وكان هو من ناحيته أمينا معها مدققا ـ كما فى كتابته مثلا عن حبيبته راقصة الباليه الأولى: «حقا، لقد نظرت إلى الأمر، فى وقت ما، وكأننى قد تزوجتها. كنت بالقطع غارقا فى حبها، إلا أنها شفتنى فى الوقت المناسب. لقد أخفت لغتها، التى لم أكن أعرفها، سوقيتها عنى بطريقة رائعة. ولحسن الحظ أنها رفعت الكلفة مرة أو اثنتين بطريقة علنية، فأصابنى ذلك بالرعب، مرة عندما دعوت كل فرقة الباليه إلى حفل استقبال، ووجدت نفسى أجلس فيه إلى جوارها، وأنا أؤمن بأنها سوف تتصرف بحذر وتعقل، حيث لم يكن أحد من زملائى يعرف بما بيننا من علاقة وثيقة. تصورى كيف طربوا، وكيف فَزِعْت، عندما مرت فجأة بيدها على قفاى تنفش شعرى فى حركة إعزازَ فظة خشنة. لقد أفادنى ذلك حقا. أدركت الحقيقة فى حينها. وعندما ظهر حملها التعس كان واضحا أنها خدعة مكشوفة تماما. وشفيت أنا منها».

وعندما افترقا، أخيرا، عيرته جريشكا قائلة: «إنك مجرد دبلوماسى لا علاقة له بالشئون السياسية أو الدين». وكانت ليلى هى التى لجأ إليها لتفسر له هذه التهمة التى كان لها وقعها فى نفسه. وكانت ليلى هى التى ناقشت معه الأمر فى رقة المحب القديم المهذبة الواسعة الصدر.

وهكذا حافظت عليه، بطريقتها الماهرة الحاذقة، عاما بعد عام، حتى أفسح الارتباك الذى صاحب شبابه، مكانه للنضج الذى غدا يبارى نضجها. ورغم أن حديثهما كان بلسان الحب فقط، إلا أنه كان يفى بحاجتها هى ويستوعبها هو، ومع ذلك ظل عسيرا عليه تصنيف ما بينهما أو تحليله.

وبينما الأعوام تتوالى واحداً بعد الآخر فى تقويم دقيق، وبينما

تتغير مناصبه، كانت صورة ليلى تتشكل، كالخيال أمام عينيه، بألوان وخبرات البلدان التى عبرها: اليابان بنجومها الأشبه بحبات الكرز، ليما الأشبه بأنف كالخطاف، البرتغال الكئيبة وهلسنكى التى تقيدها الثلوج. ولكن إلا مصر، ورغم كل التماساته أن يعين فى المناصب التى يعرف أنها توشك أن تكون شاغرة أوهى شاغرة بالفعل. وبدا «المكتب الأجنبى» وكأنه لن يغفر له تعلمه العربية، وأنه يختار له عن عمد المواقع التى يصعب أو يستحيل أن يحصل منها على إجازة يقضيها فى مصر. ومع ذلك ظل الرباط قائما. لقد التقى بنسيم مرتين فى باريس، لكن ذلك كان كل شىء. لقد سعدا ببعضهما البعض وبحبهما للعالم.

لقد قاده ضيقة، فى وقت ما، إلى الاستكانة. علمته مهنته التى تعلى فقط من قدر الحصافة والرزانة والتحفظ، أشق الدروس وأشدها إفسادا للمرء ـ ألا ينطق البتة فكرة، بصوت مرتفع، تحط من قدره. قدمت له أيضا شيئا أقرب للتدريب الجزويتى الطويل على خداع الذات، مما مكنه من تقديم واجهة مصقولة مهذبة للعالم دون أن تعمق خبرته الإنسانية. إن الفضل يرجع إلى ليلى فى أن شخصيته لم تبهت تماما. فقد عاش محاطا بزملاء طامعين، متزلفين، علموه، فقط، كيف يتفوق فى طرق وأساليب المخاطبة والرقة المتكلفة والتى، إن قبلت، مهدت الطريق إلى الترقى. لقد أصبحت حياته الحقيقية مجرى مدفونا ينساب تحت الأرض، نادرا ما يظهر فى هذا العالم الزائف الذى يعيش فيه الدبلوماسى يختنق فى بطء كقطة فى مضخة تسحب الهواء. هل كان سعيداً أم تعساً؟ غدا من العسير عليه معرفة ذلك. كل ما فى الأمر، أنه كان وحيدا. وفكر مرات عدة، بتشجيع من ليلى، أن يؤنس وحدته التى انشغل بها خاطره (والتى كانت تتحول إلى أنانية) بالزواج، إلا أنه وجد أن ما يشده فيهن يكمن فقط بين هؤلاء المتزوجات بالفعل

أو هؤلاء اللواتي يكبرنه في السن كثيرا. كان الزواج من أجنبيات خارج حسبانه، إذ حتى في ذلك الوقت كانت الزيجات المختلطة تعتبر حائلا خطيرا للترقي في الخدمة. هنالك في الدبلوماسية، شأنها شأن كل مكان آخر، زيجات موفقة وزيجات جانبها الصواب. إلا أنه وجد نفسه، والسنون تترى، يترقى بالحيلة والمساومة والعمل الشاق، حركة دائرية بطيئة نحو غرفة انتظار النفوذ الدبلوماسي، إلى منصب عضو في مجلس من المجالس أو وزير. ثم جاء يوم استيقظ فيه كل السراب اللامع البراق، والذي كان يرقد مدفونا منسيا، استيقظ وبزغ من جديد، حقيقيا يتألق من الماضي بكل عنفوان قواه. استيقظ يوما ليعرف أن الوسام الذي سعى إليه قد غدا من نصيبه، وأن شيئا آخر، ربما كانت رغبته فيه أكبر، قد تحقق - سفارة مصر التي طالما أنكروها عليه.

ما كان يمكن أن تكون ليلى امرأة، ما لم تكن قادرة على مواجهة لحظة ضعف، كان يمكن أن تسيء إلى كل هذا النمط المتفرد لعلاقتهما. جاءت تلك اللحظة مع وفاة زوجها. إلا أنه تلا تلك اللحظة، في سرعة، عقاب ملحمي، جرها إلى الوراء أكثر، إلى عزلتها الموحشة، والتي حلمت للحظة، ممعنة في الوهم والخيال، أن تهجرها. إذ ربما فقدت بسبب هذه اللحظة كل شيء.

كان هنالك صمت طويل بعد برقيتها التي أخبرته فيها بموت فلتاؤس. ثم جاءه منها خطاب، لا يماثل أي خطاب كتبته له من قبل، مليء بالتردد والغموض. «لقد غدا ترددي، لدهشتي، ألما ممضا يعذب نفسي - إنني حقيقة في ذهول تام. إنني أود منك أن تفكر، بعناية شديدة، في الاقتراح الذي سأطرحه عليك. حلله، وإن ثار في خاطرك أقل أثر للتقزز أو التحفظ، فإننا نقصيه بعيدًا، ولا نتحدث فيه

مرة أخرى. دافيد اليوم وأنا أنظر فى المرآة نظرة، مدققة، نافذة، قاسية، ما وسعنى ذلك، وجدت نفسى أستمتع بفكرة طالما استبعدتها، بقسوة بالغة، لأعوام مضت حتى الآن. فكرة أن أراك مرة أخرى. إلا أننى، لما يكتنف حياتى، لا أستطيع أن أرى حدود وظروف مثل هذا اللقاء. إن تصورى لهذا الأمر تحيط به سحابة سوداء من الشك. والآن، وقد مات فلتاؤس ودفن، فإن هذا الجزء من حياتى قد انْبَتّ فجأة، ولم يعد لى غير ذلك الذى أشاركك فيه حياة على الورق. لقد كنا، بصورة فجة، كأناس يجرفهم العمر قدما، كل على حدة، مع كل عام يمر. ربما كنت أنتظر دون أن أعى موت فلتاؤس، رغم أنى لم أرد له الموت أبداً وإلا فلماذا ينهض فجأة، مثل هذا الأمل، هذا الوهم، فى أعماقى؟ لقد خطر لى، فجأة فى الليلة الماضية أنه لا يزال أمامنا ستة أشهر أو سنة يمكن أن نقضيها معا قبل أن تتمزق الروابط، نهائيا، بمعناها القديم. هل ما أقول سخف وهراء؟ نعم! هل يمكن، فى الحقيقة، أن أكون عبئا عليك، أحرجك بمجيئ إلى باريس لنمضى معا فيها شهرين من الزمان؟ بالله عليك، اكتب لى على الفور، وأقنعنى بالعدول عن آمالى الزائفة - عن مثل هذه الحماقة - لأننى أدرك بعمق فى دخيلتى أنها حماقة. ولكن... أن أمتعك لشهور قلائل قبل أن أعود إلى هنا لأباشر هذه الحياة: كم هو صعب على النفس أن تتخلى عن الأمل! أرجوك ثبت للحال أملى، حتى إن جئتك أحس الهدوء والسلام، أنظر إليك (كما كنت أنظر إليك طوال هذه السنين) باعتبارك أكثر من صديق لصديق».

كانت تعلم أنه من الغبن له أن تضعه فى مثل هذا الوضع، إلا أنه لم يكن فى وسعها أن تفعل غير ما فعلت. هل كان من حسن الحظ حينذاك أن القدر منعه من اتخاذ مثل هذا القرار؟ فقد وصله خطابها،

وكان على مكتبه، مع نفس البريد الذى به برقية نسيم المطولة والتى يخبره فيها ببداية إصابتها بالمرض؟ ووصلته، وهو لا يزال مترددا فيما يجيب، بطاقة بريدية منها مكتوبة بخط متمدد جديد عليها، واستغرقته فى النهاية الكلمات: «لا تكتب لى مرة ثانية حتى أستطيع أن أقرأ ما تكتب. إننى ملفوفة فى الضمادات من رأسى إلى قدمى. إن شيئا سيئا للغاية، حاسما وقاطعا للغاية قد وقع».

لقد زحف مرض الجدرى ـ والذى ربما يكون قد ابتدع كأقسى علاج لخيلاء الإنسان وزهوه ـ طوال ذاك الصيف الحار، كنهير ينساب فى نهر، مذيبا ما بقى منها، مما كان ذات يوم جمالا مشهودا. لم تكن هنالك جدوى من التظاهر، حتى لنفسها، بأن حياتها كلها لن تتغير بسبب هذا المرض. ولكن كيف؟ وانتظر ماونت أوليف يعانى من تردده آلاما مبرحة حتى تتجدد مراسلاتهما. وأخذ يكتب إلى نسيم حينا وإلى ناروز حينا آخر. لقد انفتحت هوة تحت قدميه.

ثم «إنها لتجربة غريبة أن ينظر الإنسان إلى ملامحه هو وقد امتلأت بالنقر والجروف ـ كمساحة فى أرض مألوفة وقد نسفت. أخشى أنه علىّ اعتياد الإحساس الجديد بأنى قد غدوت كعرافة أو عجوز شمطاء. لكن ذلك يتوقف على قوتى أنا. بالطبع، ربما يقوى كل ذلك جوانب أخرى من شخصيتى ـ كما تفعل الأحماض ـ لقد فقدت قدرتى على استخدام المجاز والاستعارة! آه يالها من سفسطة، حيث لا مخرج. كم أنا خجلة! بصورة مريرة، من اقتراحاتى التى تضمنها خطابى الأخير إليك. ليس هذا وجه يسير، يتنزه، فى أوروبا، فإنى لا أجرؤ أن ألحق بك الخزى والخجل بإعلان معرفتك شخصيا عن كثب. لقد أمرت اليوم بإعداد دستة من الخُمر السوداء التى لا يزال، يرتدى مثلها، فقراء

الناس ممن على ديننا إلا أننى قمت بفعل مؤلم للغاية عندما أمرت الصائغ الذى أتعامل معه أن يحضر ويقيس لى من جديد بعض الأساور والخواتم. لقد غدوت، مؤخرا، نحيلة للغاية. إن تلك الحلى جائزة للشجاعة، أيضا، كما ترشو طفلا بقطعة من حلوى لتناوله دواء كريها. يا للمسكين الضئيل حكيم لقد بكى بمرارة وهو يرينى بضاعته. لقد أحسست بدموعه فوق أصابعى. إلا أننى رغم ذلك استطعت أن أضحك بصورة ما. لقد تغير صوتى أيضا. لقد مرضت للغاية من الرقاد فى الحجرات المظلمة. إن الخمار سوف يحررنى. نعم، لقد فكرت بالطبع فى الانتحار ـ ومن ذا الذى لا يفكر فى ذلك فى مثل تلك الأوقات؟ كلا، ولكنى إن أبقيت على حياتى فلن يكون ذلك حتى آسف لنفسى. أو ربما لا يكون غرور المرأة كما نعتقد، أمرا مميتا ـ عملا من أعمال القتل؟ يجب أن أكون قوية واثقة من نفسى. أرجو ألا تكتئب وتتأسف لما أصابنى. عندما تكتب، دع خطاباتك مرحة كالعهد بها. هل ستفعل ذلك؟».

إلا أنه جاء بعد ذلك زمن من الصمت طويل قبل أن يستعيدا بالكامل مراسلاتهما، وغدا لخطاباتها طعم جديد ـ طعم الاستكانة المر. لقد اعتزلت، هكذا كتبت، فى أراضيها مرة أخرى، تعيش بمفردها مع ناروز، «إن وحشيته الرقيقة تجعل منه رفيقا نموذجيا. يضاف إلى ذلك، أننى، فى بعض الأحيان، أصاب باضطراب فى عقلى، وليس ذلك محض أكاذيب مختلقة (*)، ومن ثم أعتزل لأيام، كل مرة، فى المنزل الصيفى الصغير، عند نهاية الحديقة، هل تتذكره؟ هنالك أقرأ وأكتب مع حيتى الوحيدة ـ إن جنية المنزل هذه الأيام كوبرا

(*) بالفرنسية فى الأصل.

هائلة غبراء، مستأنسة كقطة. أعيش فى صحراء من حولى وصحراء فى أعماقى.

الخمار مكان خاص وبديع

لكن، لا شىء كما أعتقد، يعانق عناقه

«إن كتبت لك ترهات خلال أوقات يسبى فيها العفريت عقلى (كما يقول الخدم) فلا ترد علىّ. إن مثل هذه النوبات تظل فقط يوما أو يومين على الأكثر».

هكذا بدأت الحقبة الجديدة. جلست لسنوات، غريبة الأطوار، تلبس الخمار، حبيسة منقطعة فى كرم أو جيرج. تكتب تلك الخطابات الطويلة الرائعة، وعقلها لا يزال يطوف حول عوالمها الأوروبية المفقودة، والتى لا يزال هو نفسه جوالا فيها. إلا أنه كان لا يزال هنالك أشياء لابد منها، وإن كانت قليلة للغاية، من رقة الشوق القديم. كانت نادرا ما تتطلع الآن إلى خبرات جديدة. إنها غالبا ما تعود إلى الوراء، إلى الماضى، كمن له ذاكرة تختزن أشياء قليلة تحتاج إلى الإنعاش. هل يمكن للمرء أن يسمع الزيزان (*) فوق «برج مين»(**).

هل كان نهر السين فى خضرة القمح عند «بوجيفال»؟ هل كانت البزات المصنوعة فى «تيرادى سيانا» من الحرير؟ أشجار الكرز فى «نافارا». . . . كانت تود تثبيت الماضى، أن تنظر إلى الوراء من فوق كتفيها. وكان على ماونت أوليف أن يعمل على طمأنتها فى صبر وأناة عن كل رحلة يقوم بها. قرد رامبراندت الصغير ـ هل رأته أم تخيلته

(*) حشرات مجنحة شفافة (المترجم).

(**) بالفرنسية فى الأصل.

فقط فى لوحته؟ كلا، إنه موجود، هكذا أخبرها وهو حزين. وكانت لماما ما تثير تساؤلات تمس شيئا حديثا.

«لقد أثار اهتمامى قصيدة فريدة من نوعها فى مجلة «فاليوز» عدد سبتمبر، ممهورة باسم لودفيج بورسواردن. إنها شيء جديد وناب، وبما أنك ذاهب إلى لندن الأسبوع القادم، أرجو أن تسأل عنه من أجلى. هل هو ألمانى؟ هل هو الروائى الذى كتب هاتين الروايتين الغريبتين عن أفريقيا؟ إن الاسم هو ذات الاسم».

كان ذلك الطلب هو الذى قاد ماونت أوليف مباشرة لأول لقاء مع الشاعر الذى سيلعب، فيما بعد، دورا مهما فى حياته. ورغم الحب المتفانى، الذى يحسه نحو الفنانين، والذى يكاد يكون فرنسيا(احتذاء بليلى)، فقد وجد أن اسم بورسواردن اسم يثير الارتباك، بل يكاد يكون مضحكا، وهو يضعه فوق بطاقة بريدية معنونة إليه على عنوان ناشريه. ولم يصله رد خلال شهر. ولما كان سيبقى فى لندن، لدراسات تعليمية، مدة أشهر ثلاثة، فقد كان فى وسعه أن يستمسك بالصبر. وعندما جاءه الرد أثار غاية دهشته إذ كان مكتوبا على الورق الخاص «بالمكتب الأجنبى». كان منصبه، كما يبدو، منصبا صغيرا فى الإدارة الثقافية. وللحال اتصل به هاتفيا. وعجب لصوته المرح رابط الجأش واستمتع به. كان لديه توقع ما بأنه من طبقة أدنى بصورة فظة. وارتاح عندما سمع فى صوت بورسواردن نغمة متحضرة تتسم بخلق من يملك إرادته. واتفقا على اللقاء معا ذاك المساء للشراب فى الـ «كمباسز» قرب كوبرى ويستمنستر. وتطلع ماونت أوليف لهذا اللقاء وكأن الأمر يخصه بقدر ما يخص ليلى. كان قد انتوى أن يكتب إليها بيانا عنه، يصف فيه لها، فنانها بعناية.

كان الثلج يتساقط خفيفا، ويذوب ساعة أن يلمس الطوار. إلا أنه كان يعلق فترة أطول بياقات المعاطف والقبعات (إن ندفة ثلج فوق هدب العين تفجر العالم فجأة، تشطره إلى مكوناته من ألوان المنشور البراقة). وأحنى ماونت أوليف رأسه ودار عند الزاوية، في الوقت المناسب، ليرى زوجا من الشباب يدخلان بار الـ «كومباسز». كانت الفتاة التي التفتت لرفيقها، لتقول ملاحظة، عندما فتح الباب، ترتدي شالا بديعا صوفيًا مربع النقش به بروش أبيض كبير، وتناثر ضوء المصباح الدافئ فوق وجهها العريض الشاحب بشعرها الفاحم المجعد الأشبه بالخوذة فوق رأسها. كانت رائعة الجمال. ذلك الجمال الوادع بصورة مذهلة، والذى استغرق ماونت أوليف، على نحو ما، مدة ثانية كاملة ليتأمله. ثم رأى أنها عمياء. كان وجهها شاخصا، بعض الشيء إلى رفيقها، بطريقة هؤلاء الذين ينظرون مباشرة إلى أهدافهم - أي عيون الآخرين. وظلت هكذا ثانية كاملة قبل أن يقول رفيقها شيئا ما، ضاحكا، وهو يدفعها أمامه داخل البار. ودخل ماونت أوليف في أعقابهم ووجد نفسه يقبض على يد بورسواردن الدافئة الثابتة. ويبدو أن الفتاة العمياء كانت شقيقته. وأعقب ذلك لحظات قليلة من الارتباك بينما يجلسون إلى جوار نار الفحم المتوهجة في الركن. وطلبوا الشراب.

بدا بورسواردن، رغم أنه لم يكن بأي حال شخصا يسترعي الانتباه، طبيعيا بصورة مقبولة، كان متوسط الطول، شاحب اللون، إلى حد ما، وقد شذب شاربه ليشكل منحنى لا يكاد يبين فوق فمه ذي المقطع المحدد. كان على أي حال، لا يشبه شقيقته في اللون حتى إن ماونت أوليف استنتج أن شعر الفتاة العمياء الفاحم الرائع، إنما هو شعر مصبوغ، رغم أنه بدا طبيعيا تماما، كما كان حاجباها الدقيقان فاحمين

أيضا. كانت العينان، فقط، هما اللتان يمكن أن تمكنا المرء من سر هذا التلوين الذى يميز البحر المتوسط، وكانتا، بالطبع مفتقدتين. كانت رأسها رأس «ميدوسا»، وكان عماها، عمى تمثال يونانى - عمى ربما نتج عن التركيز الكثيف، عبر قرون، فى ضوء الشمس والمياه الزرقاء؟.

لم يكن التعبير المرتسم على وجهها، على أى حال، تعبيرا متسلطا أو حادا جازما، كان تعبيرا رقيقا مستعطفا. وكانت أصابعها الطويلة الناعمة تتلوى وتلين، مثلما تتلوى وتلين أصابع لاعب البيانو فى حفل موسيقى. كانت تتحرك فى رفق فوق المنضدة، المصنوعة من خشب البلوط، والموضوعة فيما بينهم، وكأنها تلمس، تؤكد، تثبت، تتردد لتضفى على صوته قيما نوعية. كانت شفتاها، فى بعض الأحيان، تتحركان فى رقة وكأنها تكرر لنفسها الكلمات التى قالاها، حتى تستعيد رنينها ومعناها، ثم تبدو كشخص يتابع موسيقى لغرض خاص.

قال الشاعر: «ليزا، ماذا تريدين يا عزيزتى؟»

«براندى وصودا» - أجابت فى صوت واضح شجى - صوت يمكن أن يضيف مسحة من نغم للكلمات، «شهد ورحيق». جلسوا إلى حد ما مرتبكين، والمشروبات توزع عليهم. كان الأخ والأخت يجلسان، جنبا إلى جنب، مما أضفى عليهما، بصورة ما، جوا دفاعيا، وقد وضعت الفتاة العمياء يدها فى جيب أخيها. وبدأ الحديث بينهما بطريقة تكاد تكون متعثرة، ودام بعيدا فى المساء. وقد نقله ماونت أوليف فيما بعد إلى ليلى. شكرا لذاكرته القوية.

«كان، إلى حد ما، خجلا فى البداية، واتخذ من حياته الممتع ملاذا

له . لقد وجدت، لدهشتى، أنه قد خص بمنصب فى القاهرة فى العام المقبل، ولم أخبره، إلا القليل، عن أصدقائى هناك، عارضا عليه أن أعطيه بعض خطابات التقديم القليلة، وخاصة إلى نسيم. ربما أثارت مرتبتى مخاوفه بعض الشىء، إلا أن ذلك سرعان ما تلاشى. إن رأسه لا تحتمل الشراب كثيرا. إذ ما إن انقضت ثانية حتى بدأ يتكلم بطريقة مسلية وحادة للغاية. لقد خرج منه الآن شخص غريب، يلقى كلاما مزدوج المعنى، كما يتوقع الإنسان من فنان ـ ولكن بوجهات نظر واضحة فى عدد من الموضوعات، بعضها لا يتفق البتة وميولى. إلا أنها ذات رنين شخصى غريب ويحس المرء أنها نابعة من خبرة وليست مطروحة ببساطة «لإثارة الدهشة والإعجاب» (*). إنه مثلا، رجعى عتيق الطراز فى نظرته للأمور، وبالتالى يكاد يرى بعين السوء، زملاء مهنته، والذين يرتابون فى أن له ميولا فاشية، وهو انحراف سائد فى فكر الجناح اليسارى. حقا إن كل الفكر الراديكالى يثير اشمئزازه، إلا أنه يعبر عن آرائه بطريقة فكهة ودون حدة. لقد فشلت، مثلا، فى أن أستنفره لمناقشة المسألة الإسبانية (كل هؤلاءالسمر الصغار الذين يحتشدون للموت من أجل نادى الكتاب اليسارى) كان ماونت أوليف يكاد يجزع من هذه الآراء والتى كانت متميزة كما كانت صارمة. كان فى ذلك الوقت يشارك فى ميول المساواة السائدة حينذاك ـ رغم الشكل الليبرالى المسكن والملطف الذى كان يسرى فى المكتب. إن استخفاف بورسواردن الملوكى قد جعله شخصا يكاد يكون مريعا. وكتب ماونت أوليف، «أعترف أننى لم أستطع تحديد وضعه فى أى تصنيف بالضبط. إلا أنه عبر عن آراء أكثر منها مواقف. يجب أن أقول، إنه قال عددا من الأشياء التى تسترعى الانتباه، والتى حفظتها عن ظهر قلب من أجلك،

(*) بالفرنسية فى الأصل.

مثل: «إن عمل الفنان الذى يشكل العلاقة الوحيدة الشافية، والتى يمكن أن يحققها مع أقرانه من الرجال مادام يبحث عن أصدقائه الحقيقيين بين الموتى والذين لم يولدوا بعد. ذلك هو السبب فى أنه لا يمكنه الخوض فى السياسة. إنها ليست مهمته. يجب أن يركز على القيم أكثر من التركيز على السياسات. إن الأمر كله يبدو لى الآن أشبه بلعبة الظل فالحكم فن وليس علمًا، تماما مثلما المجتمع كائن وليس نظاما. إن أصغر وحدة فيه هى الأسرة، والملكية حقا هى أصلح بناء له ـ فالأسرة الملكية هى صورة البشر، تعكسها مرآة. إنها الشرعية التى تبلغ حد العبادة.. إننى أعنينا بذلك، نحن البريطانيين، أساسا بسبب مزاجنا المغامر وتراخينا الذهنى. إننى لا أعرف شيئا عن الآخرين. أما بالنسبة للرأسمالية فإن أخطاءها ومظالمها يمكن علاجها كلها بفرض ضرائب عادلة. يجب ألا نسعى إلى مساواة خيالية بين الرجال، ولكن علينا السعى، فى بساطة إلى عدالة لائقة. لكن الملوك، حينئذ، سوف يصنعون لنا فلسفة من كل صنف، كما فعلوا فى الصين. إن الملكية المطلقة، لا رجاء منها الآن بالنسبة لنا، ففلسفة الملكية فى نضوب وانحسار، ونفس الأمر ينطبق على الديكتاتورية.

«أما بالنسبة للشيوعية فإننى أرى أنها حالة لا رجاء فيها أيضا. إن تحليل الإنسان على أساس سلوك اقتصادى، ينزع كل البهجة من الحياة. كما أن تجريده من روحه الخاصة يشكل ضربا من الجنون، وهكذا لقد زار روسيا، مدة شهر، مع وفد ثقافى. ولم يحب ما أحسه هناك كما أن له نزوات أخر، مثل، «يمكن أن يرى المرء على وجوه اليهود الحزانى كل اكتئاب هؤلاء الذين يجرون حساباتهم سرا فى سريرتهم. سألت رجلا عجوزا فى كييف، إن كانت روسيا بلدا سعيدا، فسحب أنفاسه فى حدة، وقال بعد أن تلفت حوله

خلسة: «إننا نقول إنه كانت لإبليس ذات يوم، نوايا طيبة، لكن حدث تغير فى قلبه. فقرر، من باب التغيير أن يمثل فصلا واحدا فقط. وهكذا ولد الجحيم على الأرض، وأسموه روسيا السوفييتية».

«ولم تشارك أخته فى كل هذا، لكنها جلست فى صمت بليغ، وأصابعها تلمس المنضدة فى رقة، وهى تتلوى مثل الخيوط التى يلتف بها النبات فى كرمة العنب، تبتسم لأقواله المأثورة، وكأنها تبتسم لمحرمات خاصة. فقط، عندما غادر للحظة، استدارت لى وقالت: «يجب ألا يشغل نفسه، حقا، بهذه الأمور، إن عمله الوحيد هو أن يتعلم كيف يستسلم لليأس». وصدمتنى هذه الجملة المبهمة صدمة عنيفة، وقد خرجت من فمها فى طبيعية شديدة. ولم أدر بما أجيبها. عندما عاد احتل مكانه واستأنف المناقشة فى ذات الوقت، وكأنه كان يفكر فى الأمر بينه وبين نفسه، «كلا، إن الملوك ضرورة بيولوجية. ربما عكسوا، كالمرآة التكوين المحدد للروح والنفس؟ لقد ساومنا وتعاملنا بطريقة تدعو إلى الإعجاب، مع مسألة ألوهيتهم، حتى إننى أكره أن أراهم وقد استبدلوا بديكتاتور أو مجلس العمال أو فرقة ضرب الناس». كان على أن أحتج على هذه الفكرة المناقضة للعقل، إلا أنه كان جادا تماما. إننى أؤكد لك أن هدف الجناح اليسارى، دون أن يدرك، هو الحرب الأهلية ـ شكرا للطريقة الماكرة التى يقدم بها الحنابلة المتيبسين، أمثال «شو» وجماعته، قضيتهم. الماركسية هى انتقام الايرلنديين واليهود!». كان على أن أضحك على ما قال، وكان هو ـ إنصافا له ـ يفعل نفس الشىء. قال: «إن ذلك على الأقل، سوف يفسر لماذا لا ينظر إلىّ بعين الرضا. ولماذا أنا سعيد، دوما، لخروجى من إنجلترا إلى بلدان لا أحس فيها بالمسئولية الأخلاقية. ولا أحس فيها بالرغبة فى استنباط مثل هذه الصياغات المحبطة. إننى، بحق الجحيم،

كاتب رغم كل شيء».

«كان قد احتسى، حتى ذلك الوقت، عددا من كئوس الشراب، وكان يبدو مستريحا. «دعنا نترك هذا المجال المجدب! كم أود كثيرا أن أذهب إلى مدن خلقتها نساؤها، باريس أو روما، مدن بنيت استجابة لشبق إناثها. إننى لا أرى البتة تمثال «نلسون»، فى ميدان «ترافالجار»، وقد كساه السناج، إلا وأفكر فى «إيما» البائسة، والتى كان عليها أن تذهب إلى نابولى لتطالب بحقها فى أن تكون مليحة، ظريفة خفيفة، ذات رونق ودلال (*) فى الفراش. ماذا أفعل أنا، بورسواردن، هنا بين أناس يعيشون فى هياج جنونى عن آداب السلوك؟ دعنى أتساءل أين وصل الناس، إلى وفاق، مع بذاءاتهم الإنسانية، فى غير عباءة الشاعر التى لا ترى. إننى أود أن أتعلم ألا أحترم شيئًا، بينما لا أحتقر شيئا. الالتواء هو طريق الابتداء!».

«عزيزى، أنت سكران»، صاحت ليزا مبتهجة.

«سكران وحزين. حزين وسكران. لكننى مسرور، مسرور».

«يجب أن أقول، إن هذا المزاج الجديد والممتع فى خُلقه، بدا وكأنه يقربنى من الرجل ذاته أكثر فأكثر. لماذا المشاعر المنمطة؟ لماذا الخوف والارتجاف؟ كل تلك المراحيض المعتمةوبها شرطيات: وقد تدثرن بأردية واقية من المطر، ينتظرن حتى يتحققن إن كان الإنسان يبول باستقامة أم لا؟ فكر فى كل التعديلات العنيفة التى تجرى فى الثياب، فى المملكة! والمنع من استخدام الأرض التى يغطيها النجيل:

«هل هنالك أى غرابة فى أننى دون أن أدرى، أدخل دوما من

(*) بالفرنسية فى الأصل.

المدخل المكتوب عليه «للغرباء» فقط، كلما عدت من الخارج؟».

«أنت سكران»، صاحب ليزا مرة أخرى.

«كلا، إننى سعيد»، قال فى جدية، «والسعادة ليست حلية يتقلدها المرء. السعادة يجب انتظارها والإيقاع بها كما توقع بطائر السمان وقد تعبت أجنحته أو كما توقع بصبية. هنالك هوة ثابتة بين الفن وبين ما يقوم به المرء من عمل مدبر».

«وأنطلق هكذا، فى هذه النغمة الجديدة الجامحة. ويجب أن أقرا وأعترف بأننى كنت مأخوذا، إلى حد كبير، بهذا الانسياب، دون جهد، لألاعيب العقل، وقد غدا غير واع بنفسه. بالطبع كنت أتعثر، هنا وهناك، من فظاظة تعبير يتسم بالغلظة، وأنظر، فى قلق إلى أخته، إلا أنها لم تكن تفعل شيئا غير الابتسام، تلك الابتسامة العمياء، فى تسامح ودون انتقاد.

«كان الوقت قد تأخر عندما اتجهنا معا نحو ميدان «ترافالجار» والثلج يتساقط. كان هنالك عدد قليل من الناس، وندف الثلج تجمدوقع أقدامنا. ووقف شاعرك فى الميدان يناجى عُمد تمثال «نلسن»، بكلمات تستخدم، فى الحقيقة عند ذبح العجول. لقد نسيت ما قال، لكنه كان هزليا تماما، حتى إننى ضحكت للغاية من أعماق قلبى. ثم تغير فجأة مزاجه، واستدار لأخته قائلا: «هل تعرفين ما الذى كان يزعجنى طوال اليوم يا ليزا؟ إن اليوم هو عيد ميلاد «بلاك». فكرى فيه، عيد ميلاد «بلاك» غريب الأطوار. لقد توقعت أن أرى دلائل لهذا العيد فى الملامح القومية، نظرت حولى بلهفة طوال اليوم، إلا أننى لم أر شيئا من ذلك. دعينا، يا عزيزتى ليزا، نحتفل بعيد الميلاد القديم هذا، هل نفعل ذلك؟ أنت وأنا وماونت أوليف هنا ـ وكأننا فرنسيون أو

إيطاليون، وكأن هذا العيد يعنى شيئا ما» ـ كان الثلج يتساقط فى سرعة. وأوراق الشجر التى سقطت مؤخرا، فى أكوام، وقد تشبعت بالماء، والحمام يطلق ضوضاء تجمدت فى حلوقه. «هل نرقص يا ليزا؟». واصطبغت وجنتاها، كل ببقعة حمراء وردية فاتحة وانفرجت شفتاها. وندف الجليد، كالماسات، تذوب فى شعرها الفاحم. وقالت «كيف؟ كيف نرقص»؟.

«سوف نرقص من أجل بلادك»، قال بورسواردن، ونظرة جادة مضحكة على وجهه. وأخذها بين ذراعيه، وأخذ يرقص رقصة الفالس وهو يدندن لحن الدانوب الأزرق. قال، وهو ينظر من فوق كتفه عبر ندف الثلج المتساقطة: «إن ذلك من أجل «ويل» و «كيت بلاك». لاأعرف لماذا أحسست بالدهشة، بل وأيضا بالتأثر لما أرى؟ كانا يتحركان تدريجيا فى خطى بطيئة تبلغ حد الكمال وتزداد سرعتها حتى يطفوان عبر الميدان تحت الأسْد البرونزية، لا يكاد ثقلهما يزيد على نفثات الرذاذ المتصاعد من النافورات، كحصباء تنزلق عبر بحيرة مصقولة أو أحجار عبر بركة يحاصرها الجليد... كان مشهدا غريبا. ونسيت يدىّ الباردتين، والثلج الذى يذوب فى ياقتى وأنا أشاهدهما. وهكذا راحا يكملان تدريجيا شكلا بيضاويا مديدا، يدوران فى سرعة بلا جهد عبر الفراغ المكشوف يبعثران أوراق الشجر والحمام، وأنفاسهما تتصاعد كالبخار فى هواء الليل. ثم يدوران بسرعة وفى رشاقة، وبدون جهد، خارج القوس ليعود إلىّ ـ إلى حيث أقف الآن وقد وقف إلى جانبى شرطى ينظر إلى ما يجرى فى ريبة شديدة. كان الأمر مسليا. قال الشرطى: «ما الذى يجرى هنا؟»، وهو يحملق فيهما بإعجاب مشوب بالشك. كان رقصهما الفالس يبلغ حد الكمال، حتى إننى ظننت أن الرقص ربما يكون قد أثار قلقه. راحا يرقصان فى تفاهم

رائع، وشعر الفتاة الداكن يتطاير وراءها، وقد استدار وجهها الضرير إلى أعلى نحو الأدميرال العجوز، فوق عموده الذى يغطيه السناج. «إنهما يحتفلان بعيد ميلاد بلاك»، قلت أوضح الأمر وأنا أكاد أكون خجلا. ونظر الضابط إليهما، وقد بدت على وجهه ظلال أكثر ارتياحا، بينما كان يتابعهما فى إعجاب. وسعل ثم قال: «حسنا، لا يمكن أن يكون سكران ويفعل هكذا. هل فى وسعه ذلك؟ يا للأشياء التى يقوم بها الناس فى أعياد ميلادهم».

«وعادا بعد أن استمر هكذا طويلا، يضحكان ويلهثان. ويقبل الواحد منهما الآخر. بدا أن بورسواردن قد استعاد الآن انشراحه تماما. وحيانى أدفأ تحية وداع، وأنا أضعهما فى سيارة أجرة ليعودا من حيث جاءا. ومن ثم، يا عزيزتى ليلى، فإننى لا أعرف ماذا ستفعلين بكل هذا. لم أستطع أن أعرف شيئا عن أحواله الخاصة أو خلفيته. إلا أننى سوف أكون قادرا على بحث حالته. وسوف تستطيعين أنت لقاءه عندما يأتى إلى مصر فى العام المقبل. إننى أرسل إليك مجموعة صغيرة مطبوعة من أحدث قصائده التى أعطاها لى. إنها لم تظهر بعد فى الأسواق فى أى مكان».

وأخذ، وهو فى حجرة النوم بالنادى حيث التدفئة مركزية، يقلب صفحات الكتاب الصغير، قياما بالواجب أكثر منه إحساسا بالمتعة. لم يكن الشعر الحديث، فقط هو الذى يثير ملله، بل الشعر كله. لم يستطع أبدا أن يمسك بطول الموجة الشعرية، مهما حاول مجتهدا، إن جاز القول. كان مضطرا إلى أن يوجز الكلمات يعيد صياغتها فى عقله، حتى تكف عن رقصها. إن هذا النقص فيه كان يستثيره (علمته ليلى أن ينظر إليه هكذا). ومع ذلك، فإنه اهتم فجأة، وهو يقلب

صفحات الكتاب الصغير، بقصيدة وقعت على ذاكرته، ملأته برعشة مفاجئة من الشك. كانت مكتوبة إلى شقيقة الشاعر. كانت قصيدة حب لا لبس فيها، إلى «فتاة ضريرة، مصبوغ شعرها بالسواد». وللحال نهض الوجع الأبيض الصافى لليزا بورسواردن من بين السطور.

التماثيل اليونانية بثقوب طلقاتها الأشبه بالعيون
أعمتها الدهشة كما إيروس(*)
أسرار القلب المنبوذ تخفى
الحب والمحبوب

كان للقصيدة فى مظهرها غلظة وحشية متعمدة، إلا أنها كانت من نوع القصائد الحديثة التى كان يمكن أن يكتبها «كاتولوس». لقد دفعت ماونت أوليف للتفكير فى حدة. وابتلع ريقه وهو يعيد قراءتها. كان لها الجمال البسيط للوقاحة والصفاقة. وحملق، فى جدية، فى الحائط أمامه مدة طويلة قبل أن يضع الكتاب فى مظروف يعنونه إلى ليلى.

لم تحدث لقاءات أخرى خلال هذه الزيارة، رغم محاولة ماونت أوليف أن يتصل تليفونيا ببورسواردن، فى مكتبه، مرة أو مرتين. إلا أنه كان فى كل مرة، إما فى إجازة أو فى مهمة مبهمة فى شمال إنجلترا. لكنه، على أى حال، اقتفى أثر شقيقته واصطحبها إلى العشاء فى مناسبات عدة حيث وجدها ممتعة ورقيقة، تحرك القلب بصورة ما.

وكتبت إليه ليلى فى الوقت المناسب تشكره على معلوماته، وتضيف على نحو خاص، «إن القصائد رائعة. لكننى لا أحب لقاء

(*) إله الحب عند الإغريق (المترجم).

فنان أعجب به. إن العمل: كما أعتقد ـ لا علاقة له بالرجل. إلا أننى سعيدة أنه آت إلى مصر. ربما يمكن لنسيم أن يساعده ـ وربما يمكنه أن يساعد نسيم؟ سوف نرى».

ولم يفهم ماونت أوليف معنى الجملة قبل الأخيرة.

وتزامنت، على أى حال إجازته فى الصيف التالى مع زيارةنسيم لباريس. والتقى الصديقان ليستمتعا بمعارض الصور والتماثيل، ويخططا لقضاء يوم عطلة يرسمان فيه، فى بريتانى. لقد بدأ كلاهما، منذ عهد قريب، يجرب يده فى الرسم. وكانا ممتلئين بحماسة وحرارة الهواةوهم يقتحمون مجالا جديدا. والتقيا هنا فى باريس، مصادفة، ببورسواردن الذى كان يستمتع بإجازة شهرا قبل أن يتسلم منصبه فى القاهرة. كانت مصادفة سعيدة، إذ فى وسعه أن يعود مع نسيم. وابتهج ماونت أوليف بهذه الفرصة التى سوف تيسر عليه مهمة التقدم الميمون لكل منهما للآخر. كان بورسواردن نفسه يبدو ظاهريا متغيرا تمام التغير، وفى أسعد أحواله. وبدا أن نسيم قد أحبه حبا شديدا. وظل ثلاثتهم أسابيع ثلاثة متلازمين. وعندما حان وقت الفراق، كان ماونت أوليف يعتقد اعتقادا حقيقيا بأن صداقة ما قد نشأت وترسخت عبر كل هذا الطعام الجيد والحياة البهيجة، رآهما، فى المحطة وهما يغادران، وكتب إلى ليلى، فى ذات الليلة، على أوراق مقهاه المفضل: «لقد أسفت أسفا حقيقيا وأنا أضعهما فى القطار وأفكر فى عودتى الأسبوع المقبل إلى روسيا إن قلبى يغوص لهذه الفكرة. إلا أننى قد أحببت «ب» حبا جما حتى إنى غدوت أفهمه بصورة أفضل. إننى أميل إلى إرجاع سلوكياته العنيفة السليطة، لا إلى فظاظته كما فعلت من قبل، ولكن إلى خجل مدفون بعمق فى داخله، يكاد يكون شعورا بالإثم. لقد كان

حديثه فى هذه المرة آسرا للغاية. يجب أن تسألى نسيم فى ذلك، إننى أعتقد أنه قد أحبه أكثر مما أحببته، وهكذا. . ماذا؟ مكان خال مهجور، رحلة طويلة مجمدة، وروح يصيبها الملل مدة أعوام ثلاثة تنتصب أمامى. آه، يا عزيزتى ليلى، كم أفتقدك ـ أيا كان وضعك. إننى أتساءل متى نلتقى مرة أخرى؟ لو كان معى ما يكفى من نقود فى المرة القادمة، فربما أطير لأزورك. . .»

لم يكن يدرى أنه قبل انقضاء الأعوام الثلاثة سوف يجد طريقه إلى مصر مرة أخرى ـ البلد المحبوب والذى تضفى عليه المسافة والمنفى تألقا زاخرا كالنسيج الذى تزينه الرسوم والصور. هل يمكن لأى شىء له ما للذكرى من غنى وثراء أن يكون غشاشا مخادعا؟ إنه لم يسأل نفسه مثل هذا السؤال.

* * *

(٣)

كانت التدفئة المركزية فى قاعة السفارة تشيع دفئا كثيفا ناعما، جعل للهواء مذاقا، غدا معتادا من تكرار استنشاقه. إلا أن الدفء ذاته كان مستحبا إن قورن بالمناظر الطبيعية المرصعة بأشجار الصنوبر المتجمدة خارج النوافذ الطويلة، حيث يتساقط الجليد باطراد، ليس فقط فوق روسيا وحدها، ولكن فوق العالم كله. كان يتساقط الآن ولأسابيع مضت. النعاس الخدر للشتاء السوفييتى أطبق عليهم جميعا. وبدا أن هنالك القليل للغاية من الحركة، والقليل للغاية من الأصوات، فى العالم خارج الجدران التى احتوتهم. كان وقع أحذية الجنود بين أكشاك الديدبانات القذرة، خارج البوابات الحديدية، قد همد الآن فى صمت الشتاء. وانحنت فروع الأشجار فى الحدائق، أكثر وأكثر تحت ثقل البياض المتساقط ثم تقفز كالزنبرك واحدا بعد الآخر إلى ماكانت عليه، تنثر ما التف حولها من ثلج فى انفجارات مكتومة من بلورات لامعة. ثم تبدأ الحملة من جديد. الحمل الأبيض الهش لندف الجليد المختلطة المتزاحمة تتجمع فوقها، تضغطها إلى أسفل كالزنبرك حتى يتجاوز حملها طاقتها.

كان الدور اليوم على ماونت أوليف ليقرأ الموعظة. كان ينظر من أعلى منبر قراءة الكتاب المقدس، ما بين الحين والحين لتتراءى له وجوه العاملين معه والسكرتيرين زملائه، فى العتمة الظليلة للقاعة وهم

يتابعون صوته، وقد لمعت وجوههم بالبياض حيث لا تشرق الشمس ـ وفجأة بدت له صورتهم طافين، فوق بحيرة ثلجية، بطونهم إلى أعلى، كأجساد ضفادع، وقعت فى مصيدة، تسطع إلى أعلى عبر مرآة الثلج. وسعل من وراء يده، وانتشرت العدوى فى موجة من السعال هدأت مرة أخرى فى ذلك الصمت البليد، فقط هسيس الأنابيب كان يتردد فى القاعة. بدا اليوم، كل امرئ مكتئبا مريضا. وكان لحراس الاستقبال الستة مظهر الورعين بصورة تتجاوز المعقول، وقد ارتدوا أفضل بزاتهم بطريقة مشوشة، وخصلات شعرهم النافرة ملتصقة بحواجبهم. كانوا جميعا من جنود البحرية السابقين، وقد بدت عليهم، سكرة الفودكا، بصورة واضحة. وتنهد ماونت أوليف بينمايخرج صوته الهادئ الشجى يقرأ فصلا، وجد عليه علامة، من إنجيل القديس يوحنا بما فيه من رونق وروعة ـ تغلق على فهم الجميع. لماذا رائحة الكافور أشبه برائحة العُقاب، لم يكن فى وسعه أن يتخيل ذلك. وظل السفير فى السرير كالعادة. لقد غدا خلال السنة الأخيرة متراخيا للغاية فى أداء واجباته. كان يعتمد على ماونت أوليف، ولحسن الحظ كان هنالك على الدوام لينجز هذه الواجبات فى خفة وصفاء. لقد كف سير لويس حتى عن التظاهر باهتمامه بما يخدم رعيته الصغيرة بدنيا أو روحيا. لماذا لم يكن يهتم؟ لأنه كان سيعتزل خلال شهور ثلاثة. كان شاقا على ماونت أوليف أن يحل محله فى مثل تلك المناسبات، لكنه كان مفيدا له أيضا، هكذا فكر. لقد منحه ذلك مجالا مفتوحا لاستكشاف مواهبه الإدارية. كان يدير، فى واقع الأمر، كل أعمال السفارة الآن. كانت كلها بين يديه. ومع ذلك. . .

لاحظ أن «كاودل» رئيس العاملين فى الاستقبال يحاول أن يلفت انتباهه. فأنهى الموعظة دون تردد، ووضع علامة الكتاب فى مكانها،

وشق طريقه فى بطء إلى مقعده. وألقى القس كلمة قصيرة وكأنه مصاب بالزكام. وأخذوا فى نبش الصفحات حتى وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع النص المألوف لـ «إلى الأمام أيها المسيحيون»، فى الطبعة الحادية عشرة من «ترانيم الخدمة الأجنبية». وبدأ الأرغن الصغير يلهث فجأة فى الركن كما يلهث رجل بدين يجرى وراء سيارة للركاب كى يلحق بها. ثم استعاد صوته فصدر عنه ترديد بطىء أخن لأول جملتين شابهت خشونتهما، عبر صمت الشتاء، عملية نزع الأحشاء. وكظم ماونت أوليف رعدة فى انتظار أن يخفت صوت الآلة إلى الصوت الشائع كما تفعل دوما ـ وكأنها توشك أن تنفجر بكل نحيب البشرية. وارتفعت أصواتهم خشنة تشهد على. . . تشهد على ماذا؟ ووجد ماونت أوليف نفسه وقد تملكته الدهشة. كانوا مسيحيين سد عليهم الطريق فى أرض معادية، بلد قد غدا أشبه بمعتقل كبير بسبب خطأ بسيط فى العقل البشرى. وكان كاودل يدفع كوعه برفق، فرد عليه بدفعة من كوعه أيضا، مبديا استعداده لتلقى أى تبليغ عاجل ماعدا ما يخص المسائل الدينية على وجه التحديد. وأنشد رئيس قسم الاستقبال:

إن أحدهم اليوم سعيد الحظ

يسير قدما إلى الحرب (فى صوت مرتفع يتسم بالورع)

هنالك شىء عاجل وارد بالشفرة

التى بدأت عملها من قبل (فى صوت مرتفع يتسم بالورع)

وتضايق ماونت أوليف. كان لا ينجز يوم الأحد إلا القليل من العمل، رغم أن مكتب الشفرة كان يظل مفتوحا وبه موظف نحيل يقوم

بالعمل. لماذا لم يستدعوه بالهاتف من الفيللا كالمعتاد؟ ربما كان شيئا خاصا بتصفية الحسابات الجديدة؟ وبدأ ينشد الفقرة التالية فى وضوح.

كان يجب أن يخبرنى أحدهم بذلك

كيف كان لى أن أعرف؟

من الذى يقوم بأعمال الشفرة؟

وهز كاودل رأسه عابسا وأضاف: «إنها مازالت تعمل».

ودارا حول الركن، إذا صح القول، وسحبا أنفاسهما، بينما بدأت الموسيقى. وأخذا يسيران عبر الممر مرة أخرى. ومكنت هذه الفسحة من الوقت كاودل من أن يشرح فى صوت أجش: «كلا، إنها مسألة شخصية عاجلة. إن بعض المجموعات لاتزال فاسدة».

وحلت السكينة على وجهيهما وفى ضميريهما حتى انتهت الترنيمة، بينما أمسكت الحيرة بماونت أوليف. فاستمر كاودل يتحدث مخفيا فمه بأصابعه وهما راكعان على ركبتيهما فوق الوسائد المتربة غير المريحة الخاصة بذلك، وقد دفن كل منهما وجهه فى يديه، «لقد رشحت لمرتبة «فارس» ولبعثة أيضا. دعنى أكون أول المهنئين، الخ».

«يا للمسيح!»، قال ماونت أوليف مندهشا، هامسا لنفسه أكثر من توجيه همسته إلى خالقه. ثم أضاف: «شكرا». وأحس بركبتيه تضعفان فجأة. كان عليه أن يتماسك فى هدوء وجنان ثابت دفعة واحدة. حقا إنه لايزال صغيرا للغاية؟ وملأه استطراد القس، الذى يشبه سمك أبو سيف، بضيق تجاوز ضيقه المعتاد. فضم أسنانه بقوة، وأخذ يردد لنفسه داخل عقله، وهو يحس دهشة متزايدة، عن أى وقت مضى: «حتى نخرج من روسيا!» وقفز قلبه فى أعماقه.

أخيرا انتهت الخدمة الكنسية فسارا فى تثاقل كئيب خارج القاعة وعبرا الأرضيات المصقولة للمكان، يسعلان ويتهامسان. واصطنع مشية تتسم بالبطء والورع، رغم أن تلك المشية لم تكن تجارى عقله الذى سبق أقدامه. لكنه ما إن دخل مكتب الاستقبال حتى أغلق الباب المبطن فى بطء وراءه، وهو يحس به يمتص الهواء فى مصراعيه وقد أغلق فى إحكام. وطقطقت تحته درجات السلم الثلاث وهو يهبط إلى البوابة الأشبه بالكوة والتى تحدد مدخل حجرة الوثائق والسجلات، حيث كانت الفتاة التى تقوم بعمل الكاتبة توزع الشاى على ساعيين ينتعلان الأحذية وينفضان الثلج عن قفازيهما ومعطفيهما. كانت الحقائب المصنوعة من قماش الخيام منتشرة فى كل مكان فوق الأرض فى انتظار تحميلها بالبريد وإغلاقها. ولاحقته تحية الصباح إلى باب حجرة الشفرة حيث طرقه بشدة وانتظر مس «ستيل» لتفتح له ليدخل الحجرة. «لقد وضعت نسخة قسم الاستقبال فى الحافظة، فى حافظتك، وأعطيت نسخة لسكرتير صاحب السعادة».

ثم انحنت برأسها الشاحب، مرة أخرى إلى رسائل الشفرة. كانت هنالك الورقة الشفافة الرقيقة الوردية بالرسالة التى تحتويها وقد كتبت بعناية على الآلة الكاتبة. جلس فى أحد المقاعد وقرأها فى بطء مرتين. أشعل سيجارة. رفعت مس ستيل رأسها، قالت: «هل لى أن أهنئك يا سيدى؟». «شكرا»، قال ماونت أوليف بطريقة غامضة. مد يديه إلى المدفأة الكهربية للحظة ليدفئ أصابعه وهو يفكر فى عمق. كان يحس بأنه إنسان يختلف عما كان اختلافا شاسعا وأدار هذا الإحساس رأسه.

سار، بعد هنيهة فى بطء، يفكر وهو يصعد السلالم إلى مكتبه، غارقا فى حلمه الحسى الجديد. كانت الستائر قد سحبت ـ مما يدل على

أن سكرتيرته قد دخلت. ووقف للحظة يراقب الديدبانات وهم يروحون جيئة وذهابا أمام مدخل البوابة الرئيسية الذى يضيئه الجليد وقد تكدس كثيفا فوق مشغولاتها الحديدية. وجاءت سكرتيرته، بينما كان يقف هنالك وقد ثبت عينيه الداكنتين على عالم خيالى يرقد فى مكان ما، خلف ذاك الاتساع الثلجى الهائل. كانت تضحك فى فرح شديد وقالت: «أخيراً جاءت». وابتسم لها ماونت أوليف فى بطء: «نعم، وإننى لأتساءل إن كان صاحب السعادة سوف يقف فى طريقى؟».

«بالطبع كلا»، قالت مؤكدة، «ولماذا يفعل ذلك؟» وجلس ماونت أوليف إلى مكتبه، وهو يحك ذقنه. قالت الفتاة: « إنه هو نفسه سوف يغادر فى غضون أشهر ثلاثة أو شىء من هذا القبيل». ونظرت إليه متأملة، تكاد تكون غاضبة، لأنها لم تستطع أن تقرأ فى وجهه فرحة، ولا فى تعبيراته الرصينة شعورا ذاتيا بالتهنئة. إن الحظ الحسن قد فشل، أيضا، فى اختراق هذا التحفظ الذى صيغ بعناية. «حسنا»، قالها فى بطء، كان لا يزال مغلفا بدهشته الخاصة، بالحلم الحسى لنجاحه دون استحقاق. «سوف نرى». كان الآن قد تملكه شعور آخر جديد، بل حتى فكر يثير الدوار أكثر. وفتح عينيه على اتساعهما يحملق فى النافذة، إنه الآن بالتأكيد، بعد نهاية طالت، قد أصبح حرا قادرا على الفعل؟ أخيرا بلغ التدريب والترويض الطويل لطمس ذاته، لكونه مندوبا دائما. نهايته؟ كان ذلك مثيرا للخوف إن تأمله، لكنه كان أيضا مثيرا للاهتمام، أحس الآن وكأن شخصيته الحقيقية سوف تكون قادرة على إيجاد مجالها للتعبير عن نفسها فى أفعال وأعمال. ووقف، وهو لا يزال مفعما بهذا الوهم الذى استحوذ عليه، وابتسم للفتاة وهو يقول: « على أى حال، يجب أن أسأل سعادته الرضا قبل أن نرد على

الرسالة، إنه لا يعمل اليوم. لذا أغلقى، سوف ننجز الأمر باكرا». وتلكأت للحظة حوله وهى تحس خيبة الأمل قبل أن تلم حافظته وتضع المفتاح فى خزينته الخاصة. وقالت: «حسنا جدا».

«ليس هنالك ما يدعو إلى العجلة»، قال ماونت أوليف. أحس أن حياته تنبسط الآن أمامه، إنه يوشك أن يولد من جديد. «إننى لا أعتقد أن أوراق اعتمادى سوف تصل قبل يونيو، وهكذا.» لكن عقله كان يسابق الزمن فى خط مواز له قائلا: «إن السفارة بأكملها تنتقل إلى الإسكندرية إلى مقرها الصيفى، فى يونيو، لو أستطيع أن أضبط وقت وصولى..».

ثم جاءت، جنبا إلى جنب مع إحساسه بالنشوة، خلجة ألم من نزق فى طبعه. إن ماونت أوليف، شأنه فى ذلك شأن غالبية الناس الذين لا يوجد لديهم من يسبغون عليهم مودتهم، يميل إلى الاستهانة بالأمور المالية. ولما كان حاله، بهذا الخصوص، قد تجاوز كل معقول، فقد أحس فجأة بالإحباط، عندما فكر فى الرداء الرسمى الثمين الذى يقتضيه وضعه الجديد. لقد كان هنالك، فى الأسبوع الماضى فقط، كتالوجا من «سكينرز» يبين زيادة كبيرة فى أثمان الزى الرسمى لـ «الخدمة الأجنبية».

نهض وتوجه إلى الحجرة المجاورة ليرى السكرتير الخاص. كانت الحجرة خالية، ومدفأة كهربية تتوهج، وسيجارة مشتعلة فى منفضة السجائر بجوار الجرسين اللذين كتب عليهما على التوالى: «سعادته» و«سعادتها». وقد كتب السكرتير بيده المستديرة الأنثوية فوق الوراقة إلى جوارهما: «لا إيقاظ قبل الحادية عشرة». كان هذا يشير بالطبع إلى «سعادته»، لأن «سعادتها» كانت قد عملت على ألا تبقى فى «موسكو»

غير ستة شهور، قبل أن تخلد إلى ملذات «نيس» حيث تنتظر زوجها بعد اعتزاله، وأطفأ ماونت أوليف السيجارة.

لم تكن هنالك جدوى من محاولة مقابلة رئيسه قبل منتصف اليوم، حيث كان الصباح فى روسيا كربا وعذابا للسير لويس، مع جمود فى النفس، وضيق فى الخلق مما كان يجعله، فى غالب الأحوال، لا يستجيب لأى آراء. إنه لا يستطيع، بكل أمانة وإخلاص، أن يفعل أى شىء يحدد مستقبل ماونت أوليف، لكنه، رغم ذلك، يستطيع ببساطة أن يبدى استياءه لعدم استشارته طبقا للعرف الذى جرى عليه «السكرتير الخاص الأساسى»، لقد أوى، على أى حال، إلى مكتبه الخالى، وانغمس يقرأ آخر نسخة من «التيمس»، منتظرا فى صبر لا يستطيع كتمانه، أن تدق ساعة الاستقبال محددة منتصف النهار، بشهقاتها وحفيفها الصاخب. ثم هبط السلم وانزلق إلى مقر السفير مرة أخرى، خلال الباب المبطن، وهو يسير بمشيته السريعة العرجاء، عبر الأرضيات المصقولة، بما عليها من سجاجيد، لا لون لها، أشبه بأرخبيل ناعم. كل شىء يفوح برائحة الإهمال وطلاء التلميع «مانسيون» ومن الستائر تفوح رائحة دخان السيجار. وكل نافذة مغطاة بستارة من ندف الجليد المندفعة.

كان «مريت» الخادم الخاص للسفير، يهم بصعود السلم ومعه صينية عليها خلاط الكوكتيل وقد امتلأ بالمارتينى وكأس واحدة. كان رجلا شاحبًا ثقيل البنيان، يتمتع بأهمية قيم أملاك الكنيسة وهو يتحرك يؤدى واجباته فى مقر السفير. وتوقف عندما حاذاه ماونت أوليف وقال فى صوت أجش. «لقد استيقظ للتو، وهو يرتدى ملابسه استعدادا لغداء عمل، يا سيدى». وأومأ ماونت أوليف برأسه وهو يعبره يرتقى السلم

كل درجتين معا، واستدار الخادم إلى الوراء، إلى مخزن الطعام، ليضيف كأسا أخرى إلى الصينية.

كان سير لويس يصفر فى اكتئاب لصورته المنعكسة فى المرآة الكبيرة، بينما يرتدى ملابسه. «آه يا ولدى» قالها بطريقة غامضة وقد وقف ماونت أوليف خلفه. «إننى أرتدى الآن ملابسى، إننى أعرف. فهذا يومى المنكود. لقد اتصل بى فى الحادية عشرة. إذن فقد فعلتها فى النهاية. تهانى».

وجلس ماونت أوليف عند طرف السرير، يحس بالارتياح لاستقبال الأخبار هكذا ببساطة واستمر رئيسه يجاهد مع رباط عنقه وياقته المنشاة بينما يقول: «أعتقد أنك تود الذهاب على الفور. آه إنها خسارة لنا».

واعترف ماونت أوليف فى بطء: «إن هذا سوف يكون ملائما لى».

«يا للأسى. كنت أتمنى لو أنك استطلعت رأيى. ولكن، فليكن مايكون». وأتى بحركة متموجة من يده الخالية. «لقد فعلتها. من ثلاثى القرون وخنجر إلى ثنائى القرنين وسيف ـ قمة المجد» وتحسس أزرار كُم قميصه الإفرنجى، ومضى يقول مفكرا: «يمكنك بالتأكيد، أن تبقى قليلا. إن الموافقة سوف تأخذ بعض الوقت. ثم يصبح عليك أن تتوجه إلى القصر وتقبل الأيادى، وكل مثل تلك الأمور. آه؟».

«إن لدى إجازات عدت أستحقها»، قال ماونت أوليف. وقد خفت ثباته الذى كمن تحت لهجته التى اتسمت بالحياء. وتوجه السير لويس إلى الحمام، وبدأ فى حك طاقم أسنانه بالفرشاة تحت الصنبور. وصاح وهو ينظر فى المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط، «وقائمة الشرف التالية، لابد أن تكون فى انتظارها؟».

«أعتقد ذلك». ودخل «مريت» ومعه الصينية وصرخ الرجل العجوز «ضعها فى أى مكان. هل أحضرت كأسا ثانية؟».

«نعم يا سيدى».

ونهض ماونت أوليف ليصب الكوكتيل، بينما الخادم ينسحب فى رقة ويغلق الباب وراءه. كان سير لويس يتحدث إلى نفسه متأففا، «سوف يكون الأمر عسيرا على البعثة. حسنا، على أى حال، يا دافيد، أراهن أن أول رد فعل لك قبل هذه الأخبار هو: إننى الآن حر، أفعل ما أشاء، آه؟» ونق كما تنق الدجاجة وهو يعود إلى التسريحة وقد ارتفعت معنوياته. وصمت مرءوسه وهو يصب الشراب، وقد أجفل من مثل تلك الفراسة غير العادية، وقال عابسا: «كيف أمكنك معرفة ذلك». ونق سير لويس، مرة أخرى، راضيا عن نفسه.

«إننا جميعا نفعل ذلك، إننا جميعا نفعل ذلك، إنه الوهم النهائى، يجب أن تمر به كما مررنا به جميعا، أنت تعرف ذلك، إنها لحظة خادعة، سوف تسيطر عليك وأنت ترتكب الخطيئة ضد الروح القدس، إن لم تأخذ حذرك».

«ماذا يمكن أن يكون ذلك؟».

«إنها محاولة السلك الدبلوماسى أن يقيم سياسة اعتمادا على وجهة نظر الأقلية. إنها نقطة الضعف فى كل مكان. انظر كم يستهوينا ـ فى غالب الأحيان ـ أن نقيم شيئا ما اعتمادا على «اليمين» هنا. آه؟ ألا نفعل ذلك؟ إن الأقليات لا جدوى منها إن لم تكن معدة للقتال. تلك هى المسألة». وتناول مشروبه بأصابعه الوردية العجوز، وراقب فى استحسان أنفاس الندى فوق الكأسين الباردتين. وتبادلا الأنخاب

وهما يبتسمان فى مودة. لقد صارا فى السنتين الأخيرتين، من أقرب الأصدقاء. «سوف أفتقدك، إلا أننى فى غضون أشهر ثلاثة تالية سوف أخرج من هذا . . . أخرج بنفسى من هذا المكان». قال الكلمات فى حماس سافر: «لا مزيد من الترهات حول «الموضوعية»، إن المكتب الشرقى يستطيع أن يحصل على بعض النتائج اللطيفة غير المتحيزة، تصلح مادة لكتابة تقاريرهم، من «مدرسة لندن للاقتصاديات». كان «المكتب الأجنبى» قد اشتكى من أن رسائل البعثة ينقصها التوازن، كانت تستثيره حتى أكثر الأمور التى لا تعتد بها الذاكرة. ووضع كأسه الفارغة وهو ينظر فى المرآة، «التوازن، إن «المكتب الأجنبى» لو أرسل بعثة إلى بولينيزيا، فإن فيه من يتوقعون أن تبدأ رسائل البعثة هكذا (وهنا جعل لهجته متذللة متأوهة)، «رغم حقيقة أن الأهالى يأكل الواحد منهم الآخر، إلا أن معدل استهلاك الغذاء لكل رأس، مرتفع بصورة ملحوظة». وتوقف فجأة ليجلس ويشد رباط حذائه. قال: «أوه دافيد، يا ولدى أى شيطان ذلك الذى سيكون فى استطاعتى الحديث إليه بعد ذهابك؟ آه؟ سوف تسير فى زيك المضحك وفى قبعتك ريشة عقاب يبدو كريشة كابية لنوع نادر من الطيور الهندية، وأنا أهرول جيئة وذهابا لأرى تلك الوحوش الغبية».

كان الكوكتيل قويا إلى حد ما. وشرعا فى إعداد الكأس الثانية. وقال ماونت أوليف: «لقد جئت، فى الواقع لأرى إن كان فى الإمكان شراء زيك القديم، إن لم يكن هنالك من أوصاك به له. يمكننى أن أغيره وأبدله».

ـ «الزى؟». قال سير لورانس، «إننى لم أفكر فى ذلك».

ـ «لقد ارتفعت أسعاره بطريقة مخيفة».

ـ «أعرف ذلك، لقد زادت، ولكن عليك أن ترسل هذه البزة إلى الرجل الذى يقوم بتحنيط الطيور كى يصلح من شأنها. إن هذا النوع من الملابس لا يتناسق حول الرقبة أبدا، أنت تعرف ذلك. وكل تلك المواد المضفرة المجدولة. إننى، فيها كما أعتقد مثبت كحدوة الحصان، أو أتركها سائبة من الناحيتين. الحمد لله أنه لا يوجد هنا نظام ملكى ـ ذلك شيء طيب. ماذا عن سترات الفراك الجاهزة؟ حسنا، إننى لا أعرف».

وجلسا يقلبان الأمر مدة طويلة. ثم قال سير لويس: «كم تعرض علىّ؟»، وضاقت عيناه. وانتظر ماونت أوليف بضع لحظات قبل أن يقول: «ثلاثون جنيها» بقوة وحسم غير عاديين. وألقى السير لويس بذراعيه إلى أعلى متظاهرا بتقطع كلماته: «فقط ثلاثون جنيها؟ لقد كلفتنى . . ».

«أعرف ذلك»، قال ماونت أوليف.

«ثلاثون جنيها»، قال رئيسه وهو يحوم على حافة الغضب: «إننى أعتقد يا ولدى العزيز. . . ».

«السيف مثنى بعض الشيء»، قال ماونت أوليف فى عناد:

«إنه ليس بهذا القدر من السوء»، قال سير لويس، «لقد ضغط عليه ملك سيام باب سيارته الخاصة، إنها ثلمة حل بها الشرف». وابتسم مرة أخرى وأكمل لباسه وهو يهمهم لنفسه. كان يحس ببهجة غريبة وهو يساوم. ثم استدار فجأة.

قال: «اجعلها خمسين». هز ماونت أوليف رأسه متأملا، «هذا كثير جدا يا سيدى».

«خمسة وأربعون».

ووقف ماونت أوليف وأخذ يسير فى الحجرة جيئة وذهابا يتسلى بفرحة الرجل العجوز الواضحة، فى معركة الإرادة تلك. «سأعطيك أربعين»، قال أخيرا وجلس، مرة أخرى فى تصميم. وأخذ سير لويس يمشط شعره الفضى فى عنف بفرشاة صنع ظهرها من قواقع السلاحف: «هل لديك أية أشياء فى غرفة مؤنك؟».

«للحقيقة، نعم، لدى»

«حسنا إذن. سنأخذها بأربعين إن أحضرت صندوقين من . . . ماذا لديك هل لديك شمبانيا محترمة؟».

ـ «نعم».

ـ «حسنا جدا ـ صندوقان، لا، ثلاثة، من نفس النوع».

ضحكا وقال ماونت أوليف: «إنها مساومة عسرة تلك التى أدرتها». وسعد سير لويس بهذا الإطراء، وتصافحا. كان السفير يوشك أن يستدير إلى صينية الكوكتيل عندما قال مرءوسه: «اغفر لى ياسيدى، فتلك هى الكأس الثالثة».

«حسنا؟»، قال الدبلوماسى العجوز متظاهرا بالانزعاج والحيرة، «ماذا عنها»؟ كان يعرف ذلك جيدا، «لقد طلبت منى بوضوح أن أحذرك»، قال لائما. وألقى سير لويس بنفسه أكثر إلى الوراء، وهو يتظاهر بمزيد من الدهشة: «ما الخطأ فى هزة أخيرة للعظام قبل الغداء، إه؟».

«سوف تهمهم فقط»، قال ماونت أوليف فى وقار.

«أوه، بوف، أيها الولد العزيز!»، قال سير لويس.

«سوف تفعلها ياسيدى».

كان السفير قد بدأ خلال السنة الأخيرة، وقبيل اعتزاله، يثقل فى الشراب ـ رغم أنه لم يبلغ البتة حدود التلعثم. ونمت وتطورت لديه، فى ذات الوقت خصلة جديدة تثير الدهشة، على نحو ما. كان إن انتعش من تناول العديد من كئوس نوع واحد من الكوكتيل يصدر جلبة كهمهمة منخفضة متصلة فى حفلات الاستقبال مما أكسبه سوء السمعة. إلا أنه، هو نفسه، لم يكن مدركا لهذه العادة، ولقد أنكرها، فى الحقيقة، غاضبا فى مبدأ الأمر. إلا أنه وجد ـ لدهشته ـ أنه اعتاد الهمهمة، مرة بعد أخرى، فى صوت جهير عميق، فقرة من «الزحف الميت» فى «شاءول». وقد كان ذلك مناسبا تماما كحصيلة للحياة التى يحياها، حياة سأم حاد، تنقضى فى صحبة موظفين بلا صداقة وشخصيات مرموقة فارغة. ربما كان ذلك رد فعله، على نحو ما، لحالة أدركها بشعور خفى، حالة لا تطاق مدة عدد من الأعوام. وكان يحس بالامتنان لماونت أوليف، إذ كانت لديه الشجاعة كى ينبهه إلى هذه العادة، ويعاونه فى التغلب عليها. لكنه، على أى حال، كان يحس دوما بأنه ملزم بالاحتجاج، رغما عنه، كلما ذكره مرءوسه بذلك. «هوم؟»، كررها الآن وهو يبرطم غاضبا: «إننى لم أسمع أبدا بمثل هذه الترهات». إلا أنه وضع الكأس وعاد إلى المرآة يلقى على نفسه نظرة أخيرة فاحصة فى التواليت. وقال: «حسنا، لقد حان الوقت على أى حال»، وضغط الجرس، فظهر «مريت» ومعه طبق عليه ياسمين حجازى. كان سير لويس متحذلقا، على نحو ما، فيما يختص بالزهور. كان يصر دومًا على وضع زهرته المفضلة فى عروة

سترته عندما يرتدى ملبسه المعتاد(*) . كانت زوجته ترسل إليه صناديق منها بالطائرة من «نيس» . وكان مريت يحفظها فى ثلاجة غرفة المؤن، حتى يمكن الأخذ منها بدقة وعناية .

قال : «حسنا يادفيد» ، وربت على ذراع ماونت أوليف فى مودة : «إننى مدين لك بالعديد من طيب الصنيع ، لاهمهمة اليوم ، فذلك هو الأمر الذى يليق» .

وسارا معا فى بطء يهبطان السلم الطويل المنحنى كقوس ، ومنه إلى البهو حيث رأى ماونت أوليف رئيسه يرتدى قفازه ومعطفه قبل أن يستدعى السيارة الرسمية من هاتف المنزل : «متى تود أن تغادر؟» ، ارتعش الصوت العجوز فى أسف صادق :

ـ«أول الشهر القادم ياسيدى . إن هذا يكفل لى من الوقت ما يكفى لتصفية أعمالى ، والوداع» .

«ألن تبقى حتى ترانى وأنا أعتزل؟» .

«إن أمرتنى بذلك يا سيدى» .

«أنت تعرف أننى لن أفعل ذلك» ، قال سير لويس وهو يهز رأسه البيضاء ، رغم أنه فعل فيما مضى ما هو أسوأ من ذلك . «لن أفعلها أبدًا» .

وتصافحا بحرارة مرة أخرى ، بينما عبرهما مريت ليفتح الباب الأمامى الثقيل ، إذ كانت أذناه قد التقطتا صرير وزحلقة الإطارات المطاطية للسيارة فوق الصقيع فى الخارج . واندفعت نحوهم لفحة من

(*) بالفرنسية فى الأصل .

ريح وجليد، فارتفعت السجاجيد فوق الأرض ثم انحطت مرة خرى، وارتدى السفير غطاء رأسه الكبير المصنوع من الفرو، ودفع يديه فى فروة لغطاء اليدين، ثم انحنى مرتين وسار مختالا إلى الخارج، إلى الشتاء الرمادى. وتنهد ماونت أوليف، وسمع ساعة مقر السفير تسلك حلقومها المترب فى عناية قبل أن تدق الواحدة.

وكانت روسيا تقبع وراءه.

* * *

كانت برلين أيضا فى قبضة الجليد، إلا أن الفجر الكئيب الذى ينخس المرء فى روسيا قد استبدل هنا بنشوة خبيثة لا تقل إثارة للإحباط. كان الجو مشحونا بالإبهام والحيرة واستمع متأملا، فى الضوء الأخضر الرمادى لمصابيح السفارة، إلى آخر التقديرات حول «أتيلا» الجديد وتلخيص قيم للتكهنات المحتملة والتى ملأت خلال الأشهر الماضية الأوراق المرمرية لمحاضر اجتماعات «الإدارة الألمانية» وأكداس مطبوعات الـ «ت. س» ـ التقييمات السياسية. هل أصبح الآن واضحا بحق أن هذه الأمة ذات الباع الطويل فى عالم السياسة الجهنمية سوف تنتهى إلى إغراق أوروبا فى بحر من الدماء؟ لقد بدت الحالة مهيمنة وقد استحوذت على كل شىء. إلا أنه كان هنالك أمل واحد ـ أن يستدير «أتيلا» إلى الشرق، وأن يترك الغرب الخانع يبلى ويتعفن فى سلام. أن يقتتل الملكان الأسودان اللذان يحومان فوق عقل أوروبا الباطن ويحطم الواحد منهما الآخر . . . هنالك أمل حقيقى فى أن يحدث هذا. «إنه الأمل الأول الوحيد ياسيدى»، قال الملحق الدبلوماسى فى هدوء وفى صوته رنين تلذذ معين. إن ما يسعد جزءا من العقل، حقا، هو البحث عن الدمار الشامل كالعلاج الشافى

الوحيد للسأم والملل التقليدى للإنسان المعاصر. وكرر قائلا: «الأمل الوحيد». وفكر ماونت أوليف متجهما، إنها وجهات نظر متطرفة، كان قد تعلم أن يتجنبها لقد غدا ذا طبيعة ثانية، ألا يلتزم عقله.

دعاه القائم بالأعمال، فى تلك الليلة، لعشاء اتسم بالإسراف، حيث كان السفير غائبا، يقوم بمهمة ما، وأخذه بعد العشاء إلى ملهى فى الـ «تانزفست» الحديث. كانت هنالك شبكة من الأقبية المضاءة بالشموع، وقد كسيت جدرانها بالدمقس الأزرق، ومئات السجائر تتوهج، تومض، تتجاوز مدى الأضواء البيضاء حيث رجل مخنث له وجه كركون البحر يقود الفرقة الموسيقية، يضبط إيقاع مقطوعة «الثعلب ماكابر توتنتانز». وانطلقت اللازمة الموسيقية بمقطعها الختامى الهيستيرى تستحم فى العرق اللؤلؤى للاعبى الساكسافون الزنوج.

برلين، راقصك هو الموت
برلين، أنت تحفرين بسعادة فى البراز
كُفى دعيه وفكرى قليلا
لن تنفضى العار عن جسدك
لأنك تقتتلين، ترقصين فى صخب، تراوغين فوق برميل بارود(*).

كانت تلك المقطوعة تعليقا مثيرا للإعجاب على مادار من مداولات فيما بعد الظهر، وبدا له أنه استطاع أن يمسك بسريان الأصوات الخافتة لمقاطع قديمة، ربما من الـ «تاسينوس»(**)؟ أو ربما من ولائم ملذات المحاربين الواهبين أنفسهم للموت المتجهين قدما إلى مثوى الشهداء؟،

(*) بالفرنسية فى الأصل.
(**) تاسينوس كورنيليوس ـ خطيب ومؤرخ يونانى، ٦٥ ـ ١٢٠م: (المترجم).

كامنة تحت تلك الانطلاقة التى تلهب العقل ووراء حرارة الغناء. كانت رائحة المجزر الثقيلة تعلق بها صورة ما، رغم شرائط الزينة والبيارق والأعلام. وجلس ماونت أوليف بين حلقات دخان السيجار البيضاء، يراقب الحركات الدودية المتقلصة الفظة للمؤخرات السوداء. وأخذت الكلمات تكرر نفسها، مرة بعد أخرى، فى عقله: «لن تنفضى العار عن جسدك»، كررها لنفسه وهو يراقب الراقصين وهم يندفعون والأضواء تتغير من الأخضر والذهبى إلى البنفسجى.

ثم جلس فجأة منتصبا وقال: «يا إلهى»، لقد شاهد وجها مألوفا لديه فى الركن البعيد للقبو: وجه نسيم، كان يجلس إلى منضدة بين مجموعة من المسنين فى أردية المساء يدخنون سيجار مانيلا الهزيل ويومئون من وقت لآخر، كأن ما يجرى فى الملهى لا يكاد يجذب انتباههم، وقد انتصبت فوق المائدة زجاجة خمر كبيرة. كان بعيدا إلى حد لا تفيد فيه الإشارات، فأرسل ماونت أوليف إليه بطاقة، وانتظر حتى رأى نسيم وهو يتابع أصبع النادل الذى كان يشير به إليه فابتسم ورفع يده ملوحا. ووقف كلاهما وجاء نسيم على الفور إلى منضدته بابتسامته الدافئة الخجولة، وهو يطلق تعبيرات الدهشة والبهجة المألوفة. قال: إنه كان فى زيارة عمل مدة يومين فى برلين. وأضاف فى هدوء: «كنت أحاول تسويق التنجستين». كان مزمعا العودة فجر اليوم التالى. وقدمه ماونت أوليف إلى مضيفه وهو يغريه بقضاء لحظات على منضدتهما. «إنها لحظة نادرة من السعادة». كان نسيم قد سمع، بالفعل عن شائعة تعيينه الوشيكة الحدوث قال: «إننى أعلم أنها لم تتأكد بعد، لكنها تسربت رغم ذلك ـ ولا حاجة للقول أنها قد تسربت عن طريق بورسواردن. إنك تستطيع تصور فرحتنا بعد كل هذه المدة الطويلة».

واستمرا يتحدثان فترة من الوقت ونسيم يبتسم وهو يجيب عن أسئلة ماونت أوليف، فقط لم يأت ذكر ليلى فى بادئ الأمر. ثم كسا وجه نسيم بعد حين تغير غريب ـ نوع من المكر العفيف، قال فى تردد: «أود أن أخبرك بسر صغير. إننى أزمع الزواج». واتكأ إلى الخلف وسحب أنفاسا بطيئة من سيجاره. وأخذ ماونت أوليف يهنئه، إلا أن تلك التهانى عجزت عن مداراة مسحة طفيفة من أسى أحسه ـ فالمرء يخشى دوما زواج صديقه، إذ إنه يشتمل ضمنا على خطر احتمال أن يستبعد الانصراف الجديد إلى المنزل، صداقته «إنها أخبار طيبة للغاية حقا!»، قالها فى حماس شديد محاولا أن يهدئ شكوكه، واستطاع أخيرا أن يذكر ليلى، «سوف يسعد ذلك ليلى كثيرًا». ورفع نسيم إليه نظرة سريعةمن تحت أهدابه الطويلة، ثم نظر إلى البعد فى سرعة.

قال: «هذا غير مؤكد، حتى الآن».

وأخذ ماونت أوليف يستنطقه بطريقة مهذبة.

قال نسيم فى سرعة وفتور: «الفتاة التى أتحدث عنها يهودية قبل كل شىء ـ وأنت تعرف الذعر القبطى الغريب من اليهود. إننا حتى لدينا مثل يقول: «إن أنت تركت الثعلب اليهودى فى كرمة عنبك، فإنه سوف يأكل حياتك».

«أعرف ذلك»، قال ماونت أوليف: «إلا أن آل الحصانى بالتأكيد. . . ؟».

«ثم إنها ليست ذات وضع فى المجتمع. وأخيرا فهى مطلقة».

نطق نسيم كل تلك العوامل فى فتور أكثر. وأطفأ سيجاره ناظرا إلى ماونت أوليف نظرة أخرى من تحت أهدابه، وقال صديقه فى هدوء: «ولكن، إن كنت أنت تحبها؟». وهنا ـ لدهشته ـ ابتسم نسيم ابتسامة

قصيرة قبيحة، وكأنه قصد بها أن يظهر استهجانه لذاته. ثم حك ذقنه في كمه وقال في بطء وتفكير كأنما يحدث نفسه: «الحب، نعم، حسنا، ولنفرض أنى أحبها». إلا أنه وقف للحال ناظرا فى قلق صوب المجموعة الجالسة عند المنضدة البعيدة وقال: «يجب أن أذهب، أرجو أن تحتفظ بما قلت لك سرا مطلقا، هل تفعل ذلك؟».

وتناقشا فى خطط لقاء محتمل فى إنجلترا قبل أن يطير ماونت أوليف إلى موقعه الجديد. كان نسيم غامضا غير واثق من تحركاته. كان عليهما أن يرتبا مايجب بالنسبة لهذه المسألة، إلا أن مضيف ماونت أوليف كان قد عاد من حجرة إيداع المعاطف، وهى حقيقة منعتهما من الاستمرار فى مزيد من المناقشات الخاصة، فودعا بعضهما البعض فى رقة. وسار نسيم فى بطء عائدا إلى منضدته.

«هل لصديقك علاقة بمسائل السلاح؟»، قالها القائم بالأعمال وهما يغادران. وهز ماونت أوليف رأسه: «إنه من رجال البنوك ـ ما لم يكن للتنجستين دور فى مسألة السلاح ـ حقيقة، إننى لا أعرف». «لا أهمية لذلك». إنه فضول عقيم، أنت ترى أن كل من كانوا معه على منضدته، إنما هم من رجال «كروب»، ولهذا تساءلت، ذلك كل مافى الأمر».

* * *

(٤)

كان كلما عاد إلى لندن انتابته اللهفة المرتعشة للعاشق الذى فارق معشوقته زمنا طويلا. لقد عاد ـ إن جاز القول ـ وفى رأسه سؤال. هل تبدلت الحياة؟ هل تغير أى شىء؟ ربما استيقظت آلامه رغما عن ذلك، وبدأت تحيا؟ كان الرزاز الخفيف فوق «ميدان ترافالجار»، وأفاريز «هوايت هول» المغطاة بقشرة من السناج، واللطخ التى تثيرها إطارات السيارات وهى تدور فوق الحصباء، والصوت البطىء الغامض للنقل النهرى خلف غلالات الضباب ـ كانت كلها تبعث الطمأنينة والوعيد معا. لقد أحبها فى صمت، أحب كآبتها، رغم أنه كان يعلم فى أعماقه أنه لم يعد فى وسعه العيش هنا دوما، فمهنته قد جعلت منه مغتربا مهاجرا. وسار تحت المطر الناعم المتصل نحو «داوننج ستريت» متدثرا بمعطفه الثقيل، يقارن، من وقت لآخر نفسه وهو راض عنها، بصورة ما، «بالجراند ديوك» المسرحى، وهو يبتسم إليه من اللوحات التى تظهر، من حين لآخر، تعلن عن سجائر «دى رزك».

وابتسم لنفسه وهو يتذكر بعض انتقادات بورسواردن اللاذعة لعاصمة وطنهم، يكررها فى عقله فى سعادة، وكأنها تكاد تكون إطراء. كان بورسواردن ينقل يد أخته من كوع إلى آخر حتى يستطيع أن يكمل إشارة غامضة نحو تمثال «نلسن» الذى يبدو محترقا كالفحم، تحت حشود الحمام المتجمعة عليه، وكأنه مغطى بالزغب كلية، فى

مواجهة هذا البرد القارس. «آه، ماونت أوليف انظر إليها كلها، بلد الشواذ والعاجزين جنسيا. لندن! طعامك الفاتح للشهية وجبة من «باريوم»، ما تتأمله متلذذا تنغيص وإزعاج. قضاياك لا تضيع، لكنها ماتت من قبل». واحتج ماونت أوليف ضاحكا: «لا بأس، إنها بلدنا ـ وهى أكبر من كل نواقصها»، إلا أن رفيقه يرى أن مثل تلك المشاعر العاطفية غير متجانسة. وابتسم، الآن، وهو يتذكر نقد الكاتب الملتوى للكآبة والإزعاج والهمجية المحلية. أما عن ماونت أوليف فقد كانت تلك الكآبة تغذيه، تقوته. كان يحس بشىء ما أشبه بحب الثعلب لوجره. واستمع بابتسامة مرتاحة يستمتع برفيقه وقد وصل إلى خاتمة خطابه فى هياج ساخر من صورة جزيرته الوطنية: «آه. يا إنجلترا حيث يقبع أعضاء الجمعية الملكية وأمثالهم يأكلون اللحم مرتين فى اليوم، والفاكهة المستوردة المثلجة تلتهم عارية ـ البلد الوحيد الذى يخجل من الفقر».

دقت ساعة بيج بن نغمتها الغارقة. وقد أخذت المصابيح تلقى بإشعاعات ضوئها البراق. ورغم الأمطار، كان هنالك التجمع القليل المعتاد من السياح والمتبطلين خارج البوابات، «رقم عشرة». واستدار فى حدة وولج المدخل الصامت «للمكتب الأجنبى»، موجها خطاه المتباعدة نحو غرفة الحقائب والتى تكاد، الآن، أن تكون خالية، وأعلن عن نفسه، معطيا تعليماته بإرسال بريده إليه. وترك أمرا بطبع بطاقات دعوة جديدة أكثر تألقا.

وحل به مزاج تأملى، فسار فى خطى حذرة تلائم هذا المزاج، وأخذ فى ارتقاء السلم الرطب البارد، الذى تشيع فيه رائحة العنكبوت، حتى بلغ النوافذ الأشبه بالكوات للقاعة الكبرى والتى كان

يقوم على حراستها حجاب يرتدون زيا خاصا . كان الوقت متأخرا ، وغالبية العاملين الذين كان بورسواردن يطلق دوما عليهم : «برج الحمام المركزى» ، قد سلموا مفاتيحهم ببطاقاتها واختفوا . كانت توجد ، هنا وهناك ، فى المبنى الكبير واحات صغيرة من ضوء خلف نوافذ تحدها القضبان . وكان صوت خشخشة أكواب الشاى يأتى من مكان ما غير منظور وكان أحدهم منكبا على كومة من علب الإرسال الحمراء زاهية اللون والتى كانت مكدسة فى إحدى الطرقات معدة للتجمع . وتنهد ماونت أوليف فى سعادة . كان قد اختار ، عن قصد ، ساعات المساء حتى ينجز لقاءاته القليلة ، لكنه كان عليه أن يقابل «كنيلورث» . . . لم تكن له آراء محددة حول نقطة اللقاء ، لكنه يمكنه أن يكفر عن بغضه للرجال بأخذه إلى ناديه ليتناولا شرابا؟ فقد حدث ، عبر حياته ، أن جعل منه عدوا له ، إنه لا يستطيع أن يخمن كيف حدث ذلك ، إذ لم يكن النزاع مكشوفا ، لكنه كان كامنا هناك ، كعقدة فى خشب .

لقد تزاملا خلال المدرسة والجامعة ، وإن لم يكونا صديقين البتة ، ولكن بينما صعد ماونت أوليف سلم الترقية فى سلاسة وبصورة تتسم بالكمال ، تعثر الآخر ، على نحو ما ، وكان يخطئ دوما موضع قدميه ، وسار على غير هدى بين الإدارات قليلة الشأن ، ينال المكانة الروتينية المعتادة ، لكنه لا يمسك البتة بالموجة المواتية . كان ذكاء الرجل واجتهاده أمرين لا يمكن إنكارهما . لماذا لم ينجح أبدا؟ لقد سأل ماونت أوليف نفسه هذا السؤال مضطربا ناقما ، هل هو الحظ؟ إن كنيلورث هنا الآن ـ على أى حال ـ يرأس الإدارة الجديدة للأفراد ، لا يضير أحدا ، دون شك ، إلا أن فشله كان يربك ماونت أوليف . كان عارا بحق أن يكون رجلا بمثل موهبته ، مجرد مسئول عن واحد من تلك الأبنية الإدارية

الفارغة، والتى لا تقدم أى مدخل إلى عوالم السياسة. إنها نهاية ميتة. وهو إن لم يتطور بطريقة إيجابية، فإنه لابد أن يطور قواه السلبية المعوقة والتى تصدر دائما عن شعور بالفشل.

كان يصعد ـ وهو يفكر على هذا النحو ـ إلى الطابق الثالث، ليبلغ وجوده إلى «جرانير» وهو يتحرك عبر الغسق البنفسجى نحو الأبواب الكبيرة البيضاء الشاحبة، والتى يجلس خلفها السكرتير المساعد فى مكان أشبه بفقاعة متجمدة من ضوء أخضر، يرسم نقوشا فوق ورقة النشاف البنفسجية بسكين الأوراق، كانت التهانى هنا لها ثقل ما، فهى متبلة بالحسد المهنى. كان جرانير رجلا ذكيا، سريع الخاطر، حسن الخلق والطباع، يتمتع برشاقة عقلية ما، انتقلت إليه من جدته الفرنسية لأمه. كان من السهل أن يحبه المرء. يتكلم فى ثقة محددا عباراته بحركات محدودة من مثقلة الورق العاجية. وأحس ماونت أوليف بالتوافق، بصورة طبيعية مع سحر لغته ـ إنجليزية من حسنت تربيته ومنبته، مصقولة مهندبة، تحمل تلك الدلالات الخفية للقدرة على التمييز، تعبيرا عن الطبقة الاجتماعية المتحضرة التى تنتمى إليها.

«لقد قمت بزيارة قصيرة إلى بعثة برلين، كما أعرف؟ حسنا، أنك على أى حال، لو كنت تتابع «ت ـ س» (التقييمات السياسية)، فإنك سوف ترى ما يحتمل أن تصير الأمور إليه، وتكون قادرا على التعرف على مدى اهتمامنا وانشغالنا بوظيفتك أنت، إه؟». لم يستخدم كلمة الحرب بما لها من جرس مسرحى، «إننا، فى أسوأ الأحوال، لسنا فى حاجة لتأكيد أهمية السويس ـ حقا لكل مجموعة الدول العربية. ولكن حيث إنك قد خدمت هناك، فإننى لن أدعى إلقاء محاضرة عليك بخصوصها، إلا أننا سوف ننتظر ماتكتبه باهتمام، كما أنك تعرف العربية أيضا».

«لقد تلاشت معرفتى بالعربية، أصابها الصدأ».

«صه»، قال جرانير، «لا ترفع صوتك هكذا، فأنت مدين بوظيفتك لهذه المعرفة إلى حد كبير. هل يمكنك استرجاعها سريعا؟».

«إن سمحتم بما تراكم لى من إجازات».

«بالطبع. علينا أيضا، وقد تحدثنا عن البعثة كثيرا، أن نحصل على الموافقة وغيرها، كما أن وزير الخارجية سوف يرغب فى تداول الرأى عند عودته من واشنطن. ثم ماذا عن تقلد المنصب رسميا، وتقبيل الأيادى، وكل تلك الأمور؟ إننا رغم اعتبارنا كل تعيين من مثل هذا النوع عاجلا... حسنا، إلا أنك تعرف جيدا كما أعرف، الركود ـ الذى يشبه ركود حاكم صينى لإجراءات «م. أ» (المكتب الأجنبى)». وابتسم ابتسامته الذكية المتسامحة وهو يشعل سيجارة تركية: «إننى لست واثقا تماما، حتى وإن كانت تلك الفلسفة ليست بالفلسفة الصحيحة». واستمر يقول: «إننا مواجهون دوما، على أى حال، ورغم كل شىء، بما لا يمكن تجنبه، ولا سبيل إلى علاجه. إذ كلما تعجلت الأمور أكثر، غدا الارتباك أكثر! فحيث يزداد الهلع تقل الثقة. إن المرء، فى الدبلوماسية لا يمكن له إلا أن يقترح، عليه ألا يقرر، وألا يتخذ البتة موقفا، فذلك مرجعه إلى الرب، ألا تعتقد بذلك؟». كان جرانير واحدا من هؤلاء الكاثوليك الدنيويين الذين ينظرون إلى الإله باعتباره عضوا متجانسا فى منتدى، تعلو دوافعه عن كل سؤال. وتنهد وصمت لحظة قبل أن يضيف: «كلا، يجب أن نعد لك رقعة الشطرنج إعدادا جيدا. إذ لا يعتبر كل أمرئ مصر فاكهة خوخ طيبة المذاق. وهذا من حسن طالعك».

كان ماونت أوليف يبسط فى عقله خريطة مصر بعمودها الفقرى

المركزى الأخضر. والذى تحده الصحارى، وما فى شعبها وعقائدها من مظاهر شاذة يعلوها التراب والعفار. ثم وهو يراقبها تضمحل فى ثلاثة اتجاهات فى صحراء غير متماسكة وأرض عشبية شمالى السويس، فى مقطع أشبه بالعملية القيصرية، التى شق فيها الشرق بطريقة غير ملائمة، ثم مرة أخرى مجموعة من الجبال المتعرجة والجرانيت الخامد، ثم بساتين الفاكهة والتى وزعت، كيفما اتفق على الخريطة وقد حددت بالنقط. كان التشبيه بالشطرنج يتفق ومقتضى الحال، والقاهرة تقع فى مركز عش العنكبوت هذا. وتنهد وهو ينصرف. يعدوجها جديدا يحمى به كنيلورث سيئ الحظ.

وبينما يسير مفكرا عائدا إلى حيث الحجاب فى الطابق الأرضى، لاحظ فى فزع أنه قد تأخر بالفعل، عشر دقائق، عن لقائه الثانى، وتضرع إلى الله مخافة أن ينظر إلى هذا التأخير باعتباره إهانة متعمدة.

«لقد تحدث مستر كنيلورث مرتين ياسيدى. وقد أخبرته أين كنت».

وتنفس ماونت أوليف فى حركة أكثر، متوجها، مرة أخرى إلى السلم، ليستدير هذه المرة إلى اليمين، ليعبر فى سرعة عدة ممرات باردة، وإن كانت بلا رائحة، إلى حيث ينتظر كنيلورث، يربت عويناته، التى توضع على الأنف دون إطار، بإبهام كبير، حسن الشكل. وحيا كل منهما الآخر فى اندفاع عجيب مضحك، يخفى إخفاء جيدا، نفورا متبادلا. «عزيزى دافيد». وتساءل ماونت أوليف إن كان مرجع هذا التنافر، فى بساطة، إلى طبيعته الجسدية؟ كان كنيلورث ضخما، خنزيرى الهيئة، يزن أكثر من مائتى رطل من الطعام والثقافة المتعالية لمحدث نعمة. كان قد أصابه المشيب قبل الأوان. وقد

أمسكت أصابعه، المقلمة تقليما جيدا، قلما فى رقة توحى بأنه يعمل فى شغل المنمنمات أو الكروشيه لأول مرة. «عزيزى دافيد». وتعانقا فى حرارة، وتعلق كل الدهن على جسد كنيلورث الكبير وهو يقف. كان لحمة مجدولا أشبه بحبل غليظ من الأسلاك. «عزيزى كيتى»، قال ماونت أوليف فى توجس وتقزز من ذاته: «إنها لأخبار رائعة، إننى أغبط نفسى». وارتسم على وجه كنيلورث تعبير ماكر، «لقد كان لى دور ما، صغير للغاية، طفيف للغاية، فى هذا الأمر. لقد كان لمعرفتك اللغة العربية أثره، وكنت أنا الذى تذكرت ذلك! إنها ذاكرة معمرة. إنها أوراق العمل». وضحك فى ارتباك ضحكة مكتومة، ثم جلس وهو يُجلس ماونت أوليف إلى مقعد. وتحدثا لفترة حول الأماكن المألوفة لهما. وأخيرا عقد كنيلورث أصابعه معا فى حركة تفصح عن الضيق والتبرم وقال: «أما عن خرافنا(*)، يا ولدى العزيز، فقد جمعت لك كل ما يخصها من أوراق شخصية لتتفحصها. إنها كلها مرتبة ومنظمة. سوف تجد أنها بعثة جيدة الإعداد، جيدة الإعداد للغاية، إننى لدى كل الثقة فى رئيس العاملين بالاستقبال، «إيرول». بالطبع، سيكون لتوصياتك ثقلها. عليك أن تفحص تركيبة الموظفين، وعليك أن تخبرنى بما تراه، هل ستفعل ذلك؟ فكر أيضا فى معاون عسكرى خاص، إه؟ كما أنى لا أعرف رأيك فى مساعد شخصى، مالم تتخذ إجراء، قبل مجموعة العاملين على الآلة الكاتبة. إنك كأعزب تحتاج إلى شخص ما، خاص بالجانب الاجتماعى، أليس كذلك؟ لا أعتقد أن سكرتيرك الثالث سوف يكون ذا نفع كبير.

«سيكون فى وسعى بالتأكيد القيام بكل ذلك فى الموقع».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

«بالطبع، بالطبع. لقد كنت مشغول البال حتى أراك مستقرا مرتاحا قدر الإمكان».

«شكرًا».

«هنالك تغيير واحد، فقط، كنت سأتصرف فيه على مسئوليتى، إنه بورسواردن كسياسى أول».

«بورسواردن؟»، قال ماونت أوليف وقد أجفل.

«سأنقله. فقد قضى المدة القانونية، وهوليس سعيدا، حقيقة، بمهمته. إنه يحتاج إلى تغيير ما كما أعتقد».

«هل قال هو ذلك؟».

«ليس بهذا الوضوح».

وغاص قلب ماونت أوليف. وأخرج مبسم السجائر الذى لا يستخدمه إلا فى أوقات الحيرة فقط، ووضع فيه سيجارة من الصندوق الفضى الموجود على المكتب، وعاد إلى الجلوس فى الكرسى الثقيل قديم الطراز. وسأل فى هدوء: «هل لديك أى أسباب أخرى، لأننى شخصيا، أود الاحتفاظ به، لفترة على الأقل». وضاقت عينا كنيلورث الصغيرتان، وغمرت رقبته الثقيلة حمرة الضيق الذى كان يحاول أن يشق طريقه إلى وجهه، وقال فى إيجاز، «حتى أكون صريحا معك، نعم».

«أخبرنى».

«سوف تجد تقريرا مطولا عنه، كتبه إيرول فى الأوراق التى جمعتها لك، إننى لا أعتقد أنه يناسب المهمة بأى صورة من الصور. إن ضباط

الاتصال لا يعتمد البتة عليهم كضباط المهنة. إنه تعميم كما أعرف. إننى لا أقول إن صاحبنا غير مؤتمن ـ إن ذلك أمر مستبعد. لكننى أستطيع القول إنه صعب ومكابر. حسنا، فليكن(*)! إنه كاتب، أليس كذلك؟»، وأحس كنيلورث بالرضاء وهو يبتسم لا شعوريا فى ازدراء عندما لاحت له صورة بورسواردن. «لقد كان هناك احتكاك لاينتهى، إنه منذ الانتهاء التدريجى للمندوب السامى، بعد توقيع المعاهدة، نشأت، كما ترى، هوة هائلة، فراغ ما. إذ إن كل الوكالات التى نمت منذ عام ١٩١٨، والتى عملت فى خدمة المندوب السامى، قد خفضت دون هدف محدد، حتى إن البنيان الأصلى قد أخذ يخلى مكانه الآن لسفارة. سوف يكون عليك أن تتخذ بعض القرارات الحادة. كل شىء قد غدا أسداسا فى أسباع، بلا نظام أو ترتيب. إن الفكرة السائدة خلال العام والنصف الأخيرين، هى إرجاء عملية الإحياء والإنعاش ـ كذلك هنالك عداوات قائمة بين سفارة تفتقد رئيسها، وكل هؤلاء الأيتام الذين يناضلون ضد موتهم ونهايتهم. هل ترى؟ قد يكون بورسواردن ذكيا ولامعا، إلا أنه قد أثار الكثير من الضغائن، ليس فقط فى البعثة، إذ هنالك، أيضا، أناس مثل ماسكيلين، الذى يُسيِّر فرع مراجعة استخبارات المكتب الحربى منذ خمس سنوات مضت، إن كليهما يمسك برقبة الآخر.

«ولكن ما علاقة فرع الاستخبارات بنا؟».

«بالتحديد، لا شىء. إلا أن القسم السياسى للمندوب السامى يعتمد على تقارير استخبارات ماسكيلين. إن م. أ (مراجعة الاستخبارات) كانت هى الوكالة المركزية لمحفوظات الوثائق

(*) بالفرنسية فى الأصل.

والسجلات المركزية للشرق الأوسط، وكل الأشياء المماثلة».

«أين الخناقة إذن؟».

«إن بورسواردن، كسياسى، يشعر بأن السفارة - على نحو ما - قد ورثت أيضا إدارة ماسكيلين، عن المندوب السامى. ويرفض ماسكيلين الموافقة على ذلك، إنه يطالب بالمساواة التامة أو حتى الحرية التامة لعمله. إنه عمل عسكرى على أى حال».

«إذن دعه يكون تحت مسئولية الملحق العسكرى فى الوقت الراهن».

«حسنا، إلا أن ماسكيلين يرفض أن يكون جزءاً من بعثتك حيث إن أقدميته أكبر من أقدمية ملحقك العسكرى».

«ما كل هذا الهراء. مارتبته؟».

«بريجادير. وقد غدت القاهرة، كما ترى منذ انتهاء عملية ١٨، هى المكتب الأعلى مقاما فى شبكة الاستخبارات وكانت كل أعمال الاستخبارات تمر خلال ماسكيلين. ويحاول بورسواردن الآن، أن يستولى عليها بوضع اليد، أن يدفعها إلى الانحناء. معركة طريفة بالطبع. وإيرول المسكين، والذى أقر - فى الحقيقة - بضعفه على نحو ما، يرفرف بينهما كشراع محلول، ولذا اعتقدت أن عملك سيكون أسهل، إن أنت عزلت بورسواردن».

«أو ماسكيلين».

«حسنا، إلا أنه ضابط حربى، وأنت لا تستطيع عزله، إنه، على أى حال، متلهف على وصولك وعلى فصلك فى هذا النزاع، إنه على يقين من أنك سوف ترسخ استقلاله تماما».

«إننى لا أستطيع إجازة وجود وكالة مكتب حربى مستقل فى موقع أوكلت مسئوليته إلىّ. هل أستطيع ذلك؟».

«إننى أوافق، إننى أوافق، يازميلى العزيز».

«ماذا يقول المكتب الحربى فى ذلك؟».

«أنت تعرف العسكريين! سوف يقفون مع أى قرار تختاره. سوف يفعلون ذلك. إلا أنهم مغروسون هنالك منذ سنوات. إن لهم فروعا للعاملين معهم، وكذلك أجهزة إرسال فى الإسكندرية، إننى أعتقد أنهم يودون البقاء».

«ليس كمستقلين. كيف يمكننى فعل ذلك؟».

«بالطبع. ذلك مايدعمه بورسواردن، إلا أن أحدا ما عليه أن يخوض فى مسألة العدالة والإنصاف. إننا لا نستطيع احتمال كل هذا الوخز بالدبابيس».

«ماذا تعنى بهذا القول عن الوخز بالدبابيس؟».

«حسنا. إن ماسكيلين هو الذى يمسك بالتقارير، وهو يجبر الآن على التخلى عنها، مكرها، إلى «الفرع السياسى». ثم يقوم بورسواردن بنقد دقتها والتساؤل عن قيمة فرع مراجعة الاستخبارات. إننى أقول لك: إن ذلك لعب حقيقى بالنار. ليس الأمر هزلا، ومن الأفضل عزل هذا الرجل، وكما تعرف فإن. . . له أصحابا غريبى الأطوار. إن إيرول قلق من ناحية أمنه، خذ بالك، ليس هنالك شىء ضد بورسودان، إنه، فى بساطة، حسن. . . سوقى، يمكنك أن تقول ذلك، إننى لا أعرف كيف أكيف الأمر، ذاك ما جاء فى أوراق إيرول».

وتنهد ماونت أوليف: «إنه بالتأكيد كالفرق بين أيتون وورثنج، مثلا، أليس كذلك؟» وحملقا فى بعضهما البعض، دون أن يفكر أى منهما فى أن تلك الملاحظة فكهة تثير الضحك. وهز كنيلورث كتفيه فى استياء واضح وقال: «إن رأيت ياعزيزى، أن تجعل من هذه المسألة نقطة خلاف مع قسم الأمن فلا حيلة لى فى ذلك، لأنك سوف تنقض اقتراحاتى، إلا أن وجهات نظرى مسجلة الآن، ولتسامحنى لأنى سأبقيها كما هى، تعقيبا على تقارير إيرول. إنه رغم كل شىء من كان يُسيِّر العمل».

«إننى أعرف».

«ليس فى هذا أى عدل».

وأحس ماونت أوليف، مرة أخرى، وهو يقلب كوامن مشاعره، بطريقة غائمة، أن جوهر القوة قد أصبح الآن متاحا له ـ قوة اتخاذ قرارات فى مسائل مثل تلك التى تركت حتى الآن لتصاريف القدر، أو أمليت فيها أوامر عشوائية لإرادات توفيقية، مسائل لم تكن تثير النقمة والشكوك، وكان يمكن للعقل أن يصل فيها إلى قرار إجمالى. ولكن إن كان عليه أن يطالب بعالم يتخذ فيه الإجراءات، كميراث حقيقى له، فعليه أن يبدأ فى مكان ما ـ إن لرئيس البعثة حق اقتراح الطاقم الذى يختاره ويتكفل به. لماذا على بورسواردن أن يعانى كل هذه المتاعب الإدارية الصغيرة، ويتحمل منغصات نقل جديد إلى مكان ما لايتجانس معه؟ «إننى أخشى أن يخسره المكتب الأجنبى كلية، إن نحن تلاعبنا به» قال ماونت أوليف. لم يكن قوى الحجة. ثم أضاف، كأنما يقدم اقتراحا غير مباشر عوضا عن ذلك: «على أى حال، أرى الاحتفاظ به لفترة ما».

كانت الابتسامة التى لاحت على وجه كنيلورث لا تبين فى عينيه. وأحس ماونت أوليف بالصمت يطبق عليهما كباب القبو. لم يكن هنالك ما يمكن فعله فى هذا الصدد. فنهض وهو يبالغ فى إظهار تصميمه، فألقى بعقب سيجارته فى منفضة السجائر القبيحة، بينما يقول: «تلك وجهات نظرى على أى حال، وفى وسعى أن أستبعده إن كان غير ذى نفع لى».

وابتلع كنيلورث ريقه فى بطء. كضفدع قابع تحت حجر، وقد ثبت عينيه الخاليتين من التعبير على ورق الحائط الحائل اللون. وكان هسيس حركة المرور الهادئ يتدفق فيما بينهما. قال ماونت أوليف: «يجب أن أذهب»، وقد بدأ يحس الضيق من نفسه: «إننى أجمع كل الملفات لآخذها معى إلى البلدة مساء الغد، سوف أنهى اليوم وغدا كل اللقاءات الروتينية، ثم.. ثم أحصل على أجازة كما أتمنى. وداعا كينى».

«وداعا»، لكنه لم يتحرك من مكتبه، فقط أومأ برأسه مبتسما، بينما ماونت أوليف يغلق الباب، ثم استدار، وهو يتنهد إلى مذكرات إيرول الدبلوماسية المكتوبة بعناية على الآلة الكاتبة والتى كان قد تم تجميعها فى ملف رمادى كتب عليه: « خاص بالسفير تحت التعيين». قرأ بعض السطور، ثم نظر إلى أعلى ـ فى سأم وإعياء ـ إلى النافذة المعتمة قبل أن يعبر الحجرة ليزيح الستائر ويرفع الهاتف قائلا: «أعطنى، لو سمحت، المحفوظات والوثائق».

إنه من الحكمة، فى هذا الوقت، ألا يعلن عن رأيه.

إن هذا السخف المنفر، على أى حال، هو الذى أثر على ماونت أوليف ليدع جانبا خطته لاصطحاب كنيلورث إلى ناديه. وأحس

بالراحة على نحو ما، فاتصل هاتفيا بليزا بورسواردن، بدلا من ذلك، وأخذها معه للعشاء.

كانت المسافة إلى «ديوفورد مالوس» لا تستغرق غير ساعتين، لكنهما ما إن غادرا لندن حتى اتضح أن الريف كله غارق بعمق تحت الجليد. كان عليهما الإبطاء إلى حد الحبو مما أبهج ماونت أوليف لكنه أثار غضب سائق المركبة. قال: «سوف نصل هنالك فى عيد الميلاد ياسيدى، إن وصلنا أصلاً».

كانت القرى تبدو وكأنها فى العصر الجليدى، وقد غطى تماما جليد له بياض الدقيق أسطح الحظائر والأكواخ فيها. كان يتلألأ كأنه صادر عن صينية صانع حلوى خبير فى صناعته، ومروج بيضاء، تنحنى، تتلوى، وعليها، كالكتابة المسمارية، آثار أرجل صغيرة لطيور أو ثعالب الماء أو بقع ذوب الجليد بسبب الماشية. كانت نوافذ المركبة محكمة الإغلاق وقد صمغها الصقيع. لم يكن معهما سلاسل أو مدفأة ورأيا بعد أميال ثلاثة من القرية، شاحنة محطمة يقف إلى جوارها، فى تكاسل، زوج من القرويين ورجل آخر ينفخون فى أصابعهم الهالكة. وكانت أعمدة التلغراف ترقد أرضا فى الجوار. وطائر ميت فوق الجليد الرمادى البراق «لبحيرة نيوتن» ـ كان صقرا. لن يستطيعاالبتة اجتياز «بارسون ريدج»، وأشفق ماونت أوليف على سائقه، فطلب منه، فى إيجاز، العودة إلى الطريق الرئيسى عند أسفل الكوبرى، قال: «إننى أسكن هنا فوق التل، ولن يستغرق الأمر منى غير السير خمسا وعشرين دقيقة فقط». وابتهج الرجل بعودته، غير راغب فى قبول البقشيش الذى قدمه له ماونت أوليف. وارتد فى بطء واستدار بالمركبة بعيدا نحو الشمال، بينما خطا راكبه إلى الأمام فى بهاء الجليد، وأنفاسه المتكاثفة تتقدمه كعمود.

سار على المدق المعتاد عبر الحقول التى كان يزداد ميلها، وهى تنحدر أكثر فأكثر نحو خط السماء غير المرئى، (كان على ذاكرته أن تقوم مقام المدى الذى يبلغه بصره) ترسم شيئًا ما، منظرا طبيعيا، يبلغ فى بساطته حد الكمال الذى بلغته طائرة «كافندش الأولى»، منظرا له جلال الشعائر والطقوس، يكتنفه غموض طاغ بضياء شمس لا ترى، تتحرك نحو مكان ما خلف غلالات الضباب المنخفضة، والتى كانت تروغ من أمامه، تتراجع ثم تلتئم. كانت مسيرة غامرة بالذكريات ـ إلا أنه كان عليه، لقصور الرؤية، أن يتخيل مزرعتين على قمة التل، وخمائل أشجار الزان الثابتة، وبقايا قلعة رومانية. وكان حذاؤه يفصل مع كل خطوة يخطوها، وهو أشبه بالمنجل، كمية مرتعشة من قطرات المطر الرابض فوق العشب المورق، حتى تشبعت أطراف سرواله بالمياه وجمد كاحلاه.

وزحفت، من قلب اللامرئى، أطياف أشجار البلوط، وفجأة سمع خشخشة وطرطشة ـ كأنما أسنان تصطك من البرد. الجليد الذائب كان يتساقط قطرات، من فوق الفروع العليا، فوق سجادة من أوراق الشجر.

حدث، ذات مرة، أن حجب المكان كله فوق قمة التل. وانطلقت الأرانب فى رفق من كل ناحية. كانت الأعشاب الطويلة، الأشبه بالريش، منشاة كالأشواك من الصقيع. هنا وهناك كانت تلوح لمحات شاحبة من الشمس التى كان تلألؤها الوبرى يتألق عبر الضباب كرف موقد غاز يشتعل بالوهج، دون حرارة. وسمع، الآن طقطقة حذائه فوق حصى طريق من الدرجة الثانية، بينما يسرع خطاه نحو البوابات الطويلة للمنزل. وبالقرب كانت أشجار البلوط مرصعة بالماس،

واندفعت منها حمامتان سمينتان، واختفتا وأجنحتهما تخفق فى حدة أشبه بصوت إغلاق ألف كتاب. وأجفل إلا أنه تسلى بما رأى. كان هنالك «شكل» على مثال أرنب فى الحقل الصغير قرب المنزل. واختلطت وتزاحمت أصابع من ثلج، حول الأشجار، فى صليل غاضب - أشبه بصوت آلاف أقداح خمر مهشمة. وتحسس المفتاح «اليال» البارد وابتسم، مرة أخرى، وهو يحس به يدور فى القفل، يسمح له بالدخول إلى دفء لا ينسى، يفوح برائحة المشمش والكتب القديمة، بالطلاء والزهور، وكل الذكريات التى قادته، سديد الخطى، نحو «بيرز بلومان» والفرس الصغير وقصبة صيد السمك وألبوم طوابع البريد. ووقف فى البهو ينادى اسمها فى رقة.

كانت والدته تجلس إلى جوار النار، تماما كما تركها آخر مرة، تبتسم وكتاب مفتوح فوق ركبتيها. كانا قد تعارفا فيما بينهما على تجاهل اختفائه وعودته مرارا. : عليه أن يتصرف وكأنه قد تغيب للحظات عن هذه الحجرة المؤنسة التى قضت فيها حياتها تقرأ أو تقوم بأعمال الحياكة أمام المدفأة الكبيرة. كانت تبتسم الآن نفس الابتسامة التى تسر الزمان والمكان معًا، وتهدئ من وحدتها التى تقتلها عندما يكون بعيدا عنها. ووضع ماونت أوليف حقيبة أوراقه الثقيلة أرضًا، وأومأ مضطرا إيماءة صغيرة غريبة، بينما يتقدم نحوها قائلا : «أوه ياعزيزتى، إننى أرى من وجهك أنك قد سمعت. لقد كنت أمل، كثيرا، أن أفاجئك بأخبارى».

كان كلاهما كسير الخاطر بسبب هذه المسألة، وقالت له بينما تقبله : «لقد زارنا آل جارنير لنشرب الشاى معا، فى الأسبوع الماضى. آوه يادافيد، إننى آسفة أشد الأسف. كنت أرغب حقا فى أن تكون لديك مفاجأتك، إلا أن قدرتى على التظاهر سيئة للغاية».

وأحس ماونت أوليف بميل غريب إلى البكاء، فقد انتابه الغيظ أشد الغيظ . . كان قد ابتدع المشهد كاملا فى عقله، ووضع السؤال والجواب عنه، كان كل ما حدث أشبه بتمزيق مسرحية وضع المرء فيها كثيرا من خياله وجهده.

«اللعنة»، قال ماونت أوليف: «أى نزق هذا الذى فعلوا؟!».

«لقد كانوا يحاولون إدخال السعادة على قلبى وقد سعدت بالتأكيد. فى وسعك أن تتخيل كم كانت سعادتى ـ ألا تستطيع ذلك؟».

إلا أنه انتقل، من هذه المسألة فى خفة ودون جهد مرتدا، مرة أخرى، إلى مجرى ذكرياته التى أثارها المنزل حول والدته، عائدا إلى قرابة عيد ميلاده الحادى عشر حيث الإحساس بالرفاهية وسعة العيش، بينما دفء النار يصعد يحيى مقدمه.

«سوف يبتهج والدك»، قالتها فيما بعد، فى صوت جديد أكثر حدة مشبع بحذر لا يمكن إدراكه ـ دليل عاطفة روضت نفسها منذ زمن طويل على الإذعان كارهة. «لقد احتفظت لك بكل بريدك فى مكتبه». «مكتبه» ـ المكتب الذى لم يره والده البتة ولم يستخدمه. إن ارتداد أبيه قد وقف دوما بينهما كأوثق رباط لهما، إنهما نادرا ماناقشاه، إلا أنه، رغم ذلك، موجود هناك على نحو ما ـ الثقل غير المرئى لوجوده الخاص، بعيدا عن كليهما، فى ركن آخر من العالم، سعيدا أو تعسا: من ذا الذى يعرف ذلك؟ «إن الحقيقة الوحيدة، عند هؤلاء الذين هم على شاكلتنا، هؤلاء الذين يقفون على حواف العالم ولا يحتاجهم، فى ذات الوقت، أى رب من الأرباب، هى أن العمل هو الحب». جملة غريبة لافتة للنظر تصدر عن عجوز لتصبح جزءًا لا

يتجزأ من مقدمة، جديرة بعالم، لمخطط «بالى». كان ماونت أوليف قد قلب المجلد الأخضر مرة بعد أخرى، بين يديه يناقش معنى هذه الكلمات ويزنها قياسا على ذكراه عن والده - أسمر البشرة، نحيل البنية، له هيكل عظمى طائر بحرى جائع: يضع فوق رأسه غطاء من نسيج، غير لائق. إنه يرتدى الآن، كما هو واضح، أردية فقير هندى. هل للمرء أن يبتسم؟ إنه لم ير والده منذ غادر الهند فى عيد ميلاده الحادى عشر. كان كامرئ حكم عليه غيابيا لجريمة ما. . . لم يكن فى الإمكان، تحديد نوعه. كان انسحابا وديا تهيأ له قلبه منذ سنوات عديدة. كان الأمر كله مثيرا للحيرة والارتباك.

كان رئيس ماونت أوليف الكبير ينتمى إلى الهند التى اختفت، إلى فريق من حكامها الذين قادهم تفانيهم العام لمسئولياتهم إلى جعلهم طبقة اجتماعية متميزة، إلا أنها كانت طبقة اجتماعية أكثر فخرا وتيها بكونها أسيرة الثقافة البوذية أكثر من كونها أسيرة «قوائم الشرف». إن مثل ذلك التفانى، المنزه عن الغرض، غالبا ما ينتهى بأصحابه إلى اندفاع شديد للتعرف على الهوية الخاصة بالموضوع مدار بحثهم. . موضوع شبه القارة تلك، الممتدة، المنبسطة بطبقاتها وعقائدها، بجبالها ووديانها وأطلالها. لقد كان يعمل، فى بساطة، من البداية، قاضيا فى الخدمة، إلا أنه برز وتفوق، فى غضون أعوام قليلة، فى الثقافة الهندية، محررا ومترجما للمخطوطات النادرة والمهملة. وأقام ماونت أوليف الصغير ووالدته فى إنجلترا إقامة طيبة مريحة على أساس أنه سيلحق بهما عند اعتزاله. وأثث هذا المنزل السعيد، فى انتظار تلك الخاتمة، بكل الأشياء التذكارية، بالكتب والصور التى حظيت بخطة طويلة من العمل والإعداد. وإن كان يشيع فى هذا المنزل الآن، شىء ما من أجواء المتاحف، فإن مرجع ذلك إلى هجران صاحبه الحقيقى له،

فقد قرر أن يبقى فى الهند ليكمل دراساته التى (كما يعرفها الاثنان الآن) سوف تبقى ما بقى حيا. لم تكن تلك ظاهرة غريبة بين الموظفين الذين ينتمون إلى الفرق التى تشتتت الآن واختفت، إلا أن ذلك حدث على نحو تدريجى. لقد فكر مليا، فى هذا الأمر، لسنين قبل أن يصل إلى قرار، حتى إن الخطاب الذى كتبه إليهما يعلنهما فيه بقراره، كان يحمل طابع وثيقة تم تدارسها طويلا. لقد كان هذا الخطاب فى الحقيقة هو الأخير الذى تسلمه منه أى منهما، كان يحضر من وقت لآخر، على أى حال، أحد العابرين الذين يزورونه فى مأواه البوذى، الذى اعتزل فيه، قرب «مدراس»، رسالة ودية منه، بالطبع وصلت كتبه بانتظام، واحدا بعد الآخر، تتألق فى أغلفتها الجديدة، تحمل السمة المميزة الفخيمة «لمطابع الجامعة». كانت الكتب، على نحو ما، عذره واعتذاره معا.

واحترمت والدة ماونت أوليف هذا القرار. إنها الآن لا تكاد تتحدث عنه، كان المؤلف غير المرئى لحياتها المشتركة، يظهر هنا فقط من حين لآخر، فى هذه الجزيرة الثلجية، عند الإشارة إلى «مكتبه»، أو من ملاحظة لا يعلق عليها أحد، وتتبخر ثانية فى لغز حياة (بدت لهما) مجهلة ولا حل لها. إن ماونت أوليف لم يستطع البتة أن يرى ما يختفى وراء الاعتزاز البادى على وجه أمه حتى يحكم كم يمكن لهذا الارتداد أن يسىء إليها. ومع ذلك، فقد نمت فيما بينهما، حول هذا الموضوع، عاطفة حارة، حيث كان يؤمن كل منهما، فيما بينه وبين نفسه، أن الأمر قد أصاب الآخر بالجراح.

توجه ماونت أوليف قبل أن يرتدى ملابسه هذا المساء، من أجل العشاء، إلى المكتبة التى صفت بالكتب، والتى كانت حجرة السلاح أيضا، وتملك بصورة رسمية مكتب «والده»، والذى كان يستخدمه

كلما كان بالمنزل. ووضع ملفاته فى أحد الأدراج بعناية وأغلق عليها وأخذ فى فرز بريده. كان بين الخطابات والبطاقات البريدية ظرف كبير الحجم عليه طابع بريد قبرصى، ومعنون عليه بخط بورسواردن الذى لا يخطئ معرفته. بدا فى البداية وكأنه مخطوط ما، فأزاح الشمع بأصبعه وهو يحس الحيرة والقلق. كان الخطاب يقول: «عزيزى دافيد، سوف تصيبك الدهشة لإرسالى لك خطابا بهذا الطول، إننى لا أشك فى ذلك، إلا أن أخبار تعيينك قد وصلتنا فقط أخيرا على صورة شائعة، وهنالك الكثير الذى يجب أن تعرفه عن حالة الأوضاع هنا، والذى لا أستطيع أن أكتب عنه إليك رسميا باعتبارك السفير المرشح. (سرى: خاتم بريد جوى)! حم !».

وفكر ماونت أوليف وهو يتنهد: هنالك وفرة فى الوقت لدراسة كل هذه الكومة من المذكرات الدبلوماسية. وفتح درج المكتب، مرة أخرى، ووضعه مع بقية أوراقه.

جلس إلى المكتب الكبير لفترة فى الصمت المحيط، وقد شعر بالسكينة لما ارتبط بالحجرة من ذكريات، بما فيها من تحف صغيرة للزينة، ولوحات «الماندالا»(*) من محراب فى بورما، وأعلام «للبكا»(**). والرسوم الموضوعة فى أطر من الطبقة الأولى لـ «كتاب الأدغال»، وصندوق الفراشات الإمبراطورية، وحاجيات النذور الذى عثر عليها فى معبد مهجور، ثم الكتب والكتيبات النادرة ـ كتابات «كبلنج» المبكرة تحمل بصمات «تاكر» و«سبينك» و«كالكوتا»، كراسات «إدواردز تومبسون»، «يونج هسباند»، «مالوس»، «دربى»... إن بعض المتاحف سوف تسعد بها ذات يوم. إن كل كتاب

(*) رمز تصويرى بوذى للكون (المترجم).

(**) الشعب المغولى من السيخ الهنود (المترجم).

من هذه الكتب، دون العلامة الملصقة عليه، يغدو غفلا من الاسم، مجهولا.

والتقط عجلة ـ الصلاة التبتية الموضوعة على المكتب وأدارها فى سرعة، مرة أو اثنتين، وهو يستمع إلى الصرير الخافت لأسطوانتها الدائرة، وهى لاتزال محشوة بقصاصات الورق الصفراء والتى كتبت عليها، منذ زمن طويل، أقلام تتسم بالورع، دعاءات دينية تقليدية فى كتابات كالخربشة، «أم مانى بادم هوم»(*). كانت تلك هدية وداع جاءت مصادفة. فقد ألح ماونت أوليف على والده، قبل أن يغادر موقعه يطلب طائرة من السلولويد، وفتشا هما الاثنان المتجر تفتيشا دقيقا بحثا عن واحدة منها، بلا طائل. ثم توقف والده فجأة أمام بائع متجول واشترى العجلة بروبيات قليلة. كان الوقت متأخرا، وكان عليهما أن يسرعا. وكان وداعهما آليا بلا اهتمام أو اكتراث.

وماذا بعد ذلك؟ فم النهر بنى مائل للصفرة تحت شمس نحاسية. وضياء الحرارة الواهن بلون قزح يلطخ الوجوه، والدخان يتصاعد من الأغواط الملتهبة وأجساد الرجال الميتة طافية فوق مصب النهر... وكان ذلك أقصى ماوصلت إليه ذاكرته.

وأعاد العجلة الثقيلة إلى مكانها وتنهد. وهزت الرياح النوافذ، تدفع بالجليد كالدوامة فى مواجهتها، كأنما تذكره، أين هو الآن. وأخرج حزمة كتب مبادئ القراءة العربية والقاموس الكبير. يجب أن تظل تلك الأشياء إلى جوار سريره طوال الأشهر القليلة المقبلة.

فى تلك الليلة زاره ذلك المرض الغريب والذى يعلن به، دوما، عن

(*) كلمات صلاة هى السطر الأول من «الفيدا» الكتاب الدينى للهندوس (المترجم).

عودته إلى المنزل ـ ألم ساحق بالأذن، والذى أحاله فى سرعة إلى شبح مرتعش من الوجع المبرح. كان ذلك المرض لغزا، لم يستطع أى طبيب أن يسكن آلامه ـ أو حتى يشخصه تشخيصا مرضيا ـ آلام هذه الغارة لذلك الصرع الحقيقى(*). لم تكن تهاجمه إلا وهو فى المنزل. وسمعت والدته كالمعتاد، أناته. وأدركت بخبرتها القديمة، ماذا يعنى ذلك. وبرزت، فجأة، عبر الظلام إلى جوار سريره تحمل إليه المواساة القديمة المألوفة لديه، والشىء الوحيد المتميز الذى اعتاد أن تواجه به، منذ طفولته، كربه ومحنته، زيت السلطة وقد دفأته فى ملعقة شاى فوق لهيب الشمعة، والذى تحتفظ به فى متناول يدها فى الصوان الذى إلى جوارها. وأحس بدفء الزيت يخترق ويضمخ عقله، بينما يجىء صوت أمه فى الظلام يطيب خاطره، بما يحمل من وعود بالراحة. وانحسرت الهجمة، خلال فترة محدودة، لتتركه مستنزفا لا يستطيع الكلام، يقف على حافة النوم ـ نوم غائم يضطرب بتلك الذكريات المشحونة بالسلوى لأمراض طفولته، والتى شاركته أمه دوما فيها ـ كانا يمرضان معا، وكأنها مشاركة وجدانية. هل كان ذلك لأنهما يرقدان فى حجرتين متجاورتين، يتبادلان الحديث، يقرأ الواحد منهما للآخر، يتقاسمان رفاهية نقاهة مشتركة؟ لم يكن فى وسعه معرفة ذلك.

ونام. ومضى أسبوع قبل أن ينكب على أوراقه الرسمية ويقرأ خطاب بورسواردن.

* * *

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(٥)

عزيزى دافيد

سوف تندهش لإرسالى لك خطابا بهذا الطول، إننى لا أشك فى ذلك. إلا أن أخبار تعيينك قد وصلتنا، أخيرا على صورة شائعة. هنالك الكثير الذى يجب أن تعرفه عن حالة الأوضاع هنا والذى لا أستطيع أن أكتب به إليك رسميا باعتبارك السفير المرشح. (سرى: خاتم بريد جوى).

أف!، ياله من أمر يثير الملل! إننى، كما تعرف جيدا أكره كتابة الخطابات. ومع ذلك. . . . إننى أكاد أكون متأكدا أننى سأكون قد غادرت ساعة وصولك، لأننى قد أخذت الخطوات اللازمة لنقلى. لقد نجحت فى إقناع إيرول المسكين، بعد سلسلة من المضايقات، بأننى غير مناسب للبعثة التى زينتها خلال العامين الماضيين. سنتان! عمر بكامله، وإيرول نفسه طيب للغاية، أمين للغاية، فاضل للغاية. إنه كائن غريب أشبه بالعنزة، وهو رغم ذلك يترك فى النفس انطباعا كذلك الذى يتركه من يقوم بتوصيل السراويل! لقد كتب ضدى فى تقاريره وهو متردد غاية التردد. أرجو ألا تفعل شيئا يبطل النقل الذى سينتج عن ذلك، حيث إنه يتطابق ورغباتى الخاصة. إننى أتوسل إليك.

لقد كان العامل الحاسم فى هذا الأمر، هو الإخلال بواجبات

وظيفتي خلال الأسابيع الخمسة الماضية، والذى أثار إيرول بصورة خطيرة فحسم أمره فى النهاية. سوف أشرح لك كل شىء. إننى أتساءل إن كنت تتذكر الدبلوماسى الفرنسى الشاب البدين القاطن فى شارع دوباك. ؟ لقد أخذنا نسيم إلى هناك للشراب ذات مرة، اسمه بومبال. حسنا، إنه يخدم هنا. وقد أقمت معه فى مسكنه. إن الحياة معه مبهجة للغاية. لقد انتهى الصيف، وانتقلت السفارة، التى بلا رأس، مع البلاط لتعتكف فى القاهرة طوال الشتاء. لكنها فى تلك المرة بدون «صديقك المخلص». لقد اختفيت. إننا نستيقظ الآن فى الحادية عشرة، نتخلص من الفتيات، ونأخذ حماما ساخنا، ثم نلعب النرد حتى وقت الغداء، ونشرب «العرقى» فى مقهى «الأقطار» مع بلتازار وأماريل (وهما يبعثان إليك بحبهما)، ثم نتغدى فى بار «اليونيون». ثم ربما نذهب لزيارة كليا لنرى ما ترسم من لوحات، أو نذهب إلى السينما. كان بومبال يفعل كل ذلك بطريقة مشروعة، كان يقضى إجازة محلية. أما أنا فقد كنت معتزلا، كان إيرول الغاضب يخابرنى بالهاتف فى محاولة لتتبعى، وكنت أرد عليه بصوت امرأة عاهرة ميدية. كان ذلك يستثيره بشدة لأنه كان يخمن أننى أنا من يرد عليه، إلا أنه لم يكن متأكدا تمام التأكد (إن المشكلة بالنسبة لأمثاله أنهم لايغامرون بإيذاء مشاعر الغير). إن محادثات ممتعة وطريفة تجرى فيما بيننا. لقد أخبرته بالأمس أننى بورسواردن، أعالج من مرض فى الغدد، بإشراف البروفسور بومبال، وإن كنت قد تجاوزت الآن مرحلة الخطر. يا لإيرول المسكين! سوف أعتذر له يوما ما عن كل هذه المتاعب التى سببتها له. ليس الآن، وليس قبل أن أنقل إلى سيام أو سانتوس.

إن كل أفعالى هذه خبيثة للغاية؟ إننى أعرف ذلك. لكنه. . . الملل والسأم الذى يثيره فريق الاستقبال هذا، وكل هؤلاء الذين لم يبلغوا

سن النضج بعد، إن آل إيرول بريطانيون بصورة مرعبة. إن كليهما، مثلا، مشتغل بالاقتصاد. ولماذا كلاهما إننى أسأل نفسى؟ إن أحدهما لابد لديه إحساس دائم بأنه زائد على الحاجة. إنهما يمارسان الجنس بنسبة اثنين إلى عشرة فقط، ولأولادهما كل سمات الأطفال الذين جاءوا مصادفة بسبب هذه العلاقة الجنسية.

حسنا، إن الظرفاء فيهم فقط آل دونكين. إنه ذكى ومرح، وهى عادية تقريبا تبدو كالصائمة، تستخدم الكثير من أحمر الوجه والشفاه. لكنها... تلك العزيزة المسكينة تفرط فى التعويض عن نفسها، فقد أطلق زوجها الصغير لحيته واعتنق الإسلام! إنها تجلس إلى مكتبه بصورة متكلفة عدوانية، تهز ساقيها وتدخن فى عجلة. فمها أحمر للغاية إنها ليست سيدة تماما. ولذا فهى غير واثقة فى نفسها. إن زوجها شاب ذكى، لكنه جاد للغاية. إننى لا أجرؤ على سؤاله إن كان ينوى استخدام حقه المخول له فى مزيد فى الزوجات.

ولكن دعنى أخبرك بطريقتى التى تعالج الأمور بالتفصيل، ما الذى يكمن وراء كل هذه التفاهة. لقد أرسلت إلى هنا، كما تعرف، بناء على عقد، وقد أنجزت مهمتى الأصلية بكل أمانة ـ باعتبارى شاهداً على الدور العملاق للأوراق التى توجد على رأسها، «بنود ميثاق ثقافى بين حكومات صاحب الجلالة البريطانية... الخ»، (فى حروف تنفرد بها عادة شواهد القبور). إنها بنود ساذجة حقا ـ إذ ما الذى يمكن أن يكون مشتركا بين الثقافة المسيحية ومسلم أو ماركسى؟ إن ما نعده من مقدمات منطقية يلقى معارضة مستميتة. لا بأس! لقد طلب منى أن أعدها وأعددتها. وبقدر ما أحببت ما لديهم هنا، فإننى لا أفهم معنى الكلمات فى علاقتها بنظام تعليم يقوم على تعليم الأطفال العد والنظام

اللاهوتى الذى مضى زمنه بمضى «أوجستين» و«أكيناس». إننى أعتقد شخصيا أن كلينا قد جعل الأمر كله فوضى - لم أكن عنيدا بأى حال فى هذا الأمر(*)، وهكذا، إننى، فقط، لا أستطيع أن أرى ما يمكن أن يقدمه هـ، د. لورنس إلى باشا فى حوزته سبع عشرة زوجة، رغم إيمانى بمعرفة من فيهن أكثر سعادة من الأخريات. لقد أنجزتها، على أى حال، أعنى الاتفاقية.

ما إن أنجزت هذا العمل حتى وجدت نفسى وقد دفع بى سريعا إلى قمة الهيئة كسياسى. وقد مكننى هذا من دراسة التقارير وتقييم تركيبة الشرق الأوسط ككل متماسك وكسياسة تتسم بالجرأة والإقدام. حسنا، دعنى أقول إننى قد وصلت، بعد دراسة مستفيضة إلى النتيجة التى تحجم عن اعتبارها متماسكة أو حتى اعتبارها سياسة، سياسة قادرة، على أى حال، على الصمود أمام الضغوط التى تتشكل هنا.

هذه الدول المتعفنة، المتخلفة - كما هى الآن - يجب التفكير فيها بجدية. إنها لا يمكن أن تتماسك معا، بمجرد تشجيع أضعف ما فيها وأكثره فسادا، كما يبدو من أفعالنا. إن هذا التوجيه يستلزم خمسين عاما أخرى من السلام، وعدم وجود عناصر راديكالية مؤثرة فى جمهور الناخبين فى وطننا. إن الوضع الراهن يمكن أن يظل مصانا، إن تحقق ذلك. إن سيادة هذا التوجه الحالى تطرح، إذا ما كانت إنجلترا قصيرة النظر هكذا؟ ربما، فأنا لا أعرف. ليست وظيفتى كفنان أن أعرف تلك الأشياء أما كسياسى فإننى ملىء بالهواجس والريب. إن تشجيع الوحدة العربية وفقدان القدرة على استخدام كأس - السم، فى ذات الوقت، يبدو لى أمرا مثيرا للشكوك. إنه ليس دهاء سياسى، لكنه

(*) بالفرنسية فى الأصل.

جنون وحماقة كبرى. إن إضافة الوحدة العربية إلى كل التيارات الأخرى التى تعادينا يبدو لى حماقة ما بعدها حماقة. هل لانزال ننزعج من ذلك الحلم الكئيب. تعادينا «لليالى العربية»، والتى فرضتها علينا، ـ كنموذج أساسى ـ أجيال ثلاثة من هؤلاء الفيكتوريين الذين فقدوا قبْلتهم جنسيا، والذين يستجيب وجدانهم، بكل حرارة، لفكرة أن يكون للمرء أكثر من زوجة شرعية؟ أو حمى الرومانسية البدوية لكتابات «بل» و«لورانس». إلا أن الفيكتوريين الذين فرضوا هذا الحلم علينا، كنموذج أساسى، كانوا أناسا يؤمنون بالقتال حتى يكون لانتشارهم قيمة. كانوا يعرفون أن عالم السياسة إنما هو دغل. ويبدو أن المكتب الأجنبى يؤمن اليوم، بأن أفضل طريقة للتعامل مع ذلك الدغل هى أن تتحول إلى مناد بمذهب العرى، وأن تهزم الوحش الكاسر بأن تريه عريك. إننى أستطيع أن أسمعك وأنت تتنهد: «لماذا لا يكون بورسواردن أكثر دقةوتحديدا، وما كل تلك النزوات(*)».

حسنا جدا. لقد تحدثت عن الضغوط. دعنا نقسمها، على طريقة إيرول، إلى داخلية وخارجية. هل نفعل ذلك؟ إن آرائى قد تبدو، إلى حد ما، كالهرطقة، إلا أنى أدونها هنا.

حسنا إذن، أولا، الهوة التى تفصل الأغنياء عن الفقراء ـ إنها بكل تأكيد ظاهرة هندية. إن ستة فى المائة من الشعب، فى مصر الآن مثلا، يمتلكون أكثر من ثلاثة أرباع الأرض، وبذا يتركون أقل من فدان للرأس الواحدة، ليعيش الباقون عليها. حسنا! هنالك أيضا عدد السكان الذى يتضاعف فى كل جيل ثان، أم فى الجيل الثالث؟ إلا أننى أعتقد أن أى مسح اقتصادى سوف يدلك على ذلك. ثم هنالك، فى

(*) بالفرنسية فى الأصل.

تلك الأثناء، النمو الثابت لطبقة وسطى متعلمة، لها صوتها المعبر عنها، وأبناؤها الذين يتدربون فى أوكسفورد وسط ظروف ليبرالية مشجعة ـ والذين لن يجدوا، عند عودتهم إلى هنا، وظائف فى انتظارهم. إن البابو (السيد الهندوسى) يتنامى قوة، والقصة التى تتسم بالغباء تتكرر هنا، كما فى أى مكان آخر، «يا مثقفى العالم الأجراء، اتحدوا».

ولقد أضفنا نحن فى سماحة، وبتشجيع غير مباشر، إلى تلك الضغوط الداخلية، العنف القومى المستند إلى دين يقوم على التعصب المذهبى. إننى شخصيا أكن له الإعجاب، لكن يجب ألا ننسى أبدا أنه دين مقاتل دون غيبيات، إنه أخلاقى فقط. وحدة العرب.. لماذا ياعزيزى نفكر فى مثل تلك الأمنية الغريبة لتضيف المزيد إلى خيبتنا، خاصة أننا، كما هو واضح لى، فقدنا القوة الأساسية للفعل؟ إن تلك النظم الإقطاعية المتخلفة لا يمكن دعمها إلا بالسلاح فى مواجهة تلك العناصر المتحللة المتأصلة فى الطبيعة الأساسية للأشياء، اليوم. ولكن لاستخدام السلاح، كما جاء فى كلمات لورنس «الوعظ بالسيف»، يجب أن يكون المرء مؤمنا بنظامه الخاص، بقناعاته الصوفية الخاصة. فبماذا يؤمن المكتب الأجنبى؟ إننى، فقط، لا أعرف أنه فى مصر، مثلا، لم يفعل، فيما يتجاوز الحفاظ على السلام، غير النذر اليسير. المندوب السامى يختفى بعد حكم دام منذ عام ١٨٨٨ ـ ولن يترك وراءه شيئا ولو مسحة من إدارة مدنية مدربة توطد هذا الشكل العجيب الذى امتطاه الغوغاء، والذى نعتبره نحن الآن دولة ذات سيادة. إلى متى يمكن للكلمات المعسولة والمشاعر المتحلقة أن تسيطر فى مواجهة عوامل السخط والاستياء التى يحسها الشعب؟ فى وسع المرء أن يثق فى ملك وقع معاهدة مادام فى وسع هذا الملك أن يثق فى شعبه.. كم بقى

قبل الوصول إلى نقطة الانفجار غضبا؟ إننى لا أعرف ـ وحتى أكون صريحا، فإن الأمر لا يعنينى كثيرا. إلا أنه يمكننى القول أن ضغطا ما خارجيا لم يكن فى الحسبان مثل الحرب التى يمكن أن تقع، فى لحظة، كالواقعة فوق هؤلاء المدراء الذين يشبهون خيالات المآتة. إن تلك على أى حال، هى أسبابى العامة للرغبة فى التغيير. إننى أؤمن بضرورة إعادة سياستنا، وبناء قوة يهودية وراء تلك المشاهد هنا، وفى سرعة.

والآن، فيما يتعلق بالتفاصيل، فإننى واجهت فى البداية الأولى لحياتى السياسية، وعلى غير توقع، إدارة مكتب الحرب المختص بالاستخبارات العامة، والذى يديره بريجادير، امتعض لفكرة ضرورة أن يكون مكتبه تابعا لنا. إنها مسألة الرتبة والمنزلة أو المخصصات أو شىء له مثل هذا العفن. لقد كان فى ظل المندوب السامى مطلق اليد تقريبا. إن هذا المكتب، من قبيل المصادفة، قد تخلف كبقية «للمكتب العربى» القديم منذ عام ١٩١٨، وقد قبع ساكنا كضفدع مدفون تحت حجر! ومن الواضح أنه فى ظل إعادة التخطيط العامة يجب (كما بدا لى) أن يندمج مع شخص ما. وحيث إنه لم يعد يوجد فى مصر الآن، غير سفارة أجنبية، ولما كان يعمل، فيما سبق، لحساب الفرع السياسى للمندوب السامى، فإننى فكرت فى ضرورة أن يعمل لحسابى. ولقد حدث فى الحقيقة، بعد سلسلة من المعارك الحادة، أن انحنى هذا الكائن، واسمه ماسكيلين، إن لم يكن قد انكسر. إنه نمطى للغاية، أكثر منه مثيرا للاهتمام. وقد أعددت عنه مذكرات شاملة لكتاب على طريقتى الخاصة. (فالمرء يكتب لاستعادة طهارة مفقودة).

حسنا، إذ منذ اكتشف الجيش أن الخيال هو سبب مهم من أسباب الجبن، فإنهم قد دربوا مثل هذا الصنف الذى ينتمى إلى ماسكيلين على

فضائل معاداة الخيال: إنه نوع من فقدان الذاكرة يكاد يكون تركيا. إن ازدراء الموت قد تحول إلى ازدراء للحياة. ومثل هذا النوع من الرجال لا يقبل الحياة إلا إن كانت بشروطه هو. إن مخا متجمدا، فقط، هو الذى يمكنه أن يجعله قادرا على المحافظة على مثل هذا الروتين الذى يتسم بقدر نادر من السأم والملل. إنه نحيل جدا، طويل جدا، وقد اصطبغ جلده أثناء خدمته فى الهند بلون جلد الحية المدخنة، أو بلون أجرب دهن باليود. إن أسنانه البالغة الكمال ترقد خفيفة كالريشة فوق ساق غليونه، وله حركة خاصة ـ أود لو أستطيع وصفها، فهى تمتعنى كثيرا ـ يحرك بها غليوته فى بطء قبل أن يتكلم، شاخصا، فى ذات الوقت، بعينيه الصغيرتين الداكنتين، وهو يكاد يهمس: «أوه، هل تعتقد ذلك حقا؟». الحركات الصوتية تسحب نفسها بلا نهاية فى تراخ وكسل، فى سأم الصمت الذى يحيط به. إن قداسةما يحيط به من تربيةوتهذيب تنخر فيه فلا يحس الراحة فى الثياب المدنية. إنه يسير، فى الحقيقة فى معطف الفرسان جيد التفصيل، يحيط به جو خاص. (إن أنت من نسل هذا الصنف، فسوف تظهر عليك دوما أعراض سلوك شاذة) إنه متبوع فى كل مكان بتابع ككلب صيد أحمر رائع، يدعى «دنل»، (وهو اسم منسوب إلى زوجته)، إنه ينام واقفا على قدميه بينما يعمل فى الملفات، وعلى السرير عندما يحين الليل. وهو يحتل حجرة فى فندق لا يوجد بها أى شىء شخصى ـ لا كتب، لا صور فوتوغرافية، لا أوراق، فقط مجموعة من الفرش ذات الظهور الفضية وزجاجة ويسكى وإحدى الصحف. (إننى أتخيله أحيانا وهو يفرش الغضب الصامت من فروة رأسه، ويفرش شعر سوالفه فى عنف شديد، ثم فى سرعة وفى سرعة. آه، ذلك أفضل ـ ذلك أفضل).

إنه يصل إلى مكتبه فى الثامنة وقد اشترى نسخة اليوم السابق من

صيحفة «الديلى تلجراف». لم أره يقرأ شيئا غيرها - يجلس إلى مكتبه الضخم يتأجج بازدراء بليد قاتم للبشر حوله، لما فيهم من استعداد للارتشاء، بل ربما يحتقر الجنس البشرى كله. إنه يفحص ويرتب ويصنف فى هدوء مختلف مفاسدهم وعللهم وليجملها كتابة فى أوراق مذكراته الرسمية التى بلون المرمر، ثم يوقعها، كما يفعل دوما، بقلمه الفضى الصغير، فى خربشة صغيرة خرقاء. إن تيار تقززه واشمئزازه ينساب عبر شرايينه بطيئا ثقيلا كالنيل وقت الفيضان. حسنا، إنك تستطيع أن ترى أى «نمرة» هذا الإنسان. إنه يعيش كلية فى خيال عسكرى، فهو لا يرى البتة أو يلتقى بالعناصر الواردة فى أوراقه. إن المعلومات التى يقوم بفحصها ترد إليه من كتبة مرتشين أو خدم خصوصيين متذمرين أو خدم محتحزين. إن هذا الأمر لا يهمه كثيرا. إنه يزهو بقراءته لها، بتذوقه وإكباره لاستخباراته، تماما مثله فى ذلك مثل دجال يستخدم لوحات وخرائط تنتمى إلى توابع غير مرئية وغير معروفة. إنه - بحكم بالقانون - فخور كخليفة، لا ينحرف. إننى معجب به غاية الإعجاب. معجب به بصدق وأمانة.

لقد وضع ماسكيلين علامتين (مثل تلك العلامات التى توجد على ترمومتر مدرج) يسمح بينهما بحركة حرارة موافقته أو اعتراضه، معبرا عن ذلك فى جملتين: مشروع جيد للسلطة الملكية ومشروع ليس بهذا القدر من الجودة للسلطة الملكية. إنه، بالطبع سليم الطوية، ذو توجه واحد موحد للغاية، فلا يستطيع تصور مشروع سيئ للسلطة الملكية اللعينة. إن مثل هذا الرجل يبدو عاجزا عن النظر إلى العالم حوله برؤى مفتوحة. إن مهنته والحاجة إلى التحفظ خلال ممارستها تجعل منه شخصا منقطعا تماما الانقطاع عن الناس، تجعل منه إنسانا عديم الخبرة بأساليب العالم الذى يجلس فوقه قاضيا. . . حسنا، إننى أحس

بالإغراء كى أستمر فى رسم صورة رجلنا صياد الجواسيس، إلا أننى سوف أكف وأتوقف. أقرأ روايتى المقبلة. يجب أن يشمل الجزء الرابع، أيضا، على وصف إجمالى لـ «تلفورد» الرجل الثانى لماسكيلين. إنه مدنى ضخم، مداهن ملىء بالبثور، له أسنان صناعية مثبتة بطريقة غير ملائمة، وهو ينادى على أى شخص باسم « الفاكهة العتيقة»، مائة مرة فى الثانية الواحدة، وهو يقهقه قهقهة عصبية. ومن الأشياء الرائعة أن تراه يؤله الجندى الثعبانى البارد، «نعم بريجادير»، «كلابريجادير»، وهو يصطدم بأحد المقاعد أثناء عجلته للقيام بالخدمة. يمكنك القول إنه يحب رئيسه حبا جما. ويجلس ماسكيلين يراقب ارتباكه ببرود، وذقنه البنية الملفوفة بنقرة فيها، تظهر ناتئة كالسهم، أو يستند إلى الخلف فى مقعده الدوار يربت فى رقة على باب الخزينة الضخمة الموجودة وراءه، كما يربت على كرشه، فى رضاء غامض، ربتة خبير بينما يقول: «إنك لا تصدقنى! إنها كلها لدى هنا». كلها هنا؛ إنك تعتقد وأنت ترى تلك الحركة البارعة الشاملة، أن تلك الملفات تحتوى مادة تكفى مقاضاة العالم! ربما كانت كذلك.

حسنا، وإليك ما حدث: وجدت ذات يوم وثيقة متميزة فوق مكتبى، عليها عنوان رئيسى: نسيم حصنانى، وعنوان فرعى: مؤامرة بين القبط، مما أفزعنى إلى حد ما. وطبقا لما جاء فى الأوراق، فإن نسيمنا كان مشغولا بإعداد مكيدة كبرى ومعقدة ضد القصر الملكى المصرى. كانت غالبية المادة مثار شك، هكذا فكرت. فأنا أعرف نسيم، إلا أن الوثيقة كلها وضعتنى فى مأزق، فقد كانت تحمل تلك التوصية السهلة بأن تنقل السفارة التفاصيل إلى وزارة الخارجية المصرية! إننى أستطيع سماعك وأنت تشهق بحدة إذ لو افترض وتحقق ذلك، فإن مثل ذلك المجرى سوف يضع حياة نسيم أمام خطر داهم.

هل أوضحت لك أن واحدا من أكبر خصائص القومية المصرية هو النمو التدريجى للشعور بالحسد من «الأجانب»، والحقد عليهم ـ نصف المليون أو ما شابه ذلك من غير المسلمين هنا؟ وأنه فى اللحظة التى أعلنت فيها السيادة المصرية الكاملة بدأ المسلمون فى التهجم عليهم وتجريدهم من ممتلكاتهم؟ إن عقل مصر ـ كما تعرف ـ هو مجتمعها الأجنبى. إن رأس المال الذى انساب إلى الأرض عندما كانت آمنة تحت سلطاننا، يقع الآن تحت رحمة هؤلاء الباشوات ذوى الكروش. إن الأرمن واليونانيين والقبط واليهود يحسون جميعا بالمدى الحاد لهذه الكراهية، فيغادر الكثيرون منهم فى حكمة، إلا أن الغالبية لا تستطيع ذلك. إن رءوس الأموال الهائلة المستثمرة فى القطن. . . الخ لا يمكن التخلى عنها فى عشية وضحاها. إن الجماعات الأجنبية تعيش على الصلاة وتقديم الرشوة. إنهم يحاولون إنقاذ صناعاتهم، جهد حياتهم، من الانتهاك التدريجى للباشوات، لقد ألقينا بهم موضوعيا إلى الأسود.

حسنا، إنى أقرأ وأعيد قراءة هذه الوثيقة، فى كثير من القلق كما أقول. إننى أعرف أننى لو أعطيتها لإيرول فإنه سوف ينطلق يمأمئ إلى الملك. ولذا أقدمت أنا على العمل لأتعرف على ما فيها من نقاط ضعف. ولحسن الحظ لم تكن تلك الوثيقة واحدة من أفضل ما كتب ماسكيلين من تقارير ـ ونجحت فى إلقاء الشك على كثير من حججها. إلا أن ما جعله يستشيط غضبا هو تعليقى بالفعل، لتقريره ـ كان على أن أحفظه بعيدا عن أيدى العاملين فى الاستقبال. كنت متوترا إلى حد بعيد بسبب إحساسى بواجبى، إلا أنه لم يكن هنالك، حينئذ، بديل آخر. ما الذى يفعله هؤلاء الطلبة الصغار الأغبياء فى الحجرة المجاورة؟ إذ لو كان نسيم مذنبا، حقا، بمثل هذه المكيدة التى يراها ماسكيلين،

حسنا، حسنا، فإنه على المرء أن يتعامل معه، فيما بعد، على ضوء نشاطاته، لكنك . . . تعرف نسيم. أحسست أنى مدين له بالتحقق مما جاء فى الأوراق قبل رفعها إلى أعلى.

لكن ماسكيلين غضب غضبا شديدا، رغم أنه كان من اللباقة بحيث لا يظهر ذلك. جلست فى مكتبه وحرارة النقاش فيما بيننا دون الصفر، وكانت لا تزال فى هبوط بينما يكشف لى عما تجمع لديه من أدلة وتقارير عملائه. لم يكن الجزء الأكبر منها متماسكا إلى الحد الذى كنت أخشاه. «إن هنالك هذا الرجل المدعو سليم وقد أغريته بالعمل معنا». واستمر ماسكيلين ينق قائلا: «إننى مقتنع أن سكرتيره الخاص لا يمكن أن يخطئ فى مثل هذا العمل. هنالك تلك الجمعية السرية الصغيرة باجتماعاتها المنتظمة - إن على سليم أن ينتظر بالسيارة ويقودهم إلى المنزل. ثم هنالك هذه الكتابة السرية الغريبة التى تخرج إلى كل الشرق الأوسط من عيادة بلتازار، وتلك الزيارات إلى مصانع السلاح فى السويد وألمانيا». أقول لك الحق: أصاب الدوار رأسى! كان فى وسعى أن أرى كل أصدقائنا وقد وضعهم البوليس السرى المصرى على لوح ما، وقد أعدوا للأكفان.

يجب أن أقول، أيضا، إن الاستنتاجات التى استخلصها ماسكيلين تبدو - طبقا للظروف - مقنعة. إنها كلها تكاد تبدو منذرة بالشر، إلا أن القليل فى نقاطها الأساسية - لحسن الحظ - لا يخضع للتحليل - أشياء مثل ما سمى بالشفرة التى يرسلها الصديق بلتازار، مرة كل شهرين، إلى متلقين مختارين فى المدن الكبرى للشرق الأوسط. كان ماسكيلين لا يزال يحاول متابعتها، إلا أن البيانات كانت لا تزال أبعد من أن تستكمل. ولقد ضغطت أنا على هذه لنقطة بكل ما استطعت من قوة،

ضغطت كثيرا إلى حد أثار ضيق تلفورد، رغم أن ماسكيلين كان باردا للغاية، برود طير جارح لا يسهل إثارة كدره. لقد جعلته، على أى حال، يوافق على وقف هذه الأوراق، حتى يظهر شيء ما، أكثر واقعية، يوسع قاعدة الفكرة التى يؤمن بها.

لقد كرهنى، إلا أنه ابتلعها. وهكذا شعرت أننى قد كسبت على الأقل، مهلة مؤقتة. إن المشكلة هى ماذا على أن أفعل بعد ذلك - كيف أستخدم الوقت كميزة لى؟ لقد كنت بالطبع، مقتنعا أن نسيم برىء من تلك التهم العجيبة. إلا أننى لم أستطع، كما أقر واعترف، أن أقدم تفسيرات مقنعة كتلك التى يقدمها ماسكيلين. كما أننى لم أستطع أن أمنع نفسى من التساؤل: هل يقومون بالفعل بتدبير تلك المكيدة؟ إن كان علىّ أن أنهى نفخة ماسكيلين، فيجب أن أكتشف الأمر بنفسى. إن الأمر مزعج غاية الإزعاج، كما أنه، فى الحقيقة، غير لائق مهنيا - ولكن ماذا أفعل؟ إن على «لودفيج» الصغير أن يتحول إلى مخبر خاص، مثل «سكستون بلاك»، حتى يستطيع أن يقوم بالمهمة! ولكن من أين أبدأ؟ إن الخيط الوحيد والأساسى لماسكيلين، عن نسيم، كان سليم سكرتيره، والذى أغراه بالعمل لحسابه. لقد جمع من خلاله بيانات كثيرة، مثيرة للاهتمام تماما، إلا أنها ليست مفزعة فى جوهرها، عن ممتلكات آل حصنانى فى مختلف المجالات - بنك الأراضى، خط الملاحة، محالج القطن وهكذا. كان الباقى - إلى حد كبير - من باب الإشاعات والقيل والقال. كان بعضها ضارا، لكن واحدة منها لم تكن تتجاوز الظروف والأحوال المحيطة بهم. ولكن إن جُمعت كلها فى كومة واحدة فإنها، كما تبدو، تضع نسيمنا الرقيق فى وضع ينذر بالخطر. أحسست أنه من واجبى أن أتناولها كلها على حدة، بصورة ما، خاصة أن قدرا كبيرا منها كان يتناول زواجه ويدور حوله - القيل

والقال اللاذع الحاد للكسالى والحاسدين، والذى تتميز به الإسكندرية ـ أو أى مكان آخر حول مثل ذلك الأمر. وبالطبع برزت إلى المقدمة، فى هذا الصدد، الأحكام الأخلاقية اللا إرادية للأنجلوساكسون ـ أعنى الأحكام التى قيمّها ماسكيلين. أما بالنسبة لجوستين، حسنا، فأنا أعرفها بعض الشىء، ويجب أن أعترف بأننى أكاد أكون معجبا بروعتها التى لا جدال فيها. لقد طاردها نسيم، بعض الوقت، قبل أن يحوز رضاها، كما قيل لى. إننى لا أستطيع القول أن لدى أى هواجس محددة حول الأمر برمته. إلا أن. . . . زواجها، حتى اليوم، يبدو غير متماسك بطريقة غريبة. إنهما يشكلان زوجا رائعا، ولكن يبدو أنهما لا يتلامسان البتة. حقا، لقد رأيتها ذات مرة وهى تنقبض انقباضة خفيفة للغاية عندما التقط خيطا من فوق فرائها، لكن أغلب الظن أن ذلك كان وَهْما. ربما كانت هنالك سحابة رعدية تقبع خلف عينى الزوجة السوداوين اللماعتين كالحرير؟ بالقطع هنالك الكثير من العصبية، والكثير من الهيستريا والكثير من الكآبة اليهودية. إن المرء يرى فيها، بصورة غائمة، الصديقة التى تقدم رأس رجلها على طبق كبير. ماذا أعنى بذلك؟

حسنا، إن ماسكيلين يقول بطريقته التى تتسم بالازدراء الجاف الأجوف: «إنها ما إن تتزوج حتى تبدأ علاقة مع رجل آخر، أجنبى تنتعله». كان الدور على «دارلى»، المخلوق الغامض اللطف والإثارة، والذى يسكن، فى أوقات معينة، حجرة بومبال التى تشبه العلبة. إنه يقوم بالتدريس ليكسب معاشه، كما أنه يكتب الروايات. إن له ذلك القفا المستدير الطفولى المتألق الذى يراه المرء فى الأنماط المثقفة، منحنيا قليلا، أشقر الشعر، خجولا ذلك الخجل الذى يصاحب المشاعر الكبرى والتى لا يمكن التحكم فيها تحكما جيدا. إنه رفيق رومانسى

بقدر ما. إن نظر المرء إليه بثبات، يأخذ فى التلعثم. إلا أنه رفيق طيب، رقيق ومستسلم. إننى أقر أنه يبدو كمادة لا تثير اهتمام امرئ ما عنيف الاندفاع مثل زوجة نسيم، كى تؤثر فيه. هل يمكن أن يكون ذلك من باب الصدفة أو أنها، فى بساطة، رغبة شريرة لتذوق الطهارة والسذاجة؟ هنا يكمن لغز محير. إن دارلى وبومبال، على أى حال، هما اللذان قدمانى إلى كتاب الوسادة السكندرى المتداول، وهو رواية فرنسية عنوانها «عادات»(*) (وهو دراسة تغوص فى السلوك الشامل لشبق النساء والعجز الجنسى النفسى) وقد كتبها آخر زوج لجوستين. ولقد قام بعد كتابتها بتطليقها بطريقة عاقلة وانطلق هاربا. ومن الشائع أنها هى محور موضوع الكتاب. ولذا ينظر المجتمع إليها بتعاطف عميق. ويجب أن أقول، إنك عندما تعتقد أن كل امرئ هنا منافق وشرير أيضا، فإنه يبدو من سوء حظك أن تغدو أنت متفردا هكذا باعتبارك الشخصية الرئيسية فى قصة خيالية لامرأة ساقطة(*). إن ذلك، على أى حال، يمت إلى الماضى، أما الآن فقد حملها نسيم إلى مراتب الناس حيث تبرئ نفسها بلباقة حادة محددة وفى شراسة أيضا، تلائم نظراتها ونظرات نسيم القاتمة وإن كانت بسيطة وذات سناء. هل هوسعيد؟ ولكن انتظر. دعنى أضع السؤال بطريقة أخرى: هل كان سعيدا على الإطلاق؟ هل هو الآن أتعس مماكان؟ هوم! أعتقد أن الأمور سيئة إلى حد كبير. فالفتاة ليست بريئة تماما، كما أنها ليست عديمة الذكاء تماما. إنها تلعب على البيانو بطريقة جيدة حقا، وإن يكن بطريقة شديدة العبوس، كما أنها تتبحر فى القراءة. حقا إنها معجبة أشد الإعجاب بروايات «المخلص لك»، مع إخلاص مجرد من كل

(*) بالفرنسية فى الأصل.

سلاح. (لقد وقعت! هذاحق. ولذا فإننى أميل للإعجاب بها واشتهائها).

أننى لا أستطيع، من الناحية الأخرى، أن أومن بما تراه فى دارلى. إن الرفيق البائس يرفرف، كلما اقتربت منه، مثل فرس هرم. إنه ونسيم، على أى حال، صديقان كبيران يترددان على بعضهما البعض. هذه النماذج البريطانية المتواضعة ـ هل تتحول سرا إلى أتراك؟ إن لدارلى، على أى حال، جاذبية ما، فهو أيضا على علاقة ملوكية براقصة كباريه صغيرة ظريفة تدعى ميليسا. إنك لا تفكر البتةو عند النظر إليه، أنه قادر على مجاراة اثنتين، فى ذات الوقت. إنه يبدو وكأنه لا يملك من أمر نفسه إلا القليل. هل هو ضحية مشاعره الرقيقة؟ إنه يعتصر يديه، وتمتلئ نظارته بالبخار عندما يذكر اسم واحدة منهما. يالدارلى المسكين! إننى أستمتع دوما بإثارته، بأن أقتبس له قصيدة ممهورة باسمه المصغر الذى يشبه اسم شخص آخر.

مباركة شجرة زكية الرائحة لا تبهت ألوانها

تلك التى تحترق فى بلدان العرب المجيدة

فيغدو الجو ككأس قربان عطره أحمر

حتى تنبت الحياة الأرضية فردوسها هناك

كان يلتمس منى وهو يحمر خجلا أن أكف، رغم أنى لم أكن أستطيع القول، أى دارلى منهما ذلك الذى يخجل من أجله. وأكمل أنا بطريقتى المتسلطة.

نصف مدفونة فى صدرها الملتهب
صنعت عشها فى تلك الشجرة النضرة
كمائة عنقاء تتشمس! بينما كان عليها
أن تتفتت على طول المدى إلى هباء أشهب

لم يكن ذلك تخيلا رديئا لجوستين نفسها. وكان يصيح دوما: «كف».

سرير موتها الرائع! محرقتها الثرية
تشتعل بنار ذات نكهة زكية
قارورة رماد جسدها تنأى عن الرجال المفسدين
مكان ميلادها حيث تولد نفسها من جديد

«أرجوك. كفى».

«ما الخطأ فيما أقول؟ إنها ليست قصيدة سيئة بهذا القدر، أم أنها كذلك؟». واختتمت إلقائى بميليسا وقد تنكرت كراعية غنم، من خزف درسون، من القرن الثامن عشر.

بين المروج الخضراء البرية
أنهت هنا أغنيتها التى بلا أصداء
بدموع من كهرمان وتنهدات عطرة
تندبها الصحراء حيثما تموت

كان فيها الكثير جدا مما يخص دارلى، أما فيما يخص دور جوستين فى هذا الموضوع، فإننى لم أجد له وقعا أو سببا، مالم نقبل بحكمة من حكم بومبال حسبما يبدو من ظاهرها. كان يقول فى جدية مبالغ فيها:

«النساء مخلصات. هل تعرف ذلك؟ إنهن لا يخن إلا النسوة الأخريات»(*) لكن يبدو لى أن هذه الحكمة لا تقدم سببا محددا لرغبة جوستين فى خيانة ميليسا، منافستها الشاحبة. إن هذا سلوك دون مستوى امرأة لها وضعها فى المجتمع. أترى ما أعنى؟

حسنا، منذ ذلك الحين إذن، وضع ماسكيلين عينيه المؤذيتين النباشتين على دارلى. لقد أخبرنا سليم أن المعلومات الحقيقية عن نسيم، كما يبدو له، محفوظة فى خزانة حائط صغير فى منزله وليست فى مكتبه. وأن هنالك مفتاحا واحدا فقط لهذه الخزانة يحمله نسيم دوما بنفسه. إن هذه الخزانة الخاصة، كما يقول سليم، مليئة بالأوراق. إلا أن الأمر ملتبس عليه حول تلك الأوراق. أهى خطابات غرامية؟. إن سليم، على أى حال، قد حاول الوصول إلى الخزانة مرة أو مرتين إلا أن الحظ لم يحالفه. وقرر ماسكيلين الوقح، ذات يوم، أن يفحصها بنفسها عن كثب، وأن يأخذ لها، إن لزم الأمر، طبعة شمعية. وأدخله سليم إلى المنزل، حيث ارتقى السلالم الخلفية وكاد يصطدم بدارلى، الحبيب ذى المروءة، وجوستين فى حجرة النوم! لقد سمع صوتيهما فى الوقت المناسب. لا تقل لى بهذا الآن أبدا أن الإنجليز قوم يتصفون بالتطهر. وقد رأيت، فيما بعد، قصة قصيرة نشرها دارلى تصرخ فيها إحدى الشخصيات: «إننى أحس بين ذراعيه وقد هرست هرسا، مضغت مضغا، وقد غطى اللعاب فرائى، كأنى بين مخالب قط كبير هائج». وترنحت. وفكرت، «لقد تحول إلى فتات. إن هذا ما تفعله جوستين بذلك اللوطى البائس - إنها تأكله حيا!».

يجب أن أقول إن هذا قد أثار ضحكى كثيرا. إن دارلى نموذج

(*) بالفرنسية فى الأصل.

لمواطنى بلدى ـ وضيع متعاظم وكنسى فى ذات الوقت. وهو طيب للغاية، يفتقد الشر والخبث (أشكر الرب لذلك الأيرلندى واليهودى اللذين بصقا فى دمى). لماذا أنهج هذا النهج الذى يصل إلى الذروة؟ لابد أن جوستين جيدة بصورة مرعبة عند مضاجعتها، ولابد أن قبلاتها مثل قبلات قوس قزح تطلق ومضات هائلة ـ نعم إنها كذلك، ولكن بعيدا عن دارلى؟ إنه لا يستطيع الصمود. إن هذه «المخلوقة المتعفنة، كما يدعوها دارلى، لابد ـ على أى حال ـ أن تكون مستحوذة على كل انتباهه، أو كانت كذلك عندما كنت هنالك آخر مرة. لماذا؟

كانت كل هذه المسائل تتعثر فى عقلى، مرة بعد أخرى، وأنا أقود السيارة إلى الإسكندرية، وقد ضمنت لنفسى إجازة عمل طويلة، خلال نهاية الأسبوع، لم يجد فيها أحد، حتى إيرول الطبيب، ما ينتقده أو ما يعترض عليه. لم أتصور حينذاك أننى سأجد نفسى، خلال عام، وقد انشغلت بمثل تلك الأسرار الغامضة. كل ما عرفته أننى أود أن أنقض فرضية ماسكيلين، لو كان ذلك ممكنا، وأن أبقى يد قسم الاستقبال هى التى تعمل فى مسألة نسيم. أما فيما عدا ذلك فقد كنت ضائعا. إننى رغم كل شىء، لست جاسوسا. هل علىّ أن أزحف متسللا إلى الإسكندرية مرتديا شعرا مستعارا كطبق البودينج وسماعات مخفاة، حتى أنقى اسم صديقنا؟ أم هل أتقدم إلى نسيم مباشرة، وأجلى حلقى وأقول وأنا رابض الجأش: «والآن ماذا عن شبكة الجواسيس التى أقمتها هنا. . .» وقد قدت السيارة، على أى حال، قدما وأنا أمعن التفكير. مصر، منبسطة، مكشوفة، تنساب إلى الوراء بعيدا عنى على جانبى السيارة. والأخضر يتبدل إلى أزرق، والأزرق إلى لون عين الطاووس ثم إلى لون الغزال البنى فلون الأسد الأمريكى الأسود. كانت الصحراء تبدو كقبلة جافة، كرفرفة أهداب

الجفون فى مواجهة العقل. وغدا الليل ذا قرون من نجوم أشبه بفروع مزدهرة لشجرة لوز. وأخذت أهيم فى المدينة، بعد كأس أو اثنتين، تحت قمر جديد بدا كأنه يستخلص نصف بريقه من البحر المفتوح. وغدت رائحة كل شىء رائحة طيبة من جديد. وعصابة الحديد التى وضعتها القاهرة على رأس الواحد منا (والتى تعطى المرء شعورا بأنه محاط تماما بالصحراء المحرقة) تذوب، تسترخى . . . تترك مكانها لاحتمالات بحر مفتوح، طريق مفتوح، يقود عقل المرء إلى أووربا مرة أخرى . . آسف، فقد خرجت عن الموضوع.

اتصلت بالمنزل هاتفيا، إلا أن كليهما كان بالخارج فى حفل استقبال. واتجهت وقد أحسست بالراحة، بصورة ما، إلى مقهى الأقطار بأمل أن أجد صحبة أتجانس معها وآنس اليها. ولم أجد غير صديقنا دارلى. إننى معجب به، وخاصة بالطريقة التى يجلس بها على يديه فى حماس بينما يناقش الفن. ويصر على أنه قانع بكتابات «صديقك المخلص» ـ لماذا؟ وأجيب أنا بأفضل ما أستطيع وأنا أشرب العرقى. إلا أن هذا النوع من المناقشات المعممة يصيبنى بالضيق والكدر. لا يوجد، كما ـ أعتقد ـ عند الفنان وعامة الناس، شىء اسمه الفن. إنه موجود فقط عند النقاد وهؤلاء الذين يعيشون على ذكائهم. إن الفنان وعامة الناس يسجلان فى بساطة، كما يسجل رسام الزلازل، شحنة كهرومغناطيسية، لا يمكن تعليلها منطقيا. إن ما يعرفه المرء فقط هو أن انتقال الأشياء يمضى قدما، حقا أو بهتانا، فى نجاح أم فشل، كيفما اتفق. ولكن محاولة تحطيم العناصر ودس الأنف فيها لايصل بالمرء البتة إلى شىء ما. (إننى أشك فى أن هذا المدخل إلى الفن مألوف عند هؤلاء الذين لا يستطيعون تسليم أنفسهم له). إنه التناقض الظاهرى، على أى حال من الأحوال.

إن لدارلي صوت رقيق هذا المساء، واستمعت إليه في سعادة مغتصبة. إنه شخص طيب وحساس أيضا. إلا أنني أحسست بالراحة وأنا أسمع أن بومبال.. يوشك على الظهور قريبا عائدا من السينما مع امرأة شابة كان يدور حولها. إنني آمل أن يعرض استضافتي، فمصاريف الفنادق مكلفة، وحينئذ أستطيع إنفاق بدل السفر الخاص بي على الشراب. حسنا، أخيرا ظهر بومبال وقد صفعته أم الفتاة التي ضبطتهما في الردهة. وقضينا ليلة رائعة، وأمضيت الأجازة عنده كما أملت.

استيقظت صبيحة اليوم التالي، قبل فوات الأوان، رغم أنني لم أكن قد قررت شيئا. كنت لا أزال في حيرة فيما يختص بالمسألة كلها. وفكرت، على أي حال، أنه في استطاعتي، على الأقل، زيارة نسيم في مكتبه كما فعلت كثيرا من قبل، لأقضي الوقت وأحصل على فنجان من القهوة. وأحسست بالارتباك وأنا أحدث نفسي همسا في المصعد الزجاجي الضخم الذي يماثل، تماما، تابوتا بيزنطيا. لم أكن قد أعددت أي حديث لهذا الحدث، وابتهج الكتبة والعاملون على الآلة الكاتبة لمرآي وأدخلوني مباشرة إلى حجرته الضخمة المقببة، إلى حيث كان جالسا... والآن حدث هنا شيء غريب. لم يبد عليه فقط أنه كان يتوقع مقدمي، لكنه كان يقدر أيضا أسباب مجيئي! بدا مبتهجا، مرتاحا، مليئا بنوع من الصفاء الشيطاني: «لقد كنت أنتظرك منذ شهور مضت»، قال وعيناه تتراقصان: «كنت أتساءل متى تحضر، في النهاية، وتحمل عليّ حملتك وتطرح أسئلتك. أخيرا جئت! فيالها من راحة!». وذاب كل ما كان بيننا بعد الذي قال وأحسست أنني أستطيع الانتقال به إلى حديث مفتوح. لم يكن هنالك أي شيء يمكن أن يفوق دفء وصراحة إجاباته. كانت تحمل لي إقناعا مباشرا.

إن ما تسمى بالجمعية السرية ـ هكذا أخبرنى ـ إنما هى محفل دراسى للقابال(*)، مكرس لدراسة الـ مومبو ـ جومبو (**) المألوف لصوفية الصالونات. الله يعلم أن هنا عاصمة المعتقدات الخرافية، حتى كليا تتعرف على طالعها صباح كل يوم. إنها تعج بالشيع والطوائف. هل هنالك أى غرابة فى توجيه بلتازار لمثل هذه المجموعة الصغيرة التى ترغب فى أن تصبح هرمزية ـ مجموعة دراسية؟ أما فيما يختص بالكتابة الشفرية، فإنها كانت نوعا من حسابات التفاضل والتكامل الصوفية ـ البطرقة(***) القديمة لا غير ـ والتى يمكن بمساعدتها أن يكون رؤساء المحفل فى كل الشرق الأوسط على اتصال. بالتأكيد ليست أكثر غموضا من تقرير مجمع أوتبادل مهذب بين علماء رياضيات يبحثون نفس المشكلة؟.

وسحب نسيم واحدة منها يريها لى وهو يشرح، بصورة تقريبية، كيف يقومون باستخدامها. ثم أضاف أنه يمكن التيقن من صحة كل ما قال بسؤال دارلى الذى حضر تلك الاجتماعات مع جوستين للاستفادة بالمعرفة الهرمزية. إنه يستطيع إخبارى إلى أى مدى هم هدامون ومفسدون! إن كل شىء يسير على نحو حسن حتى الآن. «إلا أننى لاأستطيع أن أخفى عليك»، استمر يقول، «وجود حركة أخرى، سياسية بحته، هى محط اهتمامى المباشر. إنها قبطية كلية. وهى مكرسة، فى بساطة لجمع شتات القبط ـ لا ليثوروا ضد أحد (إذ كيف يمكننا فعل ذلك؟)، ولكن ببساطة لتوحيد أنفسهم معا، لتوثيق الروابط الدينية والسياسية حتى يمكن لهذه الجماعة أن تجد لها مكانا

(*) القبلانية، فلسفة دينية سرية (المترجم).

(**) صنم، معبود أفريقى (المترجم).

(***) طريقة قديمة من الكتابة من اليمين إلى اليسار، ثم من اليسار إلى اليمين على التوالى (المترجم).

تحت الشمس مرة أخرى. الآن وقد تحررت مصر من البريطانيين الكارهين للقبط، فإننا نحس بأننا أكثر حرية فى البحث عن مناصب عليا لشعبنا. أن ينتخب منا بعض أعضاء البرلمان، وهكذا. ولا يوجد أى شىء فى كل هذا يثير مخاوف المسلم الذكى. إننا لا نسعى إلى أى شىء غير قانونى أو ضار، فقط مكاننا الصحيح فى بلدنا، مثلنا مثل غالبية من فى المجتمع المصرى من أذكياء وقادرين».

كان هنالك قدر كبير من الحديث عن المجتمع القبطى فيما مضى وما عاناه من مظالم ـ لن أثقل عليك بكل هذا. إذ من المحتمل أنك تعرفه كله. إلا أن كل حديثه اتسم بالحماس الرقيق الخجول، مما أثار اهتمامى مادام الأمر غير وثيق الصلة بنسيم الوديع الذى يعرفه كلانا. وعندما قابلت الأم، فيما بعد، أدركت الأمر. إنها القوة المحركة التى تقف وراء هذا الحلم الخاص بتلك الأقلية. واستمر يقول: «ليس هنالك ما يثير مخاوف إنجلترا وفرنسا منا ـ إن ما لدينا من ثقافة حديثة إنما هى مأخوذة عن نموذجيهما. إننا لا نسأل عونا ولا مالا. إننا نفكر بأنفسنا كمصريين متحمسين للدفاع عن وطننا.

إننا نعتقد أنه لن يمضى وقت طويل حتى تنشب خلافات عنيفة بين المصريين وبينكم. إنهم يغازلون هتلر بالفعل. وفى حالة نشوب حرب. . . . من ذا الذى يدرى؟ إن الشرق الأوسط ينزلق من قبضة إنجلترا وفرنسا يوما بعد يوم. ونحن الأقليات نرى أنفسنا عرضة للتهلكة كلما تقدمت العمليةواتخذت مسارها. إن أملنا الوحيد هو وجود مهلة ما، مثل الحرب(*). سوف تمكنكم من العودة واستعادة الأرض المفقودة، وإلا فإننا سوف نجرد من أحلامنا ونستبعد. لكننا لا

(*) «الحرب» من ينظر إليها على أنها سهلة. لا يمكن أن يكون سوى عدو.

نزال نضع ثقتنا فيكما. والآن، وفى إطار هذه النظرة، فإن مجموعة صغيرة متماسكة وثرية للغاية من رجال البنوك ورجال الأعمال الأقباط يمكنها أن تمارس نفوذا يتجاوز ـ بما لا يقاس ـ عددها. إننا الأخوة المسيحيين طابوركم الخامس فى مصر. إننا، خلال عام أو اثنين وقد استكملت الحركة مقوماتها، سوف نغدو قادرين على ممارسة ضغط مباشر يؤثر على حياة البلد الاقتصادية والصناعية. إن ذلك سوف يخدم بدفع السياسة التى تشعرون بضرورتها. من أجل هذا كنت أتلهف على إخبارك عنا وعن ضرورة أن ترى إنجلترا فينا رأس معبر إلى الشرق، أرض صديقة فى منطقة تزداد عداء لكم، واستند إلى الخلف، مرهقا للغاية، وإن كان مبتسما.

قال: «إننى أعرف، بالطبع، أن ذلك يهمك كموظف رسمى. لكننى أرجو أن تحتفظ بالأمر سرا، من أجل ما بيننا من صداقة. إن المصريين سوف يرحبون بأية فرصة لتجريدنا من أملاكنا نحن القبط ـ مصادرة الملايين التى نتحكم فيها، وربما أيضا قتل البعض منا، يجب ألا يعرفوا شيئا عنا. إن ذلك هو سبب اجتماعنا سرا، ونحن نبنى الحركة فى بطء. يجب أن نتأكد من عدم وجود هفوات فى عملنا. والآن ياعزيزى بورسواردن، أنا أعرف تماما أنه لا يمكن توقع أخذ كل ما قلته لك مأخذ الثقة، دون دليل، ولذا فإننى سوف أقدم على خطوة غير عادية. إن بعد الغد سوف يكون عيد ستنا دميانة، وسوف نعقد اجتماعا فى الصحراء، وأنا أحب أن تأتى معى حتى يمكنك أن ترى كل شىء وتستمع إلى أعمالنا، وأن يتضح لك نظامنا ونوايانا، ربما نكون قادرين، فيما بعد، على تقديم أكبر الخدمات لبريطانيا هنا. إننى أود أن أصل بالحقيقة إلى عقر دارها. هل تأتى؟».

«هل آتى؟!».

وذهبت. لقد كانت حقا تجربة عظيمة جعلتنى أدرك أننى لم أر من مصر إلا لماما ـ مصر الحقيقية الكامنة تحت المدن الخانقة بذبابها المزعج وصالات التجارة وفيللات رجال البنوك التى تطل على البحر يغمرها رذاذه، والبورصة ونادى اليخت والجامع... ولكن انتظر.

غادرنا والفجر بارد أرجوانى. واتجهت بنا السيارة منحدرة على طريق أبو قير مسافة قصيرة قبل أن تستدير إلى الداخل: ومن ثم عبر طرق ترابية وممرات مرتفعة مهجورة تقطع أرضا سبخة وقنوات ومدقات غير مطروقة، أقامها الباشوات القدامى لتصل بهم إلى مكامن صيدهم على البحيرة. وأخيرا كان علينا أن نترك السيارة، وهنا كان ينتظرنا الأخ الآخر ومعه الخيل ـ إنه أشبه بساكنى كهوف ما قبل التاريخ، بمشوهى الحرب، ناروز ذوالوجه المعطوب. ياله من تناقض، هذا الفلاح الأسود عند مقارنته بنسيم! ويالها من قوة، لقد أخذت بمرآة. كان يربت على سلسلة فقرية لحصان كبير، صنع منها سوطا كان ينضح ماء ـ الكرباج ـ التقليدى. لقد رأيته يلتقط به فراشات من فوق الأزهار، على بعد خمس عشرة خطوة. وطارد فى الصحراء، فيما بعد، كلبا متوحشا، مزقه بضربتين. لقد تقطعت أوصال الكائن البائس، حقيقة، بضربتين من هذه اللعبة!. حسنا، سرنا، نمتطى الخيل فى كآبة، إلى المنزل. لقد ذهبت أنت إلى هناك منذ سنين بعيدة، أليس كذلك؟ وكان لى جلسة طويلة مع الأم. امرأة كحزمة متغطرسة فى ملابس سوداء، تتحدث فى إنجليزية آسرة فى صوت جاف، يحمل نبرة هيستيرية. إنها ظريفة، بصورة ما، لكنها غريبة ومنفعلة إلى حد ما ـ لها صوت راهب أو راهبة؟ إننى لا أعرف. كان واضحا أن الأخوين

سيأخذاننى إلى الدير فى الصحراء. وكان واضحا أن ناروز هو الذى سيتكلم. كانت تلك هى باكورة أعماله. أول محاولة له. لم أستطع تصور قدرة هذا المتوحش كثيف الشعر على فعل ذلك. كان فكاه يعملان طوال الوقت، يضغط عضلاته حول صدغيه! إنه - كما أرى وأعتقد - يطحن أسنانه أثناء نومه. لكن له، أيضا، عينى فتاة زرقاوين خجلاوين. كان نسيم شديد الحماس له. يا إلهى، أى فارس هو!.

انطلقنا صباح اليوم التالى، ومعنا عدد من الخيول العربية، وقد امتطيا جواديهما فى عذوبة، وقطار من الجمال تسير متثاقلة، هدية ناروز إلى عامة الناس - حيث تنحر وتقطع وتلتهم. كانت سفرة بطيئة مرهقة وسراب الحر يبلبل القدرة على التركيز والإبصار، ومياه العرق فاترة رهيبة فى جلودنا، وصديقك المخلص يحسم الغم والتعب، الشمس تصب لظاها على أم رأسى، فأحس أزيز مخى فى جمجمتى، وكنا قد بلغنا، حينذاك، أول شجرة نخيل تظهر فوق سطح الأرض - ولاحت صورة الدير تدوى، حيث ضربت رأس دميانة المسكينة لتفصل عن كتفيها مجدا للرب.

وصلنا هناك وقد حل الغسق، وهنا ولجنا مكانا به نقوش ملونة رائعة يمكن أن تكون رسما تصويريا... لماذا؟ مخيم هائل للمواخير ودور الإقامة قد شيد من أجل المهرجان. لابد أنه كان هنالك ستة آلاف حاج أقاموا حول المكان فى بيوت من أغصان الأشجار المضفورة والأوراق، من القماش والأبسطة. مدينة كاملة انبثقت بأنوارها ومجاريها البدائية - لكنها مدينة مكتملة تحتوى حتى حى صغير، وإن كان ملتقى، للعاهرات. وكانت الجمال فى كل مكان فى العتمة، ورفرت أنوار المصابيح والمشاعل بدخانها، ونصب لنا رجالنا خيمة

تحت بناء مقوس متهدم، حيث كان درويشان بلحى وقورة يتحدثان، تحت أعلام مطوية كأجنحة طيور ائعة، فى ضوء مصابيح ورقية كبيرة تغطيها الكتابة والنقوش. وحل ظلام كثيف، وإن كان المظهر الجانبى رائع الإضاءة بكل بهجة المولد. انتابتنى رغبة ملحة فى إلقاء نظرة على ما حولنا. وكان ذلك مناسبا تماما لهم، إذ كان لديهم أمور يجب إعدادها داخل الكنيسة، وحدد لى نسيم موعد لقاء، بعد ساعة ونصف، عند الخيمة التى نقيم فيها. وكاد يفقدنى تماما، فقد استحوذت علىّ هذه المدينة العجيبة بشوارعها الموحلة وسبلها ذات الأكشاك المتوهجة. الطعام من كل صنف: بطيخ، بيض، موز وحلوى، كلها تتبدى فى هذا الضوء غير الأرضى. إن بائعا متجولا طوافا لابد قد أتى عبر الرمال ليبيع للحجيج هنا. وفى الأركان المظلمة، كان الأطفال يلعبون ويصرصرون كالفئران، بينما الكبار يطهون الطعام فى أكواخهم وخيامهم المضاءة بشموع ضئيلة لاهثة. المشاهد الجانبية تموج بألعاب الحظ، وعاهرة عذبة لذيدة تغنى فى إحدى المواخير أغنية تمزق نياط القلب، برقائق من ربع النغم، ومداخل عالية النبرات بينما تدور فى ردائها الأشبه بالغمد والمكون من قطع معدنية لولبية. كان سعرها مكتوبا على الباب. لم يكن عاليا، على ما أعتقد. كنت مضعضع العقل، فأخذت ألعن التزاماتى الاجتماعية. وفى ركن آخر، كان الراوية يغنى فى أنين، على وتيرة واحدة قصة الزهور الرومانسية. وانتشر، على راحتهم، شاربو الشربات(*) والقرفة على مقاهى متنقلة مؤقتة، فى تلك الشوارع المضاءة المزينة بالأعلام. وترامى من خلف جدران الدير صوت القسس يترنمون، وقرقعة الرجال، التى لا تخطئها الأذن، وهم يلعبون العصا والحشد حولهم يهدر فى

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

استحسان لكل مناورة بارعة. والمقابر ملآى بالزهور فى ظلال من ضوء فى لون الزبد. وصوانى اللحم تعبق الهواء - السجق والضلوع والأحشاء تأز فوق الأسياخ. والتحم كل شىء فى صورة حادة واحدة متحدة، من الضوء والضوضاء، فى عقلى. وأخذ القمر يشق طريقه فى سرعة.

كانت هنالك، فى المواخير، مجموعات من السودانيات فى ملابس أرجوانية براقة، يرقصن على موسيقى غريبة تصدر عن اهتزازات محدودة الانسجام، ذات أنغام عالية لمزامير قرع عسلى مطلى. كانت خطاهن تنصاع لذكر أسود أشبه بالتيس، يدق بعنف عصا من صلب فوق قطعة من قضيب سكة حديدية، معلق إلى عمود الخيمة. هنا التقيت بواحد من خدم آل سيرفونى، ابتهج لمرآى وألح علىّ ببعض من البيرة السودانية الغريبة التى يسمونها «مريسة»(*)، فجلست أرقب كل هذا، والذى يكاد يكون نوعامن الرقص الأشبه بالهذيان - الدوران البطىء حول مركز واحد والخطى البطيئة الغريبة كأنك تسحق صرصارا، غرز أصبع القدم والاستدارة عليه واللف به فى الأرض. وأفقت على دق طبول كالموجات، ورأيت درويشا يمر ممسكا بطبل كبير من جلد الجمال - نصف كرة من نحاس متوهج. كان أسود - رفاعيا. ولما لم أكن قد رأيت هؤلاء البتة وهم يسيرون فوق النار أو يأكلون العقارب، فإننى فكرت أن أتبعه لأرى ما يفعلونه هذا المساء. كان ماسا بالقلب أن تسمع المسلمين ينشدون أغانى دينية لدميانة، القديسة المسيحية. لقد سمعت الأصوات وهى تولول الكلمات: «يا ست يا بنت الوالى»(*). وتبعت أثر مجموعة من الدراويش إلى ركن

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

مضىء بين كوتين فى سور. كانت هنالك رقصة فى نهايتها، وقد أحالوا واحدا منهم إلى شمعدان بشرى، تغطيه االشموع المشتعلة، والشمع الساخن يقطر فوق جسده كله. . كانت عيناه غائمتين ذاهلتين. وجاء فى النهاية صبى ليدفع بخنجر ضخم عبر وجنتيه، ثم رفع على طرفى الخنجر شمعدانين، فى كل منهما فروع شموع مضاءة. نهض بعد خوزقته لنفسه، فى بطء على أصابع أقدامه، وأخذ يدور راقصا ـ كشجرة فوق نار مشتعلة. واستلوا الخنجر فى بساطة، بعد الرقصة، من فكه، ولمس الرجل العجوز جراحه بأصبع بلله بريقه. وفى ثانية واحدة، كان الصبى يقف هنالك مبتسما، مرة ثانية، وليس هنالك ما يشير إلى آلامه. بل لقد بدا الآن يقظا.

كانت الصحراء البيضاء، خارج نطاق كل هذا، تتحول تحت القمر إلى حقل كبير من الجماجم وأحجار الرحى. ودوت الأبواق والطبول واندفع فرسان يرتدون قبعات قمعية الشكل يلوحون بسيوف خشبية، يزعقون بأصوات عالية كالنساء. كان سباق الجمال والخيول يوشك أن يبدأ. حسنا، سوف ألقى نظرة على هذا السباق، هكذا فكرت، لكنى ما إن خطوت، دون أن آخذ حذرى، حتى وجدت نفسى أمام مشهد غريب، كنت أسعد لو تجنبته، إن كان ذلك فى مقدورى. كانت جمال ناروز تنحر من أجل الحفل. يالهذه الأشياء التعسة. كانت تركع فى سلام وقد طويت أرجلها الأمامية تحتها مثل القطط بينما يهاجمها جمع من الرجال يحملون البلط فى ضوء القمر. وجمد دمى فى عروقى، ورغم ذلك عجزت عن انتزاع نفسى بعيدا عن هذا المشهد الشاذ. ولم تأت الحيوانات بأية حركة تتفادى بها الضربات الموجهة إليها، ولم تصدر عنها أى صرخات بينما تقطع إربا. كانت البلط تضرب فيها وكأن أجسادها الضخمة قد صنعت من فلين، تغوص عميقا مع كل

ضربة. كانت الجمال كلها تشق دون ألم، وبدا الأمر أشبه بشجرة يجرى تشذيبها. كان الأطفال يرقصون حولها فى ضوء القمر يلتقطون الندف ويجرون بها إلى المدينة المضيئة. كانت هنالك كتل من اللحم الدامى. حملت الجمال فى تجهم إلى القمر دون أن تقول شيئا. قطعت الأرجل، أخرجت الأحشاء وأخيرا انكفأت الرءوس تحت البلط كالتماثيل ورقدت هنالك فوق الرمال بأعين مفتوحة. وكان الرجال الذين يحملون البلط يصرخون ويمزحون وهم يعملون. وانتشر فوق الكثبان الرملية المحيطة بالمجموعة بساط من دم أسود، كان يغوص فيه الصبية الحفاة. ثم يحملون تلك البصمات معهم إلى البلدة. وأحسست فجأة أنى مريض للغاية، فارتددت إلى الجزء المضاد بحثا عن شراب. وجلست على دكة أرقب العرض السائر أمامى حتى أتمالك أعصابى. هنا، أخيرا، وجدنى نسيم، وسرنا معا إلى داخل الجدران عبر صومعات مجمعة تسمى أقراص الشهد (هل تعرف أن كل الديانات المبكرة كانت تقوم على نمط أشبه بالخلايا. من يدرى، ربما كانت تقلد قانونا بيولوجيا؟ . .). وأخيرا بلغنا الكنيسة.

حجاب مقدس رائع الرسوم، وشموع قديمة ذات لحى شمعية تشتعل فوق المنبر الذهبى لقراءة الكتاب المقدس. الضوء ناعم وقد اختلطت به البخور ليعطى لون حبوب اللقاح. والأصوات العميقة تنساب كنهر يجرى فوق قاع ملىء بالحصباء، فى خدمة القداس الكنائسى لسانت بازيل. إنها تسير فى رقة من نقلة إلى أخرى، تتوقف ثم تستأنف، تبدأ بأقل من الطبقة المعتادة لتعلو فى حناجر ورءوس هؤلاء السود المتألقين. وسار أفراد الجوقة عبرنا كالإوز يأخذون بالألباب وهم يرتدون أغطية رأس قرمزية عالية وجلابيب بيضاء عليها أشرطة قرمزية متقاطعة فى صلبان. الضوء ينعكس على خصلات

شعرهم الملتوية الفاحمة اللامعة ووجوهم العارقة! وعيون كبيرة كتصاوير الحوائط تشع بياضا.

إن هذا الذى أراه سابقا على المسيحية. إن كل واحد من هؤلاء الشبان بقلنسوته القرمزية قد غدا رمسيس الثانى. والشمعدانات الضخمة تتلألأ وتدخن. وارتفعت نفثات البخور. كان يمكن للمرء أن يسمع ضوضاء سباق زمرة الجمال فى الخارج، أما فى الداخل فقد كانت تسمع فقط تمتمات الكلمة المقدسة. والمصابيح الطويلة المعلقة وقد تدلى منها بيض النعام (كانت تلك المسألة تؤثر فىّ دوما، إنها مسألة تستحق البحث والدراسة).

كنت أعتقد أننا قد بلغنا هنا مقصدنا، إلا أننا درنا حول الحشد وهبطنا بعض الدرجات إلى سرادب أسفل الكنيسة. وأخيرا كان هذا هو المكان. سلسلة من الحجرات الكبيرة الشبيهة بخلية النحل، مدهونة بالجير الأبيض الناصع. وجلست فى إحداها، إلى جوار شمعة مشتعلة، مجموعة تصل إلى مائة شخص فوق دكك خشبية خائرة، فى انتظارنا. وضغط نسيم على ذراعى ودفعنى للجلوس إلى الخلف بين مجموعة من كبار السن الذين أفسحوا لى مكانا. وهمس لى: «سوف أتحدث إليهم أولا، ثم يتحدث ناروز بعد ذلك - إنها المرة الأولى». لم يكن هنالك ما يشير إلى وجود الأخ الآخر حتى الآن. كان الرجال الذين يجلسون إلى جوارى يرتدون الجلابيب، إلا أن البعض منهم كان يرتدى الملابس الأوروبية أسفلها. وكان البعض يلف عصابة تغطى رأسه وذقنه. كان يمكن الحكم عليهم من أيديهم وأظافرهم المعتنى به. لم يكن أحد منهم من العمال. كانوا يتحدثون العربية ولكن فى نبرات منخفضة، ولا تدخين.

ونهض نسيم الطيب يخاطبهم بهدوء وفاعلية من يتناول أمورا تخص اجتماعا روتينيا لمجلس إدارة. تحدث فى هدوء، وبقدر ما استطعت أن أفهم أراح باله بإعطائهم تفصيلات عن الأحداث القريبة، انتخاب بعض الأشخاص فى مختلف اللجان، ترتيبات تمويل رءوس أموال وهكذا. ربما كان يخاطب أصحاب أسهم. كانوا ينصتون إليه فى وقار. ثم قال، «إلا أن هذه التفصيلات ليست هى كل شىء. إنكم تودون سماع شىء ما عن أمتنا وعقيدتنا، شىء ما لا يستطيع حتى القساوسة أن يتحدثوا به إليكم. إن أخى ناروز، والذى تعرفونه، سوف يتحدث الآن قليلا إليكم».

ماذا يمكن لهذا القرد الأفريقى، ناروز، أن يخبرهم به، تساءلت؟ كان ذلك مثيرا للاهتمام تماما. والآن دخل ناروز من الظلمة خارج الحجرة، من بابها الآخر. كان يرتدى جلبابا أبيض، وقد بدا شاحبا كالرماد. كان شعره متدليا على جبهته فى شوشة مدهونة بالزيت، أشبه بعامل فى منجم فحم يوم عطلته. كلا، كان يشبه خوريا مفزوعا فى رداء أبيض، واسع كالجبة، سيئ الكى، وقد تضامت يداه فوق صدره ومفاصل الأصابع مضغوطة بيضاء. وأخذ مكانه عند منبر خشبى عليه شمعة مشتعلة، يحملق فى مستمعيه بفزع وحشى واضح، يعتصر عضلاته لتبرز من ذراعيه وكتفيه. وخيل إلىّ أنه سيسقط. وفتح فكيه المنقبضين فى شدة، إلا أن شيئا لم يصدر عنه. بدا كأنما قد أصابه الشلل.

وصدرت حركة وهمسة. ورأيت نسيم ينظر إليه قلقا، بصورة ما، وكأنه قد يحتاج إلى العون. إلا أن ناروز وقف متصلبا كرمح قصير، يحملق عبرنا مباشرة، كأنما ينظر إلى مشهد مخيف يجرى وراء الجدران

البيضاء خلفنا ـ وحملنا التوتر على الإحساس بالقلق. ثم أتى بحركة غريبة فى فمه، وكأن لسانه قد تورم أو كأنه يبتلع خلسة سقف حلق طري وانطلقت منه صرخة خشنة، «مدد يا مدد» (*). كانت ابتهالا تسمعه أحيانا من مبشرى الصحارى، يتوجهون به إلى القوة الإلهية، قبل أن يذهبوا فى غيبوبة روحية ـ الدراويش. وبدأ وجهه يعمل، ثم تغير فجأة وكأن تيارا كهربيا قد أخذ ينساب فى جسده، فى عضلاته، مزيحا تحكمه فى ذاته فى بطء. ثم أخذ يتكلم فى لهاث، وهو يدير عينيه المذهلتين، وكأن قوة الحديث ذاتها تفرض نفسها عليه فرضا، بصورة ما، تسبب له آلاما بدنية عليه احتمالها. . . كان عرضا يثير الفزع. وللحظة أو لحظتين لم أستطع فهم أى شيء. كان يفصح عما يريد بطريقة سيئة للغاية. ثم حدث فجأة أن اخترق الحاجز، واستجمع صوته فى قوة كانت تهتز فى ضوء الشمعة كآلة موسيقية.

«مصرنا، بلدنا الحبيب»، كان يخرج الكلمات كالحلوى، يكاد يدندنها فى صوت رخيم. كان واضحا أنه لا يملك شيئا جاهزا يلقيه ـ لم تكن تلك خطبة. كانت ابتهالا ينطقه ارتجالا، كما سمعت فى بعض الأحيان ـ الخطرات العفوية الرائعة للسكارى، لمغنى القصص الشعرية، أو تلك الندابات المحترفات اللواتى يتبعن مواكب الدفن بصرخاتهن، والكلمات الشعرية التى يضفى الموت عليها قداسة. ومستنا جميعا موجة كهربية حتى أنا نفسى الذى كانت عربيته سيئة للغاية! كانت النبرة ومداها، كظم الحدة والرقة التى حملتها كلماته إلينا، تصيب منا الهدف، وتجعلنا نسترخى كما تفعل الموسيقى، كان يبدو أنه غير مبال إن كنا نفهم كلماته أو لا نفهمها. وهى لا تهم الآن أيضا. حقا، إنه لمن المستحيل أن يعرب المرء عما قال بعبارات أخرى»،

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

النيل . . . النهر الأخضر ينساب فى قلوبنا يصغى لأبنائه . سوف يعودون إليها . سلالة الفراعنة ، أطفال رع ، نبت القديس مرقص . سوف يعثرون على المكان الذى ولد فيه الضياء» . وهكذا كان المتحدث يغلق عينيه تاركا سيل كلماته ينساب بلا حواجز . يدفع برأسه إلى الوراء مرة مبتسما ككلب ، ولاتزال عيناه مغلقتين ، حتى يلمع الضوء فى أسنانه الخلفية . يا لذلك الصوت! كان ينطلق محكوما ، يرتفع هادرا ، ينخفض هامسا ، ينتفض رخيما نائما .

وفجأة يدفع بالكلمات ، صائحا ، كطلقات سلاسل حديدية ، أو يموجها فى رقة كما الشهد . كنا أسراه تماما ـ كلنا جميعا . لكن الشىء المضحك كان رؤية اهتمام نسيم ودهشته . كان واضحا أنه لم يكن يتوقع شيئا كهذا . فقد كان ينتفض كورقة وقد شحب لونه تماما . كان هو نفسه يجرفه ، أحيانا ، فيضان ذاك الكلام المنمق . ورأيته يمسح فى عجلة ، دمعة سالت من عينيه .

واستمر الحال على هذا المنوال قرابة ثلاثة أرباع الساعة . وفجأة ، دون توقع ، انقطعت الموجة ، وخمدت أنفاس المتكلم . ووقف ناروز هناك يشهق أمامنا كسمكة ـ وكأنما ألقت به أمواج موسيقاه الداخلية إلى شاطئ غريب عليه . كانت فجائية كنزول ستارة شباك معدنية ـ صمت لا يمكن تداركه ثانية ـ وانعقدت يداه مرة أخرى وصدر عنه أنين فزع ، واندفع خارج المكان بحركته المضحكة التى تشبه التسلق حبوا وهبط صمت هائل ـ الصمت الذى يلى عرضا كبيرا لممثل أو جوقة موسيقية ـ الصمت الذى يحمل فى أحشائه نطفة الحياة التى يمكن أن تسمع بذورها تنتفض فى النفس البشرية تحاول الخروج إلى ضياء التعرف على ذاتها . لقد تأثرت من ذلك عميق التأثر ، وأرهقت غاية الإرهاق . . ياله من إخصاب وإبداع !

وأخيرا نهض نسيم وأتى بحركة غامضة : كان هو أيضا مرهقا وسار كرجل عجوز . أخذ يدى وقادنى إلى أعلى داخل الكنيسة مرة أخرى ، حيث كان ضجيج السنج والأجراس قد اندلع . وسرنا عبر نفثات البخور الهائلة والتى بدت كأنها تهب علينا من مركز الأرض ـ من خطى الملائكة والعفاريت المطاردة أسفل عالم الرجال . وظل يردد فى ضوء القمر : «لم أكن أعرف ذلك أبدا . لم أتوقع ذلك أبدًا من ناروز . لقد طلبت منه أن يتحدث عن تاريخنا فقط . إنه واعظ حقا ـ لقد فعلها . . . » وضاعت منه الكلمات . لم يكن أحد ، كما هو ظاهر ، يتوقع وجود مثل هذا الساحر الخلاب فى وسطهم ـ الرجل ذو السوط . (إنه يستطيع أن يقود حركة دينية) ، هكذا فكرت فيما بينى وبين نفسى . كان نسيم يسير إلى جوارى مفكرا مرهقا ، وسط أشجار النخيل . قال مندهشا : «إنه يصلح واعظا ؛ لهذا كان يذهب لرؤية تاؤر» . وأوضح نسيم لى أن ناروز كثيرا ما يمتطى حصانه فى الصحراء لزيارة امرأة قديسة مشهورة (وبالمناسبة هناك زعم أن لها أثداء ثلاثة) تعيش فى كهف صغير قرب وادى النظرون . إنها مشهورة بأعمالها المدهشة فى شفاء المرضى إلا أنها لا تخرج عن غموضها . قال نسيم : «إنه عندما يغادرنا ، إما أن يذهب إلى الجزيرة ليصيد السمك ببندقية ، وإما أن يذهب لرؤية تاؤر . دائما واحدة أو الأخرى؟» .

عندما عدنا إلى الخيمة كان الواعظ الجديد يرقد ملفوفا فى ملاءة ينتحب فى صوت أجش كناقة جريحة . وكف عندما دخلنا ، إلا أنه ظل ينتفض لفترة ، وأصابنا الارتباك فلم نقل شيئا . وتحولت الليلة إلى صمت ثقيل . كانت تجربة عظيمة الشأن حقا .

لم أستطع النوم لفترة طويلة . كنت أستعيد ما حدث فى مخيلتى .

واستيقظنا صباح اليوم الثانى عند الفجر (كان البرد فظيعا بالنسبة لشهر مايو، وقد تيبست الخيمة بفعل الصقيع). وامتطينا الخيل مع الإشعاعات المبكرة، كان ناروز قد استعاد نفسه تماما. كان يقلب سوطه ويقوم ببعض الحيل فى معنويات عالية. وكان نسيم غارقا فى التفكير، إلى حد ما، معتزلا كما خطر ببالى. واستحث السفر الطويل على الخيل عقولنا. وأحسسنا بالراحة عندما رأينا أشجار النخيل، ذات الأكاليل، تظهر نامية أمامنا، من جديد. استرحنا فى كرم أبو جيرج حيث قضينا الليلة. مرة أخرى. لم تتح لى فرصة لقاء الأم فى البداية وأخبرونا أنه فى الإمكان رؤيتها فى المساء. حدث هنا مشهد غريب لم أكن أنا ونسيم مستعدين تماما، إذ بينما يتقدم ثلاثتنا عبر حديقة الزهور نحو منزلها الصيفى الصغير، جاءت إلى الباب ومعها مصباح فى يدها وقالت: حسنا يا أبنائى«، كيف سارت الأمور؟. وسقط ناروز على ركبتيه مادا ذراعيه إليها. وغمرنى ونسيم الارتباك. وتقدمت هى إلى الأمام ووضعت ذراعيها حول هذا الفلاح الذى كان ينشج وينخر، فى الوقت الذى أومأت لنا فيه بأن نغادر المكان. يجب أن أقول إننى أحسست بالراحة عندما تسلل نسيم إلى حديقة الزهور، وكنت سعيدا أن أتبعه. «هذا ناروز جديد» ظل يردد فى رقة، فى صوفية صادقة. «لم أكن أدرى بكل تلك القوى فيه».

وعاد ناروز، فيما بعد، إلى المنزل وهو فى قمة معنوياته. ولعبنا الورق وشربنا العرقى. وأرانى فى فخار بالغ، بندقية صنعت له فى ميونخ، إنها تطلق رمحا قصيرا ثقيلا تحت الماء وهى تعمل بالهواء المضغوط. وأخبرنى الكثير عن هذه الطريقة الجديدة للصيد تحت الماء. بدت رياضة مثيرة، ودعانى لزيارة جزيرة صيده معه فى إحدى الإجازات الأسبوعية. واختفى الواعظ الآن تماما وعاد الابن الثانى الساذج مرة أخرى.

أف! إننى أحاول أن أكتب كل التفاصيل التى تثير الانتباه، لعلها تكون ذات نفع لك، عندما أكون أنا قد غادرت. آسف إن كان الأمر مثيرا للملل. تحدثت طويلا إلى نسيم ونحن فى طريق العودة إلى المدينة، وغدت كل الحقائق واضحة فى رأسى. وقد بدا لى، أنه من الزاوية السياسية، فإن المجموعة القبطية قد تكون ذات نفع كبير للغاية لنا. وكنت على يقين من أن هذا التفسير والتأويل سوف يكون قابلا للتصديق، إن شرح بطريقة صحيحة لماسكيلين. أى آمال عريضة!

عدت مسرورا إلى القاهرة، أعيد ترتيب رقعة الشطرنج بناء على ذلك. ذهبت إلى ماسكيلين لأنبأه بالأخبار الطيبة. إلا أنه لدهشتى شحب تماما واستشاط غضبا، وضاقت أركان أنفه، وتحركت أذناه إلى الخلف قرابة بوصة، أشبه بكلب سلوقى. وظل صوته وعيناه على حالهما: «هل تعنى بذلك إخبارى أنك حاولت استيفاء ورقة أعمال الاستخبارات بالتشاور مع موضوع هذه الورقة؟ إن هذا يتضاد وكل قاعدة آلية للاستخبار. وكيف لك أن تصدق كلمة واحدة من قصة واضحة تمام الوضوح تستهدف التغطية؟ إننى لم أسمع البتة بمثل هذا الشيء. لقد علقت عمدا تقريرا من تقارير مكتب الحرب، وأسأت إلى سمعة منظمتى الباحثة عن الحقيقة، وادعيت أننا لا ندرك واجباتنا. . . إلخ». ويمكنك أنت أن تلم بباقى خطاب التنديد والتعنيف هذا. وبدأت أغضب، فكرر فى لهجة جافة: «لقد كنت أقوم بهذا العمل منذ خمسة عشر عاما، إننى أقول لك إن الرائحة تفوح من الأسلحة، من العمل على قلب الأوضاع أنت لا تصدق إكبارى لاستخباراتى، وأنا أعتقد أن ما قمت أنت به إنما هو عمل سخيف. لماذا لا ترسل التقرير إلى المصريين وتدعهم يكتشفون الأمر بأنفسهم؟».

إننى بالطبع لم أكن أطيق هذا الفعل، وكان هو عارفا بذلك. ثم قال إنه قد طلب من مكتب الحرب أن يحتج فى لندن وإنه يكتب إلى إيرول يسأله «إصلاح ما فسد». كل ذلك بالطبع كان متوقعا، إلا أننى طرحت عليه منحى آخر. قلت له: «انظر هنا. لقد رأيت كل مصادرك. إنهم جميعا من العرب، ومثل هؤلاء ليسوا أهلا للثقة. لماذا لا نعقد اتفاقا كريما مهذبا؟ ليس هنالك ما يدعو إلى العجلة.. يمكننا تقصى أوضاع آل حصنانى على مهل ـ ولكن ما رأيك فى اختيار مجموعة جديدة من المصادر ـ مصادر إنجليزية؟ فإن صدقت النتائج. فإننى أعدك بالاستقالة وسحب كل ما قلت، وإلا فإننى سأقاتل فى مواجهة هذا الأمر».

«ما نوع المصادر التى تفكر فيها؟».

«حسنا، هنالك العديد من الإنجليز فى الشرطة المصرية، وهم يتحدثون العربية ويعرفون من الناس من يخصهم هذا الأمر. لماذا لا تستخدم البعض منهم؟».

ونظر إلىّ طويلا: «إنهم فاسدون، مثلهم مثل العرب. إن نمرود يبيع معلوماته إلى الصحف. إن الـ «جلوب» تدفع له أجرا شهريا قدره ٢٠ جنيها فى مقابل المعلومات السرية؟»

«لابد أن هنالك أخرين؟»

«يا إلهى يوجد أخرون بالفعل، وعليك أن تراهم!».

«هنالك دارلى، ومن الواضح أنه يذهب إلى تلك الاجتماعات التى تثير قلقك كثيرا. لماذا لاتسأله المساعدة؟». «إننى لن أعرض شبكتى للظنون بإدخال شخصيات كتلك، إنه ليس أهلا لها، وأنه غير موثوق به!».

«إذن لماذا لاتنشئ شبكة منفصلة. . دع تلفورد يقوم ببنائها، خصيصا لهذه المجموعة وليس لأى مهمة أخرى، ولا تضف عبئا إلى منظمتك الرئيسية. بالتأكيد يمكنك فعل ذلك؟!».

وحملق فيّ بطيئا: «في وسعى إن أردت ذلك»، اعترف قائلا: «وإن رأيت ذلك مجديا. ولكن لاجدوى». «على أى حال، لماذا لاتحاول؟ إن وضعك هنا يكاد يكون مزعزعا حتى يأتى السفير ليحدده وليحكم فيما بيننا، لنفرض أننى أرسلت بهذه الأوراق وعُصف بكل تلك المجموعة؟».

«حسنا، وماذا؟».

«لنفرض أن تلك المجموعة، كما أعتقد، شيء ما يمكن أن يعاون السياسة البريطانية فى هذه المنطقة، فإن أحدا لن يشكرك لسماحك للمصريين بقضم هذا البرعم. ولو ثبت، حقيقة، أن الأمر كان كما أراه، فإنك سوف تجد. . .».

«سوف أفكر فى الأمر». لم يكن لديه أية نية لفعل هذا، كما كان فى وسعى أن أرى، إلا أنه كان عليه أن يفعل ذلك، واتصل بى فى اليوم التالى وقد بدل رأيه، وأخبرنى أنه يفعل ما اقترحته عليه، رغم أن الحرب بيننا، دون إصدار حكم مسبق، كانت لاتزال تجرى بيننا. ربما كان قد سمع بتعيينك وعرف أننا أصدقاء. لست أدرى.

أف، ذلك هو الوضع، أخبرك به قدر ما استطعت. أما عن البقية ـ فإن البلد لايزال هناك كل شيء فيه شاذ لايقاس عليه، ملتو، متعدد الأشكال. متموج، متعرج، مزعزع، معتم، مبهم، متعدد التفريعات، أو مجرد نقطة واضحة. آمل أن تدخل عليك المسرة عندما

أغدو بعيدا عنها! أنا أعرف أنك سوف تجعل من بعثتك الأولى نجاحا مدويا، وربما لن تأسف على هذه السطور من المعلومات من.

صديقك المخلص

إيرويج فان بيتفيلد

* * *

درس مانت أوليف هذه الوثيقة بعناية بالغة. ووجد أن النغمة السائدة فيها تثير الضيق وأن معلوماتها تثير الإرباك بطريقة طريفة إلا أن كل بعثة كانت تمزقها عوامل الشقاق والمضايقات الشخصية والآراء المتباينة. كل تلك الأدوار كانت تأتى دوما فى المقدمة. وتساءل للحظة: إنه ليس من الحكمة إجازة النقل الذى يريده بورسواردن. إلا أنه أبعد الفكرة بأن جعل أخرى تطغى عليها.

إن كان عليه أن يقوم بشىء ما فيجب فى هذه المرحلة ألا يبدى التردد ـ حتى فى مواجهة كنيلورث. وأخذ يسير فى الأرض الفضاء بجوها الشتوى، ينتظر من الأحداث أن تتخذ أشكالا محددة حول مستقبله، وأخيرا أعد خطابا متأخرا لبورسواردن، كان حصيلة الكثير من إعادة الكتابة والتفكير، وبعث به عبر حجرة البريد.

عزيزى ب

يجب أن أشكرك على خطابك بما فيه من بيانات مهمة ومشوقة، إننى أحس أننى لا أستطيع اتخاذ أى قرارات قبل وصولى. كما لا أحب الحكم على الأمور مسبقا ـ لقد قررت إبقاءك مرتبطا بالبعثة عاما آخر، سوف أطالب بمزيد من الاهتمام بالنظام فى قسم الاستقبال، بأكثر مما يناله الآن، إننى مدرك أنك لن تخذلنى مهما بدا أن بقاءك غير

متسق ورؤيتك . هنالك الكثير الذى يلزم فعله لتحقيق ذلك ، وهنالك الكثير الذى يلزم إقراره قبل مغادرتى .

المخلص
دافيد ماونت أوليف

ونقلت الرسالة إلى بورسواردن مزيجا من التشجيع والتأنيب ، وهذا ماكان يأمله ماونت أوليف . إن بورسواردن ماكان يكتب بكل هذه الثرثرة ، أو تصور نفسه مرءوسا تحت رئاسته . ومع ذلك ، فلو كان على مهنته أن تأخذ شكلها الصحيح ، فالواجب يملى عليه أن يبدأ من البداية .

إلا أنه كان قد خطط بالفعل لنقل ما سكيلين ، ورفع مكانه بورسورادن إلى رئيس مستشاريه السياسيين . ورغم ذلك ظلت هنالك فى أعماقه خلجة من قلق ، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام عندما تسلم بطاقة بريدية ممن لا يرجى صلاحه ، «عزيزى السفير» ، هكذا بدأت . «لقد أثارت أخبارك قلقى . إن لديك العديد من خريجى كلية إيتون ، كأنك فى دغل ، لتنتقى منهم . . . ومع ذلك فإننى فى خدمتك» .

* * *

(٦)

أخذت الطائرة تحط مائلة فى بطء نحو الأرض، والمساء بنفسجى. أفسحت الصحراء البنية، بكثبانها الرملية التى نحتتها الرياح على وتيرة واحدة، مكانها لخريطة بارزة واضحة للدلتا. ورقدت فى الأسفل مباشرة التواءات النهر البنى المتئدة وضفافه وخطوط تماسه مع الأرض حوله، حيث تسبح فيه قوارب تبدو كالبذور. ومصبات جافة مهجورة وحواجز رملية ـ والمناطق الخالية غير المسكونة من الأراضى الداخلية المرادفة للساحل حيث تتجمع الأسماك والطيور خفية. هنا وهناك كان النهر ينشق كما ينشق نبات الخيزران لينعطف ويلف حول جزيرة بها أشجار تين ومئذنة وبعض أشجار النخيل الذابلة برقتها الناعمة كالرياش تشق الأرض الممتدة المنبسطة المرهقة بأجوائها الحارة وسرابها وخمودها المشبع بالرطوبة. ومربعات من زراعة هنا وهناك بذل فيها جهد أشبه برفى قماش صوفى مخطط بال، تفصلها فلقات من مستنقعات فى لون الفحم القارى، وتحيط بها مياه بنية بطيئة منخفضة الارتفاع. وتنهض الأحجار الجيرية الوردية هنا وهنالك كعُقد الأصابع.

كان الحر مخيفا فى القمرة الصغيرة فى الطائرة. وأخذ ماونت أوليف يغالب بزته بطريقة شاذة مؤلمة. كان صانعو الجلود قد فعلوا بها أمورا عجيبة ـ كانت، ويا لوطئها، تبدو كقفاز. كان لابسها يبدو كمن

قبع فى قفاز ملاكمة، يمكن أن يسلق سلقا. وأحس بالعرق ينهمر فى صدره يدغدغه. وتحول خليط زهوه وحذره إلى شعور بالغثيان. هل سيصاب، ولأول مرة فى حياته بدوار الجو؟ وأمل ألا يحدث ذلك. كم هو فظيع أن تمرض وأنت ترتدى هذه القبعة المصقولة «خمس دقائق وتهبط الطائرة»، كلما تفشت كالخربشة فوق صفحة انتزعت من ورق العمليات. حسنا، حسنا، وأومأ بطريقة آلية وقد وجد نفسه يروح وجهه بهذا الشيء المضحك الذى يثير الطرب. واستعاد نفسه، على أى حال من الأحوال، واندهش تماما عندما نظر فى المرآة ليرى كم كان وسيما.

وأخذت الطائرة تحوم فى رقة وهى تهبط، وقد هب الغسق الأرجوانى ينتظر لقياهم. بدا وكأن مصر كلها قد استقرت بهدوء فى دواة حبر. ولمح المنائر والأبراج الناتئة من المقابر الشهيرة وقد بزغت من قلب الدوامات الذهبية التى كانت ترسلها الأتربة الشيطانية الشاردة، وكانت تلال المقطم وردية لؤلؤية كأظافر الأصابع.

وتجمع فى أرض المطار أصحاب المقام الرفيع الذين ندبوا لاستقباله رسميا. كان يحيط بهم مرءوسوه من الموظفين وزوجاتهم وقد ارتدى الجميع قبعات النزهة فى الحدائق وقفازات كأنهم فى حظيرة خيل السباق فى «لونج شامبس». ومع ذلك، كان الجميع ينضحون عرقا كالسيل. وأحس ماونت أوليف باليابسة تحت حذائه المصقول فسحب أنفاسا مرتاحة، كانت الأرض أكثر حرارة من الطائرة، إلا أن غثيانه كان قد تلاشى. خطا إلى الأمام، على سبيل التجربة يسلم على مستقبليه. وأدرك أنه بلباسه الرسمى الذى تسربل به قد تغير كل شيء. اعتراه شعور بالوحدة ـ فقد أدرك أنه منذ الآن، باعتباره سفيرا، يجب عليه أن يتخلى وإلى الأبد عن صداقة الناس العاديين، وأن يكون البديل هو توقيرهم وإذعانهم له، وغلفه لباسه الرسمى كبزة من دروع

تكبله، لقد قطع مابينه وبين عالم العلاقات البشرية المتبادلة. وأخذ يفكر: «يا إلهى، سوف أتلمس وإلى الأبد، ردود فعل إنسانية عادية من الناس الذين تقيدهم مراعاة مكانتى، سوف أغدو مثل قسيس «سوسكى» المخيف والذى كان يجدف دائما فى وهن حتى يثبت أنه إنسان عادى حقا رغم طوق - الكلب الذى يقيده!».

إلا أن انقباضة الوحدة الآنية تلاشت فى أفراح امتلاكه الجديد لذاته. لم يكن هنالك مايفعله الآن غير استغلال سحره إلى أقصى الحدود. أن يكون وسيما، قادرا، فللمرء - بالطبع - حق الاستمتاع بوعى يمثل تلك الأشياء دون أن يحس تأنيبا لذاته، ولقد اختبر نفسه وهو يحيى الحلقة المصرية الخارجية من الموظفين فى عربية رائعة. وارتسمت الابتسامات فى كل مكان، وسرعان ما التقت واندمجت فى نظراته التى كان يهنئ بها نفسه. وعرف - أيضا - كيف يقدم نفسه فى لقطات جانبية نصفية أمام لمبات الضوء التى حملقت فيه فجأة وهو يلقى أول حديث له. نسيج من بديهيات القلب الدافئة نطقها فى عربية فى حياء ساحر، فنالت تمتمات الفرحة والحماس من دائرة الصحفيين الذين يتسمون بالدناءة.

وفجأة أخذت جوقة موسيقية تعزف مزقا، بطريقة مفجعة بعيدة عن النغم. وتحت الترديد الشاكى للنغم الأوروبى، سمع شيئا مايعزف فى ربع - نغم عرف فيه نشيده الوطنى. أصابه الإجفال، وعانى صعوبة حتى لايبتسم. لقد بذلت بعثة الشرطة جهدا دءوبا لتدريب القوة المصرية على كيفية استخدام الترمبون(*) المنزلق، إلا أن العرض كله كان مفككا ارتجاليا، وكأنه نوع من الموسيقى النادرة القديمة (كموسيقى

(*) آله موسيقية نحاسية (المترجم).

المصارعة) تمارس فوق مجموعة من أدوات المدفأة. ووقف متصلبا فى انتباه. كان يقف أمام الجوقة بمباشيا مسنا بعين زجاجية. كان يقف، أيضا، وقفة انتباه، بيد أنه كان يهتز، ثم انتهى العزف. وقال نمرود باشا فى صوت خافت: «آسف بخصوص الجوقة الموسيقية، فهى كما ترى، ياسيدى، فريق من هنا ومن هنالك. إن غالبية الموسيقيين مرضى». وأومأ ماونت أوليف فى وقار وتعاطف، واستعد للمهمة التالية. وسار فى حرص بالغ يستعرض حرس الشرف، ويتفقد هيأتهم. كانت تفوح، من الرجال، بقوة، رائحة العرق وزيت السمسم، وابتسم واحد أو اثنان فى لطف. كان ذلك ممتعا. وكبح جماح نزوة فى أن يكشر مبتسما. ثم استدار وأكمل واجباته «قبل قسم البرتوكول» الذين كانوا دافئى الشعور تفوح رائحتهم أيضا، من قبعاتهم المتألقة الحمراء كأصص الزهور. هنا علت الابتسامات الوجوه وتناثرت فى كل مكان كشرائح بطيخ لم ينضج بعد. سفير يتحدث العربية! وأحاط نفسه بجو من الحياء المبتسم، والذى كان يدرك مدى مايضيفه عليه من سحر. لقد تعلم هذا. كانت ابتسامته الملتوية جذابة. كان يرى بوضوح كم أخذ حتى موظفيه، بسحره وقد لاحظ ذلك فى فخار، خاصة من الزوجات. كن مرتاحات الأنفس، يدرن وجوهن نحوه مثل مصيدة الزهور ـ وكان له مع كل أعضاء سكيرتاريته بضع كلمات.

وأخيرا حملته سيارته الكبيرة فى نعومة بعيدا إلى مقر إقامته على ضفة النيل، وجاء إيرول معه ليريه المكان وليقوم بأعمال التعريف اللازمة للعاملين بالمنزل. كان حجم المبنى ورشاقته مثيرا ويكاد أيضا أن يكون مخيفا. كل تلك الغرف تحت تصرف المرء كان كافيا لإثارة رعب أى عازب. وقال وهو يكاد يكون آسفا: «أما فيما يختص بالمؤانسة والتسلية فإننى أعتقد أنها ضرورية». ودوى المكان حوله بالصدى وهو

يسير فى بهو الرقص عبر المستنبتات الزجاجية والشرفات، يدقق النظر فى الأراضى المعشوشبة وقد امتدت منحدرة إلى ضفة النهر الذى كانت مياهه بلون الكاكاو. وكانت الرشاشات فى الخارج، وهى على صورة رقاب الإوز، تدور وتهس طوال الليل والنهار محافظة على العشب الخشن الزمردى اللون غضا بالرطوبة. ووصل صوتها تنهدات إلى ماونت أوليف بينما كان يخلع ملابسه ليأخذ دشا باردا فى الحمام الجميل بلعبه الزجاجية المزخرفة، وسرعان ماصرف إيرول وقد وجه إليه الدعوة للعودة بعد العشاء لمناقشة الخطط والمشروعات. قال له مخلصا: «إننى متعب. أود أن أتناول غدائى بمفردى فى هدوء. هذا الحر - كان علىّ أن أتذكره، إلا أننى نسيته».

كانت مياه النهر ترتفع. تملأ الهواء برطوبة الصيف. فذاك أوان فيضانها السنوى، تتسلق الجدار الحجرى أسفل حديقة السفارة بوصة لزجة بعد بوصة أخرى. ورقد على سريره نصف ساعة يستمع إلى السيارات تقف عند مدخل الاستقبال، وطنين الأصوات ووقع الأقدام فى القاعة. كان موظفوه منهمكين فى التوقيع فى دفتر الزوار الأحمر الرشيق والمغلف بجلد فاخر ثمين. كان بورسواردن هو الوحيد الذى لم يظهر بعد. وفكر ماونت أوليف فى توبيخه فى أول فرصة. إنه الآن لايستطيع احتمال أى سخافات يمكن أن تضعه فى موقف عسير مع باقى الموظفين. وأمل ألا يجبره صديقه على استخدام سلطاته وأن يكون مؤذيا - لكنه أحجم عن الفكرة، على أى حال من الأحوال.

تناول - بعد أن استراح - عشاءه فى ركن من الشرفة الطويلة وقد ارتدى قميصا وبنطلونا، وخفا فى قدميه. ثم تخلص من الخف وسار حافيا عبر الأرض المعشوشبة، وقد غمرتها الأضواء حتى النهر، يحس

بالعشب الرائع الشائك تحت قدميه العاريتين. كان نوعا أفريقيا خشنا مترب الجذور، حتى وهو تحت الرزاز، كأنه يعانى مما يشبه قشور الرأس. كانت هنالك طواويس ثلاثة تتجول فى الظلام بذيولها البراقة ذات العيون الأرجوسية(*) وقد تناثرت النجوم فى السماء السوداء الناعمة. حسنا، لقد وصل - بكل مافى الكلمة من معنى، وتذكر جملة جاءت فى واحد من كتب بورسواردن: «إن الكاتب، هو أكثر الحيوانات وحدة...». كانت كأس الويسكى فى يده باردة كالثلج. واستلقى فى هذا الظلام الخانق فوق الحشائش يحملق إلى أعلى فى السماء مباشرة، لا يكاد يقدر على مزيد من التفكير، وقد ترك النعاس يزحف عليه تدريجيا بوصة بعد بوصة مثل مد مياه النهر الصاعدة عند أسفل الحديقة. لماذا يحس بالحزن فى قلبه قبل الأشياء، بينما كان واثقامن قوته، من كامل قدرته على اتخاذ القرارات؟ لكنه لم يستطع معرفة لماذا يحس بذلك.

عاد إيرول فى موعده بعد أن تناول عشاءه فى عجلة، وقد فتنه مرأى رئيسه متمددا كنجم البحر فوق الأرض المعشوشبة الرائعة، وهو يكاد يكون نائما. إن هذا السلوك العادى غير الرسمى كانت له دلالاته الممتازة. وقال ماونت أوليف فى كرم: «دق الجرس كى يحضروا الشراب، وتعال للجلوس هنا فى الخارج، إنه ألطف حرارة. هنالك نسمة هواء قادمة من النهر». وأطاع إيرول وجاء ليجلس فى حياء فوق العشب. تحدثا حول التخطيط العام للأمور. وقال ماونت أوليف: «إننى أعرف أن كل طاقم الموظفين يموج بالتوقعات حول الانتقال صيفا إلى الإسكندرية. لقد اعتدت ذلك عندما كنت مرءوسا فى البعثة.

(*) أرجوس، عملاق له مائة عين كان مكلفا بحراسة العجلة إيبو، وقد حولت عيونه بعد موته إلى ذيل الطاووس. (المترجم).

حسنا، سوف ننتقل من هنا حيث يتصبب الناس عرقا، بمجرد أن أقدم أوراق اعتمادى. سيكون الملك فى الديوان خلال أيام ثلاثة من الآن. لقد عرفت ذلك من عبد اللطيف فى المطار. حسنا، ثم إننى أدعو غدا كل سكرتيرى الاستقبال وزوجاتهم إلى الشاى، كذا طاقم المرءوسين فى المساء من أجل الكوكتيل، إن كل شىء آخر يمكن أن ينتظر حتى تحدد القطار الخاص وتشحن فيه الصناديق المرسلة، ماذا عن الإسكندرية؟».

وابتسم إيرول ابتسامة غامضة، «إن كل شىء فى موضعه، ياسيدى. ثم هنالك الضغوط المعتادة على البعثات القادمة، إلا أن المصريين كانوا جيدين للغاية، لقد عثر البروتوكول على محل إقامة رائع، به استقبال صيفى ومكاتب أخرى يمكن استخدامها. إن كل شىء بديع وفاخر. وسوف نحتاج فقط إلى اثنتين من طاقم الاستقبال، فضلا عن العاملين بالمنزل. لقد حددت جدولا للخدمة حتى يمكن أن يكون لنا جميعا فرصة قضاء ثلاثة أسابيع بالتناوب. إن طاقم المنزل يمكنه أن يتقدم الذهاب، ولابدمن القيام ببعض أعمال التسلية، كما آمل. إن القصر سوف يغادر هنا خلال أسبوعين وليس هنالك من مشاكل».

«لامشاكل» عبارة تثير البهجة، وتنهد ماونت أوليف ولزم الصمت. وثارت فى الظلام ـ عبر امتداد النهر ـ ضجة خافتة تصحبها دمدمة أشبه بخلية نحل، وضحكات وغناء وتختلط بالشخشخة الخشنة المثيرة للصلاصل(*). وقال فى ألم: «لقد نسيت أنها دموع إيزيس. إنها ليلة الهبوط، أليس كذلك؟»، وأومأإيرول فى حكمة وتعقل: «نعم ياسيدى». إن النهر سوف يموج بالفلوكة(**) النحيلة بأشكالها

(*) آله موسيقية قديمة كالشخشيخة، كان يستخدمها قدماء المصريين فى عبادتهم لإيزيس (المترجم).

(**) بالعربية فى حروف لاتينية.

المحببة، والتى تعلو منها الأصوات وموسيقى القيثارات. إن إيزيس ـ ديانا سوف تزهو فى السماوات، إلا أن الأرض المعشوشبة الغارقة فى الأضواء هنا قد شكلت مخروطا من النور الأبيض، أحال مساء السماء خارجه إلى عتمة. وحملق حوله بطريقة مبهمة باحثا عن كوكبة من نجوم ثم قال: «إذن فهذا هو كل شيء». ووقف إيرول وأجلى صوته وقال: «إن بورسواردن لم يظهر بسبب إصابته بالإنفلونزا». وفكر ماونت أوليف فى هذا النوع من الولاء كبادرة طيبة، وقال مبتسما: «كلا، إننى أعرف أنه يسبب لك المتاعب. سوف أعمل على وقف مثل هذه الأشياء»، ونظر إليه إيرول فى دهشة وجذل: «شكرا ياسيدى». وسار ماونت أوليف فى بطء إلى منزله: «إننى أود أيضا أن أدعو ماسكيلين إلى الغداء، غدا مساء إن كان ذلك يلائمه».

وأومأ إيرول فى بطء، «لقد كان فى المطار ياسيدى». «لم ألحظ ذلك، وأرجو أن يطلب من سكرتيرى استخراج بطاقة دعوة لمساء الغد. ولكن اتصل به هاتفيا أولا وأخبرنى إن كان ذلك غيرملائم له، غدا فى الثامنة والربع بالملابس الرسمية».

«سوف أقوم بذلك ياسيدى».

«أود أن أتحدث إليه بشكل خاص، ونحن مقدمون على اتخاذ ترتيبات وتنظيمات جديدة، وأود منه المعاونة ـ إنه ضابط لامع. لقد أخبرت بذلك».

ونظر إيرول متشككا. «لقد كانت له بعض المنازعات الحادة مع بورسواردن. حقا إنه أثار ضيق السفارة، بصورة أو أخرى، هذا الأسبوع الأخير. إنه ذكى، لكنه... صلب الرأى بصورة ما». كان إيرول مترددا. بدا أنه لايرغب فى الاستمرار أبعد من ذلك. «حسنا».

قال ماونت أوليف : «دعنى أتحدث معه وأحكم بنفسى . إننى أعتقد أن الترتيبات الجديدة سوف تناسب الجميع ، حتى السيد بورسواردن» .

وتبادلا تحية المساء .

حفل اليوم التالى ، بالنسبة لماونت أوليف ، بالأعمال الروتينية المعتادة . إلا أنه يمكن القول أنه أدارها من زاوية جديدة ، زاوية غير مألوفة ، أدت أن يأخذ كل منهم ، فى الحال ، مكانه . كانت مثيرة ومزعجة فى ذات الوقت . لقد عمد إلى إيجاد علاقة راسخة بكل طاقم مرءوسيه على جميع المستويات حتى مرتبة مسئول الاستقبال . وانزوى الآن جنود البحرية ثقيلوالحركة ، حرس قسم الاستقبال ، والذين كانوا يتصرفون قبله فى ود وندية بأشد طرائف العامة فرحة وسعادة ، انزووا وقد اتخذوا وضعا متحفظا يكاد يكون دفاعا عن النفس . وفكر مليا ، تلك هى الثمار المرة للسلطة ، متقبلا دوره الجديد فى استكانة .

تمت إجراءات الافتتاح ، على أى حال ، بسلاسة . وانتهت الحفلة المسائية التى أقامها لطاقم العاملين معه على أحسن مايكون ، حتى بدا الناس كارهين للانصراف . وتأخر وهو يبدل ملابسه استعدادا لحفل العشاء . كان ماسكيلين قد وصل بالفعل إلى قاعة الاستقبال التى تبعث فى النفس السكينة . وأخيرا ظهر ماونت أوليف وقد استحم وغير ثيابه . «آه ، ماونت أوليف» ، قالها الجندى واقفا مادا يده فى هدوء خال من التعبير : «لقد كنت فى انتظار وصولكم يتنابنى بعض القلق» . وأحس ماونت أوليف بلسعة حادة مفاجئة ، إذ تتحدث إليه هذه الشخصية دون لقب ، بعد كل هذا التوقير الذى لاقاه طوال اليوم (وفكر ، ياللسماوات ، هل أنا حقيقة ريفى فى أعماقى؟) .

«عزيزى البريجادير» ، كانت عبارته الأولى تحمل شيئا من البرود

وإن كان محسوسا كرد فعل لما بدر منه . ربما أراد الجندى، فى بساطة، أن يوضح أنه جزء من مكتب الحرب وليس جزءاً من المكتب الأجنبى؟ كانت طريقة خرقاء للتعبير عن ذلك . وأحس ماونت أوليف ـ رغم ما شعر به من ضيق ـ بأنه ينجذب، بصورة ما إلى هذا الشخص النحيل المتفرد بعينيه المتعبتين وصوته الخالى من أى زهو أو فخار، كان لقبحه لطفه المحدد . لم تكن ملابسه العتيقة التى يرتديها بمناسبة العشاء قد تم كيها أو تفريشها بعناية كافية . إلا أن نوع قماشها وتفصيلها كان رائعا . وارتشف ماسكيلين شرابه فى بطء وهدوء، محنيا فمه الأشبه ببوز كلب الصيد نحو الكأس فى حذر وحيطة . كان يفحص ماونت أوليف بأكبر قدر من البرود . وتبادلا المجاملات الرسمية المعتادة بين المضيف والضيف لبرهة . ووجد ماونت أوليف نفسه يميل إليه رغم سلوكه الذى لاضمان له، مما أثار ضيقه بصورة ما . وبدا أنه يرى فيه فجأة رجلا يماثله، يتردد فى أن ينسب للحياة أى معنى محدد .

واستبعد وجود الخدم أى حديث باستثناء الأحاديث العامة المتبادلة أثناء العشار المشترك، وقد جلسا فى الخارج فوق الأرض المعشوشبة، حيث بدا ماسكيلين قانعا يتربص الفرصة . إذ ما أن ذكر اسم بورسواردن حتى قال على الفور : «نعم، إننى لا أكاد أعرفه، باستثناء المعرفة الرسمية بالطبع . إن الشىء الغريب أن والده ـ فالاسم بالتأكيد غير عادى حتى أخطئ فيه ـ كان فى رفقتى أثناء الحرب العالمية الأولى . لقد منح نوط الشجاعة . والحقيقة أننى أنا بالفعل من نوه به مما رشحه له . وبالطبع لم أكن أقبل بتوريث الأقربين للوظائف . لابد أن الابن كان حينذاك مجرد طفل، كما أعتقد . بالطبع، قد أكون مخطئا ـ إلا أن الأمر غير ذى بال» .

وأحس ماونت أوليف أنه قد أخذ على غرة، قال: «إننى أعتقد، كأمر واقع، أنك على حق ـ لقد ذكر لى شيئا من هذا القبيل ذات مرة. هل تحدثت معه فى هذا الأمر؟».

«يا للسماوات، كلا! ولماذا أفعل ذلك؟». بدا ماسكيلين مصدوما صدمة هينة للغاية، «إن الابن ليس . . . من ذلك النوع الذى يستهوينى حقا». قال فى هدوء ولكن دون أية ضغينة، فقط مثل إعلان حقيقةما. «هو . . . أنا . . . حسنا، لقد قرأت واحدا من كتبه ذات مرة». وتوقف فجأة كأنما قال كل ما يجب أن يقال، وكأن الموضوع قد انتهى وإلى الأبد.

«لابد أنه كان رجلا شجاعا»، قال ماونت أوليف بعد حين.

«نعم ـ أو ربما لم يكن»، قال ضيفه فى بطء وهو يمعن، التفكير، وصمت: «إن المرء لفى عجب، إذ إنه لم يكن جنديا حقيقيا. أمور رآها المرء كثيرا فى الجبهة. إن أعمال البسالة قد تأتى نتيجة الجبن بنفس القدر الذى تأتى به نتيجة الشجاعة ـ إن هذا هو الشىء الغريب. لقد كانت فعلته، على وجه التخصيص، أقصد أن فعلته حقيقة ما كانت لتصدر عن جندى. إنها غريبة تماما».

«ولكن . . . » احتج ماونت أوليف.

«دعنى أوضح لك ما أعنى. هنالك فرق بين عمل شجاع ضرورى وعمل غير ضرورى. فلو كان متذكرا لما تدرب عليه كجندى، لما أقدم على فعل ما فعل، ربما تبدو المسألة كالحذلقة. لقد فقد عقله، هكذا حرفيا. وأقدم على العمل دون تفكير. إننى معجب به إعجابا هائلا كرجل، ولكن ليس كجندى. إن حياتنا صفقة

طيبة تقتضى الكثير ـ إنها علم، كما تعرف، أو يجب أن تكون كذلك».

كان يتحدث وهو يمعن التفكير بطريقته الجافة الصريحة. كان واضحا أنه قد ناقش هذا الموضوع كثيرا فيما بينه وبين نفسه.

«إننى مندهش»، قال ماونت أوليف.

«ربما أكون مخطئا»، أقر الجندى.

وأخيرا انسحب الخدم خفاف الخطى، تاركيهما مع النبيذ والسيجار. وأحس ماسكيلين أنه قد غدا حرا قادرا على تناول الموضوع الحقيقى لزيارته. قال: «إننى أتوقع أن تكون قد درست كل الخلافات التى نشبت بيننا وبين فرعك السياسى. لقد كانوا حادين للغاية. ونحن جميعا فى انتظارك لحل هذه الخلافات».

وأومأ ماونت أوليف، «لقد وصلت إلى حل لها جميعا فى حدود اختصاصى»، قال فى مسحة من الضيق حقيقية للغاية: (كان يجب ألا يستعجله أحد)، «لقد اجتمعت بجنرالك يوم الثلاثاء، ونظمنا مجموعة جديدة، أنا على ثقة أنها ستسعدك. سوف تصلك هذا الأسبوع إشارة تأكيدية تأمرك بنقل عملك إلى أورشليم، التى سوف تصبح الموقع الأعلى مرتبة، ومركز القيادة. إن هذا سوف يزيل مشاكل الرتب والأقدمية، ويمكنك أن تترك هنا موقعا مرحليا تحت مسئولية تلفورد الذى هو مدنى، إلا أنه بالطبع سوف يكون موقعا أدنى. ويمكن ـ تيسيرا للأمور ـ أن يعمل لحسابنا مرتبطا بإدارات خدماتنا».

وهبط الصمت. وأخذ ماسكيلين يتأمل رماد سيجاره بينما حومت آثار ابتسامة باهتة على جانبى فمه. «إذن، فقد فاز بورسواردن»، قال فى هدوء، «حسنا. حسنا».

واندهش ماونت أوليف لابتسامته، كما أحس بالإهانة أيضا، رغم أنها بدت، فى الحقيقة، خالية تماما من أى حقد أو خبث.

وقال فى هدوء: «إن بورسواردن قد وبُخ بسبب حجبه لتقرير صادر عن مكتب الحرب، كما تصادف، من ناحية أخرى، أننى عرفت الشخص موضوع التقرير معرفة جيدة إلى حد ما، وأوافق على أن تستوفى الحالة بصورة أكثر اكتمالا قبل أن تطلب منا القيام بأى عمل».

«إننا نحاول. أن تلفورد، فى الواقع يحكم شبكته حول هذا الرجل حصنانى ـ لكن يبدو أن بعض المرشحين من قبل بورسواردن لهذه العملية... حسنا، يحكمهم الهوى إلى حد ما، ذلك إن وضعنا الأمر فى أكثر صوره اعتدالا إلا أن... حسنا، هنالك واحد منهم يبيع المعلومات إلى الصحف، وآخر يقوم الآن بمواساة السيدة حصنانى. ثم هنالك آخر، هو سكوبى، يقضى الوقت مرتديا ملابس النساء، متسكعا فى ميناء الإسكندرية ـ إن افتراض الحاجة إليه لجلب معلومات للشرطة إنما يدخل فى باب الأعمال الخيرية. وعموما فإننى سأكون سعيدا للغاية أن أوكل بالشبكة إلى تلفورد وأن أتصدى لشىء أكثر خطورة. يالهم من قوم».

قال ماونت أوليف فى هدوء: «حيث إنى لم أعرف الأوضاع بعد، فإننى لا أستطيع التعليق، إلا أننى سوف أنظر فى الأمر».

قال ماسكيلين: «سوف أعطيك مثالا عن قدراتهم العامة، لقد ندب تلفورد، فى الأسبوع الماضى، رجل الشرطة هذا، المدعو سكوبى، كى يقوم بمهمة روتينية. إن السوريين عندما يبغون ممارسة ذكائهم، فإنهم لا يستخدمون رسولا دبلوماسيا. إنهم يوكلون بمحفظتهم إلى سيدة، ابنة أخت نائب القنصل، التى تحملها إلى القاهرة

بالقطار. كنا نبغى التعرف على محتويات محفظة بذاتها ـ خاصة بشحنات الأسلحة، كما كنا نعتقد. وأعطينا سكوبى شيكولاتة مخدرة ـ كانت الواحدة المعدة للتخدير تحمل علامة واضحة. كانت مهمته أن يخدر السيدة فتنام ساعتين وتستيقظ ومعها محفظتها. هل تعرف ماذا حدث؟ لقدوجد هو نفسه فى القطار مخدرا عند وصوله إلى القاهرة. ولم يكن فى الإمكان إيقاظه مدة أربع وعشرين ساعة تقريبا. كان علينا أن نضعه فى المستشفى الأمريكى. لقد جلس، كما هو واضح، فى ديوان السيدة، واهتز القطار فجأة هزة قوية فسقطت كل الشيكولاتة فوق دثار كل منهما. وانقلبت التى كنا قد وضعنا عليها علامة بعناية شديدة، ولم يستطع أن يتذكر أى واحدة كانت، فأكلها هو نفسه، وهو فى هذه الحالة من الفزع. والآن أسألك...». واشتعلت عين ماسكيلين النكدة وهو يروى هذه القصة بالتفصيل. «إن مثل هؤلاء الناس يجب ألا يوثق بهم»، أضاف بطريقة لاذعة.

«إننى أعدك بدراسة مدى مناسبة أى شخص يقترحه بورسواردن، كما أعدك أيضا بأنه لن يكون هنالك أى عائق إن أنت تقدمت إلىّ بأى تقارير، وأنه لن يكون هنالك أى تكرار لمثل ذلك السلوك غير المسئول».

«شكرا»، بدا ممتنا فى صدق وهو ينهض ليغادر، آمرا السيارة الرسمية المزينة بالأعلام بالانصراف، وهو يتمتم شيئا ما عن «أمسية صحية». وسار على الطريق وقد ارتدى معطفا خفيفا يدارى به سترة العشاء. ووقف ماونت أوليف عند الباب الأمامى يراقب قامتة النحيلة الطويلة تلج البركة الصفراء لأضواء المصابيح وتخرج منها، وهى تستطيل بطريقة غير معقولة كلما ابتعد. وتنهد فى ارتياح وسأم، لقد كان يوما ثقيلا. «أثقل مما ينبغى بالنسبة لماسكيلين».

وعاد إلى الأرض المعشوشبة المهجورة ليتناول كأسا أخيرة فى هذا الصمت قبل أن يأوى إلى فراشه. إن العمل الذى أنجز اليوم، كان مرضيا بشكل عام. لقد أنجز العديد من المهام الثقيلة والتى ربما كان إخبار ماسكيلين بمستقبله هو أشدها صعوبة. فى وسعه الآن أن يسترخى.

ومع ذلك فإنه أخذ يتجول فى المنزل الغارق فى السكون، قبل أن يصعد الدرج، ينتقل من حجرة إلى أخرى، يفكر: يضم بين جوانحه إدراكه أنه قد امتلك ناصية القوة بكل الاعتزاز الذى يكمن فى سريرة إمرأة اكتشفت أنها حبلى.

* * *

(٧)

أحس ماونت أوليف، وقد أدى واجباته الرسمية فى العاصمة بما يرضيه، أنه يملك الآن حرية إبلاغ القصر بانتقال مركز قيادته إلى العاصمة الثانية، الإسكندرية. لقد سار كل شىء فى غاية اليسر والسهولة. إن الملك نفسه امتدح سلاسة لغته العربية، كما نال امتيازا غير عادى، إذ حقق شعبية صحفية لاستخدامه العام للغة فى حكمة وحصافة. وأطلت صوره فى كل الصحف الصادرة. خلال هذه الأيام، تحمل دوما تلك الابتسامة الملتوية الخجولة. ووجد نفسه وهو يصنف كومة القصاصات الصغيرة يتساءل: «يا إلهى، هل سأغدو بالتدريج عاجزا عن مقاومة ذاتى؟». كانت صورا رائعة، وكان هو وسيما دون شك بفوديه الذى أخذ يغزوهما الشعر الرمادى، وملامحه المنحوتة فى رقة. «لكن الثقافة المجردة لا تحمى المرء من سحره الخاص. سوف أدفن حياتى بين تلك الممارسات الاجتماعية اللينة الجرداء، التى لا أستمتع بها». كان يفكر وقد أسند ذقنه إلى معصمه، «لماذا لم تكتب ليلى؟ ربما أتلقى منها كلمة عندما أكون بالإسكندرية فى الأسبوع المقبل؟». إلا أنه، على الأقل، سوف يغادر القاهرة تلحق به رياح مواتية، كانت كل البعثات الأجنبية تكاد تجن حسدا لما أصابه من نجاح.

أنجز إيرول المجد الدءوب وطاقم المسكن الانتقال بأكثر الصور نموذجية. كان فى وسعه هو أن يسير، يتهادى، متأخرا وقد حُمل

القطار الخاص بكل الأمتعة الدبلوماسية التى تمكنهم من جذب الأنظار وهم على بعد . . حقائب، صناديق الإرسال بما عليها من كتابات ذهبية منمقة. كانت القاهرة فى ذلك الوقت حارة بما يفوق الاحتمال، وغمرت البهجة قلوبهم عندما بدأ القطار يشق طريقه عبر الصحراء نحو الساحل.

كان الوقت هو أنسب الأوقات للرحيل، فرياح الربيع الخمسينية البشعة انتهت، وارتدت المدينة رداءها الصيفى ـ المظلات الملونة على امتداد الكورنيش الكبير، والفلوكة بألوانها المختلفة ترقد عند الطبقات الصخرية تحت أبراج مدافع السفن الحربية السوداء، تحيط بالمرفأ الأزرق لنادى اليخت، تتلألأ أشرعتها.

كان موسم حفلات الصيف قد بدأ. وكان فى وسع نسيم أن يقيم الاستقبال الذى وعد به احتفالا بعودة صديقه. وانتشر الأمر واسعا وتحولت الإسكندرية تكرم ماونت أوليف لأى سبب كان، وكأنه الابن الضال الذى عاد، رغم أنه، فى الحقيقة، لم يكن يعرف إلا عدداً قليلا منهم، بالإضافة إلى نسيم وعائلته. لكنه كان سعيدا بتجديد معرفته الشخصية ببلتازار وأماريل، الطيبين اللذين كانا دوما معا، يغيظان بعضهما البعض، وبكليا التى كان قد التقى بها فى أوروبا. ضوء الشمس الذاوى فوق مساء البحر يشتعل فوق أطر النوافذ النحاسية الصفراء، يحيلها إلى ماس مصهور، قبل أن يذوب مرة أخرى فى غسق مياه بحر مصر الأخضر الزبرجدى. كانت الستائر منسدلة. وأنفاس مئات الشموع تتبدى فى رقة فوق مفارش الموائد الطويلة، تومض بين السيقان النحيلة للكئوس. كان ذلك هو موسم اليسر والسعادة لحفلات الرقص وامتطاء الخيل والسباحة وقد بدأت أو يجرى

الإعداد لها. وحفظت برودة رياح البحر درجة الحرارة منخفضة. كان الجو منعشًا ومنشطًا.

وغرق ماونت أوليف فى النمط المعتاد للأشياء، واثقا فى ذاته، يعيش إحساسا يكاد يكون الغبطة والسعادة الكبرى. وعاد نسيم، كما يمكن القول، إلى المكان مثل صورة تعود إلى كوة بنيت خصيصا لها، وجوستين إلى جواره، هذه الملكية الجمال، السوداء الحاجبين، تشدد من علاقاته بالعالم الخارجى أكثر مما تثير قلقه. وأعجب ماونت أوليف بها، واستطاب الشعور بعينيها الداكنتين تنظران إليه بتقدير يضىء بنوع من الفضول المشفق الممزوج بالإعجاب. ، كانا يشكلان زوجا رائعا، هكذا فكر، بما يكاد يكون لمسة من حسد: أشبه بأناس تدربوا على العمل معا منذ الطفولة، يستجيبان تلقائيا لحاجات ورغبات بعضهما البعض دون حديث أو كلام، يتحركان، دون تردد لمساندة الواحد للآخر، وبسماتهما على وجهيهما. ورغم أنها كانت وسيمة متحفظة، بدت قليلة الكلام، إلا أن ماونت أوليف استشف إخلاصا محببا يعبر عن نفسه طوال الوقت بين ثنايا جُملها ـ وكأنه صادر عن نبع دفين لدفء خفى. هل كانت سعيدة لأنها وجدت من يُقيِّم زوجها بعمق كما تقيمه هى نفسها؟ إن الضغط الهادئ الصريح لأصابعها يفصح عن ذلك، كما يفصح، أيضا، صوتها المثير وهى تقول: «لقد عرفتك منذ زمن بعيد، مما يقال عن دافيد، حتى إنه من العسير علىّ أن أدعوك بأى شىء آخر». أما عن نسيم، فإنه لم يفقد أى شىء خلال فترة ابتعادهما عن بعضهما البعض، لقد احتفظ بكل رشاقته وكياسته ومضيفا إليها حصافة دنيوية جعلت منه أوروبيا له أثره فى مثل تلك الأوساط الريفية المحيطة به. كانت لباقته وكياسته، مثلا، تتمثل فى أنه لم يذكر البتة أى موضوع يمكن أن يشكل عبئا رسميا على ماونت أوليف ـ رغم حقيقة

أنهما امتطيا الخيل واصطادا معا مرات عديدة، سبحا معا، ركبا المراكب الشراعية ورسما معا. كانت المعلومات الخاصة بالمسائل السياسية كما يراها، تنقل إليه، دوما، فى حرج، عبر بورسواردن. إنه لم يساوم البتة فيخلط العمل باللهو والمتعة، أو أن يدفع ماونت أوليف إلى صراع بين ما بينهما من مودة، وبين واجبه.

وكان أفضل شيء فى كل ما حدث، استجابة بورسواردن نفسه، بطريقة مناسبة للغاية، لوضعه الجديد وعلو شأنه، وارتدى ما أسماه «بورقته الجديدة». إن مذكرتين بالوقائع المقتضبة مكتوبتان بالحبر الأحمر الرهيب ـ والذى يعتبر استخدامه امتيازا خاصا برؤساء البعثات فقط ـ قد حسما الأمر معه، وانتزعا منه وعدا بأن «يمعن التفكير فى ورقة تين جديدة»، حققها بالفعل على أكمل وجه، لقد كان رد فعله صادقا. وأحس ماونت أوليف بالراحة والامتنان لشعوره بأنه استطاع أخيرًا أن يعتمد على حكم محدد لا يتجاوز فيه نفسه أو يسمح لها بالتعثر والسقوط بين العلاقات السهلة والشكوك. وماذا أيضا؟ المسكن الصيفى الجديد، كان مثيرا للبهجة. مقاما، فى رشدى، فى حديقة لطيفة مليئة بأشجار الصنوبر. وكانت هنالك ساحتان تطنان طوال اليوم بضربات المضارب. وبدا طاقم العاملين سعيدا برئيس البعثة الجديد. فقط. . . صمت ليلى، كان لايزال لغزا محيرا. وقد ناوله نسيم، ذات يوم، ظرفا، تعرف من الكتابة عليه على خطها المألوف لديه. ووضعه ماونت أوليف فى جيبه ليقرأه عندما يكون بمفرده.

«إن ظهورك فى مصر ـ وربما تكون قد خمنت ذلك، قد قلبنى بصورة ما، رأسا على عقب. لقد تناثرت فى المكان، كما يتناثر تفاح انقلبت به العربة التى كانت تحمله ـ وأنا عاجزة حتى الآن عن التقاط

أجزائى المتناثرة، لقد أصابتنى الحيرة، إننى أقر وأعترف بذلك. لقد عشت معك طويلا فى خيالى ـ منفردة هنالك بك تماما ـ وعلىّ الآن أن أعيد وجودك حتى أرجعك إلى الحياة. ربما كنت أغتابك كل تلك السنوات، أرسم صورتك لنفسى؟ ربما تكون الآن، فى بساطة، شيئا وهميا، لا شخصية رفيعة المقام من دم ولحم، تتحرك بين الأضواء وفى عالم السياسة، إننى لا أستطيع أن أجد فى نفسى الشجاعة لأقارن الحقيقة بما هو واقع حتى الآن. إننى خائفة. كن صبورا مع امرأة سخيفة عنيدة بالطبع، كان من الضرورى أن نلتقى منذ ذلك الزمن البعيد ـ لكننى كنت أهرب كالقوقعة. كن صبورا، ففى مكان ما فى أعماقى يجب أن أنتظر المد حتى يعود. لقد غضبت للغاية عندما سمعت أنك قادم حتى إننى صرخت وأنا حانقة تماما. أو هل كان ذلك فزعا؟ إننى أعتقد أننى قد تمكنت من النسيان.. نسيان وجهى، كل تلك السنوات. ثم عاد الأمر ينصب علىّ كقناع حديدى. ياه، قريبا سوف أستعيد شجاعتى، لا تخاف البتة. لابد أن نلتقى إن عاجلا أو آجلا. ولسوف يصدم الواحد منا الآخر. متى؟ لا أدرى حتى الآن. لا أدرى».

قرأ الكلمات فى اكتئاب وهو جالس يفكر فى الشرفة وقت الغسق، «إننى عاجز عن تجميع مشاعرى فى تماسك يكفى للرد عليها ردًا ذكيا. ماذا علىّ أن أقول أو أفعل؟ لا شىء». إلا أن كلمة «الصبر» لها طنين أجوف. قالها لنفسه فى رقة وهو يقلب الكلمة هنا وهناك فى عقله يتفحص أفضل وجه لها. إلا أنه فيما بعد، فى حفل آل سيرفونى الراقص، بين الأضواء الزرقاء والبيارق الشريطية الورقية، استطاع، مرة أخرى، أن يكون صبورا. عاد يتحرك ثانية فى عالم من مسرة مليء بالأصدقاء، يمكن أن يستمتع فيه بذكريات ركوب الخيل الطويلة

مع نسيم، والمناقشات مع أماريل أو متعة الرقص التى تبلبل الخاطر مع كليا الشقراء. إن فى وسعه أن يكون صبورا هنا، فالصبر هنا أمر ميسور. إن الزمان والمكان وكل الأشياء المحيطة، إنما هى جزاء الصبر. وأحس أن المستقبل الصافى لا يحمل أى نذر، حتى هواجس الحرب التى تتقدم فى بطء يمكن مشاركة الآخرين فى الحديث عنها علنا. «هل يمكن حقا، لقاذفات القنابل تلك، أن تدك عواصم بكاملها؟». سألت كليا فى هدوء، «إننى أؤمن دائما بأن اختراعاتنا إنما هى مرآة رغباتنا الدفينة، ونحن نود أن ينتهى إنسان ـ المدينة، ألسنا كذلك؟ كلنا؟ نعم، ولكن كم هو صعب وعسير أن تستسلم لندن وباريس. ماذا تعتقد؟».

«ماذا يعتقد؟». وقطب ماونت أوليف حاجبيه الرفيعين وهز رأسه، كان يفكر فى ليلى وقد تدثرت بخمار أسود كراهبة، تجلس فى منزلها الصيفى المرتب فى كرم أبو جيرج بين الورد الرائع وبرفقتها حيتها فقط...

وهكذا سار الصيف الهادئ البال ـ المطمئن باطراد نحو الأمام ـ أغسطس وسبتمبر. ولم يواجه ماونت أوليف غير القليل مما يثبط العزم مهنيا فى مدينة تتشوق غاية التشوق للصداقة، سريعة الإحساس بأقل مظهر من مظاهر التأدب، ذات خبرة وافرة فى ممارسة حياة البهجة والمتعة. ورفرفت الشراع الملونة يوما بعد يوم وهى تتباطأ فى المرفأ بين قلاع الصلب، والأمواج البيضاء الساحرة تتوالى فى فواصل محكمة فوق شطآن الصحراء التى حرقتها، حتى البياض، الشموس الأفريقية فغدت كزجاج مهشم. وسمع وهو جالس، فى الحديقة المتألقة باليراعات، الهدير العميق لرفاصات سفن الخطوط التى تقصد الشرق وهى تبحر فى المياه الأكثر عمقا خارج المرفأ، متوجهة إلى الموانئ التى

تقع على الجانب الآخر من العالم. وفى الصحارى كانوا يستكشفون الواحات ذات السراب المائل للخضرة، أو يقطعون المفاصل البرونزية لسلاسل الحجر الرملى المحيطة بالمدينة يتهادون فوق الجياد وقد حملت بالطعام والشراب لترطب وتهدئ راكبيها.

وزار «بترا»(*)، والدلتا المرجانية الغريبة على امتداد ساحل البحر الأحمر بأسراب سكانها من أسماك المناطق الحارة بألوانها الأشبه بألوان قوس قزح. شرفات المسكن الصيفى الطويلة حيث تسمع فيها، ليلة بعد أخرى، أصداء شخشخة الثلج فى الكئوس الطويلة وطنين الأحاديث البديهية، والأماكن العامة، كانت تهز مشاعره بموقعها من الزمان والمكان، لملائمتها لمدينة أدركت أن المتعة هى الشىء الوحيد الذى جعل للكد والاجتهاد مزية تستوجب الاهتمام. وازدهرت الصداقات المتناثرة فوق تلك الشرفات النائية المطلة على امتداد خط البحر الأزرق اللون لذلك الساحل التاريخى، واتخذت شكلا جديدا من العواطف التى لم يعد يحس، لصدقها، بأنه مفصول عن أقرانه من الرجال بما يمارس من سلطان. كان يتمتع بشعبية، ويمكن أن يغدو محبوبا للغاية فى القريب. إذ حتى الارتخاء الروحى السقيم للمدينة، وانغماسها فى ذاتها، كان ممتعا لامرئ، ذى دخل مضمون، يمكنه من العيش خارجها. لقد بدت له الإسكندرية مخيما صيفيا يشتهيه المرء تماما، مكانا تأنس فيه كل عاطفة وكل محب غريب عنها، بالمعنى اليونانى للكلمة. ولكن لماذا لا يحس أنه فى داره؟

كان السكندريون أنفسهم غرباء ومنفيين إلى مصر التى كانت تعيش تحت سطح أحلامهم المتلألئة، تحيط بها الصحارى الساخنة، وينتشر

(*) ديار ثمود (المترجم).

فيها كالمروحة إيمان موحش ينكر أية متعة دنيوية؛ مصر الألاعيب المازحة والمرارات، الجمال واليأس. الإسكندرية لا تزال أوروبية ـ عاصمة أوروبا الآسيوية، إن كان لمثل هذا الشيء وجود. إنها لا يمكن أن تكون كالقاهرة، حيث تصب حياتها كلها فى قالب مصرى، وحيث يتحدث العربية بإسهاب. هنا تهيمن الفرنسية والإيطالية واليونانية على المشهد كله. الجو المحيط هنا والسلوك الاجتماعى وكل شىء مختلف. إنه مصبوب فى قالب أوروبى، حيث تعيش الإبل وأشجار النخيل وأهل البلد المتلفعون بالعباءات، يعيشون فقط، وعلى نحوما، كحاشية وضاءة ملونة، كخلفية قماشية لحياة مقسمة إلى أصولها المختلفة.

وجاء الخريف، لتشهده مهامه، مرة أخرى، إلى العاصمة الشتوية، بيد أنه كان، حقيقة حائرا متكدرا، إلى حد ما، من صمت ليلى. إلا أنه كان عليه أن يعود إلى مهام حياة مهنية تلتهم المرء، ولكنه يراها بعيدة تمام البعد عن إثارة الضيق والكدر. كانت هنالك أوراق لابد من ترتيبها، وتقارير شتى اجتماعية ـ اقتصادية وعسكرية لابد من إعدادها. كان طاقمه قد أعيدت صياغته الآن على نحو جيد، وهو يعمل فى دأب، حتى بورسواردن أعطى أفضل ما عنده، وحيَّدت بغضاء إيرول التى لم تكن البتة عميقة، وحولت إلى هدنة طويلة المدى. كان لديه ما يوجب رضاءه عن نفسه. ثم جاءته رسالة وقت الكرنفال تقول إن ليلى قد أفصحت عن رغبتها فى لقائه ـ إلا أنه كان على كليهما، كما كان مفهوما، أن يرتدى الدومينو الأسود المتعارف عليه لهذا الموسم ـ إنه القناع الذى تمرح فيه الإسكندرية. كان مدركا لقلقها، لكنه كان مبتهجا بالفكرة. وتحدث هاتفيا فى دفء إلى نسيم يخبره لقبوله الدعوة، مخططا لانتقال كل الاستقبال إلى الإسكندرية بمناسبة الكرنفال، حتى يمكن لسكرتيريه أن يستمتعوا به معه. وانتقل

بالفعل ليجد المدينة تشرق تحت سماوات منعشة زرقاء بلون بيض الطيور، لا يكاد يمسها صقيع الصحارى خلال الليل.

إلا أنه كان فى انتظاره ما خيب أمله مرة أخرى، إذ عندما أخذته جوستين من ذراعه، من وسط جلبة حفلة آل سيرفونى الراقصة، وقادته عبر الحديقة إلى مكان اللقاء بين سياج النباتات الطويلة، كان كل ما وجداه، مقعدا رخاميا خاليا وحقيبة يد حريرية بها ورقة عليها خربشة بأحمر الشفاه» . لقد خانتنى أعصابى فى اللحظة الأخيرة. سامحنى» . وحاول إخفاء حسرته وإحباطه عن جوستين. وبدت هى ذاتها تكاد لاتصدق ما ترى، وأخذت تردد: «لكنها جاءت إلى هنا من كرم أبو جيرج خصيصا من أجل هذا اللقاء. إننى عاجزة عن فهمها، لقد قضت طوال الليل مع نسيم، وأحس هو بالمواساة فى الضغطة الدافئة التى ضغطتها فوق ذراعه، بينما يعودان كاسفى البال من هذا المشهد، يعبران فى صبر نافد شخوص المرتدين للأقنعة الضاحكة فى الحديقة.

ولمح أماريل، إلى جوار البركة، يجلس دون قلنسوة أمام مقنعة هيفاء، يتحدث فى صوت خفيض متوسل النبرة، ينحنى إلى الأمام، من وقت لآخر، ليأخذها بين ذراعيه. واعتراه ألم حسد ممض، وإن كان الله يعلم، أنه لا يوجد الآن فى رغبته رؤية ليلى، أى شغف أو هوى. كان الأمر يبدو متناقضا، بصورة ما، إذ إن مصر ذاتها ما كانت تعود إليه حية بتمامها، حتى يراها ـ كانت تمثل بالنسبة إليه شيئا ما أشبه بصورة ثانية، تكاد تكون أسطورية، للحقيقة التى عاشها يوما بعد يوم. كان أشبه بإنسان يسعى إلى مزج صورتين توأمتين فى آلة تصوير بريسكوبية(*)، بضبط عدستها فى الوضع البؤرى الصحيح. وأحس

(*) البريسكوب هو منظار الغواصات أو الخنادق، أى الذى يحقق رؤية فوق مستوى الرائى. (المترجم).

أنه بدون المرور عبر تجربة رؤيتها مرة ثانية، فإنه عاجز بصورة مبهمة غامضة. غير قادر على تأكيد ذكرياته الخاصة عن هذه المساحة السحرية من الأرض، أو أن يُقيّم تقييما كاملا انطباعاته الجديدة عنها. ومع ذلك فإنه قبل بقدره فى هدوء فلسفى، إذ ليس هنالك، على كل حال، أى سبب للفزع. الصبر - إن هنالك الآن متسعا وافرا للصبر، عليه أن ينتظر حتى تواتيها شجاعتها.

كانت هنالك، بالإضافة إلى ذلك صداقات أخرى قد نضجت الآن لتملأ هذه الفجوة - صداقات مع بلتازار (الذى كان كثيرا ما يأتى للعشاء وللعب الشطرنج)، صداقات مع أماريل، بيير بالبز وأسرة سيرفونى. وكانت كليا قد بدأت رسم لوحة له فى ذلك الوقت. كانت والدته تتوسل إليه أن يرسل إليها لوحة زيتية له، وهو الآن قادر على ارتداء زيه المتألق الذى تكرم سير لويس ببيعه إليه. وفكر فى أنه يمكن أن تكون الصورة هدية مفاجئة فى عيد الميلاد. وأسعده أن كليا كانت تنهيها على مهل، تعيد رسم الأجزاء التى لا ترضى عنها. وقد عرف الكثير عن طريقها خلال ذلك الصيف (إذ إنها كانت تتحدث وهى تعمل حتى تحافظ على وجه من ترسمه حيا) عن حياة ومشاغل السكندريين.. الشعر الخيالى والمأساة العجيبة لحياة هؤلاء المنفيين بسبب ما يحيط بهم من ظروف وأحوال، قصص قاطنى البركة الحديثة، قاطنى ناطحات السحاب الحجرية التى تحملق، فوق بقايا الفراعنة الأثرية، نحو أوروبا.

وكان لواحدة من تلك القصص وقعها فى نفسه - إنها قصة حب أماريل (الطبيب الأنيق المحبوب للغاية) والذى أحس نحوه بعاطفة خاصة. كان لاسمه على شفتى كليا جرس يحمل عاطفة عامة لهذا الرجل الرشيق الحيىّ، والذى كثيرا ما أقسم أنه لم يكن محظوظا البتة

حتى تحبه امرأة: تنهدت وابتسمت وهى ترسم قائلة: «يا لأماريل المسكين. هل أخبرك بقصته؟ إنها قصة نموذجية، على نحو ما. لقد أدخلت السعادة على قلوب كل أصدقائه، إذ كنا نفكر «دوما» أنه قد ترك، مسألة الحب فى هذا العالم وراءه حتى تأخر الوقت كثيرا ـ وفاته القطار».

«لكن أماريل مسافر إلى الخارج، إلى إنجلترا»، قال ماونت أوليف، «لقد سألنا أن نمنحه تأشيرة على جواز سفره. هل لى أن أفترض تحطم قلبه؟ ومن هى سميرة؟ أرجو أن تخبرينى».

«سميرة العفيفة!»، ابتسمت كليا، مرة أخرى، فى رقة، وتوقفت عن عملها برهة، واضعة محفظة أوراق بين يديه، وأخذ يقلب الصفحات، «كلها أنوف»، قال فى دهشة، فأومأت برأسها: «نعم كلها أنوف. فقد شغلنى أماريل شهورا ثلاثة، أرتحل، أجمع صور ورسوم الأنوف لها، لتختار منها واحدا. أنوف أحياء وموتى. أنوف من نادى اليخت، الإيتوال، من صور الفريسكو(*)، من المتحف، من العملات. كان عملا شاقا أن تجمعها كلها لتجرى عليها دراسة مقارنة. وأخيرًا اختارا أنف جندى طيبى(**) من فريسكو».

وأصابت الحيرة ماونت أوليف، «أرجوك يا كليا، أخبرينى بالقصة».

«هل تعدنى أن تجلس ساكنا لا تتحرك؟».

«أعدك».

«حسنا إذن، أنت تعرف أماريل الآن معرفة جيدة. حسنا، هذا

(*) الفريسكو هو فن التصوير المائى على الجص. (المترجم).

(**) طيبى، نسبة إلى طيبة المصرية أو الإغريقية (المترجم).

الكائن الرومانسى العزيز ـ الصديق الحقيقى والطبيب الذكى، والذى انقطع رجاؤنا فيه لسنوات. بدا أنه لن يمكنه البتة أن يحب، ولن يحدث البتة أن يقع فى الحب، كنا نحس الحزن من أجله. أنت تعرف أنه رغم ما يبدو من جهامة منظرنا الخارجى، فإننا أهل الإسكندرية شعب عاطفى، نحب لأصداقائنا أن يستمتعوا بالحياة. إن ذلك لا يعنى أنه لم يكن سعيدا ـ كان له محبون من وقت لآخر، لكن لم يكن له البتة صديقة بالمعنى الخاص بنا. وكان هو نفسه يندب هذه الحقيقة كثيرا، وإننى لا أعتقد أن ذلك كان كلية من أجل استثارة الشفقة أو من أجل التسلية، ولكن ليطمئن نفسه أن كل شىء على مايرام، وأنه حقا جذاب للنساء، ثم وقعت المعجزة فى العام الماضى فى الكرنفال. لقد التقى بسيدة مقنعة نحيلة ترتدى الدومينو. ووقعا فى الحب بجنون ـ ولقد ذهبا، فى الحقيقة، إلى أبعد مما هو معتاد من شخص حريص مثل أماريل. لقد غيرته التجربة تماما. . إلا أن الفتاة اختفت، وهى لاتزال مقنعة، دون أن تترك اسمها. كان كل ما يعرفه عنها، يدين بيضاوين وخاتما به حجر أصفر، إذ رغم مانشأ بينهما من عاطفة رفضت أن ترفع قناعها بطريقة غريبة للغاية. لقد أنكرت عليه بشدة أن يقبلها. . . رغم أنها أنعمت عليه بأشياء أخرى. يا إلهى، إننى أردد القيل والقال، ولكن لا تهتم بذلك.

«ومنذ ذلك الحين، لم يعد أماريل محتملا، أصابه الهوس الرومانسى، واعترف أن ذلك كان مناسبا له تماما، فهو رومانسى حتى أطراف أصابعه. وأخذ يفتش المدينة طوال العام بحثا عن هاتين اليدين، بحث عنها فى كل مكان، توسل إلى أصدقائه كى يساعدوه، أهمل عمله وكاد يغدو أضحوكة لنا، نتسلى ونتأثر بما هو فيه من كرب. ولكن ماذا فى وسعنا أن نفعل؟ كيف يمكننا تعقبها؟ وانتظر

كارنفال هذا العام نافد الصبر، فقد وعدته أن تعود إلى نفس المكان الذى التقيا فيه. وهنا يأتى الجانب الهزلى. لقد عادت للظهور بالفعل، ومرة أخرى جددا عهودهما وإخلاصهما، إلا أن أماريل كان مصمما، فى تلك المرة، ألا تفلت منه - فقد كانت، إلى حد ما، مراوغة فيما له علاقة بالأسماء والعناوين. غدا يائسا وجسورا، ورفض أن تغادر، مما أثار، فى الحقيقة خوفها كثيرا. (لقد أخبرنى هو نفسه بكل هذا - حيث ظهر فى مسكنى فى الصباح الباكر يسير كالمخمور وقد وقف شعر رأسه. كانت معنوياته عالية، وكان خائفا إلى حد ما).

«حاولت الفتاة أن تفلت منه، مرات عدة، إلا أنه التصق بها وأصر على أخذها إلى منزلها فى واحدة من تلك المركبات العتيقة التى تجرها الخيل(*). كانت، فى الحقيقة، إلى جواره عندما بلغا النهاية الشرقية للمدينة. كان المكان زرى المنظر، إلى حد ما، غير مطروق، به عقارات كبيرة مهجورة وحدائق مندثرة، وانطلقت تجرى نحوها. وطارد أماريل الحورية، وقد أصابه الجنون من هذا الهوس الرومانسى، وأمسك بها بينما كانت تنزلق إلى باحة مظلمة. وانقض فى لهفة على قلنسوتها، وعندما تعرى فى النهاية وجهها سقطت على عتبة الباب تبكى، جلست تنتفض بنوع من الضحك الخافت والبكاء الواهن بينما تغطى وجهها براحتيها. لم يكن لها أنف وأصابه للحظة فزع هائل، فهو أشد المتطيرين فى البشر، ويعرف كل المعتقدات حول مصاصات الدماءاللائى يظهرن أثناء الكرنفال. إلا أنه رسم إشارة الصليب ولمس فص الثوم الذى فى جيبه - لكن الفتاة لم تختف. وهنا برز الطبيب الذى فى أعماقه فأخذها إلى الباحة (كانت نصف مغمى عليها من الخزى والخوف) وفحصها عن كثب. وقد أخبرنى أنه سمع عقله ينبض

(*) الحنطور (المترجم).

بتشخيص محتمل، فى وضوح وحذر، بينما أحس فى ذات الوقت أن قلبه قد توقف عن النبض وأنه يختنق. . واسترجع فى لمح البصر كل الأسباب المحتملة لمثل هذه الظاهرة، مكررا فى فزع كلمات مثل الزهرى، الجذام، اللوبس(*). وأخذ يدير وجهها المشوه هنا وهناك، وصاح غاضبا «ما اسمك؟». واندفعت دون ترو تقول (سميرة ـ سميرة العفيفة). وأصابه الخور فأخذ يضحك ضحكا كالزئير.

«كان الأمر غريبا. إن سميرة هى ابنة أب عجوز للغايةوأصم، كانت العائلة ذات يوم عائلة غنية ومشهورة فى ظل حكم الخديوى. إنها من أصول عثمانية، إلا أنها ابتليت بالنكبات واختلال القوى العقلية المطرد للأبناء، ثم اندثرت، حتى تكاد الآن أن تكون نسيا منسيا. كما استحوذ الفقر عليهم. وقد حبس الأب العجوز، نصف المجنون، سميرة فى هذا البيت الواسع الأرجاء، وعلى وجهها النقاب معظم الوقت. إن المرء يسمع عنها بعض القصص الغامضة فى المجتمع ـ يسمع عن ابنة تنقبت، تقضى جل حياتها فى الصلاة، وأنها لم تغادر البتة بوابات دارها. إنها صوفية أو صماء بكماء تلزم الفراش. إنها قصص غامضة. والقصص تشوه فى الإسكندرية دائما. ورغم وجود صدى لما تسمى بسميرة العفيفة ـ إلا أنها، فى الحقيقة، لم تكن معروفة لنا البتة، وقد ذهبت أسرتها فى طى النسيان. لكن يبدو أن فضولها لمعرفة العالم الخارجى قد تغلب عليها الآن وقت الكرنفال، فاندفعت خارج البوابة ترتدى الدومينو.

«إلا أننى نسيت أماريل. فقد جاء، على وقع خطاهما، خادم عجوز يحمل شمعة. وطلب أماريل منه مقابلة سيد المنزل. كان قد

(*) داء الذئب الأكال (المترجم). .

وصل إلى قرار. كان الأب العجوز يرقد نائما فى سرير عتيق الطراز له عمد أربعة، فى حجرة تغطيها فضلات الخفافيش، فى قمة المنزل. كانت سميرة الآن قد غابت عمليا عن الوجود. وكان أماريل قد توصل بالفعل إلى قرار مهم. فسار وقد أخذ الشمعة فى يد، وسميرة الصغيرة الحجم فى ثنية ذراعه. صعد إلى أعلى المنزل وركل باب حجرة الأب. لابد أن المشهد كان غريبا وغير عادى، إذ إن الرجل العجوز جلس فوق السرير ليرى ماذا يجرى. ويصف أماريل ذلك الحدث بكل الزخارف الرومانسية المؤثرة، بل هو يصل عند روايته لها وإعادة حكيها إلى أن تسيل دموعه، متأثرة بروعة خياله الخاص. يجب أن أقول، وأنا أحبه كثيرا، إننى أحسست بالدموع فى عينى عندما أخبرنى كيف وضع الشمعة إلى جوار الفراش، وركع إلى جانب سميرة وقال: «إننى أود أن أتزوج ابنتك، وأن آخذها إلى الدنيا مرة أخرى». إن الفزع الذى أصاب الرجل العجوز، وغموض تلك الزيارة غير المتوقعة، قد أخذ بعض الوقت حتى تزول آثارهما. كان من العسير، لفترة من الوقت، جعل الرجل يفهم ما يقال. ثم بدأ ينتفض ويتساءل عن هذا الطيف الوسيم الراكع إلى جوار السرير ممسكا بذراع ابنته التى لا أنف لها، عارضا عليه المستحيل بمثل هذه العاطفة الفياضة وهذا الكبرياء.

واحتج الرجل العجوز.. «إن أحدا لن يتزوجها، فهى بغير أنف» وغادر الفراش وعليه رداء نوم ملطخ. وأخذ يدور حول أماريل، الذى ظل راكعا يتأمله، يتفحصه كما يفحص المرء عينة من عالم الحشرات (إننى أقتبس مما جاء على لسانه). ثم لمسه بقدمه العارية، كأنما ليتيقن أنه من لحم ودم وكرر: «من أنت حتى تأخذ امرأة بغير أنف؟» وأجاب أماريل: «إننى طبيب من أوروبا وسوف أمنحها أنفا جديدا». كانت الفكرة الخيالية قد غدت، على مهل، واضحة فى ذهنه. وشهقت

سميرة منتحبة عندما سمعت الكلمات. وأدارت وجهها الجميل البشع نحوه، وقال أماريل فى صوت كالرعد: «سميرة هل تصبحين زوجة لى؟» ، واستطاعت، بالكاد، أن تفصح عن رد فعلها، وقد بدت أقل تشككا، إلى حد ما، من أبيها بالنسبة للموضوع كله. وبقى أماريل معهما يحادثهما ويعمل على إقناعهما.

«وعندما عاد إليهما فى اليوم التالى، وجد فى انتظاره رسالة، بألا يرى سميرة، وأن ما عرضه أمر من الأمور المستحيلة. إلا أن أماريل لم يكن ذلك الذى يسهل التخلص منه. فاقتحم طريقه، وأخذ يصاول الأب.

«هذه هى إذن المسألة التى لا تكاد تصدق، والتى يعيشها أماريل. وسميرة الحبيبة المتلهفة، كالعهد بها، لا تستطيع أن تغادر منزلها إلى العالم المفتوح، إلى أن يفى بوعده. وعرض أماريل أن يتزوجها على الفور، إلا أن الرجل العجوز المرتاب، كان يود التأكد من مسألة الأنف تلك. ولكن أى أنف؟ واستدعى أماريل، بلتازار فى البداية وفحصا سميرة معا، وتيقنا من أن المرض لا يرجع إلى الزهرى أو الجذام، ولكن إلى نوع نادر من اللوبس ـ نوع غريب من سل الجلد ـ سجلت منه حالات عديدة فى منطقة دمياط. لقد ترك لأعوام دون علاج، فأجهز أخيرا على الأنف. يجب أن أقول إن الأمر كان مرعبا ـ إذ يتشقق الأنف مثل خياشيم السمك. كنت أنا أيضا أشارك فيما يفكر فيه الأطباء. وكنت أذهب بانتظام إلى سميرة، أقرأ لها فى الغرفة المعتمة التى قضت فيها معظم حياتها. كانت رائعة بعينيها الداكنتين كعينى جارية من الحريم، وفم سوى الشكل. وذقن هى النموذج الجيد للذقون. ثم هنالك خياشيم السمك، كان ذلك ظلما بينًا. واحتاجت أزمان طويلة

لتؤمن حقا بأن الجراحة يمكن أن تعيد الأنف إلى ما كانت عليه. هنا، مرة أخرى، كان أماريل رائعا. فى إثارة اهتمامها فى إمكان إعادة أنفها إلى ما كان عليه، وأن تهزم اشمئزازها من نفسها، وأن يسمح لها باختيار الأنف من محفظة الأوراق. وأن تناقش المشروع كله معه. لقد جعلها تختار أنفها، كما يجعل المرء عشيقته تختار سوارا غاليامن عند «بيير أنتونى». كان ذلك هو المدخل الصحيح بالفعل، لأنها بدأت تهزم خجلها، وتحس الفخار أنها حرة فى اختيار هذه الهدية الثمينة ـ أعز ملمح للمرأة فى وجهها، والذى يتشكل مع كل نظرة، ويغير كل معنى، والذى بدونه يمكن أن تغدو العينان الجميلتان والأسنان والشعر كنوزا بلا قيمة.

«إلا أنهما اصطدما بعقبات جديدة. إن إعادة الأنف إلى ما كانت عليه يحتاج إلى تقنيات جراحية لاتزال جديدة تماما. وأماريل، رغم كونه جراحا، فإنه لا يود أن يكون هنالك أى احتمال للخطأ فى النتائج. إنه، رغم كل شىء، يشيد امرأة من وحى خياله الخاص، وجه مرسوم طبقا لمواصفات الزوج الخاصة. إن بيجماليون وحده هو الذى أتيحت له مثل هذه الفرصة من قبل. إنه يعمل فى هذا المشروع كأن حياته قد توقفت عليه ـ والذى أعتقده أنا، أنها كانت كذلك، على نحو ما.

«إن العملية ذاتها لابد أن تجرى على مراحل، كما أنها سوف تحتاج إلى سنوات حتى تكتمل. لقد سمعتهما يتحدثان عنها مرة بعد أخرى، حتى إننى أكاد أقوم بها بنفسى. أولاً نقطع سلخة من الغضروف الثمين، من هنا حيث تلتقى الضلوع بعظام الصدر، ويصنع منها طعما للتطعيم، ثم يقطع ما يشبه اللسان مثلث الشكل من داخل فخذها. .

يمكنك أن تتخيل كم كان ذلك ساحرا، لتفكر فيه، رسامة أو نحاتة. إلا أن أماريل سوف يذهب فى تلك الأثناء إلى إنجلترا ليتقن تقنيات العملية تحت إشراف أفضل الأساتذة. ومن هنا جاء طلبه للتأشيرة على جواز سفره. كم شهرا سيظل بعيدا، إننا لا نعرف ذلك بعد، لكنه سوف يغادر كفارس يبحث عن الكأس المقدسة التى استخدمها المسيح ساعة العشاء الربانى. لقد انتوى أن يكمل العملية بنفسه، ولسوف تنتظره سميرة هنا، وقد وعدته أن أزورها كثيرا، وأن أثير اهتمامها وأسليها ما استطعت. لم يكن ذلك بالأمر العسير، فالعالم الحقيقى خارج جدران منزلها الأربعة، له فى نفسها صدى غريب، وحشى وورومانسى.

«إنها، باستثناء لمحة قصيرة منه وقت الكرنفال، لا تعرف إلا القليل عن حياتنا. إن الإسكندرية بالنسبة إليها براقة، ملونة، كقصة من قصص الجان. سوف يمضى بعض الوقت حتى تستطيع رؤيتها على حقيقتها ـ بقسوتها التى تحيط بها، وحبها الشرير للمتعة، ومواطنيها غير الرومانسيين. لكنك تحركت من موضعك!».

واعتذر ماونت أوليف، وقال: «إن استخدامك لعبارة غير رومانسيين قد أفزعتنى. فقد كنت أفكر الآن، كم يبدو ذلك رومانسيا لقادم جديد».

«إن أماريل استثناء، رغم أنه استثناء محبب. إن القليلين هم الذين يضاهونه كرما ولا يطمعون فى كسب المال. أما بالنسبة لسميرة فإننى لا أستطيع، فى الوقت الحالى أن أرى ما يخبئه القدر لها، باستثناء الرومانسية». وتنهدت كليا وابتسمت وأشعلت سيجارة.

قالت فى هدوء: «إنها الآمال».

(٨)

قال بومبال شاكيا : «مائة مرة طلبت منك ألا تستخدم موسى حلاقتى، وأنت تفعلها مرة أخرى، إننى ـ كما تعرف ـ أخاف عدوى الزهرى. ومن ذا الذى يدرى أى بقع دم سوف تسيل إن أنت جرحت نفسك؟».

«يا زميلى العزيز»(*)، قال بورسواردن بطريقة جافة (وهو يحلق شفته)، متعمدا التكشير، إلى حد ما، حتى يعبر بذلك عن كرامته التى أسئ إليها، «ماذا تعنى بما تقول؟ إننى بريطانى. أم ماذا؟».

وتوقف لحظة، متربصا صمت بومبال لينشد فى وقار :

البريطانيون الذين أبدعوا العربة بلا خيل
يعملون الآن جاهدين لتحقيق زواج بلا جنس
وقريبا ستغدو المشاركة الوحيدة المسموح بها
هى تلك التى توافق عليها نقابة كل منا

«ربما يكون دمك ملوثا»، قال صديقه وهو ينخر كالخنزير، بينما كان يعالج حمالة جورب تمزقت كاشفا عن سمانة ساقه السمينة فوق البيديه(**). «إنك، على أى حال، لا تعرف البتة إن كان ملوثا أم لا».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) حوض الاستنجاء. (المترجم).

قال بورسواردن في وقار رصين : «إنني كاتب ، ومن ثم فإنني أعرف بالفعل . لا يوجد دم في عروقي ، بل بلازما» . كان ينظف طرف أذنه واستمر يقول بطريقة مبهمة : «إن هذا ما يجري في عروقي ، وإلا فكيف كان يمكنني أن أقوم بكل العمل الذي أقوم به ، فكر فيما أقول ، فأنا أكتب في الـ «سبكتاتور» باسم «أوبيك» ، و«منزسانا» في الـ «نيوستاتسمان» وأوقع في الـ«دايلي ووركر» بـ «كوربور سانو» وأنا أيضا «باراليسيس إجيتانس» في «التيمس» و«إجاكيولاتيو برابكوكس» ، في «نيوفرس» إنني . . . » ، إلا أن اختلاقه لم يسعفه .

«إنني لم أرك البتة مشغولا بالكتابة» ، قال بومبال .

«إننيَ أعمل قليلا وأكسب أقل . إنني لو كسبت من عملي أكثر من مائة جنيه في العام ، لن أكون قادرا على الادعاء بأنه قد أسيء فهمي» ، ثم شهق شهقة كظيمة .

«مفهوم . لقد كنت تشرب ، لقد رأيت الزجاجة فوق منضدة البهو عندما دخلت ، لماذا تشرب مبكرا هكذا؟» .

«لقد أردت أن أكون أمينا معك ، فهو نبيذك على أي حال ، وأنا لا أريد أن أخفي عنك شيئا . لقد شربت كأسا أشبه بكئوس الأنخاب ، أو ما يماثلها» .

«احتفال ما؟» .

«نعم ، ولسوف أقوم الليلة ، ياعزيزي جورج ، بعمل يكاد لا يليق بي . لقد تخلصت من عدو خطير وتقدمت بخطى واسعة ، في وضعي الوظيفي . ففي عملنا ، يجب النظر إلى ذلك الحدث باعتباره أمرا يهلل الناس له . سوف أقدم لنفسي عشاء ، مهنئا إياها بما أحرزت» .

«ومن ذا الذى سيدفع ثمن العشاء؟».

«سوف آمر بالطعام، وآكل، وأدفع أنا الثمن».

«ليس هذا عملا طيبا».

وبدا نفاد صبر بورسواردن على وجهه فى المرآة.

قال: «على العكس، فأنا فى أشد الحاجة إلى أمسية هادئة. إننى سوف أألف مزيدا من الشذرات عن سيرتى الذاتية وأنا آكل المحار اللذيذ عند ديامنداكيس».

«ما العنوان؟».

«المراوغة عن الموضوع»، ولسوف تكون الكلمات الافتتاحية كالتالى: «قابلت هنرى جيمس، أول ما قابلت، فى ماخور بالجزائر. كانت هنالك حورية عارية على كل ركبة من ركبتيه».

«لقد كان هنرى جيمس، كما أعتقد، زير نساء».

وفتح بورسواردن الدش إلى أقصاه وخطا تحت المياه صائحا: «أرجوك لا مزيد من النقد الأدبى من الفرنسيين».

ودفع بومبال المشط عبر شعره الداكن فى نفاد صبر، ثم نظر إلى ساعته وقال: «هراء، سوف أتأخر مرة ثانية».

وأطلق بورسواردن صرخة ابتهاج. كان كلاهما يخوض مغامرا، فى حرية، فى لغة الآخر، وهما يحسان النشوة، كتلامذة المدارس، لما يقع من كل منهما من أخطاء، بينما يتناقشان. كانت كل عثرة من أحدهما تقابل بصيحة، تتحول إلى صرخة حرب. كان بورسواردن يحجل فى سعادة ويصيح فرحا صيحات تغطى على أزيز الماء: «لماذا لا

تبقى وتستمتع بالبث الليلى اللطيف على الشعرات القصيرة؟» (كان بومبال قد وصف إذاعة المذياع هكذا فى اليوم السابق. ولم يترك له بورسواردن فرصة نسيان ما قال). ووضع بومبال على وجهه تعبيرا كمن أحس بالضيق وقال: «أنا لم أقل ذلك».

«أيها الملعون، لقد قلتها».

«أنا لم أقل «الشعرات القصيرة» ولكن «التموجات القصيرة» ـ موجات قصيرة(*)».

«كلاهما على نفس القدر من الفظاعة. أنتم ياشعب «رصيف أورساى» تثيرون جزعى. قد لا تكون فرنسيتى متقنة، لكننى أبدا لم أقل...».

«ماذا لو بدأت بأخطائك ـ ها! ها!».

وأخذ بورسواردن يرقص فى الحمام إلى أعلى وإلى أسفل، صائحا: «البث الليلى على الشعرات القصيرة». وألقى بومبال عليه ببشكير ملون وتدحرج فى مشيته خارجا من الحمام قبل أن يقتص منه قصاصا حقيقيا.

واتصل حوارهما البذىء بينما الفرنسى يهندم لباسه أمام مرآة حجرة النوم: «هل ستذهب إلى الإيتوال، فيما بعد، لترى العرض الذى يجرى فى الدور الأرضى؟».

«بالطبع سأذهب»، قال بورسواردن: «سوف أرقص رقصة «موت الثعلب»، مع صديقة دارلى أو مع سقيڤا. هنالك، فى الحقيقة، العديد من رقصات موت الثعلب. ثم أختار، فيما بعد، شأنى شأن

(*) بالفرنسية فى الأصل.

المستكشف الذى نفد ما لديه من لحم مقدد، ولمجرد الدفء الجسدى، واحدة أصطحبها إلى «جبل النسر»، حيث أشحذ مخالبى فى لحمها». وأصدر صوتا تخيل أنه الصوت الذى يصدر عن النسر وهو يلتهم اللحم ـ صوتا ناعما صادرا من الحلق كنقيق الضفدع. وارتعد بومبال ارتعادا شديدا.

صاح: «أيها الوحش، إننى ذاهب ـ وداعا».

«وداعا، يا عديم الحذق على الدوام(*)».

«على الدوام». تلك كانت صيحة الحرب المتبادلة.

وأخذ بورسواردن، فيما بعد، وقد غدا وحيدا، يصفر فى رقة. بينما، يجفف نفسه فى بشكير الحمام الممزق. وأكمل لباسه وهندامه.

كان عدم انتظام المياه فى فندق «جبل النسر» يدفعه، فى غالب الأحيان، عبر الميدان إلى شقة بومبال بحثا عن حمام مستريح وحلاقة ذقن. كان يستأجر المكان أيضا، من وقت لآخر، عندما يغادره بومبال فى أجازة. وكان يشاركه المكان، مما كان يبعث فيه شعورا بعدم الراحة إلى حد ما، دارلى الذى كان يحيا حياة خفية فى أقصى ركن من المسكن. كان يحب الهرب، من وقت لآخر، من عزلة حجرته فى الفندق، وكومة الأوراق الهائلة التى تثير البلبلة، والتى كانت تزداد نموا حول روايته القادمة. الهرب ـ دائما الهرب... إنها رغبة الكاتب فى أن يكون بمفرده مع ذاته ـ «إن الكاتب هو أكثر الحيوانات البشرية وحدة»، «إننى أقتبس عن بورسواردن العظيم نفسه». كان يخاطب صورته فى المرآة وهو يصارع رباط عنقه. الليلة سوف يتعشى فى

(*) بالفرنسية فى الأصل.

هدوء، غائصا فى ذاته، بمفرده! لقد رفض بلباقة دعوة عشاء يشوبها التردد من إيرول. كان يعرف أنه لابد مدخله فى واحدة من تلك الأمسيات الخرقاء المزعجة التى تنقضى فى لعب أبله بالورق أو البريدج. لقد قال بومبال: «يا إلهى، يالطرائف مواطنيك فى قضاء الوقت! إنهم يملأون الغرف بإحساسهم بالذنب! إن تعبيرهم عن فكرة ما ومساراتها يبعث الموت، ويثير الارتباك والصمت فى حفل عشاء.. إننى أحاول جهد طاقتى، لكننى أشعر دوما أنى قد وقعت فى الخية. ولذا فإنى أرسل، على الدوام، وبطريقة آلية، زهورا للمضيفة فى صباح اليوم التالى - يا لكم من أمة! كم غدرتم بنا نحن الفرنسيين لأنكم تحيون حياة منفرة تثير الاشمئزاز!».

دافيد ماونت أوليف المسكين! فكر فيه بورسواردن فى شفقة ومودة. ياله من ثمن ذلك الذى على الدبلوماسى أن يدفعه من أجل ثمار القوة! «إن على أحلامه أن تطمر، وإلى الأبد، مع ذكريات الحماقات التى عليه أن يصبر عليها، يصبر عليها عن قصد باسم أكثر الأشياء قداسة فى المهنة، وبالتحديد الرغبة فى الإرضاء والتصميم على أسر الألباب حتى تكون مؤثرًا ذا نفوذ. حسنا، إن الأمر يقتضى كل صنوف الأفعال لتغير طبيعة العالم».

ووجد نفسه، بينما يمشط شعره إلى الخلف، يفكر فى ماسكيلين، الذى يجب أن يكون، فى تلك اللحظة جالسا فى قطار أورشليم السريع الذى يسير متصلبا رزينا وسط الكثبان الرملية وبيارات البرتقال، يمتص مبسم غليونه الطويل، فى عربة حارة، يعذبه الذباب من الخارج، ويشويه من الداخل فخار المسئولية المشتركة لتقليد يموت.. لماذا يجب أن يموت؟ ماسكيلين يطفح بالفشل، بالخزى من

وضع جديد يحمله إليه الترقى. الطعنة الأخيرة القاسية. (وسببت له الفكرة وخزة من ندم؛ لأنه كان يقدر شخصية الجندى الذى لا يبحث عن منفعة ذاتية)، إنه ضيق الأفق، حاد، لاذع، متيبس كإنسان. إن الكاتب، على أى حال، قد أعزه فى مكان ما، بينما الرجل فيه أدانه. (لقد كتب عنه فى الحقيقة مذكرات مسهبة ـ وهى، بالتأكيد، سوف تثير دهشة ماسكيلين لو عرف بها). هنالك طريقته فى الإمساك بغليونه، فى دفع أنفه إلى أعلى، فى تحفظاته... بدا الأمر، فى بساطة، وكأنه قد يرغب، يوما ما، فى استخدام وتوظيف هذه الشخصية، «هل يمكن للبشر الحقيقيين أن يغدوا، فى بساطة، فكاهات يمكن استخدامها، وهل يؤدى ذلك إلى انقطاع ما بين المرء وبينهم، بعض الشىء؟ نعم يمكن. فالملاحظة تلقى بمجال ما حول الشخص والشىء الموجود تحت الملاحظة، نعم يمكن. فهى تجعل رد الفعل المطلق أكثر صعوبة، رد الفعل للروابط العادية كالعواطف والحب وما إلى ذلك. إلا أن تلك المشكلة ليست مشكلة الكاتب وحده إنها مشكلة كل امرئ. إن الإنماء يعنى فصل الاهتمام الأفضل، أكثر من ربطها بصورة واضحة، ... ياه!». كان فى وسعه أن يدعم ذاته فى مواجهة تعاطفه الخفى مع ماسكيلين، وذلك باستعادة بعض حماقات الرجل، تعاظمه وعجرفته! «يازميلى العزيز، ستكون أنت فىّ أنا، طالما أنمى أنا فيك القدرة على الحدث. يمكنك أن ترى الأشياء على بعد ميل». كانت فكرة أى شخص مثل ماسكيلين عن إنماء الحدس والفراسة فكرة ممتعة. وضحك بورسواردن ضحكة طويلة كالنقيق، ثم تناول سترته.

هبط السلم، فى خفة إلى الشارع وظلمة الليل فى أولها، يعد نقوده ويبتسم. كانت تلك هى أفضل ساعات اليوم فى الاسكندرية ـ الشوارع تتحول فى بطء إلى اللون الأزرق المعدنى بلون ورق الكربون، إلا أنها

لاتزال تبعث حرارة الشمس. لم تكن كل الأنوار قد أضيئت فى المدينة، والحزمات البنفسجية الكبيرة للعتمة تتحرك هنا وهناك، تحيل معالم الأشياء إلى أشكال ضبابية. تعيد طلاء خطوط الأبنية الحادة والبشر بالدخان. وتستيقظ المقاهى الناعسة على صوت المندولين الشاكى والذى يعلو مع صرير إطارات السيارات الساخنة وهى تسير فوق شوارع رصفت بالقار والحجارة، وقد ازدحمت الآن بالحياة، وشخوص ترتدى الجلابيب البيضاء والبقع القرمزية للطرابيش(*)، والنوافذ تنبعث فيها روائح البول النفاذة والأرض المطفأة. وسيارات الليموزين تنطلق من البورصة، يزعق نفيرها فى نعومة كطيران هادئ لنوع خاص من الأوز. أن يغشى الغسق الأرجوانى البصر، أن تتحرك فى رقة، أن تحتك أكتافك بالزحام فى سلام، فى ذلك الهواء الجاف المنعش. . تلك كانت لحظات السعادة التى كان يلتقى بها مصادفة وعرضا. الأرصفة لاتزال تحتفظ بحرارتها، مثلها مثل البطيخ ساعة يقطع ليؤكل عند الغسق، وحرارة رطبة تتسرب إلى أعلى فى بطء عبر باطن حذاء المرء، ونسائم البحر تتحرك، تحاصر أعلى المدينة ببرودتها اللطيفة الرطبة، ومع ذلك فالمرء لا يحس بها الآن إلا فى دفقات ـ إنه يتحرك عبر هواء جاف مليء بالكهرباء الساكنة (كفرقعة المشط فى الشعر)، كما لو كان يستحم عبر بحر صيفى فاتر مليء بالموجات الباردة الزاحفة. وسار نحو «بودروت» فى بطء عبر شذرات من روائح متناثرة ـ عطر امرأة عابرة أو فواح الياسمين من بوابة قائمة ـ وهو يدرك أن هواء البحر الرطب سوف يمحو سريعا كل تلك الروائح. كانت اللحظة المناسبة تماما لشراب فاتح للشهية فى الضوء الباهت.

كانت الشرفات الطويلة الخشبية الخارجية، تحدها أصص النباتات

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

التى تنبعث منها رائحة الأرض المبتلة ساعة الغسق، قد ازدحمت بالناس، وقد كادت ملامحهم تذوب بسبب السراب، فبدوا كلمحات كارتونية عابرة، تختفى بنفس سرعة تكوينها. والتندات الملونة ترتعش ارتعاشا خفيفا فوق الحجب الزرقاء التى كانت تنزاح فى توجس فى الطرقات المعتمة، تماما مثل أعصاب المحبين الذين يحومون هنا، منهمكين فى لقاءاتهم وإيماءاتهم التى تبرق كالفراشات، مفعمة بوعود مساء الإسكندرية، سرعان ما سيختفى الضباب وتتألق الأضواء على أدوات المائدة والملابس البيضاء، على حلقات الآذان والمجوهرات المتوهجة، على الرءوس الناعمة المدهونة بالزيت والبسمات التى تتلألأ بمسرتها، والجلود البنية تشقها أسنان بيضاء. ثم تبدأ العربات تنزلق مرة أخرى من أعلى المدينة. بحملها الرشيق، بمن ينشدون الرقص والعشاء . . . تلك كانت أفضل لحظات اليوم. كان فى وسعه وهو جالس هنا، مسندا ظهره إلى تعريشة خشبية أن يحملق ناعما فى الشارع المفتوح، لا يعرفه أحد ولا يحييه أحد، حتى الأشخاص الذين فى المنضدة التى تليه لا يمكن التعرف عليهم، إنهم مجرد خطوط بشرية. كانت تصله أصواتهم، فى هذا الغسق، كسولة، أصوات المساء السكندرى، من خلف حجاب أرجوانى، تتحدث عن بعض ما يجرى فى أفنية الدور أو بعض أبيات الشعر العربى لشعراء يحبونهم - من ذا الذى يدرى؟

ما أجمل مذاق الدبونية بقشر الليمون (*)، بذكراه المحددة عن أوروبا، التى رغم هجرانها منذ زمن بعيد، لاتزال حية لا تنسى تحت سطح هذه الحياة التى لا قوام لها، فى عاصمة الإسكندر الرثة. وفكر وهو يتذوقها، بحسد، فى بومبال، فى المنزل الريفى فى نورماندى،

(*) بالفرنسية فى الأصل.

والذى يأمل صاحبه، من صميم فؤاده، فى العودة إليه ذات يوم. كم هو رائع أن يحس المرء بالعلاقات الآمنه المؤكدة مع وطنه، أن يحس اليقين بالعودة، إلا أن ضيقه زاد عند مجرد التفكير فى ذلك، وأحس فى ذات الوقت بالألم والأسف. (قالت: «لقد قرأت الكتب فى بطء، لا لأننى لا أستطيع القراءة بسرعة كما فى «برايل». ولكن لأننى أحب الاستسلام لقوة كل كلمة، حتى ما تتسم بالفظاظة والضعف، لأصل إلى لب الفكر ومشاربه»). لب الفكر ومشاربه، كانت عبارة رنت فى الأذن مثل أزيز طلقة تمر قريبا للغاية. ورآها - بيضاء رخامية فى لون وجه آلهة البحر. وقد مشطت شعرها إلى الوراء فوق كتفيها، تحملق عبر المتنزه حيث أوراق الخريف وفروع أشجاره الميتة تتوهج، يتصاعد الدخان منها، «ميدوسا» بين الثلوج. ترتدى شالها الصوفى العتيق. إن العميان يقضون اليوم بكامله فى هذه المكتبة المعتمة، الموجودة تحت الأرض بما فيها من برك الضوء والظلال، وأصابعهم تتحرك كالنمل عبر صفحات الكتب المثقوبة والتى حفرتها لهم ماكينة ما. («كنت أتلهف على الفهم لكننى لم أستطع»). حسنا، هنا يتفصد المرء عرقا باردا. هنا تستدير دنيا البشر ثلاثمائة وستين درجة، لتدفن وجهك فى وسادتك وتئن! (بدأت تضاء الآن الأنوار، وأخذت الحجب تتلاشى وهى تُشد إلى أعلى وقد حل المساء. ووجوه البشر). كان يراقب الوجوه فى انتباه يكاد يكون شبقا، كأنه يود الخوض فى أعمق نواياهم، فى مقاصدهم الأساسية فى المجىء هنا، كسالى كاليراعات، يسيرون من وإلى البارات بأضوائها الصفراء، وأصبع يضوى بالخواتم، وأذن تتوهج، وسنة ذهبية مثبتة بقوة وسط ابتسامة عاشقة. «أيها النادل، كم واحدا (*)، طلب آخر لو سمحت». وبدأت الأفكار شبه المصاغة

(*) عربية بالحروف لاتينية.

تطفو مرة أخرى عبر عقله (بريئة، يطهرها الظلام والكحول)، أفكار ربما كانت ترتدى فيما بعد، مظهرا كاذبا كأبيات الشعر. . زوار من حياة أخرى.

نعم، فى مقدوره احتمال عام آخر ـ عام واحد بكامله، بعيدا عن العواطف، من أجل ماونت أوليف. فى وسعه، أيضا، أن يجعله عاما طيبا. ثم النقل ـ إلا أنه درأ الفكرة عن عقله، إذ ربما تؤدى إلى كارثة. سيلان؟ سانتوس؟ هنالك شىء ما فى مصر هذه، بأجوائها المشتعلة الخالية من الهواء واتساعها الذى لا يعرف مداه ـ ونصبها التذكارية الجرانيتية العجيبة الغريبة للفراعنة الأموات. والمقابر التى غدت مدنا ـ إن شيئا ما فى كل هذا يخنقه. إنها ليست مكانا للذكرى ـ كما أن الحقيقة الصارخة الجافة لعالم اليوم تكاد تكون أكثر من قدرة الإنسان على الاحتمال. الأحزان وافرة، الجنس، العطور والمال.

كانوا ينادون على صحف المساء فى لغة مختلفة، مثيرة للغاية. كانت اليونانية والعربية والفرنسية هى مواد توليفتها الأساسية. كان الصبية يجرون، يولولون، عبر الطرق والدروب كأنهم رسل مجنحة من العالم السفلى يعلنون. . سقوط بيزنطة؟ كانت جلابيبهم البيضاء مشدودة، مربوطة، إلى ما فوق ركبهم. يصرخون فى صوت شاك، كأنهم يموتون جوعا. ومال من جناحه الخشبى يشترى واحدة من جرائد المساء ليقرأها وهو يتعشى منفردا. كانت القراءة أثناء الوجبات واحدة أخرى من وسائل غوصه فى ذاته، وما كان يحرم نفسه منها.

ثم سار فى هدوء تحت البواكى، عبر شارع المقاهى، مارا بجامع أرجوانى (يبدو طافيا فى السماء)، مكتبة، معبد (مسور بحديد مشغول: «هنا رقد جسد الإسكندر الأكبر يوما ما»). ثم عبر المنحنيات

الطويلة المنحدرة للشارع والتى تقود المرء إلى شاطئ البحر. والموجات الباردة تتوالى، من تلك النواحى، نسمات توحى للوجنات بآمال كاذبة.

واصطدم فجأة بشخص يرتدى معطفا واقيا من المطر، وتعرف فيه، متأخرا، على دارلى. وتبادلا دعابات خجلة، مثقلة بارتباك متبادل. ويمكن القول أن تأدبهما أمسك بهما عندما التقيا فجأة وجها لوجه، وفجأة توقفا فى الشارع وكأنه قد تحول إلى ورق لاصق للذباب. وأخيرا استطاع دارلى أن يحرر نفسه، وأن يستدير هابطا الشارع المعتم وهو يقول: «حسنا، يجب ألا أعطلك. فأنا نفسى أكاد أموت تعبا. سأذهب إلى المنزل لأغتسل». ووقف بورسواردن لحظة ساكنا يتابعه بنظراته، يحيره بعمق ارتباكه وما أصابه وهو يتذكر مناشف الوجه المبلولة الممرغة والتى تركها وراءه فى حجرة نوم بومبال، وحافة صابونة الحلاقة وقد غدت رمادية بما عليها من شعر منتشر حول حوض الغسيل. يالدارلى المسكين! ولكن كيف حدث له أن أعجب بالرجل واحترمه، فى الوقت الذى لا يستطيع الإحساس بأنه على سجيته فى حضوره؟ وللحال قرر أن يتخذ منه موقفا قلبيا مخلصا غير طبيعى، خالصا بعيدا عن العصبية. لابد أن يبدو هذا السلوك وقحا ومحتقراً. إنه الموقف القلبى الفاتر لطبيب ريفى ينعش مريضا. . اللعنة! لابد أن يصطحبه يوما إلى الفندق لشراب منفرد، وليحاول التعرف عليه، بعض الشىء. ومع ذلك، فقد حاول التعرف عليه فى مناسبات عدة، فى تلك الليالى الشتوية، عندما كانا يسيران معا. وأخذ يبرر عدم رضائه بقوله لنفسه: «إلا أن ابن الزنى المسكين هذا، لا يزال متهما بالأدب».

إلا أنه استعاد مرحه عندما بلغ حانة المحار اليونانية عند البحر،

والتى كـانت تحـدد جدرانهـا البـراميل فى كل الأحـجـام، وتنبـعث من مطابخهـا نفحـات من الدخـان ورائحة الأسمـاك الصغيرة والأخطبـوط المقلى فى زيت الزيتـون. وجلس هنا، بين البـحـارة بملابسـهم الممزقـة وطاقـم القـارب الشـراعى «لفـانت»، ليـأكل المحـار، ولينغـمس فى جـريدته، بينمـا المساء يتشكل حـوله مـتأنيـا، دون أن تقلقـه فكرة، أو ضـرورات الحديث بما فيـهـا من تفاهات مبتذلة خبيثـة. ربما يكون فى وسـعـه، فـيـمـا بعـد، أن يضع أفكاره مـرة أخـرى، فى الكتـاب الذى يحـاول، إكمـاله فى بطء وألم، فى تلك اللحظات التى أقامـهـا حـول نفسه بفضل الكسل وحب الحياة الاجتماعية («هل لك فى شراب؟» . . «لا تبالى إن أردت فى ذلك». «كم أمسية ضاعت هكذا؟») .

والصـحف؟ كـان ينكـب يقـرأ أسـاسـا «الحـوادث المتنوعـة» (*) ـ تلك الأشياء الشاذة لسلوك البشر والتى تعكس حقيقة الإنسان، والتى تكمن هناك وراء الملخصات المسهبة، والبحث عن الهزل وخوارق الطبيعة فى حياة غدت لا تتـأثر أو تحس بما هنالك من إرهاق، بما هنالـك من سلطة العقل المجردة. يضـاف إلى ذلك عنوان رئيسى عن «اسـتئناف الوحـدة العـربية، مـرة أخرى». والذى كـان عليه أن يقـدمه فى مـسـودة مـعـدة لأوليف فى اليـوم التـالـى ـ كـان فى وسـعـه أن يجـد مـا يريد من تراكـيب بشرية فى «القـائد الدينى الكبير الـذى احـتجز فى مصـعـد» أو «مـجنون يقتحم بنك مونـانت كـارلو»، والتى تعكس ما يـخالف العـقل من أشياء ترتبط بالعقل والأحوال ويقشعر منها البدن.

وبدأ، فيما بعد، وتحت تأثير الطعام الرائع فى «كوان دى فرانس»، يدخن أنبيقـه اليـومى الـذى يسـتـمـتع بـه، والـذى يشبـه أنبوب الأفـيـون.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

وأخذ عالمه الداخلى، بما فيه من توترات، يحل ما فى أعماقه من لفات، منسابة إلى الخارج خطوطا من الفكر ترفرف بطريقة متقطعة إلى وعيه مثل دقات التلغراف، كأنما قد صار جهاز استقبال حقيقيا. تلك كانت اللحظات النادرة للكتابة الجيدة! .

كتب فى الساعة العاشرة على ظهر خطاب ورد إليه من البنك عبارات قليلة سديدة ترتبط بكتابة، مثل، «العاشرة. لا هجمات من الفرس المجنح هذا الأسبوع. بعض الأحاديث من العجوز بار»؟ ثم أسفلها، وبطريقة مفككة، كلمات تتكثف الآن فى عقله مثل الندى، ربما استطاع، فيما بعد، صقلها وتجديدها أو تعديلها إلى أجزاء تحمى أفعال شخصياته.

(أ) مع كل تقدم من المعلوم إلى المجهول، يزداد الغموض.

(ب) أنا هنا أسير على قدمين وأحمل اسما ـ أحمل كل تاريخ أوروبا الثقافى منذ «رابلايس» حتى «دى ساد».

(جـ) سيغدو الإنسان سعيدا إن سلمت آلهته من العيوب.

(د) حتى القديس يموت وكل نواقصه فوق رأسه.

(هـ) مثل هذا الذى يمكن أن يكون فوق التأنيب الإلهى، وتحت الازدراء البشرى.

(و) امتلاك قلب بشرى ـ مرض بلا علاج.

(ز) كل الكتب العظيمة إنما هى سياحات فى عالم الشفقة.

(ح) إن حلم الدخن الأصفر هو طريق كل رجل.

إن كل هذه الأفكار المبهمة خفية الدلالة، سوف تصقل برقة، فيما

بعد، فى شخصية بار العجوز. إنه تيرسياس(*) راويته المنغمس فى شهواته. ورغم أن تلك الأفكار كانت تنفجر هكذا، تخرج عرضا ومصادفة، إلا أنها لم تكن تقدم ما يشير إلى الموضوع الذى سوف توضع فيه، بالفعل، فى النهاية.

وتثاءب. كان يترنح نشوة بعد كأسه الثانية من براندى «أرماجناك»(**). وفى الخارج كانت التند الرمادية والمدينة قد اتخذت، مرة أخرى، صبغة الليل الحققية. الوجوه السوداء ذابت الآن فى الظلام، فلاييبن للمرء، ظاهريا، غير ثياب خاوية تسير، كما فى «الرجل الخفى». وقبعات صغيرة حمراء فوق وجوه متلاشية، إنه إظلام الظلام. وأخذ يصفر فى رقة وهو يدفع حسابه. وسار، مرة أخرى، إلى الكورنيش، إلى حيث يجد فى آخر الشارع الضيق لمبة الإيتوال الخضراء كالفقاعة، تتوهج مشيرة إلى المكان. وغطس فى السلم الضيق الخانق كعنق الزجاجة، ليدخل إلى غرفة الرقص الخالية من الهواء. وأصابه الضوء القانى فى عينيه فغدا كنصف أعمى. وتوقف، فقط، ليتناول «زولتان» معطفه الواقى من المطر، ليضعه فى حجرة الملابس. إنه لن يقلقه الخوف، هذه المرة على الأقل، من فواتير شرابه غير المدفوعة ـ فقد سحب مقدما قدرا كبيرا من المال، على حساب مرتبه الجديد. قال له النادل الضئيل بصوت أجش فى أذنه: «هنالك فتاتان جديدتان من المجر»، ولعق شفتيه وهو يبتسم مكشرا عن أسنانه. بدا كأنما قلى على مهل شديد فى زيت الزيتون فغدا بنيا غامقا للغاية.

(*) الأعمى، راوى الحقيقة الذى تنبأ بهلاك أوديب ملك طيبة فى الأساطير الأغريقية. (المترجم).

(**) منطقة فى جنوب غرب فرنسا. (المترجم).

كان المكان مزدحما، والعرض يوشك أن ينتهى. لم تكن هنالك وجوه مألوفة له فيمن حوله، فشكر الله على ذلك. وانخفضت الأضواء لتتحول إلى الأزرق فالأسود. وارتعشت الدفوف الصغيرة ودقت الطبول وظهرت الممثلة الأخيرة فى بقعة من الضوء تعشى الأبصار، وبدا رداؤها اللامع وكأن النيران قد أمسكت به يتوهج كسفينة من سفن الفايكنج، وهى تدق صاجاتها هابطة إلى الممر برائحته النفاذة ثم تتجه إلى حجرة تغيير ملابسها.

كان نادرا ما يتحدث إلى ميليسا منذ لقائهما الأول من شهور مضت. كانت زياراتها لشقة بومبال نادرة، إن حدث واتفقت مع زياراته له. وكان دارلى يجتهد أن يختفى، أيضا، ربما بسبب الغيرة أو الخجل؟ من يدرى؟ كانا يبتسمان ويحييان الواحد منهما الآخر إن تقاطعت سبلهما فى الشارع، وكان ذلك كل شيء. كان يراقبها الآن متأملا وهو يحتسى كأسين من الويسكى. وأحس أن الأضواء قد أخذت تشتعل فى داخله، على مهل، بصورة أكثر توهجا. وأخذت قدماه تستجيبان للضربات التى تنطلق، دون بهجة أو طلاوة، لموسيقى الجاز الزنجية. كان يستمتع بالرقص، يستمتع بالخلط المريح للفواصل التى تقوم على وحدة الإيقاع. الوتائر والإيقاعات التى تنتشر بها الأرض تحت الراقصين. هل كان عليه أن يرقص؟.

كان راقصا ماهرا لا مغامرا. وأمسك بميليسا بين ذراعيه، ولم يرهق نفسه. كان يتحرك فى رقة وخفة حول الأرض، يدندن لنفسه نغم، «الحياة أبدا»(*). وابتسمت له وهى فرحة أن ترى وجها مألوفا من العالم الخارجى. وأحس بيدها الصغيرة ومعصمها النحيل يستقر فوق

(*) بالفرنسية فى الأصل.

كتفه، وقد أمسكت أصابعها بسترته مثل مخالب عصفور. قالت: «أنت فى أحسن حال»(*) أجاب: «أنت فى أحسن حال(*)». تبادلا المداعبات التى لا معنى لها، والتى تناسب الزمان والمكان. كانت فرنسيتها الشنيعة تشده وتثير انتباهه. جاءت، فيما بعد، إلى منضدته، فقدم لها كوبين من الشمبانيا ـ إنه الأجر الذى حددته الإدارة للأحاديث الخاصة. كانت نوبة العمل من نصيبها فى تلك الليلة، وكل رقصة تكلف الراقص أجرا، ومن ثم فإن هذه الفواصل قد جعلتها تحس نحوه بالامتنان، فقد كانت قدماها تؤلمانها. كانت تتحدث فى وقار، وقد وضعت ذقنها على راحتها، ووجدها، وهو يراقبها، أقرب إلى الجمال الشاحب ـ كانت عيناها طيبتين، مليئتين بصور ما محدودة من الخفر والحياء والوجل، والتى ربما تسجل صدمات الأمانة الشديدة فى مواجهة الحياة، إلا أنها بدت، وبصورة واضحة، مريضة. وكتب الكلمات التالية فى إيجاز: «إنه الرونق الناعم لمرضى السل». وحَسّن الويسكى من سلوكه المرح العابس، وكافأته على نكاته بضحكات عفوية، وجدها، لدهشته، تثير البهجة. بدأ يتفهم فى قتامة، ما الذى يراه دارلى فيها ـ نداء المدينة كنداء صبية شقية، القوام النحيل الأهيف والنظافة والهندام، الاستجابة السريعة لعرب ـ الشارع، لعالم صعب عسير. وقال لها وهو يراقصها، مرة أخرى، وإن كان فى تورية تهكمية تشوبها نشوة السكر «ميليسا، كيف تحمين نفسك فى مواجهة الوحدة؟(*)» إلا أن ردها الذى كان لسبب ما غريبا، أصابه كالطعنة حتى القلب. نظرت إليه بعين تفيض بكل صراحة الخبرة والتجربة. وأجابت فى رقة، ، «سيدى، لقد أصبحت أنا الوحدة ذاتها(*)».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

وظلت كآبة الوجه المبتسم دون أن تلمسها لمحة تنبئ عن إشفاقها على ذاتها. ثم أتت بحركة ما، وكأنها تشير بها إلى عالم كامل، وقالت «انظر» ـ الرغبات والإرادات الدنيئة لزبائن الإيتوال الذين يرتدون أليق الأزياء، ينتشرون حولهما فى ذلك القبو الخانق. وأدرك ما تعنى، وأحس فجأة بخطيئة أنه لم يعاملها البتة معاملة جادة. وأحس بدافع يحفزه فضغط وجنته إلى وجنتها بود كأنه أخ لها. أما هى فقد كانت طبيعية تماما.

وذاب الآن حاجز بشرى، ووجدا أنه بوسعهما أن يتحدثا، الواحد للآخر، فى حرية كصديقين قديمين. وكلما أوغل المساء كان يجد نفسه يراقصها أكثر فأكثر. وبدت مرحبة بذلك، رغم أنه يرقص معها فوق حلبة الرقص فى صمت، مسترخيا وسعيدا ـ لم تصدر عنه إيماءات بالألفة أو الصداقة الوثيقة، ورغم ذلك أحس أنه مقبول لديها، بصورة ما. ووصل حوالى منتصف الليل ثرى سورى من رجال البنوك، وأخذ ينافسه فى شدة كسبه لصحبتها. وأحس بورسواردن بالقلق، مما أثار ضيقه للغاية، وتحول القلق إلى غيرة حب التملك، مما جعله يلعنه فى دخيلته! إلا أنه انتقل إلى منضدة قريبة من الحلبة حتى يستطيع أن يطلبها للرقص بمجرد ابتداء الموسيقى. وبدت ميليسا ذاتها ذاهلة لهذه المنافسة الضارية. كانت متعبة. وسألها أخيرا، «ماذا ستفعلين عندما تغادرين هذا المكان؟ هل ستعودين إلى دارلى الليلة؟». وابتسمت عند ذكر الاسم، إلا أنها هزت رأسها فى إجهاد وإرهاق: «إننى فى حاجة إلى بعض النقود من أجل... لا تشغل بالك»، قالت فى رقة. ثم انفجرت فجأة، كأنها تخشى ألا يؤخذ قولها مأخذ النية الخالصة، «من أجل شراء معطف شتوى. إن ما لدينا من المال قليل. إن مثل عملنا يقتضى منا أن نرتدى ملابس لائقة. هل فهمت؟». قال

بورسواردن: «ولكن ليس مع هذا السورى البشع؟». النقود! فكر فيها بألم ممض وتطلعت إليه ميليسا فى سكينة يشوبها التفكه. قالت فى صوت خفيض ولكن دون خجل: «لقد عرض علىّ خمسمائة قرش حتى أذهب معه إلى منزله. إننى أقول الآن كلا، ولكن ماذا فيما بعد - إننى أتوقع أنى لابد ذاهبة». وهزت كتفيها.

وأخذ بورسواردن يلعن فى هدوء. قال، «كلا، تعالى معى. سأعطيك ألف قرش إن كنت فى حاجة إليها».

واتسعت حدقتا عينيها عندما ذكر مثل هذا القدر الكبير من النقود. كان فى وسعه أن يراها تفرزها عملة بعد أخرى، تتحسسها بأصابعها وكأنها عداد يقوم بعدها، تقسمها بين الطعام والإيجار والملبس. «إننى أعنى ما أقول». قال فى وحدة ثم أضاف فى الحال: «هل يعرف دارلى بما يجرى؟».

«أوه، نعم»، قالت فى هدوء: «إنه كما تعرف طيب للغاية. إن حياتنا صراع، إلا أنه يعرفنى. إنه يثق بى. إنه لا يسألنى أبدا عن أية تفصيلات. انه يعرف أنه ما أن يتوفر لنا، ذات يوم، قدرا كافيا من المال، حتى أوقف كل هذا. إن ما يحدث الآن ليس مهما بالنسبة لنا». كان لهذا صداه الغريب الطريف مثل تجديف مخيف يصدر من فم طفل. ضحك بورسواردن، «تعالى الآن». قال فجأة. كان متلهفا على امتلاكها، أن يهدهدها ويسحقها بقبلات مقززة صادرة عن عاطفة زائفة. «تعالى الآن يا عزيزتى ميليسا». إلا أنها أجفلت وشحبت لسماعها الكلمة. ووجد أنه قد ارتكب خطأ ما، إذ إن أى تعامل جنسى يجب أن يجرى، بصورة محددة، خارج حدود العواطف الشخصية نحو دارلى. شعر بالتقزز من نفسه، ومع ذلك أحس أنه لا حول له ولا

قوة حتى يفعل ذلك بطريقة أخرى. قال: «إننى أقول لك أنى سوف أعطى دارلى قدرا من المال بعد هذا الشهر ـ قدرا يكفى أخذك بعيدا عن هنا». بدت كأنها لا تصغى. قالت فى صوت آلى خافت: «سوف أحضر معطفى وألقاك فى البهو». وذهبت إلى المدير تسوى أمورها. وانتظرها بورسواردن فى ضيق مضن. كان قد اكتشف الطريق الأمثل لشفاء تلك الوخزات التى يثيرها ضمير متطهر يقبع تحت السطح البهيج لحياة لا أخلاقية.

لقد تسلم منذ عدة أسابيع مضت خطابا قصيرا من ليلى، عن طريق نسيم، مكتوبا بخط متقن رائع جاء فيه:

عزيزى السيد بورسواردن.

إننى أكتب إليك أطلب منك أن تؤدى لى خدمة غير عادية. لقد توفى خالى الأثير لدى. كان عاشقا كبيرا لإنجلترا وللغة الإنجليزية التى كان يجيدها أفضل من لغته الخاصة. وقد ترك فى وصيته تعليمات بضرورة وضع شاهد على قبره باللغة الإنجليزية، نثرا كان أم شعرا، ويفضل أن يكون أصليا، إن كان ذلك ممكنا. إننى قلقة لتكريم ذكراه بالطريقة الأكثر مناسبة، وأن أنفذ آخر رغباته. وهذا ما دعانى للكتابة إليك، أسألك إن كنت تقبل بمثل هذا المشروع، والذى كان أمرا عاديا يقوم به الشعراء فى الصين القديمة، لكنه الآن أمر غير عادى. إننى سعيدة أن أفوضك للتصرف فى مثل هذا العمل بمبلغ إجمالى قدره خمسمائة جنيه إسترلينى».

وسلم ما سوف يكتب على شاهد المقبرة فى حينه، ووضعت النقود باسمه فى البنك، إلا أنه، لدهشته، وجد نفسه عاجزا عن المساس بها. لقد أمسكت بتلابيبه بعض النظريات الغريبة. إنه لم يكتب، فيما

سبق، شعرا بناء على أمر، كما أنه لم يُعّد البتة شاهد قبر. واشتم شيئا ما يكاد يكون شؤما يصدر عن هذا القدر الكبير من المال. وظلت النقود فى المصرف الذى يتعامل معه دون أن يلمسها. لقد حل به الآن فجأة، اقتناع راسخ بأن عليه أن يعطى هذه النقود لدارلى، إنه، فى إطار أشياء أخرى، يفكر عن إهماله الفطرى لكفاءاته وملكاته وارتباكه الأخرق.

وعادت معه إلى الفندق ملتصقة به التصاقه جراب الخنجر بالفخذ ـ كانت تمشى تلك المشية المحترفة لامرأة الشوارع. لم يتحدث إلا لماما، والشوارع خالية.

المصعد القذر العتيق، بمقاعده ذات الحواف المزركشة المليئة بالتراب، ومراياه بستائرها العطنة المطرزة بالنسيج المخرم، يهتز بهما اهتزازا عنيفا صاعدا إلى أعلى فى العتمة المليئة بنسيج العنكبوت. وأخذ يفكر فى سرعة. كان عليه أن يجتاز الباب القلاب أولا، والأذرع تمسك بالأذرع كالرباط، والشفاه تمسك بالشفاه حتى أحس كأن أنشوطة قد شدت بقوة على حلقه، وأن النجوم قد تفجرت خلف مقلتى عينيه. النهاية والنسيان. ما الذى يمكن للمرء أن يتوقعه من جسد امرأة يجهلها؟

قبلها خارج الباب عمدا وفى بطء، ضاغطا شفتيه فى مخروط شفتيها الناعمتين المزمومتين، حتى أسنانهما فى تكتكة حقيقية وصرير. ولم تستجب هى إليه، ولا ارتدت إلى الوراء. كان وجهها الخالى من التعبير (وهى غير مرئية فى هذه العتمة) أشبه بلوح زجاج يغطيه الجليد. لم يكن فيها ما يثير، فقط تفكير عميق، والإنهاك الناتج عن السأم والملل من العالم. كانت يداها باردتين. أخذهما بين يديه وانتابته كآبة هائلة. هل قدر له أن يترك، مرة أخرى بمفرده مع نفسه؟ وللحال لجأ إلى

إضفاء جو هزلى فكاهى، باعتباره ثملا، وهو أمر كان يجيد التظاهر به. كان يعمد إلى كلمات عن الحقيقة، يحرفها ويخل بترتيبها. وصرخ فى حدة بكلمة محرفة ثم أرجعها إلى أصلها، إلى مزحة انتحلها مع دارلى. وأحس الآن أنه قد ثمل بالفعل مرة أخرى. «السيد الذى دعوتيه»(*). وعبرت العتبة إلى الحجرة، دون أن تبتسم، وهى مليئة بالثقة كحمل. وأخذت تتفحص ما حولها. وتلمس هو طريقه إلى لمبة المخدع، إلا أنها لم تعمل، فأشعل شمعة كانت تقف فى طبق على المنضدة، ثم استدار إليها وظلال قاتمة تتلاعب فى منخريه وحدقتى عينيه. ونظر كل منهما للآخر بينما صدرت عنه دمدمة عنيفة كالمرتزقة ليخفى قلقه. ثم توقف فقد كانت متعبة للغاية أعجز من أن تبتسم. ثم بدأت، وهى لاتزال صامتة لا تبتسم، تخلع ملابسها قطعة قطعة، وتسقطها حولها فوق السجادة المهترئة.

ورقد فترة طويلة يستكشف ـ فى بساطة ـ جسدها النحيل بضلوعها المائلة (أشبه بنبات السرخس) والنهدين غير الناضجين وإن كانا متماسكين. وتنهدت وقد أقلقها صمته، فقالت شيئا ما فى صوت غير مسموع. قال هامسا حتى يسكتها: «دعى الأصابع تتكلم هكذا». كان يود لو قال كلمة بسيطة ومحددة. وأحس بها فى هذا الصمت وقد بدأت تصارع الظلام الدامس والقوى المتصاعدة من شبقه، تناضل حتى تحجم مشاعرها، لتحافظ عليها بعيدا عن حياتها الحقيقية، فى إطار المعاملات اللازمة لبقائها. وأخذ يفكر، «حجرة منفصلة، وعليها علامة الموت؟». كان قد بيت النية على استغلال ضعفها ورقتها التى أحس بها تنحسر تنساب فى عروقها، إلا أن قواه هو المعنوية انحسرت

(*) بالفرنسية فى الأصل.

الآن وذابت، فشحب لونه ورقد وقد اتجهت عيناه اللامعتان المحمومتان إلى السقف الرث، يرى الزمن بطيئا متخلفا. ودقت ساعة ما، فى مكان ما، فى صوت أجش. ، وأيقظ صوت الدقات ميليسا، ساحبا إياها بعيدا عن تعبها وتراخيها، ليحل محله القلق مرة أخرى، ورغبة فى أن يحدث ما يجب حدوثه، لتغرق مرة أخرى فى النوم الذى كانت تصارعه.

ولعبا معا، مارسا عاطفة مزيفة متقطعة، أثارت سخرية كليهما، فهى لم تشعل شيئا ولا أخمدته (يمكنك أن ترقد وقد انفرجت شفتاك، وتباعدت ساقاك إلى أزمان مديدة لا نهائية، وأنت تقول لنفسك: إنه شيء قد نسيته. كان على طرف لسانك، على حافة عقلك. فأنت لا تستطيع أن تتذكر حياتك وما كانت عليه، الاسم، المدينة، اليوم، الساعة... وتخذلك ذاكرتك البيولوجية).

وشهقت شهقة خفيفة، كأنها كانت تبكى. وأمسكته فى رقة بأصابعها الشاحبة التى تعكس ما بها، كما يمسك المرء بفراخ سقطت من عشها. ورفت على وجهها تعبيرات الشك والقلق ـ وكأنها هى المذنبة لفشل هذاالتيار وانقطاع الاتصال. ثم أنّت ـ وعرف أنها كانت تفكر فى النقود ـ فى مثل هذا القدر الكبير. لقد أسرف إسرافا لا يكرره رجل آخر. وأثارت وحدتها الفظة القاسية وخشونتها غضبه.

«ياعزيزى»(*). كان عناقها أشبه بعناق تماثيل شمعية، أشخاص نحتوا بالجبس فى مقبرة كلاسيكية. وتحركت يداها حركة خالية من الظرف فوق ضلوعه التى تشبه قبو برميلى، فوق عانته وأعضائه

(*) بالفرنسية فى الأصل.

التناسلية، فوق حلقه ووجنته، وأصابعها تضغط هنا وهناك فى الظلام كأصابع أعمى يبحث عن لوحة سرية فوق حائط، أو مفتاح كهرباء، منسى ليعود إلى مكانه، فينير عالما آخر، خارج الزمن. كان كل ذلك، كما يبدو، بلا جدوى. وحملقت حولها فى وحشية. كانا يرقدان أسفل نافذة، كمستنقع ليلىّ مليء بنور البحر. وعليها ستارةواحدة تتحرك فى رقة كشراع، يذكرها بسرير دارلى. كانت الحجرة مليئة برائحة جبس بال، مخطوطات تتحلل، والتفاح الذى كان يأكله أثناء عمله. كانت الملاءات قذرة.

كان كالمعتاد، يكتب فى عقله الصافى فى سرعة وسلاسة، وقد تجاوز الحد الأدنى من سبر أعماق ما يحس به من تحقير لذاته أو تقزز منها. كان يملأ صفحة من الورق بعد أخرى. كان قد اعتاد، منذ سنوات عديدة مضت، وحتى الآن، على أن ينسخ حياته فى عقله. كانت الحياة والكتابة عنده متزامنتين. كان يجسد اللحظة، كما عاشها، فوق الورق، دافئة كأنها خارجة من الفرن، عارية مكشوفة.

قالت فى صوت غاضب، عازمة على ألا تفقد القروش التى أنفقتها بالفعل فى مخيلتها، والتى غدت مدينة بالفعل بها: «الآن سوف أجعل منك أرمل». سحب هو أنفاسه منفعلا مبتهجا ليسمع، مرة أخرى، هذا التعبير العامى الرائع المأخوذ عن الأسماء القديمة للجيلوتين الفرنسى، بإيحائه المخيف والمعنى الذى تعكسه تلك الاستعارة الكامنة فى عقدة الخصى. الأرمل! بحار هذا الحب التى تعبث فيها أسماك القرش، التى أطبقت على رأس البحار الذى قضى عليه فى شلل الحلم الصامت، حلم البحر العميق الذى يجر المرء فى بطء إلى أسفل وقد تمزقت أوصاله، وهو يمزق أوصال الغير، حتى أسقط الصلب، فى

ضربة فظة، تلك الرأس المفكرة الخرقاء (استخدام رأسك التى تشبه القمع) التى رفت فى تبلد فى السلة لتنشط دفعة واحدة، تتلوى مثل السمكة.

«يا قلبى»، قال فى صوت أجش. «يا ملاكى»، قال فى بساطة يتذوق طعم ما هو مشترك فى الاستعارات، يتصيد من خلالها رقة مفقودة، ممزقة، ألقى بها جانبا فى الثلوج. «ياملاكى». نافذة بحر تطل على شىءما، ثرى وغريب!.

فجأة صرخت فى سخط وغضب: «يا إلهى. ما هذا؟ إنك أنت الذى لا تريد أن تفعل شيئا؟». كان صوتها يكاد يكون نحيبا. وأخذت راحته الطرية، والتى تكاد تكون أنثوية، ووضعتها على ركبتها، وفردتها وبسطتها كما تبسط كتابا، ومالت عليها بوجه يائس غريب. وحركت الشمعة حتى يمكنها، أن ترى بصورة أفضل وقد جذبت ساقيها الناحلتين معا، وسقط شعرها على وجهها، ولمس كتفها الباهت اللون، فقال لها ساخرا: «أنت تقرئين الطالع». إلا أنها لم تنظر إليه. «إن كل من فى المدينة يقرأ الطالع». وظلا هكذا طويلا كأنهما لوحة. وفكر بينه وبين نفسه، «مدفن كابوت فى مشهد حب». وتنهدت ميليسا كأنما تحس الراحة ورفعت رأسها، «إننى أرى الآن»، قالت فى هدوء: «إنك مغلق تماما. إن قلبك مغلق، مغلق تماما». ووضعت سبابتها وإبهامها معا، كما يفعل المرء وهو يوشك أن يخنق أرنبا. واشتعلت عيناها بالشفقة، «إن حياتك ميتة. إنك لست كدارلى. إنه رحب، رحب للغاية، منفتح». ثم فردت ذراعيها للحظة قبل أن تسقطهما على ركبتيها مرة أخرى. وأضافت بقوة صدق هائلة غير واعية، «إنه لايزال قادرا على الحب». وأحس كأنما ضرب على فمه.

وارتعشت الشمعة، «انظرى مرة أخرى»، قال فى غضب، «أخبرينى بالمزيد». إلا أنها لم تدرك البتة ما فى صوته من غضب وكدر. ومالت، مرة أخرى، فوق تلك اليد البيضاء الغامضة. «هل أخبرك بكل شىء؟»، قالت هامسة. وتوقف هو عن التنفس لحظة «نعم»، قال فى اقتضاب. وابتسمت ميليسا ابتسامة غريبة.

«إننى لست ماهرة تماما»، قالت فى رقة: «سوف أخبرك فقط بما أرى». ثم أدارت عينيها الصريحتين وأضافت: «إننى أرى الموت قريبا للغاية». وضحك بورسواردن فى استهزاء. ودفعت ميليسا بشعرها إلى الخلف بواحد من أصابعها، ومالت على يده مرة أخرى، «نعم، قريب للغاية. سوف تسمع عنه فى غضون ساعات. ياللهراء». ثم ضحكت ضحكة قصيرة. ولدهشته التامة أخذت تصف له أخته، «العمياء. والتى ليست زوجتك». وأغلقت عينيها وفردت ذراعيها أمامها كالسائر فى نومه. «حسنا»، قال بورسواردن. «إنها هى. إنها أختى». «أختك؟» قالت ميليسا فى دهشة. وأسقطت ذراعيها. إنها لم تحقق البتة، أى نبوءة محددة، وهى تلعب هذه اللعبة. وقال بورسواردن فى جدية ووقار: «لقد كنا عاشقين، أنا وهى إننا لن نستطيع حب الآخرين». الآن، وقد بدأ الكلام، وجد فجأة أنه من السهل عليه قول ما تبقى، إخبارها بكل شىء. كان متحكما تماما فى ذاته، وحملقت هى فيه فى إشفاق ورقة. هل كان الأمر سهلا لأنهما كانا يتحدثان بالفرنسية؟ إن حقيقة العاطفة تقف، فى الفرنسية، فى حدة وقسوة عند تقصى الخبرة الإنسانية. كان يصف على الدوام خواصها فى عبارة غريبة من صنعه، «إنها لغة لا تثير الضحك». أم هل كان الأمر، فى بساطة، بسبب تعاطف ميليسا العابر والذى جعل الحديث فى مثل تلك الأمور أمرا سهلا؟ إنها هى نفسها لم تصدر

حكما، فكل الأشياء التى غدت مفهومة، سبق لها ومورست فى الواقع. وأوقات من جدية ووقار بينما كان يتحدث عن حبه، وهجران هذا الحب عن قصد، ومحاولة الزواج وفشل هذه المحاولة.

وأخذا الآن، بين الشفقة والإعجاب، يقبلان بعضهما البعض فى عاطفة، وقد وحدتهما روابط الخبرة الإنسانية السابقة بإحساس التشارك فى شيء ما. «لقد رأيتها فى كف يدك»، قالت هى، «فى كفك أنت»، وأحست بالخوف، بصورة ما، للدقة غير المألوفة لقواها الخاصة. وماذا عنه هو؟ لقد كان يرغب فى أن يجد إنسانا يستطيع أن يتحدث إليه فى حرية وانطلاق إلا أنه يجب أن يكون إنسانا لا يستطيع أن يفهم تمام الفهم. ورقت الشمعة، لقد كُتب بصابون الحلاقة فوق المرآة، أبيات شعر ساخرة إلى جوستين، تبدأ بـ:

أوه كبح النفس مخيف

عذابها كثيف

عندما تأخذ الآذان فى السماع

والعيون فى الرؤية

وكررها لنفسه، داخل عقله، فى رقة، بينما كان يفكر فى الملامح القاتمة التى تشكلت ورآها هنا، فى ضوء الشمعة ـ الجسد القاتم والوضع الذى اتخذته ميليسا الآن تراقبه، وقد وضعت ذقنها فوق ركبتها، تمسك براحته فى تعاطف. وعندما أكمل، يتحدث فى صوته الهادئ، عن أخته، عن بحثها الدائم، عما يثير الغبطة والرضا، والذى يمكن أن يكون أفضل ما يستطيع تذكره، والذى هجره عن عمد وقصد، فإن أبياتا أخرى من الشعر طفت عبر عقله، التعليقات المشوشة التى قرأ عنها ومارسها بالفعل، حتى وهو يرى الوجه الرخامى الأبيض، مرة

أخرى، والشعر المجعد الأسود وقد ألقى به إلى الوراء عند مؤخرة العنق النحيل، وأطراف الأذنين، والذقن التى تشقها غمازة ـ وجه يعود به دوما إلى مقلتى العينين الهائلتين الفارغتين ـ وسمع عقله الداخلى يردد:

دام الحب قسرا!
فإلى متى يدوم هذا الجنون؟
لقد عشت هذه الحياة أكثر مما يجب(*)

ووجد نفسه يقول أشياء تنتمى إلى مكان آخر. وضحك فى مرارة. كان من مثال تلك الأشياء: «إن الأنجلوساكسون قد ابتدعو كلمة «الزنى»، لأنهم عجزوا عن الإيمان بتنوع الحب». وبدأت ميليسا، وهى تومئ فى وقار وتعاطف، تولى المسألة اهتماما أكبر ـ هنا رجل يأتمنها على أشياء لا تستطيع فهمها، كنوز فى عالم الذكر الغامض والتى تتراوح دوما بين العاطفة النشوانة والعنف البهيمى!. «فى وطنى تكاد تكون كل الأشياء اللذيدة حقا، والتى يمكن أن يقوم بها الرجل للمرأة، إهانات إجرامية تشكل أرضية الطلاق». وخافت من ضحكته الحادة المتكسرة. بدا فجأة قبيحا للغاية، ثم هبط بصوته مرة أخرى، واستمر يضغط يدها فى رقة، كما يضغط المرء كدمة. واستمر يعلق فى صوت غير مسموع:

«ماذا تبغى السماء بهذه القوانين المتباينة؟
إن إيروس(**) يفغر فاه لما أصاب النفس من تمزق».

(*) بالفرنسية فى الأصل.
(**) أبو الحب عند الإغريق. (المترجم).

أما وقد حبسا هنالك فى القلعة الساحرة، بين القبلات الواجفة والألفة الشديدة، التى لن تستعاد أبدا، فقد قاما بدراسة «لاليوبا»! أى جنون هذا! هل يتجاسران فى أى وقت كان على الدخول فى مواجهة المحبين الآخرين؟. «إنهما يحملان شهادة بالزنا». وتسيل تلك الأبيات من الشعر فى العقل قطرة بعد قطرة. وجسدها، كما يقول «دوردل»، «شحمى، سريع العطب يعانى ضيق الحال(*)». وتنهد مزيحا الذكريات كأنها نسيج عنكبوت، قائلا لنفسه: «لقد اتبع فيما بعد، وهو يبحث عن قهر نفسه، خلاصا لجسده، آباء الصحراء إلى الإسكندرية، إلى مكان بين صحراوين، بين نهدى ميليسا. أوه، يا لهذا التلذذ بالحزن، حيث دفن هنالك وجهه بين الكثبان، وقد غطاه شعرها الهفهاف».

ثم صمت، محملقا فيها بعينيه الصافيتين، مغلقا شفتيه المرتعشتين، لأول مرة، على أشياء محببة إليه، أشياء مشرقة، عاطفية حقا، وانتفضت فجأة وقد أدركت أنها لن تنجو من إساره الآن، وعليها أن تستسلم له استسلاما تاما.

«ميليسا»، قال منتصرا.

واستمتعا الآن ببعضهما، فى فطنة ورقة، كصديقين طال بحثهما عن بعضهما البعض حتى التقيا فى زحام الأماكن العامة التى تعج بها المدينة ذات الأصداء. هنا كانت ميليسا التى خطط للعثور عليها ـ العينان المغلقتان، والفم المفتوح الدافئ بأنفاسه، وقد انتزعت من النوم بقبلة إلى جوار ضوء الشمعة الوردى. «حان الوقت للانصراف». إلا أنها ضغطت نفسها أقرب وأقرب إلى جسده، تجهش ببكاء الإعياء.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

ونظر أسفل اليها فى ولع وهى راقدة على ثنية ذراعه. «وماذا عن بقية نبوءتك؟». قال فى مرح. أجابت وهى ناعسة، «هراء. كل ذلك هراء. إننى أستطيع أن أتعرف على شخص ما من كف يده ـ لكن المستقبل، إننى لست على هذا القدر من الذكاء».

كان الفجر يشق طريقه خلف النافذة. واتجه فى نزوة مفاجئة، إلى الحمام حيث فتح المياه التى انسابت حارة إلى حد الغليان. واندفع داخل الحمام مع هسهسة البخار. إن حماما فى مثل تلك الساعة، لا فى غيرها، إنما هو التعبير الحقيقى عن فندق «جبل النسر». «ميليسا، تعالى واطردى إعياءك من عظامك وإلا فلن أعيدك إلى منزلك». وفكر فى سبل ووسائل إعطاء الخمسمائة جنيه إلى دارلى بطريقة لا تفصح عن صاحب الهدية. يجب ألا يعرف البتة أنها جاءت إليه من أبيات كتبها منافس له لشاهد قبر ميت قبطى! «ميليسا»، نادى عليها مرة أخرى، إلا أنها كانت قد نامت.

وحمل جسدها إلى الحمام، وما أن رقدت مستريحة فى دفئه حتى استيقظت، نافضة عنها النوم، مثل تلك الزهور اليابانية التى تتفتح أوراقها فى الماء. ودفعت بالدفء فى ترف فوق صدرها الضحل وتوهجت وقد أخذ فخذاها يتحولان إلى اللون المخملى. وجلس بورسواردن فوق «البيديه»، وقد وضع يده فى الماء الدافئ، يتحدث إليها بينما تفيق من نومها، قال: «يجب ألا تطيلى البقاء، حتى لا يغضب دارلى».

«دارلى! ياه! لقد كان مع جوستين الليلة الماضية أيضا». وجلست تغسل نهديها، تستنشق الصابون والماء فى متعة كشخص يتذوق نوعا نادرا من النبيذ. نطقت اسم منافسه فى نبرة هينة من النفور والتذلل،

بدت بعيدة عن سجيتها . واندهش بورسواردن، قالت فى إزدراء : «هؤلاء الناس ـ آل الحصنانى، ودارلى المسكين يثق فيهم، فيها . إنها فقط تستخدمه . إنه طيب للغاية، بسيط للغاية» .

واستدارت إلى الدش تلهو داخل سحابات البخار، وأومأت اليه بوجهها بغمازته الصغيرة .

«إننى أعرف كل شىء عنهم» .

«ماذا تعرفين؟» .

وأحس فى داخله فجأة بقلق واضح لا يمكن تحديده . إنها توشك أن تقلب عالمه رأسا على عقب، كما يطأ المرء عرضا زجاجة حبر . أو طاس من سمك المرجان . كانت تبتسم، طوال الوقت، ابتسامة محببة . كانت تقف هنالك فى سحب البخار كملاك بزغ من السماء فى واحد من نحوت القرن السابع عشر .

«ماذا تعرفين؟» كرر السؤال .

وفحصت ميليسا الفراغات بين أسنانها فى مرآة يدوية، وجسدها لا يزال يبرق مبتلا . «سوف أخبرك . لقد كنت عشيقة رجل مهم للغاية، «كوهن»، مهم للغاية وغنى للغاية» . كان هنالك ما يثير الرثاء فى مثل هذا التباهى . «كان يعمل مع نسيم حصنانى، وأخبرنى ببعض الأشياء . كان يتحدث أيضا وهو نائم، إنه الآن من الأموات . وأعتقد أن هناك من دس السم له لأنه عرف أكثر مما يجب . كان يعاون فى أخذ الأسلحة إلى الشرق الأوسط، إلى فلسطين، لحساب نسيم حصنانى . كميات كبيرة . وقداعتاد القول أنها «لنسف الإنجليز» (*) . نطقت الكلمات

(*) بالفرنسية فى الأصل .

بطريقة من يسعى إلى الثأر والانتقام. وفجأة، بعد لحظة من التفكير، أضافت: «كان معتادا على فعل ذلك»، كانت تحاكى «كوهن»، بصورة غريبة عجيبة، وهو يجمع أصابعه ليقبلها، ثم يلوح بها وهويقول: «أنا لك يا جون بول». وتجعد وجهها وتلوى وهى تحاكى حقد الرجل الميت.

«ارتد ملابسك». قال بورسواردن فى صوت خافت، وذهب إلى الحجرة الأخرى، ووقف يحملق فى الحائط الذى يعلو رف الكتب، ذاهلا مشتت الخاطر، وكأن المدينة بكاملها قد هوت على أذنيه.

«لذلك لا أحب آل الحصانى»، صاحت ميليسا من الحمام فى صوت نحاسى جديد أشبه بصوت بائعة السمك! «إنهم يضمرون الكراهية للبريطانيين».

«ارتدى ملابسك»، ناداها فى حدة، كأنما ينادى فرسا، «هيا تحركى».

وأحست بأنها تعاقب، فجففت نفسها وخرجت من الحمام فوق أطراف أصابعها وهى تقول: «سأكون مستعدة فى الحال». ووقف بورسواردن ساكنا تماما يحملق فى الحائط ذاهلا، كأنه سقط من كوكب آخر. كان ساكنا تماما حتى إن جسده يمكن أن يكون قالب تمثال من معدن ثقيل. وألقت ميليسا عليه نظرات سريعة بينما ترتدى ملابسها: «ماذا هناك؟»، قالت. ولم يجب. كان يفكر فى عنف وغضب.

عندما ارتدت ملابسها أمسك بذراعها وسارا معا فى صمت إلى أسفل السلالم إلى الشارع. كان الفجر قد بدأ بزوغه. كانت لمبات الشارع لاتزال مضيئة، وكانت ظلالهما لاتزال تتبعهما. كانت تنظر إلى وجهه من وقت لآخر، إلا إنه كان خاليا من كل تعبير. كان ظلاهما

يستطيلان بانتظام كلما اقتربا من الأضواء، يقل عرضهما ويزداد اعوجاجهما، ليختفيا فى منتصف المسافة الضوئية قبل أن يستعيدا شكلهما من جديد. كان بورسواردن يسير متعبا فى بطء وتثاقل متعمدا، وهو لايزال ممسكا بذراعها. واستطاع أن يرى الآن، وفى وضوح تام، فى تلك الظلال الممتدة القافزة، خيال ماسكيلين المهزوم.

وتوقف عند ركن الميدان، وعلى وجهه نفس التعبير الشارد الذاهل، وقال: «فيما يخصك! لقد نسيت. ها هى الألف قرش التى وعدتك بها».

وقبلها على وجنتها واستدار عائدا إلى الفندق، دون كلمة.

* * *

(٩)

كان ماونت أوليف بعيدا، فى جولة رسمية، يزور محالج القطن فى الدلتا، عندما نقل إليه تلفورد الأخبار هاتفيا. كان بين الشك والصدمة مما جعل من الصعب عليه تصديق أذنيه، تحدث تلفورد وهو يحس بأهميته فى صوت لزج غريب، بما يضفيه عليه طاقم أسنانه الصناعية الذى لا يتناسب وفمه. كان الموت أمرا له أهمية ما فى حرفته. فما البال لو كان الموت موت عدو! كان عليه أن يبذل جهدا شاقا حتى يحافظ على نغمة صوته فى حالة حزن وكآبه ووقار وتعاطف، أما تهنئته لذاته فتظل بعيدا عن ذلك. تحدث كما يتحدث قاضى تحقيق الوفيات فى المديرية، «فكرت يا سيدى فى ضرورة معرفتكم لما حدث، ولذا سمحت لنفسى بمقاطعة زيارتك ـ لقد أخبرنى نمرود باشا هاتفيا، فى منتصف الليل بالأمر، فتوجهت إلى هناك. كانت الشرطة قد ختمت المكان بالشمع حتى تتم دراسة القضية، وكان الدكتور بلتازار هناك. ألقيت نظرة على المكان بينما الطبيب يكتب شهادة الوفاة. ولقد سُمح لى أن آخذ كمية من الأوراق الشخصية الخاصة بـ . . . المرحوم، ولم يكن بها شىء له أهمية كبيرة. مخطوط رواية. لقد حدث الأمر كله فى مفاجأة تامة. كان يشرب شربا ثقيلا للغاية كالمعتاد، إننى أخشى. نعم».

«ولكن»، قال ماونت أوليف فى وهن، وقد امتزج الغضب فى

عقله بالشك امتزاج الزيت والماء. «ماذا أصاب الدنيا..» وأحست رجلاه بالضعف فسحب كرسيا وجلس إلى جوار الهاتف صائحا فى مرارة، «نعم، نعم. أكمل يا تلفورد. أخبرنى بكل ما تستطيع»

وجلى «تلفورد» زوره، محاولا أن ينسق الحقائق فى عقله المشوش، وهو مدرك أهمية ما يقول من أخبار.

«حسنا يا سيدى. لقد تابعنا تحركاته. جاء إلى هنا، غير حليق الذقن، مهموما (هكذا أخبرنى إيرول) وسأل عنك، لكنك كنت غادرت، وتقول سكرتيرتك أنه جلس إلى مكتبك وكتب شيئا ما - احتاج منه بعض الوقت - قال إنه يجب تسليمه إليك شخصيا. وألح عليها مصارحا أنه «سر»، ثم أغلقه بالشمع. إنه الآن فى خزانتك. ثم غادر إلى.. حسنا، إلى شراب ثقيل. قضى طوال النهار فى حانة صغيرة، يزورها فى غالب الأحيان، على شاطئ البحر قرب المتنزه. إنها مجرد كوخ حسن البناء عند الشاطئ - عدد قليل من الألواح الخشبية وسقف من سعف النخيل، يديره يونانى. قضى اليوم كله يكتب ويشرب. شرب قدرا كبيرا من الزبيب، كما قال صاحب الحانة. وضُعت له منضدة قرب شاطئ البحر فوق الرمال. كانت الريح شديدة فاقترح عليه صاحب الحانة أنه من الأفضل له الدخول إلى مكان مستتر. لكنه رفض، جلس هنالك إلى جوار البحر. وتناول سندوتشا فيما بعد الظهر بوقت، ثم أخذ الترام عائدا إلى المدينة. واتصل بى.»

«حسنا، حسنا».

وتردد تلفورد وشهق. «جاء إلى المكتب. كانت معنوياته عالية للغاية رغم أنه لم يكن حليقا. ألقى عددا قليلا من النكات. طلب منى قرصا من السيانيد - أنت تعرف النوع. لن أقول أكثر من ذلك. هذا

العمل ليس مأمونا فى الحقيقة . سوف تفهم ما أعنى يا سيدى» .

«نعم، نعم» صاح ماونت أوليف . «استمر يا رجل» .

واستمر تلفورد، وقد اطمأن، لاهثا، «قال إنه يريد أن يسمم كلبا مريضا . يحتمل أنه استخدم السيانيد، طبقا لما قاله الدكتور بلتازار . إننى آمل، يا سيدى، ألا ينتابك إحساس بأن لى أية . . . »

لم يكن ماونت أوليف يحس شيئا غير غضب يتعاظم ناجم من مثل هذا الضيق الذى يسببه له أى امرئ فى بعثته، يقدم على فعل عام بهذه الفظاعة! كلا، لقد كان عملا أحمق منه . «إنه لغباء»، همس لنفسه، إلا أنه لم يستطع أن يمنع شعورا انتابه بأن بورسواردن كان مذنبا بصورة ما، عليه اللعنة، كان امرءا لا يعتد به، يفتقد الأصالة ـ كما كان بالمثل غامضا . وطفا وجه كنيلورث أمامه للحظة ـ ونخس السماعة حتى يسمع بصورة أوضح . وصرخ : «ولكن لماذا كل هذا؟» .

«لا أعرف»، قال تلفورد فى عجز . «الأمر غامض»

وشحب وجه ماونت أوليف، واستدار يتمتم اعتذارا لمجموعة الباشوات القليلة التى كانت تقف على مقربة من الهاتف فى هذه البناية الملحقة الموحشة . وللحال انتشروا، وقد أحسوا باستهجان موقفهم، كسرب من يمام يهم بالطيران . لم يكن هنالك ما يثير الضيق، إذ من الطبيعى لأى سفير أن يتابع الأحداث الكبار، وفى وسعهم أن يتنظروا .

«تلفورد»، قال ماونت أوليف فى حدة وغضب .

«نعم يا سيدى» .

«أخبرنى بما تعرفه غير ذلك» .

«حسنا، ليس هنالك ـ من وجهة نظرى ـ أى شىء له أهمية استثنائية. إن آخر من رآه، كان ذلك الرجل دارلى، المدرس. يحتمل ألا تعرفه يا سيدى. حسنا، لقد التقى به وهو عائد إلى الفندق! ودعا دارلى لشراب. وظلا يتحدثان طويلا ويحتسيان الجن فى الفندق. ولم يقل المرحوم له أى شىء ذى أهمية خاصة ـ وبالطبع لا شىء يشير إلى أنه كان يخطط لقتل نفسه. لقد قال، عكس ذلك، أنه سيأخذ قطار الليل إلى غزة لقضاء إجازة. وعرض على دارلى المسودات المطبوعة لروايته الأخيرة. كل شىء كان ملفوفا ومعنونا، والمعطف الواقى من المطر ملىء بأشياء يمكن أن يحتاجها فى رحلته ـ منامة ومعجون الأسنان. ما الذى دعاه إلى تغيير تفكيره؟ لا أعرف يا سيدى لكن الإجابة يمكن أن تكون فى خزانتك. ولهذا السبب اتصلت بك هاتفيا».

«إننى أدرك ما تقصد»، قال ماونت أوليف. كان إحساسه غريبا، لقد بدأ بالفعل يعتاد فكرة اختفاء بورسواردن من على المسرح. كانت الصدمة آخذة فى الخمود والتلاشى. بقى الغموض فقط. كان تلفورد لا يزال يغمغم على خط الهاتف «نعم»، قبل أن يستعيد سيطرته على نفسه، «نعم».

كانت المسألة مسألة لحظات فقط قبل أن يستعيد ماونت أوليف وضعه الرسمى الوقور، ويعيد تواؤمه مع نفسه ليبدى اهتمامه بمنافع المصانع وثقل دقات آلاتها. بذل جهدا كبيرا حتى لا يبدو شاردا، ولايظهر عليه التأثر، بصورة مناسبة، لما يعرض عليه. وحاول أيضا أن يحلل سخافة غضبه من بورسواردن وقد ارتكب بالفعل ما يبدو.. خروجا فظا عن اللياقة! أى سخف هذا! ومع ذلك فإن هذا الفعل منه يبدو متسقا، على نحو ما، مع نمطه الذى لا يعتد به إلى حد كبير، وربما

كان عليه أن يتوقع هذا الفعل منه؟ وتحول غضبه إلى شعور عميق بالإحباط .

عاد بالسيارة، بعد الظهيرة، مليئا باحتمالات غاية فى الأهمية، مثقلا بالقلق . كاد الأمر أن يكون وكأنه سوف يصطحب بورسواردن إلى مهمة ما، يطالبه بتفسير ما، يؤنبه بما يستحق حقا . وصل ونور المساء رائع ليجد مكتب الاستقبال يغلق أبوابه، رغم أن إيرول الدءوب لا يزال منهمكا فى تقاريره الرسمية فى مكتبه . كان الجميع، حتى كتبة الشفرة، يبدون فى حالة من الكرب، بسبب هذا الجو المشحون بالإحباط والذى يعكس الموت المفاجئ دوما على الأحياء المنزعجين . وتعمد أن يفرض على نفسه السير على مهل، والحديث بتأن، ولا عجلة . فالعجلة، مثل الانفعال، تبعث الحزن دوما، حيث توحى بأن النزوة أو المشاعر هى التى تتحكم فى المرء، فى الوقت الذى يجب أن يسود فيه العقل وحده . كانت سكرتيرته قد غادرت بالفعل، إلا أنه حصل على مفاتيح خزينته من الأرشيف وسار رزينا رصينا إلى مكتبه . إن ضربات القلب رحيمة حيث لا يسمعها أحد غير صاحبها . كانت «مقتنيات» المتوفى (والتى ما كان من الممكن التعبير عنها بكلمة أفضل من تلك) مكومة فوق مكتبه، تبدو، بصورة غريبة، كروح تحررت من جسدها، رزمة من الأوراق ومخطوط، حزمة معنونة إلى أحد الناشرين، معطف واق من المطر وفضلات من أشياء متنوعة لفها تلفورد، إحقاقا للحق، فى دقة وإحكام (رغم أنها لم تنل إلا القليل من استحسان ماونت أوليف) . وأصيب بصدمة شديدة عندما رأى ملامح بورسواردن الخالية من الدم تحملق فيه من بين أوراق النشاف ـ قناع ـ موت من المصيص ومعه مذكرة من بلتازار تقول : «لقد سمحت لنفسى أن آخذ طبعة للوجه بعد الموت، إننى لعلى ثقة أن هذا العمل يبدو عملا

معقولاً». وجه بورسواردن! كان الموت، من بعض الزوايا، يبدو مطابقا للتجهم والعبوس. ولمس ماونت أوليف القناع فى تردد وإحجام، وأخذ يحركه، متطيرا، إلى هنا وهناك، واقشعر جسده وهو يحس ببعض الاشمئزاز، وأدرك فجأة أنه كان خائفا من الموت.

توجه إلى الخزينة التى تحتوى على المظروف وعليه الخاتم الشمعى القبيح لفضه بإبهام مرتعش، بينما يجلس إلى مكتبه. هنا، على الأقل، سوف يجد تفسيرا، عقلانيا، لهذا التخلف السخيف للسلوكيات. وسحب نفسا عميقا.

عزيزى دافيد:

مزقت نصف دستة من الخطابات وأنا أحاول شرح هذا الأمر تفصيلا. إننى لا أفعل شيئا غير كتابة الأدب، هنالك الكثير بما يكفى تماما حول هذه المسألة. لقد كان قرارى أن أتعامل مع الحياة. ياله من تناقض ظاهرى! إننى آسف للغاية، أيها الرجل العجوز.

لقد اصطدمت بصورة عرضية تماما، وعلى غير توقع، بمن أفادنى أن نظريات ماسكيلين عن نسيم كانت صحيحة، وأن نظرياتى أنا كانت خاطئة. إننى لا أخبرك بمصادرى، ولن أفعل ذلك. ولكننى أعرف الآن أن نسيم يهرب الأسلحة إلى فلسطين، وأنه يفعل ذلك منذ زمن. ومن الواضح أنه هو المصدر المجهول والمتورط بعمق فى العمليات التى وصفت فى «الورقة السابعة» ـ سوف تتذكرها (ملف الأمر الرسمى ٣٤١ ـ مخابرات).

لكننى، فى بساطة، لست كفؤا لمواجهة التداخلات الأخلاقية التى أثارها هذا الاكتشاف. إننى أعرف ما الذى يجب عمله بهذا

الخصوص. إلا أن ما حدث، هو كون هذا الرجل صديقى. ومن ثم... كانت الضربة قاضية. (إن هذا سوف يحل أيضا مشاكل أخرى أكثر عمقا). أخ! أى عالم يدعو إلى الملل والسأم خلقناه فيما حولنا، حمأة الميكدة والمكيدة المضادة. لقد أدركت لتوى أن هذا العالم ليس بعالمى البته (فى استطاعتى أن أسمعك وأنت تلعن بينما تقرأ).

أحس، وأنا أنبذ مسئولياتى هكذا، أننى وغد على نحوما. ومع ذلك، وفى الحقيقة فأنا أعرف أنها حقا ليست مسئولياتى، ولم تكن كذلك البتة. إنها مسئوليتك أنت! ولسوف تجدها مريرة البهجة. لكنك.. من المهنة... وعليك أن تتصرف حيث لا أستطيع أنا التصرف!

أعلم أنى قصرت فيما يختص بواجبى، لكننى عرّفت نسيم تلميحا أن لعبته قد انكشفت للجميع وأن التبليغ عنها قد حدث. إنك، بالتأكيد، فى مثل هذا الوضع الغامض المبهم، ستكون على حق إن طمست الأمر كله ونسيته، إننى لا أغبطك على ما يغريك بذلك، إن ما يغرينى أنا، على أى حال، ليس له من سبب عقلانى، إننى يا عزيزى، متعب، برم حتى الموت، كما يقول الأحياء.

وهكذا.

هل تبعث إلى شقيقتى بحبى، وأن تخبرها أن أفكارى كانت معها؟ شكرا لك.

صديقك الودود

(ل. ب)

وارتاع ماونت أوليف، وأحس بنفسه يشحب، بينما يقرأ. ثم

جلس يحملق طويلا فى التعبير البادى على قناع ـ الموت، والذى يحمل الجو المميز للوقاحة المتفردة. التى كان المنظر الجانبى لوجه بورسواردن يكتسى بها فى رقاده، والذى لا يزال يصارع فى عناد ذلك الإحساس السخيف، الناجم عن هياج الدبلوماسى، والذى يعبث بعقله، يختلج كوخزات الصواعق.

«إنها حماقة»، صرخ عاليا فى ضيق وانزعاج، وهو يضرب مكتبه بكف يده «حماقة تامة! فما من شخص يقتل نفسه لسبب من أسباب المهنة». ولعن غباء الكلمات وهو ينطقها. وغشى عقله، الارتباك التام، لأول مرة.

وفرض على نفسه، حتى يهدأ قراءة تقرير تلفورد المكتوب على الآلة الكاتبة، فى بطء وعناية، يتهجى الكلمات لنفسه بحركات شفهية، كأنه يتلو درسا. كان بيانا لحركة بورسواردن خلال الأربع والعشرين ساعة السابقة على موته، وشهادات مختلف من رأوه. كانت بعض التقارير مهمة، خاصة تقرير بلتازار الذى كان قد رآه فى الصباح فى «مقهى الأقطار»، حيث كان بورسواردن يشرب العرقى ويأكل من كعكة. كان واضحا أنه قد تسلم، ذاك الصباح، خطابا من أخته، وأنه يقرأه فى استغراق عميق. ووضعه على الفور، فى جيبه عندما وصل بلتازار، لم يكن حليقا وكان مهموما للغاية. بدا قليل الاهتمام بالحديث الذى لم يتله غير ملاحظة واحدة (يمكن أن تكون مزحة) ظلت عالقة بذاكرة بلتازار. كان بورسواردن يراقص ميليسا فى الليلة السابقة وقال شيئا ما عن كونها شخصية مرغوبة للزواج («هذه يجب أن تكون نكتة». أضاف بلتازار). وقال أيضا أنه بدأ كتابة كتاب جديد، «كل شىء عن الحب». وتنهد ماونت أوليف بينما يجرى بعينيه

فى بطء عبر الصفحة المكتوبة على الآلة الكاتبة. الحب، ثم حدث شيء غريب. ابتاع نموذج وصية مطبوعة وملأها، جاعلا من أخته المنفذ الأدبى لها ومورثا فى ذات الوقت خمسمائة جنيه لدارلى المدرس وعشيقته. وكتب هذه، لسبب ما، بتاريخ سابق على تاريخها الحقيقى بشهرين - ربما نسى التاريخ؟ وطلب من اثنين من كتبة الشفرة أن يكونا شهودا.

كان خطابه لأخته هنالك أيضا، إلا أن تلفورد كان وقد وضعه فى لباقة فى ظرف منفصل وأغلقه. وقرأه ماونت أوليف، وأخذ يهز رأسه الذاهلة، ثم دفع به فى جيبه فى خجل وارتباك ولعق شفتيه وقد عبس عبوسا شديدا وهو ينظر إلى الحائط. ليزا!

وأطل إيرول، وجلا، عبر الباب وصدم إذ فاجأته الدموع على وجنتى رئيسه، وانسحب فى لباقة عائدا إلى مكتبه، وقد هزه بعمق إحساس لا يليق بدبلوماسى، وهو نفس الإحساس بصورة ما، الذى أحس به ماونت أوليف، وواجهه مقاوما عندما تحدث إليه تلفورد هاتفيا. وجلس إيرول إلى مكتبه يفكر فى عصبية واضحة: «يجب على الدبلوماسى الحقيقى ألا يظهر أحاسيسه». ثم أشعل سيجارة فى وقار متعمد. إنه يدرك لأول مرة أن للسفير أقداما من طين. ورفع ذلك من إحساسه باحترامه لذاته، بصورة ما، إن ماونت أوليف، رغم كل شيء، مجرد رجل. إن الخبرة، على أى حال، كانت مضللة، وهنالك فى الدور العلوى كان ماونت أوليف قد أشعل سيجارة، أيضا، ليهدئ أعصابه. كانت حركة إدراكه تحول نفسها، فى بطء من الفعل المجرد لبورسواردن (فى الانغماس، الثقيل على النفس، فى المجهول) - إلى المغزى الأساسى للفعل - إلى الأخبار والمعلومات التى صاحبته. نسيم!

وأحس، هنا بروحه تنقبض وتتقلص. وانتابه غضب مبهم. لقد كان يثق في نسيم (لماذا؟»، تساءل صوت في داخله «لم يكن هنالك ما يدعوه إلى فعل ذلك»). إن بورسواردن بهذه الشقلبة الخبيثة قد حول، بالفعل كل العبء الأخلاقي للمشكلة إلى كتفي ماونت أوليف نفسه. لقد أفزع عش الدبابير: المواجهة التليدة بين الواجب، والعقل والعواطف الشخصية، الأمر الذي يعرفه كل سياسي كلما واجه محنة نقطة الضعف الأساسية في حياته. ياله من خنزير! هكذا فكر (بما كاد يكون إعجابا) لقد كان على بورسواردن أن يحول الأمر بهذه السهولة التي تغري بمثل هذا القرار: الانسحاب. وأضاف في حزن: «لقد وثقت في نسيم بسبب ليلى!». إزعاج فوق إزعاج. وأخذ يدخن، ويحملق، يرى في الوجه الأبيض الميت المصنوع من المصيص (والذي أعدته يدا كليا الودودتان من الأصل القبيح الذي أعده بلتازار)، يرى الوجه الدافئ الحي لابن ليلى: التقاطيع السمراء المأخوذة من لوحات رافينا المصورة بالألوان فوق الجص! وجه صديقه. ثم تحولت أفكاره إلى همسات. «ربما كانت ليلى، هي التي تقبع وراء ذلك، رغم كل شيء».

(«الدبلوماسيون ليس لهم أصدقاء حقيقيون. لقد قال جريشكين ذلك له في مرارة، محاولا جرح شعوره واستثارته «إنهم يستخدمون كل شخص». لقد قام هو، وهي موافقة ضمنا، باستخدام جسدها وجمالها، والآن وقد غدت حبلى. . .)

وزفر في بطءوعمق، والنيكوتين المحمل بالأوكسجين يشدد من عزمه، مما يعطي لأعصابه ما يلزمها من وقت كي تهدأ، ولعقله ما يلزم من وقت كي يصفو. وما أن انقشع الضباب حتى تبين شيئا ما أشبه

بفسحة من أرض جديدة تنفتح أمامه، فهنا كان شيء ما لا يمكنه تقديم العون، لكنه يغير من كل مخزون الصدفة والصداقة، يغير كل تاريخ جمعه عقله، عن فترة وجوده فى مصر، فى أجندة عواطفه: لعب التنس والسباحة وركوب الخيل، وحتى تلك البواعث البسيطة للمشاركة فى العالم العادى بما فيه من عادات اجتماعية ومتع، تخفيفا من أعباء حياة العزلة. إن كل تلك الأشياء قد تلوثت بهذه المعرفة الجديدة. يضاف إلى ذلك، ما الذى يمكنه عمله بهذه المعلومات التى ألقى بورسواردن بها، بطريقة مبتذلة، فى حجره؟ يجب، بالقطع، تقديم تقرير بها، وهنا كان فى وسعه أن يتوقف لحظة. هل يجب كتابة تقرير عنها؟. إن البيانات الواردة فى الخطاب تفتقد إلى أى دليل يسندها ـ ربما استثناء دليل الموت الفادح الذى. . . وأشعل سيجارة وهو يهمس بالكلمات، «بينما كان توازن عقله مختلا» كان ذلك يستحق، على الأقل ابتسامة عابسة. إن انتحار موظف سياسى، رغم كل شيء، ليس بالحدث غير العادى إلى هذا الحد. كان هنالك ذلك الشاب «جريفز» الذى أحب فتاة كباريه فى روسيا. . كان لا يزال يحس، على نحو ما، بالحزن، والألم لمثل هذه الخيانة الخبيثة لصداقته للكاتب.

حسنا جدا، هل يمكن له، فى بساطة، حرق الخطاب، مريحا ثقل العبء الأخلاقى الذى يحمله؟ يمكنه فعل ذلك ببساطة تامة، فى موقده الخاص، مستخدما عودا من ثقاب، كما فى وسعه أن يستمر فى سلوكه وكأن مثل هذا الإعلان لم يحدث البتة، باستثناء أن نسيم يعلم بأن هذا السر قد تم إفشاؤه! كلا، لقد وقع فى المضيدة.

هنا بدأ ينخسه إحساسه بواجبه عند كل خطوة، مثله فى ذلك مثل

حذاء لا يناسب القدم. وفكر فى نسيم وجوستين وهما يرقصان معا، فى صمت وعلى طريقة العميان، كل منهما يدير وجهه الأسمر بعيدا عن الآخر، والعيون نصف مغلقة. لقد بلغا، بالفعل، بعدا جديد من وجهة نظره عنهما ـ النتوء الخالى من العاطفة لأشخاص فى صورة بدائية ملونة مرسومة فوق الجص. إنهما، على الأرجح، يصارعان، أيضا، إحساسا بالواجب والمسئولية ـ قبل من؟ «ربما قبل نفسيهما» همس فى حزن وهو يهز رأسه. لن يصبح فى مقدوره البتة أن يلتقى، مرة أخرى، بنسيم عينا لعين.

وفجأة أدرك الأمر. إن علاقتهما الشخصية كانت، حتى الآن لا ضرر منها ولا إجحاف، بسبب لباقة نسيم ووجود بورسواردن. كان الكاتب، وهو يوفر لهما الرباط الرسمى، قد حرر حياتهما الشخصية. لم يكن الاثنان مجبرين على مناقشة أى شىء له علاقة، ولو محدودة، بالأمور الرسمية. والآن فإنهما لن يستطيعا اللقاء على هذه الأرضية السعيدة كما أن بورسواردن، فى هذا السياق أيضا، قد هتك حريته أما بالنسبة لليلى، فربما كان يكمن هنا مفتاح صمتها المبهم اللغز، وعجزها عن لقائه وجها لوجه.

ودق الجرس لإيرول وهو يتنهد، قال: «يستحسن أن تلقى نظرة على هذا». كان رئيس قسم الاستقبال قد جلس وأخذ فى قراءة الوثيقة بنهم. كان يومئ برأسه، فى بطء من وقت لآخر. وجلى ماونت أوليف زوره «لقد بدا لى غير متماسك إلى حد ما»، قال وهو يزدرى نفسه لمحاولته إلقاء الشك على الكلمات الواضحة، ليؤثر على حكم إيرول، الذى كان هو قد وصل إليه بالفعل فى أعماق ضميره. وقرأ إيرول الخطاب مرتين فى بطء، ثم أعاده إليه عبر المكتب «إنه يبدو غريبا

إلى حد ما»، قال مترددا فى توقير واحترام: لم تكن مكانته تسمح له بأن يقدم تقييما للرسالة، إنه طبقا لترتيب الحقوق فإن التقييم، يأتى من رئيسه.

«إنها كلا تبدو وقد تجاوزت الحد قليلاً»، أضاف معاونا وهو يتحسس طريقه.

وقال ماونت أوليف فى وقار: «أخشى أنها تعبير صادق عن بورسواردن. إنها تجعلنى أحس بالأسف لأننى لم آخذ أبدا كل توصياتك الأسياسية عنه. لقد كنت مخطئا على ما يبدو، وكنت أنت على صواب، فيما يختص بملائمته للعمل.»

وبرقت عينا إيرول بالنصر وهو يبدو متواضعا. لم يقل شيئا، على أى حال، بينما يحملق فى ماونت أوليف. «بالطبع»، قال الأخير «فأنت تعرف جيدا أن آل حصنانى كانوا موضع شك لبعض الوقت».

«إننى أعترف يا سيدى».

«إلا أنه لا يوجد هنا أى دليل يدعم ما يقول». ودق فوق الخطاب دقتين خفيفتين فى ضيق وغضب. واتكأ إلى الخلف وتنفس عبرأنفه بطريقة غامضة، «لا أعرف، لكنه يبدو، بالنسبة لى، قاطعا إلى حدما».

«لا أعتقد ذلك»، قال ماونت أوليف. «إنه قد يدعم تقريرا ما بالطبع. سوف نكتب تقريرا، بالأمر كما هو، إلى لندن. لكننى لاأميل إلى تقديمه للنيابة حتى نساعدهم على التحقيق فى الوفاة. ماذا ترى فى ذلك؟»

وهزهز إيرول ركبتيه. وزحفت حول فمه ابتسامة بطيئة ماكرة. «ربما تكون أفضل وسيلةلتوصيله إلى المصريين»، قال فى نعومة «وربما

رأوا هم أن يتصرفوا على ضوئه. إن هذا، بالتأكيد، سوف يحول دون الضغط الدبلوماسى الذى قد تلجأ إليه... فيما بعد، إن اكتشف الأمر بصورة أكثر تحديدا. إننى أعرف، يا سيدى، أن الحصنانى كان صديقك.»

وأحس ماونت أوليف بنفسه يتلون فى بطء، «ليس للدبلوماسى أصدقاء إن كان الأمر يخص شئون العمل»، «قال فى جفاف، وهو يحس أنه قد تكلم بنفس طريقة «بونتيوس بيلات».

«تماما يا سيدى»، قال إيرول وهو يحملق فيه معجبا.

«ما أن تثبت جريمة آل الحصنانى حتى نبدأ العمل. إلا أنه بدون دليل يدعم ذلك، فإننا سوف نجد أنفسنا فى وضع ضعيف. إن مَمْليك باشا، كما تعرف، ليس متعاطفا تماما مع البريطانيين... إننى أفكر فى...».

«نعم، يا سيدى؟»

وانتظر ماونت أوليف وقد أخذ يعب الهواء كحيوان كاسر، يستشعر أن إيرول قد بدأ يستصوب حكمه على الأمور. وجلسا فى العتمة صامتين للحظة يفكران. وبحركة مسرحية خاطفة أخذ السفير يميل يمنة ويسرة على مكتبه، ثم قال بصورة حاسمة «إن أنت وافقت، فإننا سنحتفظ بهذا الأمر بعيدا عن أيدى المصريين حتى نستوثق منه بصورة أفضل. يجب أن تعرف لندن به بالطبع، مصنفا ومبوبا. لكن يجب ألا يعرف به من هم على علاقة خاصة به حتى وإن كانوا أقرب أقربائه. هل فى وسعك بالمناسبة أن تأخذ على عاتقك مخاطبة أقرب الأقربين إليه؟». وأحس بألم حاد وهويرى وجه ليزا بورسواردن يبرز أمامه.

«نعم، إن ملفه معى هنا. هنالك، فقط، كما أعتقد، أخت له فى معهد العميان الإمبراطورى، فضلا عن زوجته».

«نعم، نعم. إنى أعرفها» وانتصب إيرول واقفا.

وأضاف ماونت أوليف، «كما أعتقد أنه من الإنصاف تماما إرسال نسخة إلى ماسكيلين فى أورشليم، ألا ترى ذلك؟».

«بالتأكيد يا سيدى».

«ولنبق على تشاورنا معا فى الوقت الراهن».

«نعم، يا سيدى».

«أشكرك شكرا جزيلا»، قال ماونت أوليف فى دفء غير عادى. أحس فجأة أنه عجوز وسقيم للغاية. أحس فى الحقيقة، أنه ضعيف إلى حد شكه فى قدرة ساقيه على حمله إلى أسفل، إلى حيث محل إقامته. «هذا هو كل ما هنالك فى الوقت الحاضر». وغادر إيرول، وأغلق الباب وراءه فى تثاقل أخرس أبكم.

وتحدث ماونت أوليف، هاتفيا، مع مخزن المؤن والمشروبات حيث طلب لنفسه كوبا من شوربة لحم البقر والبسكويت. وأكل وشرب فى نهم، بينما كان يحملق فى القناع الأبيض ومخطوط الرواية وأحس نحوهما بتقزز عميق وبشعور هائل من الافتقاد ـ لكنه لم يكن قادرا على تحديد من منهما يعلو الأخر. كما أن بورسواردن، ودون قصد أيضا، وإن كان يلومه على ذلك، قد فصله عن ليلى إلى الأبد. نعم، وتلك أيضا، ربما إلى الأبد.

وأعد فى تلك الليلة، على أى حال، كلمته اللطيفة الحصيفة (والتى كتبها إيرول) للغرفة التجارية بالإسكندرية. وقد بعث البهجة فى نفوس رجال البنوك بسيولة لغته الفرنسية. ودوى التصفيق وامتد إلى حجرة المأدبة الفخمة «لنادى محمد على». كان نسيم يجلس قبالته عند

الطرف الآخر للمنضدة الطويلة، وقد أخذ على عاتقه أن يكون رد فعله عميق الاهتمام، هادئ الخطاب. وأحس ماونت أوليف، مرة أو مرتين، أثناء العشاء، أن عينى صديقه الداكنتين تبحثان عن عينيه، تسألهما، إلا أنه زاغ منهما. إن هوة قد فتحت الآن فاها بينهما، ولا يدرى أى منهما كيف يعبرها. والتقى بعد العشاء بنسيم لفترة قصيرة فى البهو بينما كان يرتدى معطفه. وأحس برغبة عارمة لا تقاوم فى الإشارة إلى موضوع موت بورسواردن. فرض الموضوع نفسه بطريقة مطلقة، وثبث فى الهواء، حادا فيما بينهما. كان الموضوع يثير فيه إحساسا بالخجل، كذلك الذى يمكن أن يثيره تشوه ما، كأنما ابتسامته الرشيقة قد قبحها افتقاد سنة من أسنانه الأمامية. لم يقل شيئا، وكذلك فعل نسيم. لم يظهر شيئا مما كان يجرى تحت السطح فى السلوك المرن والمقتدر للرجلين طويلى القامة واللذين وقفا يدخنان عند الباب الأمامى فى انتظار وصول سيارتيهما. إلا أن إدراكا جديدا حذرا عنيدا، ولد فيما بينهما. كم هو غريب أن كلمات قليلة خربشت فوق قطعة من ورق قد جعلت منهما عدوين.

واستند إلى الخلف فى سيارته المزينة بالأعلام، يسحب أنفاسا رقيقة من سيجار فاخر. وأحس ماونت أوليف بأن أعماق روحه قد غدت متربة كمقبرة مصرية خانقة. وكان من الغريب أيضا، أنه جنبا إلى جنب مع ذلك الاستغراب الذهنى العميق، تعايشت الأشياء الأكثر ضحالة. كان مبتهجا بامتداد نجاحه ليخلب لب رجال البنوك! ألا يمكن إنكار أنه كان رائعا، سوف تنشر، فورا نسخ طبق الأصل من حديثه، كما يعرف، فى صحافة الغد مزودة بصور جديدة له. وسوف يحس رجال السلك الدبلوماسى الآخرون بالغيرة منه كالمعتاد. لماذا لم يفكر أى أمرئ فى إصدار بيان عام عن «عيار الذهب» بهذه الطريقة

التلميحية؟ حاول أن يبعث المرح فى عقله، أن يثبته، فى صلابة، عند مستوى تهنئته لذاته، إلا أن ذلك كان عبثا. سرعان ما ستعود السفارة إلى مقرها الشتوى، وهو لم ير ليلى. هل سيراها مرة أخرى؟

فى أعماقه، فى مكان ما، انهار حاجز وانفتح سد. لقد اشتبك فى نزاع جديد مع ذاته، انعكس توتر جديد فى ملامحه، وإيقاع جديد متعمد فى مشيته.

فى ذلك المساء حلت به نوبة مبرحة من آلام أذنه، والتى كانت تحل به دوما عند عودته إلى منزله، كانت تلك هى المرة الأولى التى تهاجمه فيها خارج سياج ما تضفيه عليه أمه من شعور بالأمان. وأفزعته النوبة. حاول عبثا أن يطبب نفسه بالوصفه المنزلية التى كانت تستخدمها على الدوام، إلا أنه أخطأ فسخن زيت السلاطة تسخينا شديدا وأحرق نفسه بقوة وهو يقوم بالعملية. وأمضى أياما ثلاثة متعبا فى سريره بعد هذه الحادثة، يقرأ القصص البوليسية، ويصمت لحظات طويلة يحملق فى الحائط الأبيض. لقدحال ذلك دون حضوره حرق جثة بورسواردن. كان مؤكدا أن يلتقى بنسيم هناك. وكان من بين الرسائل والهدايا العديدة التى بدأت تنهال عليه، عندما عرفت أخبار انحرافه الصحى، باقة ورد رائعة من نسيم وجوستين، يتمنيان له شفاء عاجلا. إنهما كسكندريين وأصداقاء ماكان من الممكن أن يفعلا أقل من ذلك.

لقد فكر فيهما مليا وبعمق خلال تلك الأيام والليالى الطويلة التى جافاه فيهما النوم. ورآهما لأول مرة فى ضوء هذا الإدراك الجديد، كمعميات. لقد صارا الآن لغزين. بل وحتى علاقتهما المعنوية الخاصة أخذت تطارده بإحساس أن هنالك شيئا ما لم يفهمه البتة وبصورة صحيحة، لم يقيمه البتة بوضوح. إن صداقته لهما قد منعته، بصورة

ما، من التفكير فيهما كأناس، مثلهما مثله، يعيشان على مستويات عدة مختلفة فى ذات الوقت، كمتآمرين، كعاشقين ـ ما مفتاح اللغز؟ وعجز عن تخمين ذلك. لكن ربما كمنت الإشارات الدالة على ذلك، والتى يبحث عنها، فى ماضيهما ـ أبعد ما كان يستطيع رؤيته هو أو بورسواردن، وهما فى هذا الوضع المتميز فى الوقت الراهن.

كانت هنالك حقائق عديدة عن جوستين ونسيم لم تصل إلى علمه ـ بعضها كان حاسما فاصلا فى التعرف على حالتهما. وحتى يمكن الإلمام بها فإنه من الضرورى أن نعود أدراجنا، وباختصار إلى المرحلة السابقة مباشرة على زواجهما.

* * *

(١٠)

لم يكن الغسق السكندرى الأزرق قد هبط بعد بكامله. «ولكن هل أنت.. كيف يمكن للمرء قولها. هل أنت مهتم بها حقا يا نسيم؟ إننى أعرف بالطبع كيف كنت تطاردها، وهى تعرف ما الذى يدور بخلدك».

ظل رأس كليا الذهبى راسخا فى مواجهة النافذة. كانت تثبت نظرتها على الرسم الذى تنجزه، تتأمله، إنه يكاد ينتهى. بضع ضربات أخرى سريعة وتطلق سراح موضوعها. كان نسيم يرتدى بلوفرا مخططا وهو يجلس كموديل لها. كان يرقد فوق كنبتها الصغيرة غير المريحة يمسك بجيتار لا يمكنه اللعب عليه، وقد تجهم وجهه. قال أخيرا فى رقة: «كيف تعبرين عن الحب فى الإسكندرية؟ ذلك هو السؤال. السهاد، الوحدة، الحظ، والشجن إننى لا أود إضارتها أو مضايقتها، يا كليا. لكننى أحس أنها، على نحو ما، وبقدر ما، تحتاجنى كما أحتاجها. تكلمى يا كليا». كان يعرف أنه يكذب، أما كليا فلم تكن كذلك.

هزت رأسها فى شك. كان انتباهها مركزا على الورق. هزت كتفيها، «الذى أتمناه أكثر من ذلك، وأنا أحب كليكما؟ لقد تحدثت إليها، كما طلبت منى. حاولت استثارتها، تقصى أعماقها. يبدو أن

الأمر ميئوس منه». هل كان هذا الكلام حقا دقيقا؟ هكذا سألت نفسها. كانت تميل إلى تصديق مايقال لها.

«كبرياء كاذبة؟»، قال في حدة.

«إنها تضحك في يأس»، وقلدت كليا حركة اليأس تلك، «هكذا. إنني أعتقد بإحساسها بأن ذلك الكتاب «عادات» قد جردها، في الشارع، من كل ملابسها. إنها لم تعد قادرة على إدخال السلام إلى عقل أي أحد. أو هكذا تقول».

- «من ذا الذي طلب منها ذلك؟»

«إنها تعتقد أنك سوف تفعل ذلك. ثم هناك، بالتأكيد، وضعك الاجتماعي، ثم إنها رغم كل شيء يهودية، ضع نفسك مكانها». وصمتت كليا لحظة، ثم أضافت بنفس النبرة الصريحة، «أنها إن كانت تحتاج إليك، على أي حال، فإن ذلك لاستخدام ثروتك حتى تعينها في البحث عن طفلتها، وهي تعتز بنفسها إلى حد ألا تقدم على فعل ذلك. ولكن... لقد قرأت «عادات» (*) لماذا أكرر ما أقول؟»

قال في مرارة «أنا لم أقرأ كتاب «عادات» البتة، وهي تعلم أنني لن أقرأه البتة. لقد أخبرتها بذلك. أوه يا عزيزتي كليا». وتنهد. وتلك كانت كذبة أخرى.

توقفت كليا وابتسمت وهي تتأمل وجهه. ثم استمرت تمسح ركن اللوحة التي ترسمها بإبهامها بينما تقول، «الفارس الذي لا يهاب (*)، إلخ. ذلك هو أنت يا نسيم. لكن هل من الحكمة أن تنسب الكمال هكذا إلينا نحن النساء؟ إنك كسكندري، لاتزال طفلا بعض الشيء».

(*) بالفرنسية في الأصل.

«إننى لا أنسب الكمال لأحد. لأننى أعرف بالضبط، كم هى خزينة، مجنونة أو سيئة. من ذاالذى لا يعرف؟ ماضيهاوحاضرها... معروف للجميع. ليس الأمر إلا إحساسى بأن ظروفها تتماثل تماما وظروفى.»

«أى ظروف تلك؟»

«الجدب»، قال مثيرا دهشتها وهو يتدحرج مبتسما عابسا فى ذات الوقت« حقا: إننى أعتقد أحيانا أنى لن أكون قادرا على الحب الصحيح حتى وفاة أمي - وهى لا تزال شابة. تكلمى يا كليا».

واهتز الرأس الأشقر فى بطء. وأخذت كليا نفسا من السيجارة التى كانت تشتعل فى منفضة السجائر قرب حامل اللوحات، ثم انحنت مرة أخرى إلى العمل الذى فى يدها. قال نسيم: «حسنا، سوف أراها الليلة وأبذل محاولة جادة حتى أجعلها تفهم».

«أنت لم تقل حتى أجعلها تحب!».

«كيف يمكننى ذلك؟»

«إن لم تستطع هى أن تحب، فمن العار أن تتظاهر بذلك».

«إننى لا أدرى إن كان ذلك فى مقدورى أيضا، إن كلينا أرمل الروح(*) بصورة غريبة. ألا ترين ذلك؟»

«أوللا!»، قالت كليا فى شك وهى لا تزال تبتسم.

«الحب قد يتخفى داخلنا فترة من الوقت»، قال عابسا وهو ينظر إلى الحائط وقد تصلب وجهه. «لكنه هناك، وواجبى أن أمكنها من

(*) بالفرنسية فى الأصل.

رؤيته». وعض شفته، «هل أبدو حقا هذا اللغز؟». كان ما يعنيه حقا، «هل نجحت فى خداعك؟».

«الآن تحركت من موضعك»، قالت تؤنبه. ثم بدأت، فى هدوء، بعد لحظة، «نعم، الأمر كاللغز، تبدو عاطفتك إرادية. إنها الحاجة إلى الحب، دون الحاجة إلى شخص المحبوب. اللعنة». وتحرك مرة ثانية. وتوقفت متبرمة.

كانت توشك على تأنيبه عندما استوقفت الساعة الموضوعة على رف المدفأة نظرها. قالت: «حان الوقت لتذهب. يجب ألا تدعها تنتظر».

«حسنا»، قال فى حدة، ثم نهض خالعا البلوفر، مرتديا سترته جيدة التفصيل، متحسسا مفاتيح سيارته فى جيبه بينما يستدير، ثم تذكر، فسوى شعره الداكن فى سرعة ونفاد صبر فى المرآة، محاولا، فجأة، أن يتخيل كيف يجب عليه أن يبدو أمام جوستين «أتمنى لو أستطيع قول ما أعنى. ألا تؤمنين بعقود ـ الحب بين هؤلاء الذين لم تصل أرواحهم بعد إلى مستوى الحب؟ الحنان، يا كليا، فى مواجهة عاطفة الحب؟ لو كان لها والدان لاشتريتها منهما دون تردد. ولو كانت فى الثالثة عشرة لما كان هنالك ما تقوله أو تدركه. إه».

«الثالثة عشرة»، قالت كليا فى تقزز وهى تهز كتفيها وتشد سترته إلى أسفل ظهره. «ربما»، استمر متهكما. «لقد كان الشقاء فرضا علىّ. . . . ماذا تعتقدين؟».

«لكنك حينئذ، كنت ستؤمنين بالعاطفة. ألا تؤمن بها؟».

«أؤمن. . . . . . ولكن».

ابتسم ابتسامته الفاتنة، وأتى بحركة حانية يائسة فى الهواء، بعضها استسلام وبعضها غضب. قال، «لا فائدة منك.. إنناجميعا نتوقع التعلم من كل صنف ونوع».

«اذهب»، قالت كليا، «لقد ضقت بهذا الموضوع، ولكن قبلنى أولا».

وتعانق الصديقان وقالت همسا، «حظا طيبا»، بينما قال نسيم من بين أسنانه، «يجب أن أوقف استنطاقك الطفولى هذا. يجب أن أقوم بنفسى بعمل شىء ما، حاسم قبلها». وضرب قبضته مرتين فى راحة يده، واندهشت هى لمثل هذا الصياح غير العادى يصدر عن شخص متحفظ للغاية. قالت، «حسنا». وقد فتحت عينيها الزرقاوين اندهاشا. «إنه هذا لأمرجديد!». وضحك كلاهما.

ضغط كوعها واستدار يجرى فى خفة إلى أسفل السلالم المعتمة حيث الشارع. واستجابت السيارة للمسته الرشيقة الخفيفة كالريشة على أجهزة القيادة وقفزت تزعق بتحذيرات نفيرها، تهبط إلى شارع سعد زغلول عبر خطوط الترام، تتدحرج أسفل المنحدر نحو البحر. كان يحدث نفسه، بالعربية، فى رقة وسرعة. ربما تكون فى انتظاره فى القاعة الموحشة الكئيبة لفندق سيسل، وقد ارتدت قفازها فى يديها اللتين تطويان حافظة اليد وتحملق عبر النوافذ حيث يحبو البحر ويتمدد، يتسلق ويهبط خلال ستار أشجار النخيل، التى تخفق فى صرير كأشرعة محلولة، فى ميدان المجلس البلدى.

كان هنالك، عند الناصية حيث استدار، موكب مهلهل يسير نحو أعلى المدينة يرشق أعلامه اللامعة مطر خفيف ورذاذ قادم من الميناء. كل شىء كان يرفرف مشوشا مرتبكا. كانوا ينشدون وضجيج المثلث

الموسيقى يدوى فى الجو. غادر سيارته وقد بدا الضيق عليه، أغلقها. نظر فى قلق إلى ساعته. أسرع جاريا مئات الياردات المتبقية إلى الباب الزجاجى الدائرى حيث يلج إلى الصمت المخيم فوق القاعة الكبيرة. دخل لاهثا وإن كان متنبها لنفسه تماما. هذا الحصار حول جوستين والذى يجرى منذ شهور وإلى الآن. كيف يمكن أن ينتهى. بالنصر أم بالهزيمة؟

وتذكر كليا وهى تقول: «تلك الكائنات، كما أعتقد، ليست بشرا على الإطلاق. إنهم إن عاشوا فذاك فقط بالقدر الذى قدموا به أنفسهم فى صورة بشرية. إلا أن أى إنسان يمكنه، إن امتلكته عاطفة واحدة مسيطرة، أن يمثل نفس الصورة. فالحياة بالنسبة للغالبية منا هواية. إلا أنها (جوستين) تبدو كتعبير تصويرى متوتر، جامع مانع للطبيعة فى أعلى أوضاعها سطحية وقوة. إنها ممسوسة. وكل ممسوس لا يستطيع التعلم أو الفهم. وإن كان ذلك لا يجعلها محبوبة أقل من غيرها، إلا أنه دفعها دفعا إلى الموت. وأنت، يا عزيزى نسيم، من أى زاوية سوف تتقبلها؟».

لم يكن، حتى الآن، يعرف الإجابة عن ذلك. كانا لا يزالان يتناوشان، يتحدثان بلغات مختلفة. وفكر فى يأس، ربما دام ذلك إلى الأبد.

لقد تقابلا بصورة رسمية، أكثر من مرة، وكأنهما شريكا أعمال، يناقشان شئون هذا الزواج بتجرد، كسماسرة الإسكندرية وهم يخططون لصفقة قطن تقوم على الدمج. إلا أن تلك كانت هى الطريقة التى تعالج بها المدينة مشاكلها.

لقد قدم لها فى حركة تصورها هو نفسه حركة متميزة، قدرا كبيرا

من المال، وهو يقول: «حتى لا يكون التفاوت فى الثروة سببا فى صعوبة وصولك إلى قرار. إننى أقترح أن أقدم لك هدية عيد ميلادك بحيث تساعدك على التفكير فى نفسك كشخص مستقل تمام الاستقلال ـ أى ببساطة، كامرأة يا جوستين. إن الكراهية التى تزحف فى أفكار كل من فى المدينة، تسمم كل شىء! دعينا نتحرر منها قبل تقرير أى شىء».

إلا أن تلك الحركة لم تقدم إجابة عن ذلك السؤال المهين الغامض، بل استثارته فقط، «هل تريد مضاجعتى حقا؟ ذلك فى مقدورك. إننى سوف أفعل أى شىء من أجلك يا نسيم». وأثار هذا غضبه وتقززه. لقد ضيع نفسه. بدا له ألا سبيل إلى التقدم عبر هذا النهج. وفجأة، بعد تفكير طويل، رأى الحقيقة مثل ضوء يبرق. وهمس لنفسه: «إننى لم أكن حقا مخلصا معها، ذلك هو السبب فى أنها لم تفهمنى». أدرك أنه رغم احتمال سيطرة عاطفته عليه بصورة أساسية إلا أنه لم يستطع التفكير فى الطريق الذى يضمن جذب انتباهها، باستثناء تقديم هدية النقود (وهى فى ظاهرها «لتحريرها»، لكنها فى حقيقتها محاولة منه فقط لربطها به) ـ ثم أدرك وقد تفاقم يأسه، ألا سبيل أمامه إلا أن يضع نفسه كلية تحت رحمتها. كان ذلك جنونا بمعنى من المعانى ـ إلا أنه عجز عن التفكير فى أى وسيلة أخرى، تثير فيها شعورا بالالتزام، يقوم عليه كل رباط آخر. إنها نفس الطريقة التى يقوم الطفل فيها، بعض الأحيان، على تعريض نفسه للخطر حتى ينال حب أمه وانتباهها، والذى يحس أنه محروم منهما.

«انظرى»، قال فى صوت جديد، يفيض تهدجا، وقد شحب غاية الشحوب، «إننى أود أن أكون صريحا معك. إننى لا أكن للحياة

الفعلية أى اهتمام». وارتعشت شفتاه وصوته. «إننى أتخيل علاقة أو قربا، مما يمكن لأى عاطفة أن تولدها ـ رباط لإيمان مشترك». وتساءلت، فيما بينها وبين نفسها للحظة، إن كان له دين جديد غريب. وانتظرت فى اهتمام سعيدة، وإن كانت مضطربة، وهى تراه منفعلا أعمق الانفعال. «إننى أود أن أجعلك الآن موضع ثقتى. وإن خنت هذه الثقة، فربما أصابنى وأسرتى ضرر لا علاج له ـ كذلك، فى الحقيقة، القضية التى أخدمها. إننى أبغى أن أضع نفسى كاملا تحت نفوذك. دعينا نفترض أن كلينا قد غدا بالنسبة للحب ميتا... إننى أطلب منك أن تكونى جزءاً من مهمة خطرة...»

ومن الغريب أنه ما أن بدأ يتكلم هكذا، يتكلم عما هو قريب من أفكاره، حتى بدأت تهتم، وتراه كرجل بحق للمرة الأولى. للمرة الأولى ضرب فيها وترا استجاب له، باعتراف بدا، ظاهريا، بعيدا للغاية عن اعتراف صادر من القلب ـ وأدركت لدهشتها ولهفتها وبهجتها أنها غير مطلوبة لتشاركه مخدعه فقط ـ إنها مطلوبة لتشاركه حياته كلها. الهوس الذى تقوم عليه حياته بالطبع. إن الفنان وحده هو الذى يستطيع تقديم مثل هذا العقد الغريب البعيد عن الأثرة والأنانية ـ إلا أنه عقد لا تستطيع امرأة، تستحق أن تحمل هذا الاسم، أن ترفضه أبدا. إنه لم يكن يطلب يدها للزواج (وهنا خلقت أكاذيبه سوء الفهم) لكنه يسألها أن تشاركه الطاعة، الولاء لشيطانه الذى يسيطر عليه، كان ذلك فى أدق صياغة، هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن يضفيه على كلمة «الحب». وبدأ يجمع الآن، فى بطء وهدوء وبصورة عاطفية، مشاعره التى قرر أن يخبرها بها، منسقا الكلمات، محسنا إدارتها: «أنت تعرفين، كما نعرف جميعا، أن أيامنا منذ فقد الفرنسيون والبريطانيون سيطرتهم على الشرق الأوسط، قد غدت معدودة. إننا

الجماعات الأجنبية، بكل ما شيدناه، يطبق علينا المد العربى، المد الإسلامى. إن البعض منا يحاول العمل ضده، كالأرمن والأقباط واليهود واليونانيين، هنا فى مصر، بينما آخرون فى أماكن أخرى ينظمون أنفسهم. لقد قمت بالكثير فى هذا العمل هنا... حتى ندافع عن أنفسنا، ذلك كل ما فى الأمر، ندافع عن حياتنا، ندافع عن حقنا فى اللقاء هنا. أنت تعرفين ذلك، والكل يعرفه أيضا. لكن الأمر بالنسبة للذين يرون التاريخ أبعد من ذلك قليلا...».

وهنا ابتسم ابتسامة ملتوية، ابتسامة قبيحة بها مسحة من رضائه عن ذاته. «إن هؤلاء الذين يرون أبعد من ذلك، لا يعرفون أن هذا ليس إلا لعبة للتغطية. إننا لن نحافظ أبدا على مكاننا فى هذا العالم، إلا بفضل أمة متحضرة قوية بما يكفى لتسود المنطقة كلها. إن أيام فرنسا وإنجلترا قد ولت ـ كم كنا نحبهم. من فى مقدرته إذن أن يحتل مكانهم». وأخذ نفسا عميقا وصمت. كان يعصر يديه معا، بين ركبتيه، كما لو كان يستخرج الفكرة التى لم ينطقها بعد، فى بطء ورقة كأنما يعصر إسفنجة.

قال: «هناك أمة واحدة فى مقدورها أن تحدد مستقبل كل شىء فى الشرق الأوسط. كل شىء ـ وحتى مستوى حياة المسلمين البؤساء أنفسهم، وياللتناقض، يتوقف عليها. هل أدركت، يا جوستين مقصدى؟ هل علىّ أن أنطق اسمها؟ ربما لا تكونى مهتمة بهذه الأمور؟». وابتسم لها ابتسامة ذات بريق. والتقت عيناهما. وجلسا يحملق الواحد منهما فى الآخر، كما يحملق الذين يتبادلون حبا حارا. لم يرها من قبل هكذا شاحبة، هكذا يقظة حذرة، بكل ذكائها وقد احتشد فجأة فى نظراتها. قال بصورة أكثر حدة: «هل علىّ أن أنطق

اسمها؟». وزفرت فجأة أنفاسها تنهيدة طويلة. هزت رأسها وهى تهمس الكلمة الواحدة.

«فلسطين».

وحل بهما صمت طويل. كان ينظر إليها خلاله فى انتصار فرح مبتهج. قال أخيرا: «لم أكن مخطئا». وأدركت أنه كان يعنى، أن حكمه عليها، وقد تشكل عبر وقت طويل، لم يكن خطأ. «نعم يا جوستين، إنها فلسطين، لو استطاع اليهود أن يكسبوا حريتهم، فإننا جميعا سنكون فى يسر وهناء - إنها أملنا الوحيد... نحن الأجانب الذين جردوا من ملكيتهم». نطق الكلمة وهو يحس المرارة، إلى حد ما وأشعل كل منهما سيجارة فى بطء، بأصابع مرتعشة، ونفخ الدخان ناحية الآخر، وقد استغرقهما جو جديد من الفهم والسلام. «لقد ضاعت ثروتنا كلها فى النضال الذى يوشك أن يتفجر هناك»، قال همسا: «إن كل شىء يتوقف على ذلك، ونحن هنا نقوم بالتأكيد بأشياء أخرى سوف أشرحها لك، إن البريطانيين والفرنسيين يعاونوننا. إنهم لايرون فيما نفعل ضررا، إننى آسف من أجلهم، فحالتهم تثير الشفقة، إذ لم تعد لديهم إرادة القتال أو حتى التفكير». كان احتقاره لهم شرسا، وإن كان رغم ذلك، مشبعا بالشفقة الكظيمة. «إلا أن الأمر مع اليهود، فيه شىء ما شبابى. إنهم ربان أوروبا فى هذه المستنقعات العطنة، سلالة تموت». وتوقف فجأة وقال، فى بطء وتفكير، فى نبرة حادة ذات رنين: «جوستين». ومدا أيديهما، فى ذات الوقت، إلى بعضهما البعض. وتماسكت أصابعهما الباردة، تعتصر بعضها البعض فى قوة. واكتسى وجهاهما بتعبير من يصمم على الهدف معتزا. تعبير يكاد يكون فزعا.

وسرعان ما تحورت فجأة، صورته. أضاء، إلى حد ما، بروعة جديدة مخيفة. ورأت وهى تدخن، تراقبه، شخصا آخر مختلفا مكانه ـ مغامرا، قرصانا يتعامل مع حياة الرجال وموتهم. وأعطت قوته أيضا، قوة أمواله، نوعا من الخلفية المأساوية للمشهد. وأدركت الآن، أنها لا ترى جوستين التى تعكس المرايا المصقولة صورتها، أو تلك المنقوشة بالملابس الثمينة وأصباغ الزوارق ـ إنها ترى شيئا أكثر قربا من رفيقة فراش حياة عاطفية.

كان هذا الذى يقدمه إليها عقدا فاوستيا، شيئا أكثر إثارة للدهشة. إنها تحس لأول مرة بالرغبة تتحرك فى أعماقها، الرغبة فى ذكورة ذلك الجسد المنبوذ المملوك بحق الشفعة، والذى كانت تعتبره باحثا عن المتعة فقط ـ رأت فيه مرآة تشير إلى الحقيقة. وهنا حل بها شبق، لم تكن تتوقعه، أن تضاجعه ـ كلا تضاجع خططه، أحلامه، أفكاره المتسلطة عليه، نقوده، موته. كانت وكأنها قدأدركت الآن فقط طبيعة الحب الذى يقدمه إليها. إنه يقدم كل ما لديه، كنزه الوحيد، التصميم الذى تسلط عليه طويلا، وبلغ أشده فى قلبه عبر عذاباته، فدفع إلى الخارج بكل خلجة أو رغبة. وأحست، فجأة أن مشاعرها قد غدت فى قبضة بيت عنكبوت كبير، تحكمه قوانين دون إرادتها الواعية، ودون رغباتها، فيض من شخصيتها البشرية، يتسم بتحطيم الذات. كانت أصابعها لا تزال متشابكة، كوتر موسيقى، تستمد، من القوة التى يرسل بها جسديهما، ما ينعشها. وسمعته يقول: «حياتى الآن فى رعايتك». فاشتعل عقلها، وأخذ قلبها يدق بعنف فى صدرها. قالت فى فزع جديد عليها، «يجب أن أذهب الآن»، كان فزعا لم تحس به من قبل ـ «حقيقة يجب أن أذهب». أحست أنها خائرة لا تملك نفسها،

مستها دغدغات قوى أقوى من أى جاذبية جنسية. «شكرا لله». لقد تقرر، فى النهاية، كل شىء.

إلا أن ما أحسه من راحة كان يشوبه الفزع. كيف استطاع فى النهاية أن يدير المفتاح فى القفل؟ بالتضحية بقول الحقيقة، بوضع نفسه تحت رحمتها. كان السلوك الأهوج هو السبيل الوحيد الذى ترك مفتوحا أمامه. لقد أجبر على ولوجه. كان يدرك عن غير وعى أيضا أن المرأة الشرقية ليست حسية بالمعنى الأوروبى. ليس هنالك ما هو عاطفى سخيف فى تكوينها. أن الأفكار التى تتسلط عليها حقيقة هى القوة والسياسة والتملك مهما أنكرت ذلك. الجنس يلدغ العقل، إلا أن الحركة الوحشية للنفوذ تدفىء عواطفها. كانت جوستين فى هذا المجال العام من الفعل أكثر صدقا مع نفسها من أى مرة سابقة. كانت تستجيب كما تستجيب الزهرة للضوء. كانا يتحدثان فى هدوء ودعة وقد مالت يدا كل منهما نحو الآخر، حتى إنها أصبحت الآن فى حالة تسمح لها أن تقول أخيرا فى روعة، «آه يا نسيم، ما شككت يوما أنى سأوافق. كيف حدث وأدركت أننى فقط لهؤلاء الذين يثقون فىّ؟»

حملق فيها، حاذفا، بعض الشىء، وقد تعرف فيها على الإذعان النموذجى للروح الشرقية ـ الإذعان النسائى المطلق الذى هو واحد من أقوى قوى العالم.

وسارا معا إلى السيارة فى الخارج. وأحست جوستين فجأة أنها ضعيفة للغاية. كأنها قد حملت بعيدا عن أعماقها وتركت مهجورة فى قلب المحيط: «لا أدرى ماذا علىّ أن أقول أكثر من ذلك؟».

«لا شىء، عليك أن تبدئى فى الحياة». إن تناقضات الحب، كما تظهر لا نهاية لها. وأمست كأنما قد صفعت على وجهها. فتوجهت

إلى أقرب مقهى وطلبت كوبا ساخنا من الشيكولاتة، وشربتها بيد مرتعشة. ثم مشطت شعرها وزينت وجهها. كانت تدرى أن جمالها يعلن عنها. فحافظت عليه نضرا مترفعا.

جلس إلى مكتبه، فيما بعد، وقد مرت بضع ساعات، والتقط نسيم الهاتف بعد لحظة طويلة من التأمل والتفكير. أدار القرص على رقم كابوديستريا، ثم قال فى هدوء، «داكابو، إنك تتذكر خططى للزواج من جوستين، ؟ كل شىء سار على ما يرام. إن لدينا حليفا جديدا. إننى أود منك أن تكون أول من يعلن ذلك إلى اللجنة. أعتقد أنهم الآن لن يتحفظوا قبلى باعتبار أنى لست يهوديا، مادمت سأتزوج من يهودية. ماذا تقول؟». واستمع فى نفاذ صبر لتهنئة صديقه الساخرة. ثم قال فى برود: «إن تلك وقاحة، أن تتصور أننى تحركنى العواطف كما أتحرك بالخطط. إننى كصديق قديم، أنذرك ألا تحدثنى بمثل هذه النغمة. إن حياتى الشخصية ومشاعرى ملك لى. فإن حدث وتلاقت مع اعتبارات أخرى، فذلك أفضل كثيرا. ليس لك أن تظلمنى مفكرا أننى بلا شرف. إننى أحبها». وأحس بالمرض وهو يقول تلك الكلمات. مريض يلعن فجأة ذاته. ومع ذلك كانت الكلمة صحيحة تماما ـ الحب!.

وضع السماعة فى بطء وكأنها تزن طنا. ثم أخذ يحملق فى انعكاس صورته فى مكتبه المصقول. كان يقول لنفسه: «الأمر كله أننى لست الرجل الذى تعتقد بقدرتها على حبه. ربما كان علىّ أن أتوسل إليها قرنا من الزمان، إن لم يكن لدىّ مثل هذه الخطط. ما معنى هذه الكلمة المكونة من حرفين والتى ننفضها من عقولنا مثلما نفعل بالنرد ـ حب». وكاد ازدراؤه لنفسه أن يثير جزعه.

جاءت تلك الليلة، على غير توقع إلى المنزل الكبير، وقت أن كانت الساعة تدق الحادية عشرة. كان لا يزال مستيقظا، مرتديا ملابسه، يجلس إلى جوار المدفأة، يفرز أوراقه، «أنت لم تتصلى هاتفيا»، صاح مبتهجا، مندهشا «ياللروعة». وقف صامتا رزينا عند الباب حتى انصرف الخادم الذى قادها إلى الداخل. خطت خطوة إلى الأمام تاركة غطاء رأسها المصنوع من الفرو ينزلق على كتفيها. تعانقا فى انفعال شديد وصمت. نظرت إليه فى ضوء نار المدفأة، بدا فزعا مبتهجا. قالت: «الآن أخيرا عرفتك يا نسيم حصنانى»، الحب نوع من التآمر. قوة الثروة والكيد تتحرك الآن فى أعماقها بديلا عن العاطفة. كست وجهها نظرة البراءة البراقة التى تظهر فقط على من اهتدى إلى طريقة دينية للحياة. قالت: «جئت لأسمع توجهاتك، مزيدا من تعليماتك». تغير مظهر نسيم. هرع أعلى السلم إلى خزينته الصغيرة. عاد إلى أسفل ومعه ملفات المراسلات الكبيرة - كأنما يود أن يثبت لها صدقة. وأنه يمكنها التيقن من صحة كلماته فى الحال، فى ذاك الزمان والمكان. كان يكشف الآن لها عن شىء لا تدرى به أمه أو أخوه - مشاركته فى المؤامرة الفلسطينية - وقبعا إلى جوار النار يتحدثان حتى قرب الفجر.

«من كل هذا ترين همومى الحالّة، والتى يمكنك التعامل معها وعلاجها. هنالك، أولا، شكوك اللجنة اليهودية وترددها. أود منك الحديث إليهم. إنهم يعتقدون بوجود شىء ما يثير التساؤل حول قبطى يدعمهم، بينما اليهود المحليون بعيدون عن كل شىء، يخشون فقدان سمعتهم الطيبة عند المصريين. يجب أن تقنعيهم يا جوستين. أن استكمال بناء القوة المسلحة سوف يستغرق أكثر من عام على الأقل. ثم ضرورة الحفاظ على كل ذلك بعيدا عمن يتمنون لنا الخير هنا، من البريطانيين والفرنسيين. إننى أعلم أنهم مشغولون بمحاولة معرفة ما

ورائى و نشاطاتى التحتية. وأعتقد أنهم، حتى الآن، لا يشتبهون فىّ. إلا أن من بينهم جميعا، شخصين يهماننا على وجه الخصوص. دارلى وعلاقته بميليسا الصغيرة، وهى نقطة تلهب الأعصاب (*). فهى كما قلت لك، كانت عشيقة كوهين العجوز والذى مات هذا العام. لقد كان عميلنا الرئيسى فى شحنات السلاح. وكان يعرف كل شىء عنا. هل أخبرها بأى شىء؟ لا أعرف. وهنالك شخص آخر أكثر غموضا هو بورسواردن. إنه ينتمى بوضوح إلى الوكالة السياسية فى السفارة. إننا أصدقاء حميمون وما شابه ذلك، لكننى.. غير متأكد مما يريبه أو يثير شكه. يجب إن لزم، أن نطمئنه ونحاول بيع حركة المجتمع بين القبط له! ماذا يمكن، أو يحتمل، أن يكون عارفا به أو خائفا منه؟ يمكنك أنت مساعدتى فى هذا المجال. أوه يا جوستين، إننى أعرف أنك سوف تفهمين!». كانت تقاطيعها السمراء والتى اتسمت بالعزم والتصميم ورباطة الجأش إلى هذا الحد، مفعمة بصفاء جديد، بقوة جديدة. وأومأت برأسها. وقالت بصوتها الأجش: «شكرا لك يا نسيم حصنانى. إننى أعرف الآن ماذا علىّ أن أفعل».

أغلقا الأبواب الطويلة، فيما بعد. وضعا الأوراق بعيدا. رقدا، فى تجرد كالسقوبة (**). كانت قبلاتهما الوحشية التى تثير البهجة هى الصورة الجلية لحالتهما الإنسانية. لقد اكتشف كل منهما أعمق مافى الآخر من ضعف، الموقع الحقيقى للحب. لم يعد فى عقل جوستين، الآن، أى تحفظات أو روادع. وما كان يبدو شهوانية، وقد تجسد فى تعبيرات أخرى، إنما كان فى الحقيقة، محصلة معرفة كاملة وقوية للانغماس فى الحب ذاته ـ شكل من التطابق الحقيقى، الذى لم

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) شيطانة يزعم أنها تجامع الرجال أثناء نومهم. (المترجم).

يشاطرها إياه أحد من قبل! إن السر الذى يتشاطرانه قد أطلق فيها حرية الفعل. ونسيم الذى تحقق بين ذراعيها برقته الأنثوية الغربية، والتى تكاد تكون عذرية، أحس بنفسه يهتز، كأنما ضرب بشدة، وهو فى أحضانها كدمية من مزق. إن نتوء شفتيها يذكره بالمهر العربى الأبيض الذى كان يمتلكه وهو طفل. وطفت ذكريات مشوشة مثل أسراب طيور ملونة. وأحس بالإرهاق وهو يبكى، ومع ذلك فقد شعشع بالامتنان والرقة الهائلة. وتطهرت وحدته، كلها، فى تلك القبلات الرائعة. لقد وجد من يشاركه سره - امرأة ترى قلبه. تناقض فى تناقض.

كان الأمر بالنسبة لها كأنها سلبت خزانة قوته الروحية، والتى ترمز إليها بصورة غريبة، ممتلكاته: صلب البنادق البارد، نتوءات الحلمات الباردة للقنابل اليدوية التى ولدت من التنجستين، الصمغ العربى، الجوت، النقل بالسفن، الأوبال (*)، الأعشاب والحرير والأشجار.

أحس أنها تتفوق عليه، وأنه يرغب بغوصه فى عضوها الأنثوى أن يضيف إليه أن يلقح فعاله، أن يخصب بأدوات قوته التى ترمز إلى الهلاك، وأن يمنح الحياة لنضالات تحمل الموت لامرأة عاقر بحق. لم يكن وجهها يحمل أى تعبير كقناع سيفا (**). لم تكن قبيحة أو جميلة، لكنها كانت عارية كالحقيقة نفسها. بدا (هذا الحب) قرينا للحب الفاوستى للقديسين الذين سيطروا على فن الكبت المنوى الذى يثير القشعريرة، حتى يتعرفوا على أنفسهم بصورة أوضح. فنيران ذلك الفن الزرقاء لا تنقل إلى الجسد حرارة بل برودة، إن الإرادة والعقل قد اشتعلا كأنما غمسا فى جيرحى. إنها حسية حقيقية دون أى سموم

(*) حجر كريم. (المترجم).

(**) إله التدمير والتجديد فى الهندوسية (المترجم).

حضرية حولها تلطف منها، إنها تتسق ومشارب المجتمع الإنسانى الذى شيد على فكرة رومانسية عن الحقيقة. هل هى أقل حبا بسبب كل ذلك؟ لقد وصف باراسيلوس مثل هذه العلاقات بين القابال (*). إن فى وسع المرء أن يرى فى كل هذا وجه إفروديت (**) المتجهم. الخالى من العقل.

كان يفكر طوال الوقت فيما بينه وبين نفسه، «عندما ينتهى كل ذلك. عندما أعثر على طفلتها المفقودة، سنصبح حينئذ قريبين للغاية من بعضنا البعض، حتى إن مسألة هجرها لى، لن تكون هنالك على الإطلاق». لقد نبعت حرارة أحضانها من الشعور بالذنب المشترك من شىء أعمق، أكثر خبثا، من إغراءات اللحم أو العقل المتقلبة. لقد هزمها وهو يقدم لها حياة زوجية، هى الادعاء والتظاهر معا وفى ذات الوقت، غرض مستهدف قد يقود كليهما إلى الموت! ذاك كان كل ما يمكن أن يعنيه الجنس لها الآن! كم هو مثير، مثير جنسيا، أن يتوقع كلاهما الموت.

وحملها بسيارته إلى منزلها، وضوء الفجر الشاحب المرتعش فى أوله. وانتظر ليسمع المصعد يتسلق فى بطء وأنين إلى الطابق الثالث، ثم يعود ثانية، ليتوقف فى قفزة خفيفة أمامه. وانطفأ النور فى صوت كالنقرة. لقد ذهبت الشخصية المهمة، إلا أن عطرها لايزال هناك.

وكان اسم العطر «الحياة أبدا (***)».

* * *

(*) جماعة سرية للتآمر. (المترجم).

(**) إلهة العشق والجمال عند الإغريق. (المترجم).

(***) بالفرنسية فى الأصل.

(١١)

عمل المتآمران معا طوال الصيف والخريف، يقيمان الولائم على مستوى ندر أن رأت المدينة له نظيرا. وندر أن حل الهدوء بالمنزل الكبير بضع ساعات. كان حيا، دوما بفرق الجوقات الموسيقية التى تشبه السراخس الباردة، أو بآلات الساكسفون المتعثرة الصارخة فى الليل أشبه برجال تخونهم نساؤهم. المطابخ التى كانت، ذات يوم، مهجورة فارغة، غدت تدوى الآن بضجيج الخدم يعدون وليمة جديدة، أو ينظفون المكان بعد وليمة انقضت. وكان يقال فى المدينة إن نسيم يتعمد إدخال جوستين إلى المجتمع ـ وكأن بهاء الإسكندرية وبريقها المحلى يمكن أن يقدم أو يضيف أى سحر أو مطمع لامرئ أوروبى فى أعماقه، كما كان هو. كلا. لقد كانت تلك الحملات المخططة على مجتمع العاصمة الثانية استكشافية وترويجية فى ذات الوقت. كانت تقدم غطاء يتحرك المتآمران من ورائه فى حرية ضرورية لعملهما. كانا يعملان فى دأب يختلسان إجازات قصيرة فقط عندما يكون الضغط عليهما شديدا، يقضياها فى منزل صيفى صغير سماه نسيم «قصر جوستين الصيفى». هنا كان فى وسعهما أن يقرآ وأن يكتبا وأن يستحما وأن يستمتعا بصحبة أقرب الأصدقاء إليهما ـ كليا، أماريل وبلتازار.

كانا، دوما، بعد تلك الأمسيات الطويلة، والتى تنقضى فى مناقشات مجدبة، وغابة من الأطباق وزجاجات النبيذ، يغلقان

أبوابهما، بالمزاليج الكبيرة، بنفسيهما، ويستديران إلى السلم يتنهدان، تاركين الخدم الناعسين كى يبدأوا مهمة تنظيف المكان من البقايا، حتى يكون المنزل، فى الصباح، فى حالة جيدة تماما. كانا يسيران فى بطء يتأبط الواحد منهما ذراع الآخر. توقفا عند البسطة الأولى من السلم، خلعا خذائيهما، يبتسمان لبعضهما البعض فى المرآة الكبيرة. ألقيا نظرة على معرض الصور بمجموعته التأثيرية الرائعة، حتى يهدئا عقليهما. كانا يتحدثان فى موضوعات لا معنى لها، بينما عينا نسيم الشرهتان تستكشفان اللوحات الكبيرة فى بطء وهى فى صمتها دليل صحة العوالم الخاصة والرغبات السرية الدفينة.

وبلغا فى النهاية غرفتى نومهما الخاصتين الدافئتين المؤثثتين تأثيثا جميلا، والواحدة منهما لصق الأخرى، فى الجانب الشمالى المعتدل البرودة للمنزل. كانا يفعلان نفس الأشياء دوما، تشعل جوستين الموقد الكحولى، بينما يرقد نسيم فوق السرير بكامل ملابسه، حتى تعد له منقوع نبات حشيشة القط لتهدئ أعصابه قبل أن ينام. وهنا أيضا، كانت تضع منضدة لعب الورق الصغيرة إلى جوار السرير ليلعبا معا دورا، أو اثنين، فى لعبة ورق الشدة أو البيكيت بينما يتحدثان معا، وقد استحوذت عليهما الأمور التى تشغل عقليهما اليقظين. كان وجهاهما الأسمرين المنفعلين يتوهجان فى الضوء الهادئ، بنوع من القدسية تضفيه السرية، ورغبات الإرادة المشتركة، وشهوات مشتركة حتى الخاصرة. كانت الليلة مثلها مثل غيرها، ما أن وزعت أوراق الدور الأول حتى دق الهاتف الموجود إلى جوار السرير. والتقط نسيم السماعة، واستمع مدة ثانية، ثم ناولها لها دون كلمة. ورفعت حاجبيها مستفهمة وهى تبتسم، فأومأ لها زوجها.

«هالو»، قالت فى صوتها الأجش وهى تقلد النعاس كأنها أوقظت من رقادها. «نعم، يا عزيزى (*). كلا كنت مستيقظة. نعم، أنا بمفردى». وأمسك نسيم بالورقة فى يده بهدوء وبطريقة تبدو معها كالمروحة. وأخذ يفحصها دون أن يظهر عليه تعبير واضح. جرت المحادثة متقطعة، ثم قال المتحدث، «طبت مساء»، وأغلق الخط. وتنهدت جوستين وهى تضع السماعة، ثم أتت بحركة بطيئة تشبه حركة واحدة تخلع قفازا ملطخا، أو تخلص نفسها من شلة خيط صوفية. قالت، وهى تلتقط أوراقها، «كان دارلى المسكين». ورفع نسيم عينيه لحظة ثم وضع ورقة وهو يدعوها إلى اللعب. أخذت تتحدث فى رقة، وقد بدأت اللعب، كأنما تحدث نفسها: «إنه مفتون تماما باليوميات، هل تتذكر؟ لقد اعتدت نسخ كل مذكرات أرناؤوطى الخاصة بـ «عادات» (*) بخط يدى، عندما كسر معصمه، وجمعنا كل الأجزاء التى لم يستخدمها فى النهاية. لقد أعطيتها لدارلى باعتبارها مذكراتى». وانقبضت وجنتيها فى ابتسامة حزينة. «لقد تقبلها باعتبارها مذكراتى وهو يقول، بطريقة طبيعية: » إن لدى عقلا رجوليا! وأن فرنسيتى ليست جيدة تماما. إن ذلك سوف يسعد أرناؤوطى، أليس كذلك؟»».

«إننى آسف من أجله»، قال نسيم فى هدوء ورقة: «إنه طيب. سوف أكون صادقا معه يوما، وأشرح له كل شىء».

«لكننى لا أتبين لماذا اهتمامك بميليسا الضئيلة»، قالت جوستين، مرة أخرى وكأنها فى مناظرة أكثر منها مناقشة. «لقد حاولت سبر غوره بكل السبل لكنه لا يعرف شيئا. وأنا مقتنعة أيضا أنها لا تعرف شيئا. هل لمجرد كونها عشيقة كوهين. . . . إننى لا أعرف».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

ووضع نسيم أوراقه وقال: «إننى لا أستطيع التخلص من شعور بأنها تعرف شيئا! لقد كان كوهين ممن يتباهون، كما كان رجلا أحمق. وهو بالتأكيد قد عرف كل ما كان يمكن معرفته».

«ولكن لماذا يخبرها؟».

«لقد كانت تنظر إلىّ حينما تقابلنا، بعد موته، بطريقة جديدة ـ كأنما فى ضوء شىء جديد سمعته عنى، معلومة جديدة. إنه لمن العسير وصف ذلك».

ولعبا فى صمت حتى بدأ الأبريق فى العواء. وضعت جوستين أوراقها وأخذت تعد منقوع حشيشة القط. توجهت إلى الغرفة الأخرى لتخلع مجوهراتها بينما كان يرشف المشروب، ويحملق فى الحائط متأملا. سمع نسيم صوت خطفة صغيرة لحلقى أذنيها وهى تجذبه، والضجة الصغيرة أيضا لحبوب النوم وهى تسقط فى الكوب، ثم عادت لتجلس إلى منضدة لعب الورق.

«لماذا لم تبعدها بطريقة ما، إن كنت تخشاها؟». نظر إليها جفلا فأضافت: «إننى لا أعنى الإضرار بها، فقط إرسالها بعيدا عن هنا».

وابتسم نسيم: «لقد فكرت فى ضرورة ذلك، إلا أن دارلى، عندما جاء إلى هنا، وقع فى حبها، إننى . . . أحس بالعطف عليه».

قالت فى اقتضاب: «ليس هنالك مكان لمثل تلك الأفكار»، أومأ برأسه، يكاد أن يتذلل. قال، «إننى أعرف ذلك». وزعت جوستين الأوراق مرة أخرى، ومرة أخرى أخذ كل منهما ينظر إلى الأوراق بين يديه فى صمت.

«إننى أعمل الآن على إرسالها بعيدا عن هنا ـ عن طريق دارلى

نفسه. يقول أماريل إنها، فى الحقيقة مريضة بصورة خطيرة، وقد أوصى بالفعل بذهابها إلى أورشليم لتعالج معالجة خاصة. لقد قدمت النقود إلى دارلى. إنه مشوش بصورة تثير الإشفاق، إنجليزى قح، شخص جيد. نسيم، إنه الآن خائف منك للغاية، وهو يخترع كل أنواع العفاريت ليخيف نفسه. إنه يشعرنى بالحزن. إنه يائس».

«إننى أعرف»

«لكن، يجب أن تذهب ميليسا. لقد أخبرته بذلك»،

«حسنا. ثم قال فى صوت مختلف تمام الاختلاف، وهو يرفع عينيه السوداوين إليها، «وماذا عن بورسواردن؟».

وعلق السؤال بينهما، يرتجف كإبرة البوصلة، فى جو الغرفة الساكن. نكس عينيه ينظر مرة أخرى فى أوراق اللعب التى فى يديه. اتخذ وجه جوستين تعبيرا جديا، تعبيرا يعكس المرارة والهم والتعب معا. أشعلت سيجارة فى عناية وقالت، «إنه كما أخبرتك، أمرؤ خارج عن المألوف ـ إنه شخصية لها اعتبارها (*). من المستحيل تماما انتزاع سر من الأسرار منه، ومن العسير وصف ذلك أيضا».

وحملقت فيه طويلا تدرس تقاطيعه السمراء التى يداريها بتعبير يتسم بالتجرد: «إن ما أود قوله، فيما يختص بالفرق بينهما، إن دارلى عاطفى، مخلص لى للغاية، لا يشكل البتة أى خطر، حتى إنه لو وقع على معلومة يمكن أن تضيرنا فإنه لن يستخدمها، سوف يدفنها. أما

(*) بالفرنسية فى الأصل.

بورسواردن فلا». وبرقت عيناها: «إنه بصورة ما، بارد، ذكى قادر على التحكم فى ذاته. إنه خارج النطاق الأخلاقى - أشبه بمصرى. إنه لن يعبأ كثيراً لو متنا غداً. إننى فى بساطة لا أستطيع الوصول إليه. إنه عدو كامن يستحق أن يقدر حق قدره».

ورفع عينيه إلى عينيها بعاطفة عذبة مشتعلة كعيون بعض الطيور الكاسرة النبيلة الغريبة. بلل شفتيه بلسانه، لكنه لم يتكلم. كان يوشك أن يقذف الكلمات: «إننى فزع أن تكونى قد وقعت فى حبه». إلا أن شعورا غريبا بالحياء منعه.

«نسيم».

«نعم».

دعكت السيجارة. أطفأتها وهى تفكر فى عمق. نهضت تسير فى الحجرة جيئة وذهابا، وقد وضعت يديها فى إبطيها، تضمهما إلى صدرها. كانت تتحرك بطريقة غريبة، تكاد تكون مرتبكة، كالعهد بها كلما أخذت تفكر فى عمق - كانت تسير كأنها تتجول خلسة، مما ذكره بحيوان ضار. غدت نظرته غائمة وقد فقدت بريقها. التقط أوراق اللعب بطريقة آلية وخلطها معا مرة واثنتين، ثم وضعها على المنضدة، رافعا راحتيه إلى وجنتيه الملتهبتين.

وللحال كانت إلى جانبه بيدها الدافئة الحانية فوق جبهته: «لقد ارتفعت حرارتك مرة أخرى».

«لا أعتقد ذلك»، قال فى سرعة وبطريقة آلية.

«دعنى أقيسها لك».

«كلا».

جلست قبالته، وقد مالت تستند إلى الأمام، تحملق فى عينيه، مرة أخرى. «نسيم، ماذا يجرى؟ صحتك. . . ودرجات الحرارة المرتفعة تلك، وأنت لا تنام؟» وابتسم فى إعياء وضغط ظهر يده إلى وجنته الساخنة.

قال: «لا شىء. مجرد إنهاك. كل شىء يوشك على الانتهاء. كان علىّ أن أخبر ليلى بالحقيقة كلها. لقد أفزعها إدراكها للمدى الكلى لخططنا. وجعل ذلك علاقتها بماونت أوليف أشد عسرا. إننى أعتقد أن ذلك هو السبب الذى جعلها ترفض رؤيته يوم لقاء الكرنفال. هل تتذكرين؟ لقد أخبرتها بكل شىء فى هذا الصباح. لا تبالى. ستة شهور أخرى ويكتمل البناء الكلى، والباقى يتوقف عليهم. إلا أن ليلى، بالطبع، لا تحب فكرة الذهاب من هنا. إننى أعرف أنها لن تفعل ذلك. ومن ثم فإننى مواجه بمشاكل أخرى خطيرة».

«أى مشاكل؟».

هز رأسه ليخلع ملابسه. جلس على السرير وأنهى شراب حشيشة القط، ثم استلقى وقد ثنى يديه ورجليه فغدا أشبه بصورة منحوتة لمحارب. أطفأت جوستين النور ووقفت فى المدخل صامتة. أخيرا قالت: «نسيم. أخشى أن شيئا ما يحدث لك وأنا لا أفهمه. إنك فى هذه الأيام. . . . هل أنت مريض؟ أرجوك، تحدث إلىّ!».

خيم صمت طويل، قالت، «كيف سينتهى كل ذلك؟».

رفع نفسه قليلا فوق الوسائد حملق فيها: «فى الخريف، علينا أن نتخذ ترتيبات جديدة. عندما يكون كل شىء قد غدا معدا. ربما يعنى فراقا قرابة عام. إننى أود منك الذهاب إلى هنالك عندما تبدأ

الأحداث. كما يجب أن تذهب ليلى إلى المزرعة فى كينيا. ستكون ردود الفعل حادة هنا، ويجب أن أبقى لمواجهتها.»

«أنت تتكلم وأنت نائم».

«إننى مرهق»، صرخ فى اقتضاب وغضب.

ووقفت جوستين ساكنة لا تتحرك، فى ظلال المدخل المضىء. «وماذا عن الآخرين؟»، سألت فى رقة. ورفع نفسه فوق الوسائد، مرة أخرى، ليجيب وقد ضاق خلقه: «إن الشخص الوحيد الذى يهمنا أمره فى هذه اللحظة، هو داكابو، يجب، كما يبدو، أن يقتل. أو يجب أن يختفى، فهو عرضة لخطر شديد. إننى لم أضع التفاصيل بدقة بعد. إنه يطالبنى بأن أضمنه، إنه غارق فى الدين، محطم، ولذا فإن اختفاءه سوف يكون مناسبا. سنتحدث فى ذلك فيما بعد؛ إنه أمر سهل ترتيبه بالمقارنة إلى غيره».

عادت إلى الحجرة المضاءة تفكر وقد بدأت تستعد للنوم. كان فى وسعها أن تسمع نسيم يتنهد ويتقلب قلقا، فى الحجرة الأخرى. أخذت تفحص فى المرآة الكبرى، وجهها الحزين المنزعج، تمسح عنه ألوانه، وتمشط شعرها الأسود فى رفاهة، ثم انزلقت عارية بين الملاءات، وأطفأت النور، غرقت فى رقة ودون جهد، فى لحظات فى النوم.

كان الوقت يكاد يكون فجرا عندما جاء نسيم إلى حجرتها عارى القدمين. واستيقظت لتحس ذراعيه حول كتفيها. كان راكعا إلى جوار الفراش ينتفض من نوبة اعتقدت هى فى بادئ الأمر أنها نوبة بكاء. إلا أنه كان يرتعش، كأنه مصاب بالحمى. كانت أسنانه تصطك. «ماذا فى

الأمر؟»، أخذت تسأله بطريقة مفككة، إلا أنه وضع راحته فوق فمها ليسكتها. «يجب أن أخبرك، لماذا أتصرف هكذا بطريقة غريبة. إننى لا أستطيع احتمال هذا التوتر أكثر من ذلك. جوستين إننى الآن وجها لوجه أمام مشكلة أخرى. إننى مواجه بالاحتمال المفزع، أن أتخلص من ناروز. وذلك هو السبب فى إحساسى أننى أكاد أجن. لقد خرج تماما من قبضتنا»

جرى هذا الحديث قبيل انتحار بورسواردن، غيرالمتوقع، فى فندق جبل النسر، بوقت قليل.

* * *

(١٢)

لم يكن الأمر يخص ماونت أوليف وحده حتى يمكن القول إن كل ترتيبات رقعة الشطرنج قد غيرتها، الآن فجأة، فعلة بورسواردن المنفردة المتسمة بالجبن، كذا ذلك الاكتشاف غير المتوقع والذى أفصح عن دافعه إلى فعل ما فعل، وكان الباعث الأكبر على موته. كان نسيم، أيضا، قد خدع نفسه طويلا بذات الحلم عن الفعل المحدد الكامل، الحر الذى لا يبالى كنبض الإرادة الموجهة، وهو يجد نفسه الآن، مثله مثل صديقه، ضحية القوى الجانحة المتأصلة الكامنة فى نبع أعمالنا، تنتشر، تتشعب، تشوه نفسها، تنتشر كما تنتشر اللطخة فوق سقف أبيض. حقا، لقد بدأ السادة يجدون أنفسهم، الآن، رغم كل شىء، خدما لتلك القوى التى وضعوها فى اللعبة، وأن الطبيعة بطبعها لا يمكن التحكم فيها. وأنهم سرعان ما سيسحبون إلى سبل لم يختاروها، وقد أمسكت بهم، فى مجالات مغناطيسية، كما هو حادث. الآن نفس القوى التى حلت قيودها عندما دعاها القمر، أو ساقت جحافل السلمون البراقة عبر نهر زاخر ـ الأفعال تنثنى، تتفاقم، تتضخم إلى غيب يتجاوز قوى المخلوقات الفانية إلى الترابط أو التخلى. كان ماونت أوليف يعرف ذلك. يرقد مهموما، قلقا، فى سريره يراقب حلقات الدخان اللولبية تتصاعد كسولة من سيجارته إلى السقف الأبيض. وكان نسيم وجوستين يعرفان ذلك أيضا، على نحو أكثر يقينا، وهما يرقدان وجبهة كل منهما باردة تتجه إلى جبهة الآخر،

والعيون مفتوحة على اتساعها فى حجرة النوم المعتمة الفاخرة يهمسان لبعضهما البعض. كانا يعرفان ذلك إن تغاضيا عن مسألة الإرادة. وأحسا بنذر الشؤم تتجمع حولهما، القوى التى حلت عقالها ولابد لها أن تحقق ذاتها. ولكن كيف؟ على أى نحو؟ لم يكن ذلك واضحا، حتى الآن تمام الوضوح.

إن بورسواردن، قبل أن يرقد على ذلك السرير الدنيوى المبتذل، إلى جوار صور ميليسا أو جوستين المدمدمة المنسية ـ وأيا كانت ذكرياته الخاصة إلى جوار ذلك ـ اتصل هاتفيا بنسيم يتحدث فى صوت جديد، زاخر بالاستسلام الفظ، مشحون بروعة الموت القادم: «إنها مسألة حياة أو موت، كما يقولون فى الكتب. نعم، أرجوك الحضور فورا. هنالك رسالة لك فى مكانها اللائق: المرآة». وأنهى المكالمة بضحكة مكتومة بسيطة أخافت الرجل الحذر الذى تجمد عند الطرف الآخر من الخط. وللحال تكهن نسيم بكارثة محتملة. ووجد على مرآة حجرة الفندق الرثة، بين اقتباسات من حياة الكاتب الخاصة، الكلمات التالية، مكتوبة بحروف كبيرة بصابون حلاقة مبتل:

نسيم. كوهين فلسطين. كل شيء انكشف وأبلغ عنه.

تلك هى الرسالة التى كان عليه أن يمحوها قبل أن تأتى الأصوات من الصالة، ثم الدق الخفيف على زجاج الباب قبل أن يدخل بلتازار وجوستين، إلى الحجرة، فى رقة وعلى أطراف أصابعهما. لكن الكلمات، وذكرى الضحكة المكتومة القصيرة الوداعية (مثل صوت «بان» يبعث حيا) اشتعلت وإلى الأبد فى عقله. كان التعبير الذى يكسو وجهه وهو يعيد، فى أوقات لاحقة، كل تلك الحقائق على مسامع جوستين، تعبيرا عصبيا يعكس خواء عقليا، فافتضاح الفعل نفسه

أفقده الإحساس. كان من المستحيل أن ينام وهو يرى ضرورة مناقشة الرسالة تفصيلا، وتدقيق النظر فيها، وتفسيرها وتأويلها وهما راقدان بلا حراك، أشبه بالصور المنحوتة فوق مقابر الإسكندرية، جنبا إلى جنب فى الحجرة المظلمة، وعينا كل منهما المفتوحتان تحملقان فى عينى الآخر، كعيون كفيفة، كأشياء لاإنسانية، كمرايا فى كوارتز، كنجوم ميتة، تنهدا واليد فى اليد وهما يتمتمان، وهمس قائلا: «لقد أخبرتك. أنها ميليسا... تلك الطريقة التى كانت تنظر بها إلىّ دوما... لقد شككت فيها». وتلاحمت المشاكل الأخرى المثيرة للمتاعب وتداخلت فى عقله، ومن بينها كانت مشكلة ناروز.

أحس بما يحسه فارس محاصر، فى صمت قلعة، وقد بدأ يسمع صوت الكواريك والمعاول، وضجيج الأقدام الحديدية، وتكهن بأن من يقوم بالحفر من العدو، يحفر بوصة بعد بوصة تحت الجدران. ما الذى يستشعره ماونت أوليف، إنه ملتزم بعمله الآن، وذلك بافتراض أنه قد تم إخباره؟ (من الغريب أن نفس العبارة قد خذلت كليهما بمجرد أن خرجت من فلك إرادة إنسانية حرة). كان كلاهما مرتبطا الآن، مقيدا مثل العبيد، بهذا الفعل وقد ذاع وانتشر، ولكن على غير ترتيبات، أى منهما، السابقة. لقد ولج كلاهما اختبارا للإرادة، ليجدا نفسيهما، فقط مقيدين، وقد غطاهما ركام العملية التاريخية. إن استدارة واحدة لمنظار الألوان قد قادت إلى ما حدث. بورسواردن! ذلك الكاتب الذى كان مغرما للغاية بقوله: «سوف يعرف الناس يوما ما أن الفنان وحده هو القادر على جعل الأشياء تحدث بالفعل، وذلك هو الداعى إلى ضرورة أن يتأسس المجتمع عليه». لقد استخدم كلاهما فى موته مثل... أداة عامة، كأنما يقيم الدليل على صحة قوله المأثور! كانت هنالك موضوعات عديدةيمكن أن يتداولا حولها دون أن يفترقا بسبب

موته، لكنه وضعهما فى وضع غريب بنشره معلومة لا تعود بالفائدة على أى منهما! الآن كل شىء معلق على شعرة ـ أدق الحدود لاحتمال جديد. الإقدام على عمل، ذلك فى وسع ماونت أوليف، لكن إن كان عليه أن يفعل شيئا، فإن كلمة واحدة منه إلى ممليك باشا سوف تدخل قوى جديدة ومخاطر جديدة. . .

المدينة بإيقاعات الموت التى تستحوذ عليها تولول حولهما فى الظلام ـ نواح إطارات السيارات فى الميادين الخالية، واندفاع سفن الركاب، والصوت الزاعق لسفينة قاطرة فى الميناء الداخلى. وأحس بالمكان مترباً ينساق نحو الموت، كما لم يحس بذلك من قبل أبدا، وهو يستقر عاما بعد عام فى كثبان مريوط القاحلة. وأخذ يقلب عقله، مرة هنا ومرة هناك، كالساعة الرملية. نفس الأسئلة تتابع دون إجابة تصدر عن نفس المكان القاتم. وامتد، قبل كل ذلك، احتمال كارثة لم يعدا لها أى احتياطيات، رغم تقديرهما المخاطرة بدقة بالغة وموضوعية. كانت مسألة غريبة. إذ إن جوستين، رغم ذلك، وهى تمعن التفكير بطريقة عنيفة وقد مالت حواجبها إلى أسفل، وعقدت أصبعها أمام أسنانها، بدت غير مبالية أو مكترثة، واتجه قلبه إليها توقيرا لصمتها، (عينى العرافة التى لا تكترث ولاتبالى) الذى منحه القوة على التفكير وتقييم الغمة التى حلت به. يجب أن يستمرا وكأن شيئا لم يتغير، رغم أن كل شىء، فى الحقيقة، قد تغير. إن معرفة حقيقة ضرورة استمرارهما، طبقا لمجرى تحدد سلفا، دون الإفصاح عن ذلك، كفرسان سمروا فى ملابس مدرعة، كانت تتضمن كلا من الفراق ورباط جديد أشد عمقا، رفقة أكثر عاطفية، كتلك التى يعيشها الجنود وحدهم فى ميدان المعركة، وهم يعون أنهم قد تخلوا عن كل تفكير فى استمرارية الإنسانية والتى تتجسد فى الحب والعائلة، الأصدقاء والمنزل، وغدوا

فى خدمة إرادة حديدية تتبدى فى قناع الواجب المدرع . قال، وقد جفت شفتاه مما دخنه من سجائر : «يجب أن نعد لكل النتائج والعواقب، وأن نتماسك، على ما أرى، حتى يكتمل كل شىء - قرابة عيد الميلاد . ربما كان لدينا من الوقت أكثر مما نتخيل . وربما، حقيقة، لا ينتج، عن كل ذلك، أى شىء، أيا كان . ربما لم يخبر ماونت أوليف بالأمر» . إلا أنه أضاف، بعد ذلك، فى صوت مثقل خافت : «ولكن إن كان قد أخبر بالأمر، فإننا سوف نعرف، فسلوكه سوف يكشف ذلك على الفور» .

ربما وجد نفسه فجأة، عند زاوية، أى شارع من الشوارع، وجها لوجه مع رجل تسلح، بمسدس، فى أى ركن مظلم من أركان المدينة، أو ربما وجد طعامه، يوما ما، وقد سممه خادم مرتش . إنه قادر، على الأقل، فى مواجهة تلك النتائج على اتخاذ موقف، وذلك بدراسة مثل هذه الاحتمالات واتخاذ الحيطة الواجبة قبلها . ورقدت جوستين إلى جواره صامتة وقد اتسعت عيناها . قال : «وعلى ذلك يجب أن أتحدث غدا مع ناروز . يجب أن يبصر بالأوضاع» .

منذ أسابيع قليلة قبل ذلك، دخل إلى مكتبه ليجد سيرابامون الوقور ذا الشعر الفضى جالسا فى مقعد الضيوف، ساكنا يدخن . كان أكثر ملوك القطن القبط أهمية دون منازع . وقد لعب دورا حاسما فى تدعيم حركة الجماعة التى أنشأها نسيم . كانا صديقين قديمين رغم انتماء الرجل الأكبر سنا إلى جيل آخر . كان وجهه الوادع اللطيف وصوته الخفيض يحملان سلطة رجل متعلم متزن اتزانا أوروبيا . كان لحديثه ذلك النبض السريع لعقل مفكر متأمل . قال فى رقة : «نسيم، إننى هنا أمثل لجنتنا، لست بصفتى الشخصية فقط . إننى أقوم بمهمة غير محببة .

هل أتحدث إليك صراحة، دون حدة أو ضغينة؟ إننا فى حالة من القلق والاضطراب».

أغلق نسيم الباب بالمفتاح، فصل الهاتف، ضغط كتف سيرابامون فى مودة وهو يعبر من وراء المقعد الجالس ضيفه عليه ليصل إلى مقعده. قال: «إننى لا أبغى أفضل من ذلك. تكلم».

«أخوك. ناروز؟».

«حسنا، ماذا عنه؟».

«نسيم، عندما بدأت حركة الجماعة هذه، لم يكن فى حسبانك أى فكرة عن بدء الجهاد (*) ـ الحرب الدينية المقدسة ـ أو فعل أى شىء هدام يمكن أن يثير اضطراب الحكومة المصرية؟ بالطبع لم يكن هنالك شىء من هذا القبيل. هذا ما فكرنا فيه، ونحن إن كنا لحقنا بك، فإن ذلك قد نبع عن إيمان بما صرحته من قناعات عن وجوب اتحاد القبط وبحثهم عن مكان أكبر لهم فى الشئون العامة». واستمر: «إن وطنية جماعتنا لا تنال، بأى حال، من وطنيتنا كمصريين. أليس كذلك؟ لقد سعدنا ونحن نسمع ناروز يعظنا بحقائق ديننا وجنسنا، نعم، كنا سعداء للغاية، فهنالك حاجة لقول مثل تلك الأشياء، وحاجة للإحساس بها لكنك لم تحضر أى اجتماعات منذ شهور ثلاثة على وجه التقريب. هل تدرى أى تغيير حل بها؟ إن ناروز قد جرفته قوته، حتى إنه يقول اليوم أشياء يمكن أن تعرضنا جميعا لخطر شديد. إننا جميعا فزعون. إنه مملوء الآن بنوع ما من فكرة الدعوة. إن فى رأسه خليطا من شذرات غريبة من المعرفة. وتنساب منه، عندما يعظ، كل أنواع الأشياء فى فيض يغدو سيئا إن وضع على الورق وبلغ ممليك باشا». ثم حل صمت

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

طويل آخر وازداد شحوب نسيم خوفا وتوجسا، . واستمر سيرابامون فى صوته الخفيض الناعم الشمعى : «أن تقول إن القبط سوف يجدون لهم مكانا تحت الشمس شىء، وأن تقول إنك سوف تكتسح النظام الفاسد للباشوات الذين يمتكلون تسعين فى المائة من الأرض، أن تتحدث عن اضطلاعك بشئون مصر ووضع الأمور فى نصابها شىء آخر . . ».

«هل قال ذلك؟» تمتم نسيم. وأومأ الرجل الوقور.

نعم. «وشكرا الله أن اجتماعاتنا لا تزال سرية. وبدأ يهرف، فى النهاية، كشخص ملبوس (*). وصرخ أنه إذا كان من الضرورى تحقيق أهدافنا، فإنه قادر على تسليح البدو. هل يمكنك علاج تلك المشكلة؟».

ولعق نسيم شفتيه الجافتين. قال : «ليس لدى أى فكرة عن ذلك».

«إننا مضطربون للغاية، ومهتمون بمصير الحركة كلها فى ظل مثل تلك المواعظ. إننا نعتمد عليك للتصرف على نحو ما. يجب، يا عزيزى نسيم، أن يزجر، أو أن يفهم ـ على الأقل ـ دورنا. إنه يلتقى كثيرا بالعجوز تاور ـ إنه يذهب إليها كثيرا فى الصحراء. إننى لا أعتقد أن لديها أى أفكار سياسية، إلا أن يحصل، فى هذه اللقاءات معها، على دفقات دينية شديدة. إنه يتحدث عنها ويقول إنهما يركعان الساعات معا فوق الرمال، تحت الشمس الحارقة، ويصليان معا. «إننى أرى الآن رؤاها. وهى ترى رؤاى»، هذا ما يقوله. كما أنه بدأ يشرب شربا ثقيلا للغاية. إن الأمر يحتاج إلى انتباه عاجل».

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

«سوف أراه على الفور»، قال نسيم. واستدار الآن يحملق مرة أخرى فى الظلام، إن نظرة مطمئنة من جوستين سوف تكون أقوى منه بكثير، وردد العبارة لنفسه فى رقة، يجربها فى عقله كما يجرب المرء حد سكين يختبر حدتها. لقد توقف عن حضور الاجتماعات متعللا بهذا العذر أو ذاك، رغم إدراكه أنه يلزم اتخاذ موقف إن عاجلا أو آجلا. عليه أن يؤكد وجوده على ناروز ـ ولكن على ناروز مختلف عن ذلك الذى اعتاد معرفته دوما.

والآن يتدخل بورسواردن بطريقة خرقاء. دس موته وخيانته ليحمله، بأكثر من الكثير، بما يشغل باله، بكل تلك الأمور التى تهمه والتى لا يعرف ناروز عنها شيئا. وترك عقله المحموم فى مسارين متوازيين نحو اللانهاية... كان لديه إحساس بأن الأمور تطبق عليه، وبأن نفسه قد بدأت تختنق فى بطء تحت ثقل الاهتمامات التى ابتدعها هو. لقد بدأ كل شىء فجأة ـ فى غضون أسابيع. وبدأ الشعور بالعجز يزحف عليه، كل قرار يتخذ الآن بدا وكأنه لايصدر عن إرادته، إنه رد فعل لضغوط تأتى من خارجه. ضرورات العملية التاريخية التى امتصته وكأنه فى رمال متحركة.

كان من الضرورى، وقد غدا غير قادر على التحكم فى الأحداث، أن يتحكم فى نفسه، فى أعصابه. وحلت المهدئات. منذ أسابيع وحتى الآن، محل التحكم فى الذات. تخلص الوجدان مؤقتا وفقط من وخزاته. كان التدريب على استخدام المسدس عديم الجدوى تماما وطفوليا، لا يقدم إلا علاجا محدودا مؤقتا. كان فى قبضة أحلام طفولته، تهاجمه، تثور الآن دون سبب أو نتيجة، تكاد تسيطر على حياته وهو صاح يقظ. واستشار بلتازار، لكنه، بالطبع، غير قادر على

إشراكه فى همومه الحقيقية التى تثقل كاهله. واقترح عليه صديقه الماكر ضرورة تسجيل أحلامه على الورق كلما كان ذلك ممكنا. ونفذ ذلك الاقتراح. إلا أن الضغوط النفسية لا تدفع بعيدا ما لم يواجهها المرء بحق ويسيطر عليها، ما لم يخض معركة فى مواجهة أخطار سببها الكامن.

كان قد أرجأ لقاءه حتى يحس أنها أقوى وأكثر على مجابهته. ولحسن الحظ كانت اجتماعات المجموعة نادرة. إلا أنه كان يحس يوميا أنه أقل وأقل كفاءة على مواجهة أخيه. وكانت جوستين، فى الحقيقة، ، هى التى دفعته للذهاب إلى كرم أبو جيرج، بكلمة قالتها، وجاءت أخيرا فى وقتها المناسب ـ فقد أمسكت بطيتى صدر سترته وقالت فى بطء ووضوح: «إننى أستطيع أن أعرض عليك الذهاب إليه وقتله بنفسى، لو لم أكن أعرف أن ذلك سيؤدى إلى انفصالنا إلى الأبد. ولكن إن قررت ضرورة فعل ذلك، فإننى أملك شجاعة تنفيذ أوامرك». لم تكن بالطبع، تعنى ما تقول. كانت خدعة حتى يستعيد أحاسيسه. وصفا عقله فى طرفة عين، وذاب ضباب تردده وخوار إرادته. هذه الكلمات، بقدر ماكانت رهيبة، إلا أنها قيلت فى هدوء ودون تباه بما تحمله من تعميم، مما أعاد إيقاظ عاطفة حبه لها، حتى إن الدموع كادت تطفر من عينيه. وحملق فيها كما يحملق متعصب دينى فى أيقونة ـ وللحقيقة فإن ملامحها الآن وهى مكفهرة جامدة، وعينيها تشتعلان، كانت ملامح لوحة بيزنطية قديمة.

قال ويداه ترتعشان: «جوستين».

«نسيم»، قالت فى صوتها الأجش وهى تلعق شفتيها الجافتين، ولكن فى تصميم بربرى يبرق فى عينيها. قالت فيمايكاد يكون زهوا:

(وقد زالت العوائق): «سوف أخرج هذا المساء. لا تخشَ شيئا البتة. سوف تسوى كل الأمور على هذا النحو أو ذاك». وفجأة فاض بالقوة والتصميم على إعادة أخيه إلى رشده، وإبعاد الخطر الذى يهدد شعبه من القبط.

كانت حالة التصميم الجديدة لاتزال تسيطر عليه عندما خرج بعد الظهر فى سيارته، يقودها متعمدا فى سرعة، على امتداد الطرقات المرتفعة المتربة، عبر القنوات إلى حيث الخيل التى طلبها هاتفيا لتكون فى انتظاره. كان شغوفا بحق لرؤية أخيه الآن ومواجهته واستعادة تماسكه وذاته فى نظره هو. قابله «على» الوكيل عند مخاضة النهر بنفس الأدب المعتاد، والذى بدا مناسبا، مؤكدا هذا المزاج الجديد للتصميم. كان هو الابن الأكبر على أى حال. كان الرجل قد أحضر له حصان ناروز العربى الأبيض، وأخذا يخببان على امتداد حافة القنوات فى سرعة كبيرة، وانعكاساتهما تسابقهما إلى جوارهما فى المياه المتدفقة. سأل، فقط إن كان أخوه الآن بالمنزل، وتلقى من الكلام قليله لكنه يعنى أن أخاه هناك حقيقة. لم يتبادلا أى كلمة أخرى وهما سائران. كان ضوء الغسق البنفسجى يملأ الجو والأبخرة تتصاعد من البحيرة. وارتفع الهاموش فى تيارات فضية فى عين الشمس الغاربة، ليختزن آخر ذكريات الدفء فوق أجنحته. والطيور تجمع أسرها. كم بدا كل ذلك مسالما! وأخذت الخفافيش تنطلق بطيئة عبر الفراغ الأشد ظلاما. الخفافيش!.

كانت دار آل حصنانى، فى هذه القمة البنفسجية الرطبة، مندسة تحت ذراع تل منخفض، فى ظل القرية الصغيرة التى كانت مئذنتها لا تزال تضوى فى الغروب. وسمع الآن، بينما يترجل من فوق الحصان،

القرقعة الغاضبة للسوط. ولمح الرجل الواقف فى أعلى شرفة فى المنزل يحملق عمدا إلى أسفل إلى البركة الزرقاء فى الباحة. كان ناروز: ومع ذلك، وبصورة ما، لم يكن ناروز أيضا. هل يمكن لحركة واحدة، من شخص يكون المرء معتادا عليه، أن تكشف عما فى داخله من تحولات؟ الرجل الممسك بالسوط، الواقف هناك، المتفرس عن قصد فى بئر الباحة القاتم، يسجل فى وقفته تلك بذاتها زهوا جديدا مثيرا للقلاقل، سلطة لا تنتمى ـ إن جاز القول ـ لأى من الأدوار التى يمكن تذكرها لناروز. «إنه يتدرب»، قال الوكيل فى رقة وهو يمسك بلجام الحصان. «إنه يتدرب كل مساء على الخفافيش». وأحس نسيم فجأة بأنه فقد تماسكه. «الخفافيش؟»، كرر لاهثا فى رقة. وضحك الرجل الواقف فى الشرفة ـ الناروز الذى تسبب فى هذا الانطباع السريع ـ ضحك ضحكة مكتومة مفاجئة، وصاح فى صوت أجش: «ثلاثة عشر». ودفع نسيم الأبواب إلى الخلف، ووقف الآن، كأنما محاط بإطار، فى مواجهة الضوء الخارجى. وتحدث موجها كلامه إلى أعلى، والظلام يظلم، فى صوت هادئ، يكاديكون مخاطبة، يلقى به كما لو كان صادراً عن بطنه، نحو لابس العباءة، الواقف على قمة السلم فى الظلال، وسوطه الطويل الملفوف ساكن إلى جانبه. «ياناروز»، قال ناطقا التحية التقليدية لطفولتهما المشتركة.

«يانسيم»، جاء الرد بعد فترة، ثم هبط صمت طويل. ورأى نسيم الآن، وقد اعتادت عيناه العتمة، الباحة مليئة بجثث الخفافيش، مثل ندف من مظلة ممزقة، بعضها يرفرف، يزحف، فى نقر من دمه، والبعض راقد ساكن وقد تمزق. هذا، إذن، ما يفعله ناروز فى المساء، «يتدرب على الخفافيش». ووقف لحظة غير واثق من نفسه، غير واثق مما عليه أن يقوله. وأغلق الوكيل الباب خلفه بغتة، وللحال وقف

أسود فى مواجهة الظلام، يحملق فى أعلى السلم، حيث يقف أخوه المجهول وبه صلابة فى القلب، يقظة مترقبة. وشق خفاش طريقه عبر الضوء، ورأى ناروز يطوح ذراعه لا إراديا ثم يسقط إلى جانبه مرة أخرى. لقد كان قادراً فى وضعه المتميز هذا، على قمة السلم، أن يضرب ـ إن جاز القول ـ إلى أسفل مصيبا أهدافه. ولم يقل أى منهما شيئا لبرهة، ثم فتح باب له صرير، ملقيا بعمود من نور عبر الممر. وخرج الوكيل من البناية الملحقة ومعه مقشة وبدأ يكنس بها ندف الأجساد التى ترف من ضحايا ناروز والتى شوهت منظر أرضية الباحة الترابية. وانحنى ناروز إلى الأمام، قليلا، يرقبه عمدا وهو يفعل ذلك. وعندما كاد ينتهى من كنس كومة الأجساد الممزقة إلى باب البناية الملحقة، قال فى صوت أجش: «ثلاثة عشر، اه؟».

«ثلاثة عشر».

وأصاب صوته نسيم بالعصبية المملة. كان له صدى الواقع تحت تأثير مخدر ـ الصوت الأجش المتسلط لشيخ تعاطى الحشيش أو ربما الأفيون، صوت شخص يومىء من فلك جديد، من كون مجهول. وشد أنفاسه فى بطء حتى انتفخت رئتاه تماما، ثم توجه بالكلام، مرة أخرى، إلى أعلى، إلى الشخص الواقف على السلم، «ياناروز، لقد جئت لأتحدث معك فى موضوع على جانب كبير من العجلة».

«اصعد»، قال ناروز فى فظاظة، فى صوت كلب الأغنام. «إننى أنتظرك هنا، نسيم». وأوضح الصوت لنسيم أشياء كثيرة. كان صوت أخيه لايخلو البتة، من قبل، من رنة ترحيب، بل من رنة فرحة. كان فى أى وقت آخر يسرع هابطا السلم مرحبا بطريقة خرقاء، قافزا كل

درجتين فى مرة واحدة، وهو يصيح: «كم هو طيب منك أن تحضر!».
وسار نسيم عبر الباحة واضعا يده فوق الحاجز المترب. «الأمر مهم»، قالها فى حدة ووضوح ليؤكد أهميته الخاصة فى هذه اللوحة ـ الباحة بظلالها. والشخص المتفرد الواقف أعلى من الظلال فى مواجهة السماء، يمسك السوط الطويل فى خفة ودون جهد، يراقبه. كرر ناروز، «اصعد»، بنغمة أكثر انخفاضا، وفجأة جلس واضعا السوط إلى جواره، على قمة السلم. كانت تلك هى المرة الأولى ـ هكذا فكر نسيم ـ التى لا يقابل فيها بالترحاب عند عودته إلى كرم أبو جيرج. وسار يصعد السلم المنحدر، فى بطء، يدقق النظر إلى أعلى.

كان الضوء عند الطابق الأول أكثر، وكان هنالك ما يكفى منه عند قمة الطابق الثانى ليرى وجه أخيه. وجلس ناروز، ساكنا، فى العباءة والحذاء. وسوطه يرقد ملفوفا لفا خفيفا فوق الدرابزين ومقبضه فوق ركبتيه، وإلى جواره فوق الأرض الخشبية المتربة، كانت هنالك زجاجة جن نصف فارغة. كانت ذقنه غارقة فى صدره، وهو ينظر إلى أعلى نظرة ملتوية، من تحت حاجبين شعرهما كث طويل، ينظر إلى الغريب الذى يتقدم نحوه، بتعبير تمتزج فيه الشراسة بأسف غريب يشوبه التردد. كان يقوم بخدعته القديمة، يضغط أسنانه الخلفية معا ويطلقها حتى إن أوتار العضلات، عند الفودين، كانت تتمدد وتنكمش، كأن نبضا ثقيلا يدق فيها. أخذ يراقب صعود أخيه البطىء، وهو مكتئب يقسم الشك نفسه التى كان يزحف داخلها، من وقت لآخر، غضب يتوهج باللهيب، لكنه غضب محكوم. وتحرك ناروز، عندمابلغ نسيم البسطة الأخيرة ووضع قدمه على آخر درجات السلم، وصدر عنه نباح كالغرغرة ـ صوت يمكن أن يخاله المرء صوت كلب صيد. ومد يده كثيفة الشعر، وتوقف نسيم ليسمع أخاه يقول: «ابق حيث أنت،

نسيم»، فى صوت جديد آمر، لكنه لا يتضمن أى نبرة تهديد بذاتها. وتردد مائلا إلى الأمام بحدة، محاولا تفسير هذه الحركة غير المألوفة، واليد الربعة محدوفة، فى وضع يكاد يكون لعنًا، الأصابع ممدودة لكنها ليست مستقيمة تماما.

قال نسيم أخيرا، فى هدوء ولكن فى تقزز عميق الجرس: «لقد كنت تشرب. هذا أمر جديد عليك يا ناروز». وتلاعب ظل ابتسامة على شفتى شقيقه الملتويتين كأنه احتقار للذات، ثم اتسعت فجأة إلى تكشيرة بطيئة أظهرت شفته المشقوقة بكاملها، ثم اختفت، كأنما استرجعت فجأة بسبب فكرة لم يستطع تمثلها. وحل بناروز الآن إحساس جديد بتهنئة الذات المشوب بالقلق، إحساس بالاعتزاز من أنه كان تافها ذاهلا، ذات مرة. قال فى صوت أجش: «ماذا تريد منى؟ قل ما تريد هنا، فإننى أتدرب».

«دعنا ندخل إلى الداخل، حتى يكون الحديث خاصا».

هز ناروز رأسه فى بطء، قائلا فى وضوح، بعد أن قدر الأمر:

«يمكنك الحديث هنا».

«ناروز»، صاح نسيم فى حدة، وقد لدغته ردود الفعل تلك، غير المألوفة لديه. قال فى صوت من يوقظ نائما: «أرجوك». وحملق الرجل الجالس على رأس السلم فيه بإحساس غريب ملتهب وإن كان حزينا متكدرا، وهز رأسه مرة أخرى: «لقد تكلمت يا نسيم»، قال فى غموض ـ وتكسر صوت نسيم، وهو يتكلم بحدة فى صمت الباحة. قال، وهو يكاد يستدر شفقته: «يجب، فى بساطة، أن أتحدث معك. هل تفهم ما أعنى؟».

«تكلم الآن هنا، فأنا أستمع». كان الرجل الذى يرتدى العباءة، حقيقة، شخصية جديدة وغير متوقعة. أحس نسيم بالدماء تصعد إلى وجنتيه. تسلق درجتين أخريين وهويفحح فى إصرار، «ناروز، لقدجئت إليك من طرفهم. بالله عليك ماذا قلت لهم؟ لقد أثارت كلماتك رعب اللجنة». وتوقف وهو يحرك، فى تردد، المذكرة التى قدمها له سيرابا مون، وصاح: «هذه. . هذه الورقة منهم».

وتوهجت عينا ناروز لحظة بافتخار نشوان. بدا ملوكيا على نحو ما وهو يدفع بذقنه إلى الخارج، ويفرد كتفيه الهائلين على امتدادهما. «كلماتى يا نسيم؟»، دمدم فى غضب وهو يهز رأسه، «وكلمات تاؤر أيضا. عندما يحين الوقت سوف نعرف كيف نعمل. ليس هنالك ما يدعو أحدا للخوف، إننا لسنا من الحالمين».

«حالمين!»، صاح نسيم وهو يشهق، يكاد يجن لما بلغه من توجس وتقزز وخزى، فى أعمق أعماقه، لافتقاد أخيه الأصغر كيفية المخاطبة المعتادة: «أنت هو الحالم! ألم أشرح لك ألف مرة ما نحاول نحن عمله. . ماذا تعنى بكل ذلك؟ فلاح غبى أنت. . ». لكن تلك الكلمات التى كان من الممكن أن تنزل، ذات يوم، على عقل ناروز نزول المهاميز، بدت الآن كليلة، غير فاعلة أو مؤثرة، أغلق فمه بشدة، وأتى بحركة من راحته، بطيئة حادة، تقطع الهواء، أمام جسده، من اليسار إلى اليمين وصرخ فى صوت قاس أجش: «كلمات، إننى أعرف الآن، يا أخى». ونظر نسيم إليه، للحظة، فى وحشية، كأنما يبحث عن عون، يبحث عن آلة ما ثقيلة بما يكفى لدفع الحقيقة التى عليه قولها داخل رأس هذا الرجل الجالس. وأمسك به غضب هيستيرى. هياج ضد هذا المسطول الذى يواجه حججه دون فهم أو

إدراك. كان ينتفض. لم يكن، بالتأكيد يتوقع شيئا كهذا عندما بدأ من الإسكندرية ألمعى التصميم، متمالكا لعقله ونفسه.

«أين ليلى؟»، صاح فى حدة وكأنه يستصرخ عونها. وضحك ناروز ضحكة مكتومة أشبه بالطقطقة. ورفع أصبعه إلى فوده فى وقار وتمتم: «فى المنزل الصيفى، كما تعرف. لماذا لا تذهب إليها إن شئت؟». وضحك ضحكته المكتومة مرة أخرى، ثم أضاف وهو يومئ برأسه فى تعبير طفولى سخيف، «إنها غاضبة منك الآن. إنها غاضبة منك لمرة، وليست غاضبة منى. لقد جعلتها تبكى يا نسيم» وارتعشت شفته السفلى.

«مخمور»، فح نسيم فى يأس. وتوهجت عينا ناروز. وضحك ضحكة كالقعقعة، كنباح قصير، ثم ألقى برأسه إلى الخلف تماما. وفجأة ودون إنذار، اختفت الابتسامة، وظهر عليه مرة أخرى تعبير الذى يراقب فى حسرة وأسى. ولعق شفتيه وهمس، «يانسيم»، فى صوت خافت، وكأنه يستعيد فى بطء إحساسه بقدره. إلا أن نسيم، وقد ابيض لونه غضبا، كان يكاد يفقد عقله خيبة وإحباطا. وصعد الدرجات القليلة المتبقية، وهز ناروز من كتفه، صارخا: «إنك أحمق، تضعنا جميعا فى موضع الخطر. انظر إلى هذه من سيرابامون. إن اللجنة سوف تنفض مالم توقف الكلام على هذا النحو. هل تفهم؟ أنت مجنون يا ناروز. أستحلفك بالله يا ناروز أن تفهم ما أقول..». إلا أن رأس أخيه الكبيرة بدت ذاهلة الآن، تمسك بها خلجات التعبيرات المتناقضة، مثل الذؤابة المحنية لثور تحرش به أحدهم بما يجاوز احتماله. «ناروز، استمع إلى». وبدا الوجه الذى ارتفع فى بطء أمام نسيم، كأنما قد نما بصورة أكبر وأكثر فراغا، والعينان أكثر قتامة،

وهما، مع ذلك، مليئتان بنوع جديد من المعرفة يدين بالقليل لثورات العقل العقيمة، مليئتان أيضا بنوع من الغضب والغموض، من الارتباك والقلق، الذى يبحث عن مخرج يعبر به عن نفسه. وحملق كل منهما فى الآخر فى غضب. كان نسيم أبيض حتى الشفاه وهو يلهث، إلا أن أخاه، جلس ـ فى بساطة ـ يحملق فيه، وقد شدت شفتاه فوق أسنانه البيضاء وكأنه قد نوم تنويما مغناطيسيا.

«هل تسمعنى؟ هل أصابك الصمم؟». كان نسيم يهزه، إلا أن ناروز أزاح اليد التى تلح عليه بهزه من كتفيه العريضتين، بينما أخذ وجه فى الاحمرار. واستمر نسيم، لا يبالى، تجرفه همومه المشتعلة والتى انهمرت منه تكتسى بفيض من اللوم والتأنيب: «لقد وضعتنا جميعا فى موضع الخطر، حتى ليلى، حتى أنت نفسك، حتى ماونت أوليف». لماذا قادته المصادفة إلى هذا الاسم القاتل؟ بدا أن نطقه قد كهرب ناروز وملأه بشعور جديد يكاد يكون استماتة ظافرة.

«ماونت أوليف»، صرخ بالاسم فى صوت عميق يشوبه الأنين. وأخذ يطحن أسنانه دون صوت. بدا كأنه يوشك أن يجن. ومع ذلك، لم يتحرك، رغم أن يده تحركت لا إراديا إلى مقبض السوط الكبير الراقد فى حجره. «ذلك الخنزير البريطانى!». خرجت من فمه فى هياج مدو، يكاد يبصق الكلمات.

«لماذا تقول ذلك؟».

وهنا حدث تحول آخر فى مفاجأة غير متوقعة، استرخى جسد ناروز كله وهدأ، نظر إلى أعلى فى مكر، قال وهو يضحك ضحكة مكتومة قصيرة، فى نبرة مجردة تعلو قليلا على الهمس. «لقد بعت أمنا إليه، يا نسيم. وكنت تعلم أن هذا يمكن أن يؤدى إلى وفاة أبينا».

كان ذلك أكثر مما يحتمل، وسقط نسيم عليه يخبطه بجميع قبضته، يطلق اللعنات بعد اللعنات بالعربية، يضربه. إلا أن ضرباته سقطت على جسده الهائل كأنما هى ممازحة. لم يتحرك ناروز، لم يبد أى محاولة لتفادى ضربات أخيه أو الرد عليه. هنا، على الأقل، كانت آدمية نسيم مصانة. لم يستطع أن يرد لكمات أخيه الأكبر. لكنه جلس منثنيا يضحك ضحكته المكتومة تحت وابل لكمات لا جدوى منها، ويكرر الكلمات مرة بعد أخرى، فى غل وضغينة، «لقد بعت أمنا!».

وظل نسيم يضرب حتى امتلأت عقد أصابعه بالكدمات والألم. وطأطأ ناروز رأسه تحت ثقل هذه الهجمة العنيفة المحمومة، يتحملها بنفس الابتسامة الساكنة الجأش فى مرارة من يتأثر سريعا، يكرر الجملة المنتصرة، مرة بعد أخرى، بعذا الهمس المثير. وأخيرا صرخ نسيم: «كف عن ذلك». وكف هو نفسه، واقعا فوق حاجز السلم، ساقطا تحت ثقل ما أصابه من إرهاق. كان جسده كله ينتفض. هز قبضته إلى أعلى نحو الشخص الداكن الجالس هناك. وقال فى غير ترابط: «سوف أذهب بنفسى إلى سيرابامون. سوف ترى من هو السيد». وضحك ناروز ضحكة ازدراء قصيرة، لكنه لم يقل شيئا.

وأصلح نسيم ملابسه الشعثاء. ترنح وهو يهبط السلم إلى الباحة المظلمة. كان جواده وجواد «على» مربوطين إلى العمود الحديدى خارج الباب الأمامى الكبير. كان نسيم لا يزال ينتفض ويتمتم وهو يمتطى الحصان. ركض الوكيل خارج البواكى وأزاح ترابيس الأبواب. كان ناروز واقفا الآن، يمكن رؤيته فقط فى انعكاس ضوء غرفة المعيشة. وشرارات من غضب متناثر تعصف بعقل نسيم، وقد خارت عزيمته. أدرك أن المهمة التى جاء من أجلها، بعدت عن التحقيق. لقد

التوت حقا وتعثرت. ولاحت له بصورة غير مكتملة فكرة أن يقدم للشخص الصامت فرصة أخرى لفتح الحديث معه، أو البحث عن سبيل لعودة التواصل الودى. اتجه بحصانه إلى داخل الباحة، جلس هنا ينظر إلى أعلى فى الظلام. تحرك ناروز. قال نسيم فى رقة: «ناروز. لقد قلت لك مرة وأقولها الآن للجميع، سوف ترى من منا سوف يكون السيد. إنه من الحكمة لك أن. . ».

إلا أن الشخص الداكن نهق كالحمار ضاحكا.

صاح فى ازدراء: «سيد وخادم. نعم يا نسيم، سوف ترى، والآن. . ».

ومال فوق الحاجز. وسمع نسيم فى الظلام انزلاق السوط الكبير على امتداد الألواح الخشبية الجافة كالكوبرا، وأحس لسعة هواء الغسق الساكن فى الباحة. كانت هنالك قرقعة ونتشة أشبه بإغلاق مصيدة فئران عملاقة. ونُفضت حزمة الأوراق التى فى يده بطريقة حادة، فتناثرت فوق أحجار الأرضية وضحك ناروز مرة أخرى، بطريقة أكثر هيستيرية. وأحس نسيم بحرارة قرعة السوط رغم أن هدبه لم يلمسه.

«والآن، اذهب»، صاح ناروز. وفح السوط فى الهواء مرة أخرى لينفجر مهددا عجيزة حصانه، ونهض نسيم فى ركابه، هازا قبضته مرة أخرى، نحو أخيه وهو يصيح: «سوف نرى!».

إلا أن صوته خرج رفيعا، مصدوما بكل اللعنات التى ملأت عقله. دفع بكعبيه جنبى الحصان، وانثنى فجأة ليعدو خارج الباحة، والشرر يقدح من حجر العتبة، وقد مال فوق السرج. وانطلق ممتطيا الحصان إلى مخاضة النهر، حيث كانت السيارة فى انتظاره. كان يبدوكمن جن

وقد شوه الغضب وجهه. وأبطأ نبضه وهو راكب وانفتأ غضبه فى تقزز كريه فاض به عقله فى لفات بطيئة أشبه بحية سامة. وأخذت تغزوه، أيضا، موجات غير متوقعة من الندم وعذاب الضمير، فقد أضير الآن شىء لا يمكن إصلاحه، الرباط الحديدى لعلاقة الأسرة، تحطم إلى حد لا يرجى صلاحه. لقد جرد من السلطة المخولة للابن الأكبر طبقا لنمط الحياة الإقطاعية، وأحس فجأة أنه ضال، يكاد يكون يتيما. كان هنالك، فى قلب غضبه إحساس بالذنب، كأنما أغرى نفسه بهذه المعركة غير المتوقع مع واحد من أقربائه وساق السيارة فى بطء وهو يعود إلى المدينة، يحس دموع إرهاق جديد تنثال على وجنتيه، شعور جديد بالشفقة على ذاته.

كم هو غريب، إنه تنبأ بهذه القطيعة التى لا علاج لها مع أخيه، على نحو ما، ودون أى تفسير ـ منذ أول جمل متحفظة قالها سيرابامون تكهن نسيم بما حدث وخافه. لقد أثار ذلك مرة أخرى شبح واجباته ومسئولياته نحو الأهداف التى بدأها والتى عليه الآن خدمتها. إن الوضع المثالى، إذن، يوجب عليه أن يكون مستعدا لمثل تلك الأزمات، أن يعزل ناروز، أن يخلع ناروز، وحتى إن اقتضى الأمر. . . ! (وضبط فرامل السيارة، فتوقفت، وجلس يتمتم. لقد قلب هذه الفكرة فى رأسه للمرة المائة. إلا أن طبيعة تحقيقها يجب أن تكون واضحة، بما يكفى، لمن كان فى مثل هذه الحال. إنه لم يفهم ناروز أبدا. فكر فى ذلك كمن يتمنى شيئا بعيد المنال. ولكن ليس عليك أن تفهم أحدا حتى تحبه. إن قبضته لم تكن، حقيقة، عميقة مؤسسة على التفاهم. كان مخولا بناء على الأعراف الأسرية التى ينتمى إليها كليهما. والآن تمزق الرباط فجأة). وضبط عجلة القيادة بكف متألم وصاح: «لن أؤذيه أبدا».

ودفع دبرياج السيارة وهو يكرر: «أبدا»، مرة بعد أخرى فى عقله. ومع ذلك، كان يعرف أن هذا القرار سوف يكون نقطة ضعف أخرى، فقد هتك حبه فكرته المثالية عن الواجب. وهنا جاء قرينه لنجدته بتعبيرات وصياغات مثل: «إن الأمر، حقيقة، ليس بهذا القدر من الخطورة. نحن بالتأكيد، يمكننا حل الحركة مؤقتا، ونسأل سيرابامون، فيما بعد، أن يبدأ شيئًا مماثلاً. فى وسعنا أن نعزل وأن نطرد هذا.. المتعصب». لم يكن يدرى البتة، دراية كاملة، كم أحب هذا الأخ المكروه، والذى يمتلئ عقله الآن بأحلام تنصب شاعريتها الدينية على مصرهم جديدة، على مستقبل مثالى. «يجب أن نجسد إطار الأبدية هنا فى الطبيعة فوق الأرض، فى قلوبنا، فى ذات مصر التى هى لنا». هذا ما قاله ناروز بين أشياء أخرى كثيرة ملأت النسخة المفصلة التى أمر سيرابامون بإعدادها. «يجب أن نجاهد هنا فوق الأرض ضد الظلم الدنيوى، وفى قلوبنا ضد ظلم لاهوت لا يحترم إلا نضال الإنسان كى يمتلك روحه». هل هذه الكلمات، فى بساطة، هذيان ناروز، أم هى جزء من حلم مشترك تحدث عنه الجاهل المتعصب؟ وجاءت إلى عقله عبارات أخرى تزينها روعة الشعر، «أن تَحكم يعنى أن تُحكم، إلا أنه يجب أن يكون الحاكم والمحكوم متفانيين فى أداء دورهما المقدس، متفانيين لميراثهما الإلهى. إن طين مصر يهب لتغص به رئاتنا، الرئات التى نصرخ بها للإله الحى».

لقد تشكلت لديه صورة فجائية لهذا الوجه المعوج، للصوت الضعيف الذى كان يشهق به ناروز فى ذلك اليوم، وقد حلت به الجلالة، فأخذ يستصرخ الروح القدس أن تزوره ومعها الحقيقة جهيرة. «مدد! مدد!»(*). ثم بدأ يتضح له فى بطء وبطريقة متناقضة أن ناروز

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

كان على حق فى رغبته أن يشعل الإرادة النائمة ـ فقد رأى العالم، ليس كطاولة شطرنج سياسية، ولكن كنبض يقرب فى إرادة أكبر، يمكن فقط لشعر المزامير أن يستدعيها، وهلم جرا. أن يوقظ ليس فقط نبضات المخ الأمامية بصياغاتها المحدودة، ولكن الجمال الراقد تحتها ـ الضمير الشاعرى الذى يرقد ملتفا مثل الزنبرك فى قلب كل امرئ. لم تخفه هذه الفكرة ولو قليلا، فقد رأى فجأة أنه من الممكن لأخيه أن يكون قائدا دينيا، لكن ظروف الزمان والمكان ـ هذه الظروف يمكن لنسيم، على الأقل، أن يحكم عليها ويقدرها. كان فلتة من فلتات الطبيعة، ولكن يجب أن توجه قواه إلى مجال قحل عقيم، مجال لا يمكن أن يغذى هذه القوى أبدا، مجال يخمدها حقيقة إلى الأبد.

وصل المنزل. ترك السيارة عند البوابة. أسرع يصعد السلالم كل ثلاث درجات فى مرة واحدة. هاجمته واحدة من نوبات الإسهال والقيء المعتادة والتى تكاثرت فى الأسابيع القريبة. مر عبر جوستين التى كانت ترقد فوق السرير وقد فتحت عينيها على اتساعهما، ولمبة القراءة مضاءة، وقطعة بيان موسيقية كونشرتو فوق صدرها. لم تتحرك. كانت تدخن وهى تفكر. لم تقل شيئا غير همسة: «لقد عدت سريعا». اندفع نسيم إلى الحمام. فتح صنابير حوض الغسيل والدش فى نفس الوقت ليتخلص من قيئه. خلع ملابسه فى تقزز، كأنها ضمادات قذرة. تسلق ليقف تحت الماء المغلى الذى كان ينهال عليه، ليغسل كل الإهانات التى غمرت أفكاره. كان يعلم أنها لابد تسمع وهى تفكر، تدخن وهى تفكر، حركاتها مثل البندول فى انتظار أن يتكلم، تنام ممدة بطولها تحت رف الكتب، وقناع يطل عليها من الحائط يبتسم ساخرا. وأغلقت المياه وسمعته يحك نفسه بعنف بالبشكير.

«نسيم»، نادت فى رقة.

«كانت الرحلة فاشلة»، صاح فى الحال: «إنه مجنون تماما يا جوستين. لم أستطع أن أخرج منه بأى شىء. كان الأمر مروعًا».

واستمرت جوستين تدخن فى صمت وقد ثبتت عينيها على الستائر. امتلأت الحجرة بعبير نبات الوسمة الذى كان يحترق فى آنية الزهور إلى جوار الهاتف. وضعت نوتة الموسيقى إلى جوار السرير. «نسيم»، قالت فى صوتها الأجش الذى يحبه كثيرا.

«نعم».

«إننى أفكر».

وخرج فى الحال، أشعث الشعر، عارى القدمين، يرتدى الروب الحريرى الأصفر، وقد دفع بيديه عميقا فى جيبيه وسيجارة مشتعلة تحترق فى ركن فمه. سار فى بطء جيئة وذهابا قبالة أسفل السرير. قال فى دقة محسوبة: «كل هذا القلق والتوجس يأتى من خشيتى أن نصيبه بالضرر. إلا أننا، حتى لو كنا معرضين بسببه للخطر، يجب ألا نصيبه بالضرر أبدا، أبدًا. لقد قلت ذلك لنفسى. لقد فكرت فى الأمر برمته. إن المسألة تبدو وكأننا فشلنا فى أداء الواجب. إلا أننا يجب أن نكون واضحين حولها. حينئذ فقط يمكننى أن أسترد هدوئى. هل أنت معى فى ذلك؟».

نظر إليها، مرة أخرى، بعين خياله، فى شوق وحنين. رقدت هنالك كأنها تطفو فوق غطاء الفراش الداكن الدمشقى، وقد تقاطعت يداها ورجلاها على طريقة الصور المنحوتة، وعيناها الداكنتان مثبتتان عليه، وخصلة شعرها الفاحم تتلوى فوق جبينها. رقدت فى صمت حجرة أوت (إن كان للجدران آذان) أكثر تأملاتهم سرية، تحت قناع

تبتى أضيئت مقلتا عينيه. وخلفهما تلمع أرفف الكتب التى جمعتها رغم أنها لم تقرأها كلها. (إنها تستخدم نصوصها كطوالع للمستقبل. تقلب صفحاتها، تضع أصبعها عرضا على اقتباس منها ـ ويسمى هذا الفن «فتح البخت فى التوراة». شوبنهاور، هيوم، سبنجلر، ومن الغريب أيضا بعض الروايات منها ثلاث لبورسواردن. كان تجليدها المصقول ينعكس فى ضوء الشموع. جلت حنجرتها، أطفأت سيجارتها، قالت فى صوت هادئ: «يمكننى أن أستسلم لما تقول، إن ضعفك الصحى، فى هذه اللحظة، خطر على كلينا. إذ إن صحتك تثير قلقنا جميعا، ولا يقل قلق بلتازار عنا. حتى أن أقل الناس ملاحظة، مثل دارلى، قد بدأوا يلاحظون». إن هذا ليس أمرا طيبًا. كان صوتها باردا خاليا من أى نبرة.

«جوستين»، وفاض إعجابه بها. جلس على السرير إلى جوارها، وضع ذراعيه حولها واحتضنها فى عنف. برقت عيناه فى زهو جديد، فى امتنان جديد. قال: «إننى ضعيف للغاية».

مدد نفسه إلى جوارها، واضعا ذراعيه خلف رأسه، راقدا فى صمت، مفكرا. رقدا هكذا طويلا، صامتين، جنبا إلى جنب. أخيرا قالت:

«جاء دارلى الليلة للعشاء. غادر قبل مجيئك مباشرة. سمعت منه إن كل السفارات سوف تحزم متاعها الأسبوع المقبل للعودة إلى القاهرة. إن ماونت أوليف لن يعود إلى الإسكندرية قبل عيد الميلاد. تلك، أيضا، فرصتنا للراحة وإنعاش قوانا. لقد أخبرت سليم أننا سوف نذهب إلى أبو صير الأسبوع المقبل، مدة شهر كامل. يجب أن تستريح الآن يانسيم. يمكننا أن نستحم ونمتطى الخيل فى الصحراء

ونفكر فى لا شىء. لا شىء. هل تسمعنى؟ سوف أدعو دارلى، بعد فترة، ليأتى ويقيم معنا، مدة ما، حتى تجد من تتحدث معه غيرى. إننى أعلم أنك تحبه وتجد فيه زميلا ممتعا حسن المعاشرة. سوف يكون ذلك حسنا لكلينا. يمكننى أن أحضر إلى هنا، ما بين الحين والحين، لأقضى ليلة وأرى ماذا يجرى.. ماذا تقول فى ذلك؟» وأنَّ نسيم فى رقة وأدار رأسه. «لماذا؟»، همست فى رقة، وأدارت شفتيها بعيدا عنه، «لماذا تفعل ذلك؟».

تنهد فى عمق وقال: «ليس الأمر كما تعتقدين. أنت تعرفين كم أحبه، وكيف أنناعلى علاقة جيدة. إن الأمر فقط، فى الادعاء والمظهر الكاذب، تلك التمثيلية الأبدية التى على المرء أن ينغمس فيها حتى مع صديقه. لو كان فى وسعنا، فقط أن نكف عن التمثيل فترة يا جوستين».

إلا أنه رآها تنظر إليه الآن وقد اتسعت عيناها، فى تعبير ينم عن شىء أقرب إلى الفزع أو الرعب. «آه»، قالت وهى تفكر متكدرة للحظة وقد أغلقت عينيها: «آه، يا نسيم! إذن كان على أن أعرف من كنت أنا».

* * *

جلس الرجلان فى زمالة كاملة، فى المستنبت الزجاجى الدافئ، فى صمت، يواجه الواحد منهما الآخر، وفيما بينهما رقعة الشطرنج الرائعة بقطعها العاجية. كانت المجموعة هدية من والدة ماونت أوليف فى عيد ميلاده الواحد والعشرين. كان كل منهما يتحدث، بغير انتباه، فى صوت مرتفع، مابين الحين والحين، وهما جالسان. لم يكن ذلك حديثا متبادلا، لكنه كان، فى بساطة تفكيرا بصوت مرتفع، مشاركة

بين عقليهما المشغولين حقا بالاستراتيجية الكبرى للشطرنج: ناتج جانبى لصداقة تأصلت خلال الصمت المثمر الخصيب للعبة الملوكية. تحدث بلتازار عن بورسواردن: «يضايقنى، انتحاره. إننى أشعر، على نحو ما، بافتقادى للهدف. لقد اعتبرته تعبيرا عن ازدراء العالم، إزدراء لمسلك العالم».

ونظر ماونت أوليف فى سرعة إلى أعلى: «كلا، كلا. لقد كان نزاعا بين الواجب والعاطفة». ثم أضاف فى عجلة: «إننى لا أستطيع أن أخبرك بالكثير. ربما تخبرك شقيقته بالمزيد، إن استطاعت، عند حضورها». وصمتا. وتنهد بلتازار قائلا: «الحقيقة عارية دون خجل. تلك جملة رائعة. لكننا نراها دوما كما تتبدى، وليس كما هى البتة. ولكل إنسان تأويله الخاص».

ثم صمت آخر طويل. وغرق بلتازار فى تأملاته يثرثر لنفسه. «يضبط أحدهم فى بعض الأحيان متظاهرا بأنه إله، ثم يتعلم درسا مرًا. إننى أكره ديمترى رانديدى، رغم أنى لا أكره ابنته الجميلة. وحتى أذيقه الهوان (تنكرت فى زى امرأة غجرية، فى حفل الكرنفال الراقص)، أخبرتها بطالعها. قلت لها إنها ستمر فى الغد بتجربة عمرها، وعليها ألا تضيعها. بأى حال من الأحوال ـ رجل يجلس فى القلعة الخربة فى تابوسيريس. «لا تتكلمى. توجهى مباشرة إلى ذراعيه وعيناك مغلقتان. إن اسمه يبدأ بالحرف ل، واسم عائلته بالحرف ج. (كنت، حقيقة، قد فكرت، بالفعل، فى شاب بشع، يحمل اسمه هذين الحرفين، وكان يقيم عبر الطريق، أمام الحفل الراقص لآل سيرفونى. كانت أهداب عيونه عديمة اللون، له زلومة، وشعره فى لون الرمال). وضحكت ضحكة مكتومة عندما صدقتنى. وبعد أن

قلت لها هذه النبوءة فالكل يصدق قصص الغجر، وكنت أبدو كغجرية رائعة بوجهي الأسود وأنفي الأشبه بالخطاف ـ رتبت الأمر. عبرت الطريق وبحثت عن ل. ج. وقلت إنني أحمل له رسالة. كنت أعرف أنه متطير، ممن يؤمنون بالخرافات. لم يتعرف علي. أخبرته بالدور الذي عليه أن يلعبه. كان تصرفا خبيثا مؤذيا كما أعتقد. كنت أخطط فقط لمضايقة رانديدي. وسار كل شيء كما خططته. أطاعت الفتاة الجميلة ما قالته لها الغجرية وسقطت في حب هذا الضفدع المنمش البشرة أحمر الشعر. لا يمكن تصور قران يفتقد الملاءمة مثل هذا القران. لكن الفكرة كانت أن أجعل رانديدي يخجل. ولقد حدث ذلك، حقا، وبصورة كبيرة للغاية، وسعدت تماما بذكائي. بالطبع منع هو الزيجة. وانفصل العاشقان اللذان اخترعتهما. وتجرعت جابي رانديدي الفتاة الجميلة، السم. لا تتصور شعوري بمدى ذكائي. وحطم ذلك صحة الأب، وتملكته النورستينيا (والتي لم تكن تبعد كثيرا عن مظهر الأسرة). ولقد وجد الرجل في الخريف الماضي معلقا في العريشة التي تدعم أشهر كرمة عنب في المدينة، والتي منها..».

وكان من الممكن سماعه يقول في الصمت الذي تلا الكلمات: «إنها مجرد قصة أخرى من قصص مدينتنا التي لا ترحم. ولكن كش ملك، إن لم أكن مخطئا..».

* * *

(١٣)

وجد ماونت أوليف نفسه مع أولى فقاقيع الخريف وقد عاد إلى دورة الشتاء فى القاهرة. ليس هنالك من شىء له أهمية أساسية، كما هو مقرر حتى الآن فى المجال السياسى. لقد التزمت لندن الصمت فى مواجهة ما كشف عنه خطاب بورسواردن الوداعى، كان من الواضح أنها أقرب إلى تدبر الأمر، من مواساة رئيس بعثة أثبت تابعوه أنهم جديرون بعدم الثقة، وذلك بدلا من توجيه النقد إليه أو تعريض الأمر كله لمزيد من الفحص والتدقيق. وربماجاء التعبير عن ذلك الإحساس أفضل تعبير فى الخطاب الفخيم الطويل الذى أرسله كنيلورث، والذى بدا فيه مستعدا لمناقشة المأساة، مقدما تأكيداته، أن كل من فى المكتب كان حزينا وإن لم يكن مفاجأ. كان ينظر دوما إلى بورسواردن باعتباره، ، أقرب إلى الإفراط وتجاوز الحدود. ألم يكن كذلك؟ ومن الواضح أن مثل تلك العقبة . كانت محل تكهن منذ زمن طويل. كتب كنيلورث «إن سحر» أسلوبه فى كتابة النثر الفخيم، والذى كان يستخدمه فيما كان معروفا «بالتقدير المتوازن» لم يستطع إخفاء انحرافه وشذوذه. إننى لست فى حاجة إلى الإفاضة عن ملفه الشخصى الذى أريته لك. فليسترح. إلا أنك حزت تعاطفنا للطريقة الوفية، التى أزحت على أساسها، كل هذه الاعتبارات جانبا؛ لتعطيه فرصة أخرى، مع بعثة كانت تجد بالفعل أن سلوكياته لا تطاق ولا تحتمل. وأن وجهات نظره غير صحيحة». وتلوى ماونت أوليف وهو يقرأ،

ومع ذلك فإن اشمئزازه اختلط على نحو معقول بشبح من راحة، حيث رأى ظلى نسيم وجوستين، الخارجين على القانون، رابضين وراء ماكان يجرى.

كان مترددا فى مغادرة الإسكندرية، إذ إن مشكلة ليلى، التى لم تكن قد حلت بعد، كانت تثير ضجره لكثرة ماكان يحسه من تأنيب. كان وجلا من الأفكار الجديدة التى كان عليه أن يضعها فى الحسبان، والخاصةبها وباحتمال مشاركتها فى المؤامرة - إن كان الأمر كذلك، وأحس كمجرم يأوى بالفعل إثما ما لم يكتشف بعد. أليس من الأفضل أن يشق طريقه إليها - أن يصل، دون الإعلان عن مقدمه إلى كرم أبو جيرج ذات يوم، وأن يلاطفها ليستخرج الحقيقة منها؟ إلا أنه لم يستطع فعل ذلك. خانته أعصابه عند هذه النقطة. وحاد بعقله عن المستقبل المشئوم، وحزم متاعه والحسرة تملؤه على رحلته، مخططا للانغماس، مرة أخرى فى المجرى الفاتر لنشاطاته الاجتماعية حتى ينأى بعقله عما يشغله.

بدا ولأول مرة، كيف يمكن لجذب واجباته الرسمية أن يكون ممتعا، يكاد يستهويه. تابع الجولة الواجبة للمتع والتسلية، التى تقتل الوقت، وتقتل فى الحال الألم، بتركيز واهتمام جعلها تبدو وكأنها تكاد تكون مخدرا. إنه لم يشع أبدا مثل هذا السحر الذى قصد إظهاره، ولا مثل هذه الفطنة واليقظة للتفاهات المحكمة والتى تحولت إلى أمور محببة اجتماعيا. مستعمرةكاملة من ثقيلى الظل بدأت تنشده وتتلمسه. لم يمض غير وقت قصير حتى بدأ الناس يلاحظون كم كبر فى العمر، ويعزون هذا التغيير إلى الدورة التى لا تتوقف والتى ألقى بنفسه فيها بمثل هذا الحماس النهم. واتسعت، يا للغرابة - شعبيته حوله

فى موجات، لكن بدا له الآن، أن هنالك القليل بحق يكمن وراء هذا القناع الرشيق الخامل الذى قدمه هو إلى العالم، باستثناء شعور بالفزع وعدم اليقين، كان جديدا عليه تماما. وأحس أنه، وقد انقطع مابينه وبين ليلى، على هذا النحو، قد جرد مما كان يمتلك، قد تيتم. إن كل ما بقى له هو جرعة مرارة الواجبات التى كان يقوم بها وهو فى حالة من اليأس.

استيقظ فى الصباح على صوت الستائر يسحبها رئيس الخدم فى بطء وإجلال، كما يفعل المرء وهو يعيد إغلاق ستائر مقبرة جوليت فى انسياب ـ كان فى إمكانه أن يطلب الصحف ويقرأها فى شغف بينما يتناول إفطاره من صينية محملة بالأطياب الواجبة والتى اعتادها بسبب نمط حياته، لكنه كان بالفعل قلقا فى انتظار طرقات على الباب تعلن ظهور سكرتيره الثالث الشاب ذى اللحية، وقد أحضر معه دفتر مواعيده والمهام الأخرى المرتبطة بعمله. كان يأمل بشدة أن يكون اليوم حافلا زاخرا، إذ كان يحس بالغم فى المناسبات النادرة التى كانت فيها الارتباطات التى عليه إنجازها قليلة. ورقد إلى الوراء مستندا إلى الوسائد متحكما فى قلقه ونفاد صبره بينما كان دونكين يقرأ جدول أعمال اليوم بطريقة من يتلو رسميا قانون الإيمان المسيحى. كانت هذه الارتباطات ذات الجرس الممل، فى المعتاد، ترن فى أذنى ماونت أوليف بنغم واعد وبتذكرة طبية لعلاج السأم والقلق. كان يستمع إلى الصوت وهو يتلو فى اضطراب حسى: «هنالك زيارة لراهاد باشا فى الحادية عشرة لتقديم «مذكرة معونة» عن الاستثمار، بواسطة رعايا بريطانيين. البيانات فى قسم الاستقبال، سيحضر سير جون وليدى جيليات للغداء. كان إيرول فى استقبال الطائرة، نعم، أرسلنا زهورا إليها فى الفندق، سوف يوقعان اليوم، فى الحادية عشرة، على

الكتاب. ابنتهما منحرفة الصحة، مما أربك نظام الجلوس ساعة الغداء، وحيث إنك دعيت بالفعل هايدا باشا، السفير الأمريكى، فإننى أعطيت نفسى حق دعوة إيرول وزوجته، سيكون الجلوس هكذا. لم أكن فى حاجة إلى استشارة قسم البروتوكول حيث إن سير جون هنا فى زيارة خاصة، لقد أعلن ذلك رسميا فى الصحف». ووضع المذكرة المكتوبة، على الآلة الكاتبة، كتابة جميلة على ورق متصلب فى أعلاه، وتنهد ماونت أوليف قائلا: «هل رئيس الطهاة الجديد جيد؟ أرسله إلى فيما بعد إلى مكتبى، فأنا أعرف الطبق المفضل لآل جيليات».

وأوما دونكين وهو يخربش مذكرة بذلك قبل أن يستمر فى صوت رتيب: «فى السادسة هنالك حفل كوكتيل للسير جون عند آل هايدا، لقد قبلت أنت أن تتعشى فى السفارة الإيطالية ـ العشاء على شرف سنيور ماريبور. سوف يكون الرداء مناسبا».

«سأبدل ملابسى قبل الذهاب»، قال ماونت أوليف مفكرا:

«هنا، أيضا، فى يدك مذكرة أو اثنتان لم أستطع تفسيرهما تماما، يا سيدى، واحدة منهما تذكر بازار العطور، الزنابق الفارسية».

«حسنًا، نعم. لقد وعدت باصطحاب الليدى جيليات. رتب من فضلك، وسيلة الانتقال للزيارة، ودعهم، هناك، يعرفون، أننى قادم بعد الغداء ـ لنقل فى الثالثة والنصف».

«ثم هناك مذكرة تقول، هدايا الغداء».

«آه، نعم»، قال ماونت أوليف: «إننى أصبحت شرقيا تماما، إن سير جون، كما ترى، يمكن أن يكون مفيدا للغاية لنا، فى لندن، فى المكتب؛ ولذا فكرت أن أجعل زيارته مشهودة قدر الإمكان. أنا أعرف

اهتماماته. فهل تتفضل بالذهاب إلى «كاردا» فى شارع سليمان باشا وتشترى لى زوجا من نسخ تلك التماثيل الصغيرة لتل الأقطار، التماثيل الملونة، إنها لعب جميلة. تأكد من لفها ومعها بطاقة لتوضع إلى جوار أطباقهما. شكرًا جزيلاً».

ما أن غدا بمفرده، مرة ثانية، حتى أخذ يرشف الشاى، وقد حصر ذهنه فى هذا اليوم المزدحم، والذى يمتد أمامه غنيا بوعود اللهو والتسلية، التى لن تترك مجالا لمساءلات الذات التى تثير الاضطراب. أخذ حماما وارتدى ملابسه، عن عمد فى بطء، مركزا عقله فى اختيار الملابس المناسبة لدعوة منتصف النهار الرسمية، عاقدا رباط عنقه بعناية فى المرآة. كان يفكر، «على أن أغير حياتى جذريا فى القريب، وإلا فإنها سوف تصبح خاوية تماما، لكن كيف يمكن فعل ذلك على أفضل وجه». واكتشف فى مكان ما ـ مكان بين العلة والنتيجة ـ جفوة تتبلور فى عقله، إنها «الصحبة» وكررها لنفسه فى المرآة بصوت عال. نعم، هنا يكمن ما يفتقده.

«يجب أن أشترى لنفسى كلبًا»، فكر بصورة محزنة على نحو ما، «حتى يكون لى صحبة، شيء أعتنى به، آخذه للنزهة على النيل»، ثم اكتنفه إحساس بالسخف فابتسم. لكنه، على أى حال، وبينما كان يمر فى جولته اليومية على مكاتب السفارة، أطل برأسه فى مكتب الاستقبال، وسأل إيرول فى جدية تامة، عن أى نوع من الكلاب يمكن أن يكون أفضل عند تربيته بالمنزل. جرى بينهما حديث طويل ممتع عن مختلف السلالات، وقررا أن نوعا من الفوكس ـ تيرير(*) يمكن أن يكون أكثر الأنواع مناسبة، ليقوم عازب على تربيته. فوكس ـ تيرير!

(*) كلب صيد نشط وذكى (المترجم).

كرر الكلمة بينما يجتاز البسطة ليمر بطاقم الخدم وهو يبتسم لغفلته «وماذا بعد» .

كانت سكرتيرته قد رتبت أوراقه فى مواضعها ، ورصت الظروف الحمراء المعدة للإرسال عند الحائط . وكان قضيب المدفأة الكهربية الوحيد محافظا على المكتب عند حد من الحرارة مناسب للعمل اليومى الروتينى . وأخذ يفحص برقياته بانتباه مبالغ فيه ، كذا مسودات الردود التى أعدها فريق مرءوسيه . ووجد نفسه يشطب جملا ويغيرها ، يقلب عبارات هنا وهناك ، يضيف حواشى . كان كل ذلك جديدا عليه إذ لم يكن لديه الحماس الزائد لمسألة اللغة الإنجليزية الرسمية . كان فى الحقيقة ، يرهب المراوغة والمداورة البشعة التى كان يجبر عليها عندما كان هو ذاته مرءوسا لسفير كان يتخيل نفسه صاحب أسلوب متميز ـ هل هنالك أى استثناءات فى «الخدمة فى الخارج»؟ كلا . لم يكن له ، على الدوام ، ما يأمر به فى هذا المنحى ، لكن التركيز القسرى الذى يعيش ويعمل فى ظله قد بدأ يؤتى ثماره فى سلسلة من التدخلات التى تتسم بالحذلقة ، والتى بدأت فى هدوء تثير إيرول الدءوب وطاقمه . كان ماونت أوليف يعرف ذلك ، إلا أنه كان يصر على تدخلاته ، دون تراجع . إنه ينتقد ويفحص ، يصحح العمل ويعدله ، رغم علمه أنه جيد الإعداد بالفعل . كان يعمل مستعينا بقاموس أكسفورد الوافى ـ فالعالم كله أشبه ببعض المتخصصين فى العصور الوسطى ، والذين كانوا يتشاحنون حول أمر زهيد فى اللاهوت ، كان يشعل سيجارا من مانيلا يدخن مفكرا وهو يوجز ويدون أوراق محضر الاجتماع التى بلون المرمر .

جاء صليل الأكواب وأطباقها المعتاد المحبب ، فى الساعة العاشرة . ظهر بوهن حارس الاستقبال ، مزعزعا بصورة ما يحمل كوب البوڤريل

وطبق البسكوت الهش الحلو، ليعلن بدء فترة المنعشات المحببة. استرخى ماونت أوليف ربع ساعة فى مقعده بينما يرشف المشروب ويحملق بقوة فى الحائط الأبيض بما عليه من مجموعة الرسومات البيانية التى لا تترك فى النفس أثرا، والتى اختارتها وزارة الأشغال كزواق نمطى لمكاتب السفراء. بعد قليل، سوف يحين موعد فحص الحقيبة الفلسطينية، والتى فرزت بالفعل فى إدارة الأرشيف ـ كانت الحقائب القماشية التى تشبه أكياس البحارة ترقد على الأرض فاغرة الأفواه، والكتبة يفرزون فى سرعة فوق مناضد خشبية يغطيها قماش صوفى خشن أخضر، وسكرتيرات مختلف الإدارات خارج الحجرة الخشبية، تنتظر كل واحدة منهن، فى صبر، نصيبها من الغنائم. . . . كان يحس هذا الصباح بقلق يثير الحذر، بينما كان ينتظر، إن ماسكيلين لم يُظهر حتى الآن، ما يدل على أنه لا يزال على قيد الحياة. إنه، حتى، لم يبلغ عن وصول خطاب بورسواردن الأخير إليه، دعك من التعليق عليه، وكان ماونت أوليف يتساءل فى دهشة، لماذا؟.

جاءت نقرة على الباب. دخل إيرول فى مشيته المتحشمة المضطربة، ممسكا بظرف كبير الحجم معنون ومختوم بطريقة مؤثرة. قال: «من ماسكيلين يا سيدى». نهض ماونت أوليف. تمدد فى لا مبالاة متكلفة. «يا إلهى»، قال وهو يزن الحزمة فى يده قبل أن يعيدها إلى إيرول: «إذن فقد جاء هذا الخطاب ببريد ـ الحمام آه؟ إننى أتساءل ماذا يمكن أن يكون، إنه يبدو كرواية، إه؟»

«نعم يا سيدى».

«حسنا، افتحه يابنى العزيز». (كان قد التقط قدرا كبيرا من الحيل الكلامية من سير لويس. وقد لاحظ هو ذلك فى حزن. يجب أن يدون ما يذكره بإصلاح هذه العادة قبل أن يكون الوقت قد فات).

شق إيرول الخطاب، بسكين فتح الخطابات بطريقة قبيحة. تكومت فوق المكتب، فيما بينهما، مذكرة سمينة وحزمة من الصور الفوتوغرافية. أحس ماونت أوليف بشيءمن الانقباض وقد تعرف على الخط العنكبوتى للرجل العسكرى فوق الورقة ذات التاج للخطاب الذى أرفقت به المذكرة. «ماذا لدينا هنا؟»، قال وهو يرتكز على مكتبه. «عزيزى السفير»، وباقى الخطاب مكتوب دون أن يكون به أى خطأ، بينما كان إيرول يقلب الصور الفوتوغرافية، المثبتة بعناية بشريط معدنى، بأصابع فضولية، ويقرأ كلمات قليلة هنا وهناك، ويصفر فى رقة. وقرأ ماونت أوليف:

عزيزى السفير..

إننى لعلى ثقة من أن البيانات المرفقة سوف تثير اهتمامك. إنها كلها، قد تم الكشف عنها منذ وقت قريب، عن طريق إدارتى خلال سلسلة من التحريات الواسعة هنا فى فلسطين.

إننى قادر على تقديم كمية كبيرة للغايةمن المراسلات التفصيلية التى جرت خلال السنوات القليلة الأخيرة بين حصنانى، موضوع تقريرى الأصلى الذى تم تعليقه، وبين ما يسمى «بالمحاربين السريين اليهود» فى حيفا وأورشليم، إن نظرة واحدة عليها سوف تقنع أى شخص منصف بأن تقديرى الأساسى عن الشخص محل التقصى، أخطأ إذ كان معتدلا. إن كميات الأسلحة والعتاد والذخيرة الحربية المذكورة تفصيلا، فى القائمة الملحقة مهمة إلى حد أنها أفزعت السلطات التى عهد إليها بالأمر. إن كل ما اتخذ من إجراءات للكشف عن هذه الأكوام الكبيرة وضبطها لم يحقق، على أى حال، إلا نجاحا محدودا.

إن هذا، بالطبع، يثير مرة أخرى، وعلى وجه السرعة، المسألة

السياسية فى كيفية التعامل مع هذا السيد. إن وجهة نظرى الأصلية، كما تعرف، قامت على أن تبليغ المصريين فى حينه، كان يمكن أن يفى بالغرض. إننى أشك فى أن ممليك باشا سوف يعمل على الإضرار بالعلاقات المصرية - الإنجليزية، وحرية مصر المؤسسة حديثا، برفضه القيام بعمل ما، إن مارسنا ضغطا ما. كما أننا لسنا فى حاجة إلى التحقق عن كثب من الأساليب التى يمكن أن يستخدمها. إن أيدينا على الأقل سوف تكون نظيفة، لكن الشيء الواضح هو ضرورة وقف الحصنانى - وفى القريب.

إننى سأرسل نسخة من هذا التقرير إلى «مكتب الحرب» و«المكتب الأجنبى». إن نسخة لندن سوف ترسل، سرى بريد جوى مع استعجال شخصى من المندوب السامى إلى «الخدمة فى الخارج» يستحث فيه اتخاذ إجراء فى هذا الصدد. سوف تتلقى، دون شك، رد فعل لندن قبل نهاية الأسبوع.

إن التعليق على خطاب مستر بورسواردن الذى أرسلت لى نسخة منه، يبدو من نافلة القول فى هذه المرحلة. إن المرفقات طيه مع هذه المذكرة تشكل إيضاحا كافيا. إنه لم يستطع - كما هو واضح - مواجهة ما عليه من واجب.

إننى يا سيدى خادمك المطيع تماما.

أوليفر ماسكيلين، بريجادير

تنهد الرجلان، فى ذات الوقت، وقد نظر كل منهما إلى الآخر. قال إيرول، أخيرا، وهو ينقر بإبهامه فوق الصور الفوتو غرافية البراقة بطريقة مثيرة: «حسنا لقد أصحبنا أخير نمتلك دليلا إيجابيا». كان يشتعل بالبهجة. هز ماونت أوليف رأسه فى وهن. أشعل سيجارا

آخر. قال إيرول: «لقد ألقيت يا سيدى، نظرة سريعة فقط على المراسلات: إن كل خطاب منها يحمل توقيع حصنانى. إنها كلها مكتوبة على الآلة الكاتبة، وأنا أتوقع، بالطبع، أنك سوف تحتاج إلى التمعن فيها أثناء فراغك. لذا فإننى سأنسحب ساعة من الوقت حتى تحتاجنى. هل ذلك كل ما فى الأمر؟».

تحسس ماونت أوليف رزمة الأوراق الكبيرة فى تقزز، كان إحساسه كمن أصابته التخمة، أومأ برأسه دون أن يتكلم.

«حسنا»، قال إيرول فى سرعة واستدار. وما أن بلغ الباب حتى عثر ماونت أوليف على صوته الذى كان صداه فى أذنيه خشنا وضعيفا. قال، «إيرول، هنالك فقط شىء واحد. أرسل إشارة إلى لندن، قل لهم فيها إننا تسلمنا مذكرة ماسكيلين، وأننا على إلمام بالأمر(*)، قل إننا نقف على أهبة الاستعداد لتلقى التعليمات». أومأ إيرول واستدار يبتسم فى الممر. جلس ماونت أوليف على مكتبه ينظر بعين غائمة ممرورة إلى الصور طبق الأصل التى أمامه. قرأ واحدة أو اثنتين من الرسائل فى بطء، وفى الغالب دون فهم. فجأة هاجمه إحساس بالدوار، أحس كأن جدران الغرفة تنقض عليه فى بطء. تنفس عميقا عبر أنفه وقد أغلق عينيه فى إحكام. بدأت أصابعه، لا إراديا، تدور فى رقة فوق النشافة، تقلد الوتائر ذات النبرات المتأخرة لطبلة الأصابع العربية، الوتائر التى يمكن أن يسمعها المرء تسبح فى أى مساء فوق مياه النيل، صادرة من أى قارب بعيد. سأل نفسه، مرة بعد مرة، وهو جالس ينقر فى ورقة على طريقة الرقص المصرى الغامض الحاذق، وقد أغلق عينيه كرجل أعمى، «والآن ماذا سيحدث؟».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

ولكن ما الذى يمكن أن يحدث؟

«يجب أن أتوقع برقية بالعمل بعد ظهر اليوم»، كان يغمغم. هنا وجد أن ما عليه من واجبات يشكل سندا مفيدا للغاية. إذ رغم ما كان يشغل باله داخليا، سمح لواجباته أن تجره الآن، تجر انتباهه المشتت كما يُجر الكلب من مقوده. كان الصباح مشغولا بالعمل نسبيا. كان حفل الغداء نجاحا لا حد له، وأكدت الزيارة المفاجئة لبازار العطور مكنته كمضيف رائع يراعى الغير. واستلقى بعد انتهائها مدة ساعة فى غرفة نومه وقد أسدلت الستائر، يرتشف كوبا من الشاى، مواصلا الحوار المعتاد الذى يجريه مع نفسه، والذى يبدأ عادة بالجملة، «هل من الأفضل أن أكون بليد الذهن والفهم بدلا من أن أكون أنيق المظهر؟». كانت حدة احتقاره لذاته هى التى أبقت عقله بعيدا عن موضوع نسيم حتى الساعة السادسة عندما فتح الاستقبال أبوابه مرة أخرى. أخذ دشا باردا. أبدل ملابسه قبل أن يتهادى، يهبط، من مقر إقامته. وجد، عندما بلغ مكتبه، المصباح مضاء وإيرول يجلس فى المقعد يبتسم فى لطف ورقة، وقد أمسك بالبرقية المخملية اللون بين أصابعه، «لقد وصلت توا ياسيدى». قدمها إلى رئيسه كأنها باقة ورد جمعت خصيصا من أجله. جلا ماونت أوليف زوره فى صوت عال ـ محاولا بهذه الحركة الجسدية أن يجلو عقله وانتباهه فى ذات الوقت. كان يخاف أن ترتعش أصابعه عندما أمسك بها، فوضعها فى تكلف فوق النشافة، دافعا بيديه إلى جيب سرواله، مائلا إلى أسفل يفصحها، مسجلا (كما أمل) مظهرا يتجاوز اللامبالاة المهذبة المؤدبة. «إنها واضحة تماما، يا سيدى»، قال إيرول طامعا فى النجاح، كأنه يبغى إطلاق شرارة حماس مدوية من رئيسه. لكن ماونت أوليف قرأها فى بطء وتمعن مرتين قبل أن ينظر إلى أعلى. إلا أنه رغب فجأة فى

الذهاب إلى دورة المياه. «يجب أن أتبول»، قال فى عجلة وهو يدفع الشاب عمليا خارج الباب، «سآتى، بعد قليل، إلى أسفل لأناقشها معك. ومع ذلك فهى ـ كما تبدو ـ واضحة تماما. يجب أن أبدأ التصرف في الغد. سآتى خلال دقيقة واحدة؟». واختفى إيرول وقد خاب أمله. واندفع ماونت أوليف إلى التواليت، وركبتاه تهتزان. استطاع أن يتمالك نفسه، مرة أخرى، على أى حال، فى غضون ربع ساعة، غدا قادرا على السير فى خفة أسفل السلالم إلى حيث مكتب إيرول. دخل فى رقة والبرقية في يده، كان إيرول جالسا إلى مكتبه وقد أنزل سماعة الهاتف لتوه وهويبتسم.

ناوله ماونت أوليف البرقية المخملية اللون، غطس فى مقعد وهو يلاحظ ـ فى ضيق ـ الحاجيات الشخصية غير المنظمة، على مكتب إيرول ـ مطفأة سجائر صينية تشبه ترير شلهام (*)، إنجيلا، مسند دبابيس، قلم حبر غالى الثمن حامله راسخ فى شريحة من رخام أخضر، ثقالة ورق من رصاص على هيئة تمثال للآلهة أثينا. . . . . كانت خليطا من ذلك الذى يمكن أن يجده المرء فى سلة ـ شغل امرأة عجوز. إلا أن إيرول بالفعل كان به شيء ما من امرأة عجوز. جلا إيرول زوره، قال وهو يخلع نظارته: «حسنا يا سيدى لقد كنت فى قسم البروتوكول حيث قلت لهم إنك تود تدبير لقاء مع وزير الخارجية غدا بخصوص أمر له أهمية عاجلة. أعتقد أنك سوف ترتدى الزى الرسمى؟»

«الزى الرسمى»، قال ماونت أوليف بطريقة مبهمة.

«إن المصريين يعجبون دوما بارتداء المرء ذلك الزى الخاص».

(*) كلب ترير قصير القدمين طويل الرأس، قوى الفكين، ثقيل العظام، أبيض اللون، أساسا من ويلز (المترجم).

«حسنا، أعتقد ذلك».

«إنهم يميلون إلى الحكم على أهمية ما ستقول من الزى الذى ترتديه، إن دونكين يحثنا دوما على ذلك، وفى اعتقادى أنه مصيب».

«هو كذلك، يا ابنى العزيز» (هاهى مرة أخرى تلك العبارة! اللعنة).

«وأعتقد أنك سوف تحتاج إلى جانب العرض الشفوى دعما بمذكرة معاونة(*) محددة. سيكون عليك أن تقدم لهم كل المعلومات التى تؤكد حجتنا، أليس كذلك يا سيدى؟».

وأومأ فى سرعة، وغمرته موجة، غير عادية، من كراهية نسيم حتى إنه دهش لذلك. وعرف بالطبع مرة أخرى مصدر غضبه - إن تهور صديقه هو الذى فرض عليه مثل هذا الوضع، فرض عليه أن يتخذ إجراءات ضده. وتراءت له فجأة سلسلة محددة من الصور الذهنية - نسيم يفر من البلد، نسيم فى سجن الحضرة، نسيم فى أغلال القيد، نسيم يسممه خادم ما أثناء الغداء... إن المرء مع المصريين لا يعرف أين هو. إن جهلهم لا يباريه غير مزيد من الحماس الذى يمكن أن يودى بالمرء إلى أى مكان. وتنهد.

«بالطبع سوف أرتدى الزى الرسمى»، قال فى وقار.

«سأكتب مسودة المذكرة المعاونة (*)».

«حسنا جدا».

«يجب أن أحصل لك، فى غضون نصف ساعة، على موعد محدد».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

«شكرا لك، كما أود أن آخذ معى دونكين. إن لغته العربية أفضل من لغتى كثيرا، كذا فى وسعه أن يكتب محضر الاجتماع حتى يمكن أن نبعث إلى لندن ببرقية تحوى كل ما جرى فى هذا الاجتماع. هل يمكنك إرساله إلىّ بعد اطلاعه على المذكرة؟ شكرا لك».

قضى بقية الصباح قلقا فى مكتبه، يقلب الأوراق على غير نظام، يجبر نفسه على العمل. انتصف النهار، وجاء الشاب الملتحى دونكين ومعه المذكرة المعاونة (*)، مكتوبة على الآلة الكاتبة، وأخبار بأن موعد ماونت أوليف قد تحدد فى التاسعة من صباح الغد. كانت ملامحه العصبية وعيناه الدامعتان تضفى عليه أكثر من أى وقت مضى صورة أقرب إلى شاب تنكر بذقن عنزة، وقدم له سيجارة قبلها وأخذ ينفخ دخانها فى سرعة دون أن يبتلعه، مثل فتاة. قال ماونت أوليف وهو يبتسم: «هل توصلت إلى رأى بخصوص المذكرة، أرجوك، هل أخبرك إيرول... ؟».

«نعم، يا سيدى».

«ماذا ترى فى هذا... الاحتجاج الرسمى القوى؟».

سحب دونكين نفسا عميقا. قال وهو يفكر فى إمعان: «إننى أشك، يا سيدى، فى أن تحصل على أى فعل مباشرة فى اللحظة الحالية. إن الضغوط والتوترات داخل الحكومة، منذ مرض الملك، قد وضعت الجميع فى حيص بيص. إنهم جميعا يخشون بعضهم البعض، ويشدون الأمور فى اتجاهات مختلفة. إننى على ثقة من أن «نور» سوف يوافق ويحاول جاهدا دفع مليك كى يتصرف بناء على مذكرتك... ولكن...» ثم جذب شفتيه إلى الداخل حول السيجارة

(*) بالفرنسية فى الأصل

مفكرا: «إننى لا أعرف، فأنت تعرف ملف ممليك، إنه يكره البريطانيين».

أخذت معنويات ماونت أوليف ترتفع فجأة، رغما عنه. قال، «يا إلهى، إلا أننى لم أفكر فى الأمر على هذا النحو. لكنهم لا يستطيعون - فى بساطة - تجاهل احتجاج بهذه الحيثيات. إنه رغم كل شىء، يابنى العزيز، تهديد مقنع من الناحية العملية»

«إننى أعرف، يا سيدى».

«وأنا لا أدرى حقا، كيف يمكنهم تجاهله».

«حسنا، يا سيدى. إن حياة الملك، فى الوقت الراهن، معلقة على شعرة. يمكن، مثلا، أن يموت الليلة. إنه لم يجلس فى الديوان منذ ستة أشهر تقريبا. إن كل امرئ لديه الآن حفيظته. إن الكراهية والنفور والمزاحمات والمنافسات سوف تظهر قريبا جدا فوق السطح، ومعها الثأر والانتقام. إن موته سوف يغير الأمور تماما. الكل يعرف ذلك، ونور قبل الجميع. لقد سمعت، بالمناسبة يا سيدى، أنه لا يتبادل الحديث مع ممليك. هنالك بعض المتاعب الخطيرة حول ما يدفعه الناس لمليك من رشاوى».

«لكن نور نفسه لا يرتشى؟».

ابتسم دونكين ابتسامة صغيرة صفراوية. هز رأسه فى بطء وشك. قال فى فطنة: «لا أعرف يا سيدى، لكننى أعتقد أن الجميع يفعل. والكل يمكن أن يفعل، ربما أكون مخطئا، لكننى إن كنت فى موضع حصنانى لأقدمت على تهدئة الوضع بتقديم رشوة سخية إلى ممليك. إن استعداده لقبول الرشوة... يكاد يكون خرافيا فى مصر».

حاول ماونت أوليف أن يبدو عابسا غاضبا. قال: «آمل أن تكون مخطئا، فحكومة جلالة الملك مصممة على الحصول على فعل ما فى هذا الصدد، وأنا كذلك. على أى حال، سوف نرى، أليس كذلك؟».

كان دونكين لا يزال يلاحق بعض أفكاره الخاصة فى صمت ووقار. جلس للحظة يدخن ثم وقف. قال وهو يفكر فى إمعان: «لقد قال إيرول شيئا عن معرفة حصنانى بأننا ندبر شيئا بخصوص لعبته. ولو كان الأمر كذلك، فلماذا لم يرحل؟ لابد أن لديه فكرة واضحة عن خطتنا فى الهجوم، أم أن ذلك ليس ضروريا؟ وإذا لم يكن قد تحرك فإن ذلك يعنى، بالضرورة، أنه واثق من الإمساك بمليك فى قبضته، على نحو ما. إننى، فقط أفكر بصوت مرتفع يا سيدى».

حملق فيه ماونت أوليف بعينين مفتوحتين فترة من الزمن طويلة. كان يحاول جاهدا أن يبدد شعورا مفاجئا متفائلا، يكاد يكون مخادعا، وقد بدا له الأمر هكذا. قا ل أخيرا: «هذا مثير للغاية. يجب أن أعترف أننى لم أفكر فى الأمر على هذا النحو».

«أنا شخصيا ما كنت آخذ الموضوع البتة إلى المصريين». لم يكن يكره إغاظة رئيس بعثته.

«رغم أنه ليس لى أن أقول ذلك. إن ماسكيلين ـ كما أعتقد ـ كان لديه أكثر من وسيلة لإنهاء هذا الموضوع. إننى أفضل ـ من وجهة نظرى ـ ترك القنوات الدبلوماسية جانبا، واكتراء أحدهم ـ فى بساطة ـ لإطلاق النار على حصنانى أو تسميمه. إن ذلك سيكلف أقل من مائة جنيه».

«حسنا، أشكرك شكرا جزيلا»، قال ماونت أوليف فى وهن، وقد ترك تفاؤله مكانه، مرة أخرى، لاضطراب قاتم لعواطف نصف عقلانية، بدا أنه قد حكم عليه أن يحياها إلى الأبد. «شكرا، دونكين». (فكر فى دونكين بغضب وقد بدا له شديد الشبه بلينين، عندما تحدث عن السم أو السكين. إنه لمن اليسير على السكرتير الثالث أن يرتكب جريمة قتل بالوكاله). أخذ يقطع السجادة جيئة وذهابا، وقد ترك وحده، مرة أخرى، تنتابه على التناوب مشاعر متعارضة من الأمل واليأس. لقد فرضت عليه سياسات لا يمكن الحكم على ناتجها فى إطار الحدود البشرية. لابد، بالتأكيد، من وجود نوع من الاستكانة الفلسفية يمكن اكتسابها من المعرفة. ظل ـ فى تلك الليلة ـ يقظا يستمع إلى موسيقاه المفضلة تصدر عن الجراموفون الهائل، وهو يشرب أكثر بكثير مما اعتاد. كان يقطع الحجرة من حين إلى حين، ثم يجلس إلى مكتبه الجورجى، وقد استقر قلمه فوق فرخ من الورق المتوج.

«عزيزتى ليلى، يبدو لى، فى هذه اللحظة، أنه من الضرورى، أكثر من أى وقت مضى، أن أراك، كما يجب على أن أسألك التغلب على . . . . .».

لكنه فشل، كان يجعد الخطابات ويلقيها آسفا فى سلة المهملات. تتغلب على ماذا؟ هل بدأ، الآن، فى كراهية ليلى أيضا. كانت تتحرك، فى مكان ما، من أعماق ضميره، فكرة تكاد تصل إلى حد اليقين المؤكد، إنها هى، وليس نسيم، من بدأ هذه الخطط المخيفة، إنها المحرك الأول. هل عليه ألا يخبر نور بذلك؟ هل عليه ألا يخبر حكومته بذلك؟ ألا يحتمل أن يكون ناروز، رجل الفعل فى الأسرة، أعمق انغماسا فى المؤامرة من نسيم ذاته؟ وتنهد، ما الذى يأمل أى

منهم كسبه من فتنة يهودية ناجحة؟ إن ماونت أوليف يؤمن بقوة فى الصوفية الإنجليزية، ويدرك إدراكا تاما أن أى امرئ يمكن أن يفقد إيمانه بها، وبما يمكن أن تحمله من وعد بمستقبل آمن مستقر.

كلا، بداله الأمر كله قطعة من الجنون الذى لا داعى له. عمل مغامر نموذجى الرعونة، تصحبه فرص كسب كبير! كم يتسق هذا العمل ومصر! وأخذ يحرك احتقاره لذاته، مع تلك الفكرة، كما يحرك الماء إناء ـ المسطردة. كم يتسق هذا العمل ومصر! ومع ذلك، ويا للغرابة، كم لا يتسق هذا العمل ونسيم!

استعصى النوم عليه فى تلك الليلة. انسل مرتديا معطفا خفيفا أقرب إلى التنكر منه إلى أى شىء آخر. خرج فى مسيرة طويلة إلى جوار النهر حتى تستقر أفكاره، وهو يحس بأسف أحمق لعدم وجود كلب صغير يتبعه ويشغل باله. انسل من سكن الخدم، مما، أدهش الخواص(*) المتألق وشرطىّ الحراسة غاية الدهشة وهما يريانه عائدا يدخل من البوابة الأمامية، قرب الثانية، سائرا على قدميه، الأمر الذى لا يسمح به أبدا لأى سفير. حيا الجميع تحية مدنية ثم دخل من باب مسكنه مستخدما مفتاحه، خلع معطفه وأخذ يعرج عبر البهو المضىء، ولايزال الكلب الخيالى يتبعه تاركا آثار أقدامه فى كل مكان فوق الأرضية الباركيه المصقولة.

وجد، وهو فى طريقه إلى سريره، صورته التى كانت كليا قد انتهت من رسمها، لتوها، تقف فى وحشة عند حائط البسطة الأولى. لعن همسا، فقد غاب أمرها عن باله. كان فى نيته إرسالها إلى والدته طوال الأسابيع الستة الماضية. كان عليه أن يدبر سببا خاصا حتى يقنع حجرة

(*) عربية بحروف لاتينية.

الأكياس بالتصرف فيها غدا. ربما يثيرون بعض المخاوف بسبب حجمها، هكذا كان يتحاور مع نفسه. لابد أن يصر، على أى حال، حتى يتجنب مشكلة الحصول على ترخيص تصدير ما يسمى «بالأعمال الفنية» (بالتأكيد لم يكن الأمر كذلك). كانت الحكومة المصرية حساسة للغاية عند السماح بخروج أى أعمال فنية، منذ سرق عالم آثار قديمة ألمانى كمية من التماثيل المصرية وباعها إلى متاحف أوروبا. إنهم بالتأكيد سيؤخرون الترخيص شهورا حتى يناقش الأمر برمته. كلا، يجب على حجرة الأكياس أن تعنى بها. ستسعد والدته بالصورة. وفكر فيها، بألم عاطفى، وهى تجلس، تقرأ، قرب نار المدفأة، فى تلك المساحة من الأرض التى تحيط بها الثلوج. إنه، حقا، مدين لها بخطاب طويل، ولكن ليس الآن. «عندما ينتهى كل ذلك»، قال، وارتعش ارتعاشة لا إرادية.

ما أن رقد على السرير حتى سقط فى حيرة خانقة لأحلام ضحلة تثير الضيق. أخذ يتخبط فيها طوال الليل، صور شبكة البرك الكبيرة بأسراب أسماكها وسحابات طيورها البرية، وطيفين شابين، له ولليلى، يتحركان، مرة أخرى. كانت خبطات المجاديف الرقيقةتبعث فيهما النشوة، تتخللها نقرات منفردة لطبلة الأصابع عبر امتداد الليل البنفسجى. وعلى تخوم الحلم تحرك، فى الظلال، قارب آخر فيه شخصان، الأخوان، وكلاهما مسلح ببندقية طويلة الماسورة، سرعان ما سيدركانه، لكنه يحس الدفء بين ذراعى ليلى، كأنه أنطونيوفى أكتيوم. كان من العسير أن يحس بالخوف. لم يتكلما أوعلى الأقل لم يسمع هو أصواتا، كان يحس فقط بالرسائل غادية آتية من المرأة التى بين ذراعيه، تنقلها فقط، كما يبدو، نبضات الدم. كانا قد تجاوزا الحديث أوالملامة ـ ويتضاءل الطيفان والماضى لا ينُسى ولا يثير الندم،

وقد غدا الآن عزيزا إلى ما لا نهاية، فهو ماض لن يستعاد. وعرف، فى قلب الحلم ذاته، أنه يحلم، ويستيقظ ليجد لدهشته وألمه الشديد أن الوسادة قد بللتها الدموع. وأحس فجأة، بينما كان يتناول إفطاره طبقا لعادات راسخة، كأنما أصابته الحمى، إلا أن الترمومتر رفض تأكيد ما اعتقد. نهض دون رغبة فى ذلك، ليستعد فى كامل هندامه، دقيقا فى مراعاة مواعيده، ليجد دونكين يقطع البهو فى عصبية حاملا حزمة الأوراق تحت ذراعه. «حسنا»، قال ماونت أوليف، مشيرا بحركة غامضة إلى ملبسه: «أخيرا، أنا هنا».

انزلقا فى نعومة، فى السيارة السوداء بأعلامها التى ترفرف عليها، عبر شوارع المدينة إلى الوزير، حيث كان المصرى الخجول، الأشبه بالقرد، فى انتظارهما تملؤه التوجسات والاهتمام الذى يشوبه القلق. كان متأثرا بصورة واضحة بالزى الرسمى، وبحقيقة أن أفضل اثنين يجيدان اللغة العربية فى البعثة البريطانية قد قدما للالتقاء به. كان يبرق، يلمع، ينحنى بطريقة آلية، باسطا كفيه ـ مرحبا فى أدب رسمى ـ كمألوف خبرته. كان رجلا ضئيلا حزينا، أزرار كم قميصه الإفرنجى مطلية بالقصدير، متلبد الشعر. أرضى اضطرابه زائراه وأراحهما كثيرا، إلى حد أوقعه فى سهولة فى مواقف صداقة، تكاد تكون مواقف عاطفية سخيفة. كانت عيناه تدمعان فى يسر. قدم القهوة، طبقا للمراسيم وحلوى تركية، وكأن الحركة فى حدا ذاتها تعبير عن اعتراف بما يكاد يكون حبا. كان يمسح حاجبه باستمرار، ثم غطت وجهه تكشيرة القردة المحببة إليه. قال بطريقة عاطفية، بعد أن تركت المجاملات مكانها للعمل: «آه! يا سعادة السفير. أنت تعرف لغتنا وبلدنا جيدا. إننا نثق فيك». ومعنى عباراته إن صيغت فى كلمات أخرى، «أنت تعرف أن استعدادنا للارتشاء أمر لا يمكن استئصاله، إنه

علامة ثقافة تليدة، ومن ثم فنحن لا نحس بالخجل من حضرتك».

ثم جلس وقد طوى كفيه على صديريته الرمادية الأنيقة، واجما كجنين فى قارورة، بينما كان ماونت أوليف يقدم إليه احتجاجه شديد اللهجة، مبرزا الدور الباهر لاجتهاد ماسكيلين. واستمع نور هازا رأسه فى شك، من وقت لآخر، وقد استطال وجهه. عندما انتهى ماونت أوليف، قال فى سرعة واندفاع وهو يقف: «بالتأكيد، فى الحال، فى الحال». ثم جلس مرة أخرى، قلقا كأنما غرق فى الشك، وأخذ يعبث فى أزرار قميصه. تنهد ماونت أوليف وهو يقف، قال: «إنه واجب كريه لكنه ضرورى، هل أؤكد لحكومتى أن الأمر سيتابع حتى النهاية وفى سرعة؟».

«فى سرعة، فى سرعة»، أومأ الرجل الضئيل مرتين ولعق شفتيه. كان هنالك انطباع أنه لا يفهم بالضبط ما يستخدم من كلمات. «سوف أقابل مليك اليوم»، أضاف فى صوت أكثر انخفاضا، إلا أن نبرة صوته كانت قد تغيرت. سعل وأكل قطعة من الحلوى وهو يمسح السكر من أصابعه بمنديل حريرى. «نعم»، قال. إن كان هنالك ما يثير اهتمامه فى الوثيقة الضخمة الراقدة أمامه، فقد كانت الصور الفوتوغرافية وحدها (أو هكذا بدا الأمر لماونت أوليف) هى التى شدت انتباهه. إنه لم ير مثيلا لها من قبل. إنها تنتمى إلى العوالم الأجنبية الكبرى من العلم والتخيل التى تعيشها تلك الشعوب الغربية ـ عوالم القوى الكبرى والمسئوليات ـ والتى تهبط فى بعض الأحيان، مرتدية فاخر أزيائها الرسمية، لتجعل قدر ونصيب المصريين البسطاء أشد صعوبة مما كان عليه فى أفضل الأحوال ـ «نعم، نعم، نعم»، قال نور مرة أخرى، كأنما يعطى المناقشة عمقها وثباتها، ويعطى زائره الثقة فى نواياه الطيبة.

ولم يحس ماونت بالراحة قبل كل هذا. كانت نبرة الحديث كلها تفتقد المباشرة، تفتقد الغرض منها، ونهض الإحساس غير المعقول بالتفاؤل فى صدره مرة ثانية. وحتى يعاقب نفسه بسبب هذا الإحساس (ولأنه كان حى الضمير إلى أقصى الحدود) فقد خطا إلى الأمام خطوة، ضاغطا بوصة أخرى، «إن شئت يا نور، وفوضتنى صراحة فى هذا، فأنا على استعداد لوضع الحقائق والتوصيات بنفسى أمام ممليك باشا، فقط تكلم». إلا أنه كان يضغط هنا على جلد البروتوكول الضحل الحديث النمو والشعور الوطنى، «شكرا يا سيدى»، قال نور فى ابتسامة متوسلة، وحركة شحاذ يلح على رجل ثرى، «سيكون ذلك خروجا على النظام الجارى، فالموضوع موضوع داخلى، ولا يليق بى أن أوافق».

كان مصيبا فى هذه النقطة. وأخذ ماونت أوليف يفكر وهما عائدان قلقان إلى السفارة. لم يعد بعد فى مقدورهم إعطاء الأوامر فى مصر كما كان يفعل المندوب السامى فيما مضى. وجلس دونكين يبتسم ابتسامة هزء وشك بينما يفحص أصابعه. كانت الأعلام فوق الرادياتير ترفرف فرحة، تذكر ماونت أوليف بالأعلام التى تشبه عصفور الجنة، والتى ترتعش فوق قاطرة نسيم، التى يبلغ طولها ثلاثين قدما، وهى تشق مياه الميناء. . . . «بماذا خرجت يا دونكين؟»، قال وهو يضع يده على كوع الشاب الملتحى:

«بصراحة يا سيدى، إننى أشك».

«وأنا، فى الحقيقة، أيضا». ثم انفجر: «لكن يجب عليهم أن يفعلوا ذلك: أن يفعلوا ذلك ببساطة! إننى لن أوضع جانبا، هكذا». (كان يفكر، سوف تجعل لندن حياتنا شقاء مالم أستطع تقديم شىء ما

مما يرضيهم). وغمرته، مرة أخرى، كراهية صورة نسيم، والتى غدت قسماته، على نحو ما ـ كأنما بخدعة العرض المزدوج ـ وقد تداخلت بقسمات ماسكيلين الكئيب، ورأى وجهه فى المرآة الكبيرة، وهو يعبر البهو، واندهش لملاحظته أنه يحمل تعبير ضيق خلق هزيل.

ووجد نفسه فى هذااليوم، سريع الغضب أكثر فأكثر مع طاقم خدم مقره السكنى. لقد بدأ يحس أنه يكاد يكون مضطهدا.

* * *

(١٤)

إن كان نسيم يمتلك الآن القدرة على الضحك لنفسه في رقة بينما يفحص الدعوة الموجهة إليه، وهو إن كان قد أسند ذلك الشيء الوردي إلى المحبرة يدرسه بصورة أفضل، ضاحكا فى رقة وقلق في الفراغ الذى أمامه، فإنما يرجع ذلك إلى أنه كان يتحدث إلى نفسه :

«كي تقول إن رجلا ما لا يؤتمن أو لا يتورع عن فعل شيء، فإن ذلك يعنى ضمنا أنه قد ولد ومعه ميراث من تحرج أو تمنع، وأنه قد اختار الآن أن يصرف عنه النظر. لكن هل يتخيل المرء أو يتصور إنسانا ولد صراحة بلا ضمير؟ إنسانا ولد دون شعور بضمير مشترك؟ (إنه ممليك)».

نعم، كان من السهل أن يتصور المرء إنسانا أعمى، بلا أقدام ولا أذرع، لكن تصور إنسانا أصابه نقص محدد فى إفراز إحدى الغدد أو افتقد جزءاً من روحه، فصار هدفا للعجب والدهشة بل ربما للمواساة أيضا (إنه ممليك). كان هنا رجال تنتشر مشاعرهم كالرذاذ ـ ناعمة كأنها تنطلق من رشاشة، هؤلاء هم الذين جمدوا مشاعرهم ـ «دبابيس القلب وإبره». وهنالك آخرون ولدوا دون إحساس بقيمة ـ ما أصابهم عمى ألوان أخلاقى. وغالبا ما يكون الأقوياء جدا من هذا النوع ـ رجال يسيرون فى سحابة حلم من أفعالهم التى تفتقد المعنى بالنسبة إليهم، على نحو ما. هل ممليك هكذا أيضا؟ وأحس نسيم نحو الرجل

بكل الفضول العاطفى الذى يحسه عالم الحشرات أمام عينة مصنفة أو محددة.

أشعل سيجارة، نهض يسير فى الحجر متوقفا من حين لآخر، يقرأ الدعوة ويضحك ضحكة مكتومة. حل الشعور بالارتياح محل القلق، راحة القلق. رفع الهاتف، تحدث فى هدوء، فى صوت ضاحك، لجوستين: «ذهب الجبل إلى محمد» (الاسم الشفرى لماونت أوليف ونور). «نعم يا عزيزتى، من المريح أن نصل إلى يقين. إن كل ما عرفته عن علم السموم والتدريب على استخدام المسدس يبدو الآن حماقة، أنا أعرف ذلك. هذه هى الطريقة التى أردت أن تسير فيها الأمور، إلا أنه على المرء بالتأكيد، أن يتخذ احتياطاته. حسنا، لقد مورس ضغط على محمد، فقدم فأرا صغيرا فى صورة دعوة». وسمع ضحكتها غير مصدقة. «أرجوك يا عزيزتى أن تحصلى على أنفس المصاحف التى يمكنك العثور عليها، وإرسالها إلى مكتبى. هنالك، فى مجموعة المكتبة، بعض القديم منها بأغلفة عاجية. نعم، سآخذها إلى القاهرة يوم الأربعاء. لابد بالتأكيد أن يكون لديه مصحفه». (مليك). كانت المسألة كلها تدعو للتندر. إن المهلة سوف تكون مؤقتة فقط، إلا أنه لا يحتاج فى الوقت الراهن، على الأقل، أن يخاف السم أو شخصا يتلصص، يكمن فى زقاق يمكن أن يكون. . كلا إن الحالة تبشر بتأجيل مثمر.

اليوم، فى الخمسينيات، اشتهر منزل مليك باشا فى عواصم العالم البعيدة، أساسا، بسبب هندسته المعمارية المتميزة للحواف التى تحمل اسم منشئها. إن لطرازها، فى الحقيقة، كل الدلائل الغريبة لذوق هذا الرجل الغامض - إنها كلها مبنية على نمط واحد عجيب، نوع من

محاكاة مقبرة مصرية تبناها أحد تلامذة «كوريوسيير» . إن المرء ليجبر، بصورة لا يمكن مقاومتها، على الوقوف بغتة، يعجب للواجهات المكفهرة، سواء كان يسير فى روما أو ريو . إن العمد القصيرة العريضة توحى بمنظر ماموث أصابه فجأة داء الفيل . إنه البقاء الغريب على قيد الحياة، أو ربما البعث حيا، لشيء يقشعر منه البدن لما طبع عليه ـ نوع من البناء القوطى ـ المصرى ـ العثمانى؟ كان الأمر بالنسبة للعالم كله وكأن «أيوستون ستاشن» قد تكاثرت بالانشطار الثنائى! وانطلقت قوى هذا الرجل عبر تلك الأنابيب الغربية إلى العالم على اتساعه ـ كانت قواه المكثفة تنتشر من منضدة القهوة الصغيرة المطعمة والتى يكتب (إن كان يكتب) عليها فى الديوان الأصفر ذى الشراشيب، وقد أمسك به تبلد ذهنه المشدود إليه يوما بعد يوم ـ (كان فى المقابلات التى لها أهمية خاصة، يرتدى طربوشه وقفازه الناعم المزغب، ممسكا فى يده بمذبة عادية زينها له تاجر مجوهرات بحبات من لؤلؤ) إنه لم يبتسم أبدا، وعندما تضرع إليه، ذات يوم، مصور فوتوغرافى يونانى، باسم الفن، أن يبتسم، دفع به بطريقة جافة إلى الحديقة، تحت طقطقة أشجار النخيل، حيث نال لسعة اثنى عشر سوطا تكفيرا عن إساءته .

ربما كان للمزيج الوراثى الغريب علاقة ما بذلك، فقد كان دمه مسكونا بأب ألبانى وأم نوبية، والتى كانت معاركها المخيفة عذابا له عند نومه فى طفولته . كان ابنا وحيدا . ربما يبين هذا، كيف يمكن للشراسة، فى بساطة، أن تنتج فى المقابل تبلدا ذهنيا واضحا، صوتا هامسا يرتفع أحيانا إلى طبقة صوت امرأة، صوتا منفردا لا تصحبه إيماءة أو إشارة . كان له من الناحية البدنية أيضا، شعر رأس طويل حريرى، يوحى بغرابة الأطوار، والأنف والفم محفوران بطريقة مسطحة فى حجر رملى نوبى داكن، موضوع فوق رأس، كالطود،

مستدير تماما ـ وكان مما يفصح عن هيئته، أنه لو ابتسم حقا لكشف عن نصف دائرة من البياض الزنجى تحت منخارين مفلطحين منبسطين مثل المطاط. كان جلده مليئا بالحسنات الداكنة، وله لون محبب فى مصر للغاية ـ لون أوراق الدخان. كانت مزيلات الشعر مثلا الحلاوة(*) تحتفظ بجسده خاليا من الشعور، حتى يديه وساعديه. وكانت عيناه صغيرتين، موضوعتين فى تجعيدات وتغضنات، تشبهان توأما من فصوص الثوم، تنقلان ما يعانيه من قلق واضطراب فى تعبير من النعاس الدائم ـ وقد تلاشت الألوان البيضاء التى تعكس غياب أى بارقة للعقل ـ كأن الروح التى تسكن هذا الجسد الكبير قد ذهبت إلى الأبد فى إجازة خاصة. كانت شفتاه أيضا حمراوين للغاية، كذا أسفل الشفة بشكل خاص، مما يجعل منظرها، الذى يشبه رضوضا ناضجة، يوحى: بداء الصرع؟

كيف صعد بهذه السرعة؟ مرحلة بعد مرحلة، عبر الأعمال الكتابية فى صعوبة منهكة (حيث تعلم احتقار سادته)، ثم جاءت أخيرا محاباة الأقارب. كانت أساليبه منتقاة ومدروسة. وعندما غدت مصر حرة، أثار الدهشة، حتى دهشة أقرب من كانوا يتكفلون به، عندما حصل على وزارة الداخلية فى خبطة واحدة. وحينئذ فقط مزق قناع ما كان يتنكر به من مواقف وسطية، والذى كان يرتديه طوال تلك السنين، كان يعرف جيدا جدا، كيف يثير الأصداء حول اسمه باستخدامه للسوط ـ والذى كان يجيد ممارسة استخدامه. إن الروح المصرية الهيابة تهفو للسوط دوما «إنها تود أن يتوافر لها شخص درب نفسه على رؤية الرجال والنساء كأنهم ذباب»، هكذا يقول المثل. غدا اسمه خلال عام

(*) عربية بحروف لاتينية.

اسمًا مخيفًا. هنالك شائعة أنه حتى الملك العجوز يخشى الصدام به علنا. غدا هو نفسه، مع حرية بلده الحديثة، حرا أيضا بصورةرائعة مع المسلمين المصريين على الأقل. كان لا يزال للأوروبيين، طبقا للمعاهدة، طرح قضاياهم أو مواجهة التهم التى توجه إليهم أمام المحاكم المختلطة، وهى محاكم أوروبية، والمحامون أوروبيون، أى التقاضى والدفاع. إلا أن القضاء المصرى (إن كان المرء يجرؤ على دعوته كذلك) كان يدار مباشرة برجال من أمثال ممليك، الأحياء من الإقطاعيين الذين ينافى وجودهم الزمن، والمرعبين بنفس القدر الذى لا معنى له. كان عمر القاضى يتجاوز كثيرا ما يجب أن يكون عليه. وكان ممليك يتصرف بكل سلطة فرمان السلطان، أو سلطة الإفتاء بين يديه. لم يكن هنالك، فى الحقيقة، من يخالفه. كان يضرب بشدة وفى الغالب دون توجيه أى سؤال، وغالبا، وبصورة خالصة، بناء على شائعة أو على أكثر الشكوك بعدا. كان الناس يختفون فى صمت ودون أن يتركوا أثرا ما. ولم يكن هناك قضاء استئنافى للنظر فى استئنافاتهم ـ إن كان أى منهم قد قدم استئنافا ـ وإلا فإنهم يعودون إلى الظهور فى الحياة المدنية وقد أصيبوا إصابات بدنية فادحة بطريقة رشيقة، أو أصابهم العمى بمهارة ـ وهم غير راغبين، بطريقة غريبة، فى أن يناقشوا ما أصابهم من بلايا علنا. «ترى.. هل يستطيع الغناء؟» اشتهر هذا القول عن ممليك، وكان مرجعه كما يزعم أن «فقأ عينى الكناريا بسلك ساخن حتى الاحمرار يجعل الطائر يغنى بصوت أكثر عذوبة».

رجل كسول لكنه ذكى. الجزء الأكبر من طاقم عمله يونانيون وأرمن ـ نادرا ما يزور مكتبه فى الوزارة. يترك تسيير أموره لصنائعه ومن هم فى خدمته شارحا، شاكيا، إنه على الدوام محاصر بمن يضيعون وقته من أصحاب الحاجات. (كان فى الحقيقة يخاف أن يغتال

هناك ـ فالمكان مستهدف للعدوان. كان من السهل، مثلا، وضع قنبلة فى واحد من الدواليب غير النظيفة، حيث تمرح الفئران بين الملفات الصفراء. لقد أقنعه حكيم أفندى بالفكرة حتى يصبح هو نفسه مطلق اليد فى الوزارة. كان ممليك يدرك ذلك، لكنه لم يكن يبالى به).

وشيد، بدلا من ذلك، هذا البيت العتيق الفسيح، فى خلوة، على ضفة النيل، للمقابلات الرسمية. كان محاطا بخمائل كثيفة من أشجار النخيل والبرتقال. وكان نهر النيل ينساب خارج نوافذه، حيث كان هنالك على الدوام شىء ما يمكن رؤيته أو مراقبته: الفلوكة تنطلق فى النهر شمالا أو جنوبا، جماعات تمر تمرح، قارب بخارى يمر من حين لآخر . . . كما كان المنزل بعيدا للغاية عن أصحاب الحاجات، ليأتوا إليه، يثيرون ضيقه بالحديث عن أقرباء سجناء. (كان حكيم يحصل على نصيب من رشاوى المكتب، على أى حال من الأحوال). كان ممليك يلتقى هنا فقط بالمهمين نسبيا من الناس، هؤلاء الذين لا يمكن طردهم: كان يجاهد أن يكون منتصبا فى وضع الجالس فوق الديوان الأصفر، وقد وضع حذاءه المهندم (بطماقه(*) القصير الرمادى اللؤلؤى) فوق مسند أقدام دمشقى موضوع أمامه، ويده اليمنى فى جيب صدره، واليسرى تمسك بمذبة عادية كأنه يمنح بها الغفران. كان الطاقم الذى يقوم بالعمل اليومى هنا مكونا من سكرتير أرمنى (سيريل) ورافائيل الإيطالى الضئيل الأشبه بالدمية (كان طبقا لمهنته حلاقا وقوادا) والذى كان يلازمه ويضفى طلاوة على ملل العمل الرسمى باقتراح متع يمكن ـ لما تجلبه من مفاسد ـ أن تشغل رجلا اضمحلت لديه كل المشهيات العقلية باستثناء شهوة المال. قلت إن ممليك لا يبتسم، إلا

(*) قماش يغطى القدم وأعلاه. (المترجم).

أنه، فى بعض الأحيان، عندما يكون طيب المزاج، يلمس شعر رافائيل متأملا، ويضع أصابعه فوق فمه ليوقف ضحكه. إن يحدث ذلك عندما كان يفكر فى عمق قبل أن يرفع سماعة الهاتف عتيق الطراز، والأشبه بعنق الإوزة. ليتحدث إلى شخص ما فى صوت خفيض، أو يتصل بالسجن المركزى ليستمتع بالذعر الواضح على عامل الهاتف عندما ينطق اسمه. كان رافائيل فى تلك اللحظة، ينفجر فى قرقرة مداهنة متملقة، يضحك حتى تسيل دموعه على وجهه، حاشيا فمه بمنديل، إلا أن مليك لم يكن يبتسم. كانت وجنتاه تتهدلان قليلا ويقول: «الله. أنت تضحك». مثل تلك المناسبات كانت قليلة وعلى فترات بعيدة.

هل كان حقا مرعبا كسمعته التى أحاطت به؟ الحقيقة لن تعرف أبدا. الأساطير تتجمع فى يسر وسهولة حول مثل تلك الشخصيات، لأنها تنتمى إلى عالم الأسطورة أكثر ما تنتمى إلى عالم الحياة.

«ذات مرة، عندما تهدده العجز الجنسى، ذهب إلى السجن وأمر بفتاتين أن تجلدا حتى الموت أمام عينيه وثالثة يتم إكرامها» ـ كم كانت رائعة وبهيجة صورة الشخصيات الشاعرية التى جاءت فى لغةالنبى ـ «وذلك لإنعاش معنوياته المعوقة». لقدقيل إنه كان يشهد بنفسه كل تنفيذ رسمى لحكم بالإعدام، وأه كان ينتفض ويبصق باستمرار. ثم يطلب، فميا بعد، شرابا من الصودا ليطفئ ظمأه... لكن من ذا الذى سيعرف أبدا حقيقة تلك الأساطير؟

كان متطيرا بصورة مرضية، مرتشيا لا يرجى شفاؤه ـ كان فى الحقيقة يجمع ثروة ضخمة قائمة على الارتشاء. ومع ذلك، كيف يمكننا أن نضيف إلى مجمل ذلك حقيقة تدينه العاطفى الجامح ـ شغف

متعصب بالشعائر الدينية يمكن أن يكون محيرا لأى امرئ غير مصرى؟ هنا ثارت الخناقة مع نور التقى الورع. فممليك يكاد يكون مؤسسا لديوان خاص لتلقى الرشاوى. كانت لديه مجموعة مصاحف تعتبر من أشهر المجموعات. كانت موضوعة فى الدور العلوى من البيت فى معرض متداع للرسوم والصور. وغدت الآن معروفة بعيدا وعلى مدى واسع، حتى إن المدخل المهذب الذى يمكن التقدم به إليه هو إضافة نسخة يعتز بها، بصورة خاصة، للكتاب مع تعليقات وشروح وأنواع أخرى من الدراسة (مع الانحناء خضوعا واحتراما). نسخة هى إضافة جديدة إلى مكتبته الكبيرة. وهو يقبل الهدية قائلا، مع الشكر، ثم يتوجه فورا إلى الدور العلوى ليرى إن كان لديه مثيل لها. وعند عودته يعرف طالب الحاجة إن كان مسعاه قد تحقق، إن شكره ممليك مرة أخرى وقال إنه قد وضع الكتاب فى المكتبة ـ أما إن ادعى ممليك أنه يمتلك نسخة مثيلة وأعاد الكتاب (غير أن النقود تكون قد استخرجت من صاحبها دون عائد) يعرف صاحب الحاجة أن مسعاه قد فشل. إنها معادلة اجتماعية بسيطة وصفها نور بأنها «تسىء إلى سمعة النبى» ـ مما أكسبه عداوة ممليك.

المستنبت الطويل الذى يعقد فيه ديوانه الخاص كان أيضا شيئا محيرا كاللغز. الأضواء الملونة منتشرة فهى كالمروحة، من زجاج رخيص كالذى يستخدم فى الكاتدرائيات. تحول زائروه إلى مهرجين، تتلاعب الألوان الخضراء والقرمزية والزرقاء فوق وجوههم وملابسهم، بينما يسيرون عبر الحجرة الطويلة لتحية مضيفهم، وخارج النوافذ المظلمة القاتمة يجرى النهر بمياهه التى فى لون الكاكاو، وعلى ضفته البعيدة توجد السفارة البريطانية بحدائقها الرشيقة، حيث يتجول ماونت أوليف عندما يجد نفسه وحيدا. كان حائط حجرة استقبال ممليك

الكبيرة يكاد يكون مغطى بلوحتين فيكتوريتين هائلتين، رسمها رسام منسى، لا يتلاءمان والمكان. كانتا لوحتين كبيرتين جدا وثقيلتين جدا حتى إنه يصعب تعليقهما؛ ولذا وضعا فوق الأرض، مما جعلهما توحيان بأنهما من نسيج موشى للتعليق على الجدران. كانت إحداهما تمثل العبور الإسرائيلى للبحر الأحمر وقد تكوم فى رشاقة على الجانبين حتى يسمح بعبورهم المخيف، وكانت الأخرى لموسى المشعر يضرب الصخر بعكاز راع. كانت مادة اللوحتين المبسطة والمتعلقة بالكتاب المقدس تتلاءم تماما وباقى الأثاث ـ السجاد العثمانى الكبير، الكراسى القبيحة صلبة الظهور المغطاة بالحرير الدمشقى الأزرق، الشمعدانات النحاسية الضخمة المعوجة ودوائر الضوء الكهربى الصادر عن لمباتها المغطاة بما يشبه الجليد والتى تتألق ليل نهار. ويقف فى الجانب الآخر من الديوان تمثال نصفى، بالحجم الطبيعى، لفوشيه، وهو يلفت انتباه صاحب الحاجة مباشرة لعدم ملاءمته للمكان. حدث أن داهن دبلوماسى فرنسى ممليك ذات يوم بقوله: «أنت من ينظر إليه باعتباره أفضل وزير داخلية فى التاريخ الحديث ـ حقا إذ منذ فوشيه لم يوجد نظيرك». ربما كانت تلك الملحوظة شائكة، إلا أنها و رغم ذلك، نالت من خيال ممليك، فأمر فى الحال بإحضار التمثال النصفى من فرنسا. وبدا التمثال دميما، بعض الشيء وسط معرض النفاق المصرى ذاك، وقد غمره التراب الكثيف. إن نفس هذا الدبلوماسى قد وصف غرفة استقبال ممليك، ذات مرة، بأنها شيء ما بين متحف جيولوجى مهجور وركن فى قصر البللور العتيق ـ وكان محقا فيماقال رغم قسوته.

التقطت عينا نسيم المهذبتان كل ذلك بكثير من مشاعر التفكه الخفية بينما يقف فى المدخل ويسمع إعلان اسمه. استهواه كثيرا أن يدعى هكذا ليشارك فى لقاء صلاة أو ورد مع ممليك المخيف. كانت هذه

الاحتفالات الغريبة وغير العادية والتى تسمى «ليالى الله» تبدو مناسبة لمليك الذى كان يستمتع كثيرا بها وحيث يبدو تمسكه بالدين غير مناقض لباقى شخصيته الغامضة. كان يستمع فى انتباه وثبات إلى المنشد أو المرتل حتى الثانية أو الثالثة صباحا فى غالب الأحيان، وهو فى حالة أشبه بحالة حية فى بياتها الشتوى. ولكن يشارك أحيانا فى الشهقة المعتادة «الله»، والتى كانت تعبر بها الجماعة عن سعادتها عند بعض الأجزاء المناسبة للمقام من الكتاب. . .

عبر نسيم الغرفة فى خطى نشطة خفيفة وهو يلمس صدره وشفتيه طبقا للعرف الجارى. جلس أمام ممليك يبدى امتنانه للدعوة التى شرفته أكبر تشريف. كان هنالك غيره من الضيوف تسعة أو عشرة آخرون. أحس يقينا أن وجود هذا العدد فقط إنما يرجع إلى رغبة ممليك فى فحصه ودراسته، بل وحتى إجراء حديث خاص معه، إن كان ذلك ممكنا، كان يحمل القرآن الصغير النفيس وقد لف فى ورق ناعم، وقد حشا ما بين الصفحات بحوالات مالية بنكية قابلة للصرف فى سويسرا. قال فى رقة: «أوه يا باشا، لقد سمعت عن مكتبتك الأسطورية، ولا أبغى أكثر من متعة محب للكتب يقدم لك إضافة لها». ووضع هديته فوق المنضدة الصغيرة، وتقبل القهوة والحلوى التى كانت موضوعة أمامه. ولم يرد ممليك عليه أو يغير وضعه فى الديوان مدة طويلة، تاركا إياه يرشف القهوة. ثم قال فى إهمال: «شرفت المضيف. إن هؤلاء هم أصدقائى». وقام ببعض التقديمات التى تكاد تكون فقط مجرد قضاء للواجب نحو الزائرين، الذين بدوا أقرب إلى مجموعة غريبة اجتمعت معا لتلاوة الكتاب. لم يكن لأى منهم مقام واضح فى المجتمع القاهرى. هذا ما لاحظه نسيم، إذ لم يكن يعرف أيا منهم رغم أنه كان مهذبا فطنا مع الجميع. ثم سمح لنفسه ببعض

التعليقات العامة عن جمال حجرة الاستقبال وملاءمتها، والقيمة الرفيعة للوحتين المستندتين إلى الحائط. ولم يعلق ممليك على ذلك. قال فى كسل: «إنها حجرة عمل واستقبال معا، فهنا أعيش».

قال نسيم بطريقته الأشبه بطريقة حاشية الملك: «لقد سمعت بوصفها من هؤلاء الذين أسعدهم الحظ بزيارتك أو المتعة».

قال ممليك فى رقة: «إننى أنجز أعمالى يوم الثلاثاء فقط، وأقضى باقى الأسبوع أستمتع مع أصدقائى». لم يغب عن فطنة نسيم ما كان فى الكلمات من تهديد، فالثلاثاء عند المسلم هو أقل الأيام مواتاة لإنجاز الالتزامات الإنسانية، إنه يؤمن أن الله خلق كل ما هو كريه ومؤذ يوم الثلاثاء. إنه اليوم الذى وقع عليه الاختيار لتنفذ فيه أحكام الإعدام فى المجرمين، إن أحدا من الرجال لا يجرؤ على الزواج فيه، فالمثل يقول: «من يتزوج يوم الثلاثاء، يشنق يوم الثلاثاء».

قال نسيم مبتسما: «اليوم لحسن الحظ، هو الاثنين، يوم خلق الله الأشجار». وأدار الحديث ناحية أشجار النخيل الجميلة، والتى تومئ تنحنى خارج النافذة: استدارة فى الحديث حطمت الجليد وكسبت إعجاب الزائرين الآخرين.

الآن تغير اتجاه الريح. وفتحت ـ بعد نصف ساعة من الحديث المتقطع ـ الأبواب المنزلقة عند النهاية البعيدة للحجرة، حيث أقيمت الوليمة فوق منضدتين كبيرتين. كانت الحجرة مزينة بزهور رائعة. هنا على الأقل، غدت ومضة الحماس والصداقة، بالإضافة إلى ثمين أطايب مائدة عشاء ممليك، أكثر وضوحا، تحدث واحد او اثنين من الرجال. وكان ممليك نفسه، رغم أنه لم يأكل شيئا، يتحرك فى بطء،

من مجموعة إلى أخرى، يرحب بأدب فى صوت خفيض. وجاء إلى نسيم، فى أحد الأركان، وقال فى بساطة تامة وجو حقيقى من الإخلاص والصراحة: «لقد أردت، بوجه خاص، أن أراك ياحصنانى».

«إن ذلك شرف لى، ممليك باشا».

«لقد رأيتك فى بعض حفلات الاستقبال، لكننا افتقدنا الأصدقاء المشتركين ليقدمونا إلى بعضنا البعض، إن هذا أمر يدعو إلى بالغ الأسف».

«مع بالغ الأسف».

وتنهد ممليك وهو يروح لنفسه بمذبته شاكيا حرارة الليلة. قال فى نبرة من يتحدث إلى نفسه، بشىء، وهو يكاد يكون مترددا، «سيدى، لقد قال النبى إن القوة الكبيرة تجلب أعداء أقوياء، وأنا أعرف أنك قوى».

«مع بالغ الأسف».

«حقا».

نقل ممليك ثقله إلى رجله اليسرى، ضاغطا شفته مفكرا للحظة، ثم استمر قائلا: «أعتقد أننا سنفهم بعضنا البعض، فى القريب، فهما جيدا».

انحنى نسيم بصورة رسمية. ظل صامتا بينما حملق فيه مضيفه متأملا، يتنفس فى بطء من خلال فمه. قال ممليك: «إنهم يأتون إلىّ عندما يودون الشكوى، نفس الأشخاص الذين هم أصل الشكوى.

إننى أجد ذلك مرهقا مثيرا للملل، إلا أننى أجبر أحيانا على التصرف لمصلحة هؤلاء الذين يشتكون أنت تعرف ما أعنى؟».

«بالضبط».

«إننى فى بعض الأحيان غير ملزم لعمل معين، إلا أننى فى أحيان أخرى أكون ملزما إلى حد كبير. ومن ثم، يا نسيم حصنانى، فإن الرجل الحكيم هو من يفتح الباب أمام الشكاوى».

انحنى نسيم فى رشاقة، وظل مرة أخرى، صامتا. لم يكن مجديا متابعة حوار يصطبغ بوضعهم النسبى حتى ينال الموافقة على هديته التى تقدم بها. ويبدو أن ممليك أدرك ذلك، فتنهد وابتعد إلى مجموعة أخرى من الزوار. انتهى العشاء، وانتقلت المجموعة مرة أخرى إلى حجرة الاستقبال الطويلة، وأخذ قلب نسيم ينبض الآن فى سرعة فقد تناول ممليك الحزمة الملفوفة واستأذن قائلا: «يجب أن أقارن هذه النسخة بما فى مجموعتى. سوف يحضر الليلة بعد قليل، الشيخ إمبابى، فاجلسوا وخذوا راحتكم، سوف ألحق بكم قريبا». وغادر الغرفة. وبدأت مناقشة متقطعة، حاول نسيم، جهد طاقته، المشاركة فيها، رغم معرفته أن قلبه ينبض قلقا فى سرعة، وأن أصابعه ترتعش وهو يرفعها تحمل السيجارة إلى فمه. وفتحت الأبواب، بعد فترة، مرة أخرى، لتسمح بدخول شيخ عجوز أعمى جاء ليحيى «ليلة الله»، وأحاط به الحاضرون يشدون على يده ويقدمون له التحيات. ثم دخل ممليك فجأة. ورأى نسيم يديه فارغتين، فأخذ يهمس بالصلاة شاكرا، ثم مسح حاجبيه.

لم يقتض تماسكه مرة أخرى، وقتا طويلا. كان يقف بعيدا عن زحمة السادة بأرديتهم السوداء، وقد وقف، فى وسطهم، الشيخ

العجوز الأعمى، بوجهه الخالى الحائر وهو يستدير من صوت إلى صوت، أشبه بجهاز آلى يسجل موجات الصوت. كان فى حالة من الارتباك الخفيف توحى بكل القناعة الروحية بإيمان مطلق، فى شىء ما، هو أكثر الأشياء بعثًا على الرضا، حيث لا يفهم بالعقل فهما تاما. كانت يداه متماسكتين فوق صدره. بدا كطفل خجول عجوز، يفيض بجمال نابض، لإنسان غدت روحه نذرا منذورا.

شق الباشا الذى دخل، مرة أخرى، طريقه إلى جانب نسيم فى بطء وعلى مراحل متمهلة حتى بدا للأخير أنه لن يصل إليه البتة. كان هذا التقدم البطىء قد امتد واستطال بالتحايا والزهد المتكلف. وأخيرا وصل إلى هناك، إلى جوار مرفق نسيم وأصابعه الطويلة الذكية لاتزال تمسك بالمذبة المرصعة بالجواهر: «إن هديتك هدية فاخرة منتقاة»، أخيرا قال فى صوت خفيض ونبرة معسولة: «إنها مقبولة تماما. إن معارفك وتميز معدنك، فى الحقيقة يا سيدى، أمر أسطورى، ومن يدهشه ذلك إنما يكون آية فى الجهل، الفج، بالحقيقة».

إن المعادلة التى يستخدمها مميلك، دون استثناء، قاعدة ملساء للغاية، تدار بصورة جيدة نادرة بارعة فى العربية، حتى إن نسيم لم يكن يملك إلا النظر دهشا ومسرورا. كانت جولة من الحديث المنتقى لا يصدر إلا عن مثقف حقيقى. لم يكن يعرف أن مميلك قد أجاد حفظها عن ظهر قلب لمواجهة مثل تلك المناسبات. وأحنى رأسه مثلما يفعل شخص ما فى حفل تنصيبه فارسا، لكنه ظل صامتا. ونظر مميلك إلى مذبته، للحظة، مغازلا، قبل أن يضيف فى نغمة أخرى: «هنالك، بالطبع، شىء واحد، لقد تكلمت لتوى، يا أفندى، عن الشكاوى التى تأتى إلى، وأنا فى كل تلك الحالات مقيد مع بالغ الأسف، بالتحقيق فى أسبابها إن آجلا أو عاجلا».

وأدار نسيم عينيه السوداوين الناعستين نحوه. قال فى صوت خفيض وهو لا يزال يبتسم: «سيدى عندما تحل فترة الأعياد الأوروبية، ما بين عيد الميلاد ورأس السنة ـ وتلك مسألة شهور ـ لن يكون هنالك مجال آخر للشكوى». وخيم الصمت.

«إذن فمسألة الوقت مهمة»، قال مميلك مفكراً.

«الوقت هو الهواء الذى نتنفسه، هكذا يقول المثل».

واستدار الباشا الآن، نصف دورة. تحدث كأنما يتوجه بما يقول إلى الجماعة عامة، مضيفا: «إن مجموعتى فى حاجة إلى معارفك المتميزة للغاية. آمل أن تكشف لى العديد من كنوز أخرى للكلمة المقدسة». انحنى نسيم مرة أخرى.

«الكثير بقدر ما تقبل يا باشا».

«إننى آسف، بالغ الأسف، أننا لم نلتق من قبل».

«مع بالغ الأسف».

لكنه غدا المضيف مرة أخرى، واستدار جانبا. كانت المقاعد صلبة الظهور غير المريحة تكاد تمتلئ بزائريه الآخرين. انتقى نسيم واحدا منها عند نهاية الصف فى الوقت الذى بلغ فيه مميلك ديوانه الأصفر وتسلقه، أشبه بسياج يتعلق برمث عائم وسط المحيط. أعطى إشارة فتقدم الخدم إلى الأمام يرفعون أكواب القهوة والحلوى. أحضروا معهم مقعدا مرتفع الظهر ذا ذراعين محفورين بالنقوش وسجادة خضراء، ووضعوه للمقرئ فى أحد جوانب الحجرة. نهض أحد الضيوف وهو يتمتم بعبارات الاحترام، يقود الرجل الأعمى إلى المقعد. انسحب الخدم، فى نظام بديع، وأغلقوا الأبواب عند نهاية الحجرة. كان الورْد (*)

(*) عربية بحروف لاتينية.

يوشك أن يبدأ. افتتح مليك الجلسة باقتباس من الغزالى عالم أصول الدين ـ كان استحداثا أدهش امرءا مثل نسيم. تشكلت صورة الرجل لديه كلية، مما كان يتناقله الناس من كلام. قال مليك، «إن الطريقةالوحيدة للاتحاد بالاله هى بالتواصل الدائم معه». ما أن نطق الكلمات حتى استند إلى الخلف وأغلق عينيه كأنما أرهقه الجهد، لكن العبارة كان لها تأثير إشارة البدء، إذ ما أن بدأ المقرئ الأعمى يرفع رقبته الضامرة، ويتنفس عميقا قبل أن يبدأ حتى استجابت الجماعة كلها كرجل واحد، أطفئت السجائر فى الحال، أنزل كل امرئ ساقه إن كان واضعا إياها فوق الساق الأخرى، كل منحى للجسد أو المخاطبة، اتسم بالتقصير أو الإهمال، تم تصويبه وتقويمه.

وانتظروا الآن منفعلين فى انتظار الصوت العجوز العذب الذى أجهده العمر حتى يتلو الآيات الأولى من الكتاب. لم يكن هنالك أى ادعاء فى هذا الانتباه الذى يتسم بالإجلال لدائرة الوجوه المرتشية. كان البعض يلعق شفتيه وقد استند إلى الأمام فى شغف، كأنما ليلتقط الآيات فوق الشفاه، والبعض أحنى رأسه وأغمض عينيه كأنما يواجه تجربة موسيقية جديدة، كان المقرئ العجوز يجلس وقد ضم يديه الشمعيتين فى حجره وبدأ قراءة السورة (*) الأولى فى صوت ملىء بالتدين الدافئ الناعم. كان صوته، فى البداية، مهتزا بعض الشىء إلا أنه كان يجمع القوة واليقين من الصمت المحيط كلما تقدم. كانت عيناه واسعتين براقتين مثل عينى أرنب ميت، وكان مستمعوه يتابعون دلالة الآيات وهى تخرج من شفتيه فى حرص ونشوة، يبحثون معا بالتدريج عن طريقهم فى المجرى العام لما يسمعون، كسرب من سمك يتبع بالغريزة، قائده إلى أعماق البحر. وترك ما يعانيه نسيم من ضيق وقلق

(*) عربية بحروف لاتينية.

مكانه لدفء فى القلب فقط كان يحب السُورَ (*) أيضا، وصوت المقرئ العجوز الرائع. كان الصوت «صوتا من أعماق القلب» ـ كل الحضور الروحى انثال كمجرى الدم فى الآيات الرائعة، يملؤها بحماسه هو، حيث كان فى وسع المرء أن يحس بمستمعيه ينتفضون ويستجيبون كمن يعد سفينة فى مواجهة الريح. كانوا يتنهدون وهم يقولون «الله» (*) لسلاسة التعبير فى كل عبارة. وأمدت تلك الشهقات الصغيرة ثقة الصوت العجوز بمزيد من الطلاوة «صوت تفوق عذوبته، عذوبة البر والإحسان»، هكذا يقول المثل. كانت التلاوة درامية. تتنوع أساليبها تنوعا شديدا. كان المقرئ يغير نبرته لتناسب مادة الكلمات، مهددا، متوسلا، ناصحا محذرا، لم يكن هنالك ما يثير الدهشة فى إجادته الكاملة تلك، ففى مصر كلية استذكار للمقرئين العميان ذات شهرة، كما أن طول القرآن يقارب ثلثى العهد الجديد. واستمع نسيم إليه فى رقة وإعجاب، يحملق إلى أسفل فى السجادة، نصف دهش من جزر ومد الشاعرية التى صرفت عقله عن الوساوس الملحة التى تجول بخاطره حول رد فعل ممليك المحتمل على الضغوط التى أجبر ماونت أوليف لممارستها عليه.

كانت تحل ما بين كل سورة (*) وأخرى لحظات من الصمت قليلة، لا يتحرك أى شخص خلالها أو ينطق أى كلمة. كان الكل يبدو غارقًا متأملاً فيما سمع من قبل. كان المقرئ مغرقا ذقنه فى عظام صدره كأنما يستعيد قوته وقد ضم أصابعه فى رقة، ينظر إلى أعلى، مرة أخرى إلى الضوء الذى لا يرى، ويتلو، مرة أخرى، فى طلاقة، فيحس المرء بفعل الكلمات المتوترة وهى تنطلق عبر الضمير المتيقظ للمستمعين.

(*) عربية بحروف لاتينية.

كان الوقت بعد منتصف الليل، عندما اكتملت قراءة القرآن، وحل بالمستمعين إحساس ما بالاسترخاء عندما استقر الرجل العجوز على قصص المأثور من التقاليد، والتى لم يكن الاستماع لها كما لو كانت جزءا من نغم، إلا أنها توبعت بعقل نشط يضرب به المثل. كانت تتعلق بمنطق التنزيل ـ وما فيه من مبادئ وأخلاق فاضلة، كذا التطبيق. واستجابت الجماعة إلى تلك النبرة المختلفة فى تعبيرات تجلت على الوجوه تتسم بفطنة هؤلاء العاملين العاديين فى أى مكان فى العالم. رجال بنوك أوطلبة أو رجال أعمال.

بلغت الساعة الثانية قبل أن تنتهى الأمسية. واصطحبت مليك ضيوفه إلى الباب الخارجى حيث سياراتهم فى انتظارهم، وندى أبيض فوق عجلاتها وأسطحها المصنوعة من الكروم. قال لنسيم فى صوت هادئ متأن ـ صوت ذهب إلى قلب علاقتهما مثل خط عمودى ثقيل، «سوف أدعوك يا سيدى مرة أخرى، كلما كان ذلك ممكنا. إلا أنه عليك أن تفكر وأن تمعن التفكير»، ثم لمس بأصبعه فى رقة، زرار معطف ضيفه، كأنما يضع خطا تحت ملحوظته.

شكره نسيم. سار إلى المركبات بين أشجار النخيل حيث ترك سيارته الكبيرة. كان إحساسه بالراحة المجردة لا يشوبه الشك بأى حال من الأحوال، لقد حصل على المستطاع، هكذا كان يفكر. مهلة لن تغير بشكل أساسى عداوة وبغضاء القوى التى تصطف فى مواجهته، إلا أن المهلة فى حد ذاتها كانت أمرا يستحق الشكر والامتنان، ولكن إلى متى تمتد؟ كان ذلك أمرا يصعب تحديده فى تلك المرحلة.

لم تكن جوستين قد ذهبت إلى الفراش بعد، كانت تجلس فى بهو فندق شبرد تحت الساعة وأمامها قهوة تركية لم تمسسها. وقفت فى لهفة

عندما مر عبر الأبواب الدوارة بابتسامته المرحبة الرقيقة. لم تتحرك، لكنها حملقت فيه فى حدة يشوبها التوتر - كأنها تحاول حل رموز مشاعره من سمته وهيئته، ثم استرخت وابتسمت فى ارتياح، «إننى مرتاحة للغاية! شكرا للإله: لقد استطعت أن استشف ما حدث من وجهك وأنت قادم». احتضنا بعضهما البعض فى رقة. غطس فى المقعد المجاور لها هامسا: «ما كنت أتصور أن ينتهى هذا الأمر أبدا. لقد قضيت جزءاً من الوقت وأنا أكاد أكون قلقا أيضا. هل تعشيت بمفردك؟».

«نعم، ورأيت دافيد».

«ماونت أوليف؟».

«كان حاضرا فى عشاء كبير، حيانى منحنيا فى برود، لكنه لم يتوقف ليتحدث معى. كان معه بعض الناس، رجال بنوك أو شىء من هذا القبيل».

أمر نسيم بإحضار قهوة له، وعرض، بينما كان يحتسيها، ما جرى فى ليلته تلك مع ممليك. قال متأملاً: «من الواضح أن الضغط الذى يمارسه البريطانيون صادر عن ملفات تلك المراسلات التى ضبطت فى فلسطين. لقد أنبأ مكتب حيفا كابوديستريا بذلك. وتلك زاوية جيدة للتقدم بها إلى نور والضغط عليه حتى.. يتخذ إجراء»، ورسم بالقلم الرصاص مشنقة ضئيلة للغاية على ظهر ظرف، وقد علقت فيها ضحية أشبه بذبابة صغيرة. «إن ما استطعت استخلاصه من ممليك يوحى بأنه فى وسعه تعطيل الإجراءات. لكن المشكلة فى مثل هذا النوع من الضغوط أنه قوى إلى حد لا يمكن معه تجاهله إلى ما لا نهاية: إذ عليه آجلا أم عاجلا أن يرضى نور. ولقد قلت له بالفعل إننى سأكون قادرا

حتى أعياد الميلاد . . . . . سأكون بعيدا عن دائرة الخطر، وأن تحرياته لن تقود إلى شىء» .

«إن سار كل شىء طبقا للخطة» .

«كل شىء سيسير طبقا للخطة» .

«وماذا بعد؟» .

«وماذا بعد؟» . ومد نسيم ذراعيه الطويلتين وراء رأسه متثائبا، وأومأ جانبا إليها : «سوف نتخذ ترتيبات جديدة سوف يختفى داكابو، وتذهبين أنت بعيدا، وليلى إلى كينيا فى إجازة طويلة مع ناروز، ذلك هو، وماذا بعد» .

«وأنت؟» .

«سوف أبقى هنا قليلا حفاظا على الأمور فى نصابها . إن الجماعة تحتاج إلىّ . ولايزال هنالك الكثير لإنجازه سياسيا، ثم أحضر إليك ويكون فى مقدورنا قضاء إجازة طويلة فى أوروبا أو أى مكان آخر تنتقينه . . . »

كانت تنظر إليه واجمة . قالت أخيرا وهى ترتعش ارتعاشة خفيفة : «إننى متوترة عصبيا، نسيم . . دعنا نسوق بحذاء النيل مدة ساعة حتى نلم شتات أفكارنا قبل أن نأوى إلى الفراش» .

كان سعيدا أن يشركها معه . انطلقت السيارة فى رقة، مدة ساعة، على امتداد أشجار الجاكاراندا الرائعة والتى تحد ضفة النهر، وماكينتها تهر هريرا . كانا يتحدثان حديثا متقطعا فى أصوات منخفضة . قالت : «إن ما يشغلنى أنك سوف تجد يدى ممليك فوق كتفيك؟ كيف يمكنك نفضها عنك؟ إذ لو كان لديه ضدك دليل قوى، فإنه لن يرخى قبضته أبدا إلى أن يعصرك حتى الجفاف» .

قال نسيم فى هدوء: «إن الوضع سيئ بالنسبة لنا فى كلتا الحالتين، إذ لو بدأ التحقيق علنا، فإن ذلك سوف يعطى الحكومة فرصة مصادرة أملاكنا أو الحجز عليها، وإنه لمن الأفضل لى أن أرضى جشعه الخاص قدر استطاعتى، ونرى، فيما بعد، ماذا نفعل. إن الشىء الأساسى هو التركيز على المعركة المقبلة».

عندما لفظ الكلمة كانا يمران أمام حدائق السفارة البريطانية الرائعة الإضاءة. جفلت جوستين قليلا، جذبته من كمه. كانت قد رأت شخصا نحيلا يرتدى المنامة ويسير على الأرض المعشوشبة فى جو من الذهول المألوف لها، قالت: «ماونت أوليف». نظر نسيم آسفا عبر الحديقة نحو صديقه. تملكه، فجأة، إغراء أن يوقف السيارة ويدخل الحديقة يفاجأه. إن مثل تلك الحركة تتسق وطبيعة سلوكهما الواحد نحو الآخر، منذ ما لا يزيد على شهور ثلاثة مضت. ما الذى أصاب الآن كل شىء؟ قالت جوستين: «سوف يصاب بنزلة برد، إنه حافى القدمين يحمل برقية».

زاد نسيم من سرعة السيارة التى انحنت فى الطريق العريض. قال: «إننى أعتقد أنه يعانى من الأرق، ويود ترطيب قدميه فى العشب قبل محاولته النوم. أنت غالبا ما تفعلين ذلك، هل تتذكرين؟».

«لكن البرقية؟»

لم يكن هنالك، فى الحقيقة سر كبير وراء البرقية التى يحملها السفير الآن فى يده، والتى كان يتفحصها، من حين لآخر، وهو يسير على مهل فى قصره الخاص يدخن سيجارا. لقد لعب منذ أسبوع مباراة شطرنج مع بلتازار عن طريق البرقيات ـ وهى عملية تبعث السلوى كثيرا فى نفسه فى تلك الأوقات، وبعض المتعة التى يحصل عليها رجال الأعمال المتعبون من حل ألغاز الكلمات المتقاطعة، ولم ير، ماونت أوليف، السيارة الكبيرة وهى تمر تهر عبر الحدائق تتجه إلى المدينة.

(١٥)

كـان على هؤلاء الممثلين أن يظلوا هكذا منذ الآن ولأسـابيع عـدة، وكأنهم قد وقعوا، مرة وإلى الأبد في مصيدة أوضاع تصور كيف يمكن أن يكون الفعل البعيد عن الحيطة وبعد النظر فعلا لا يركن إليه ولا يعتمد عليه. وأصاب ماونت أوليف، أكثر من الآخرين، إحساس بقصوره المهنى، بعجزه عن اتخاذ إجراء غير أن يكون هو ذاته أداة (إذ لم يعد عاملا فاعلا)، إنه يحس، إحساسا كبيرا، بنفسه وقد وقع فى قبضة مجال جاذبية الأعمال السياسية. لقد حرم من المتع الخاصة والنزوات، ولم يعد هنالك من شيء يعتز به. كان يتساءل، هل يحس نسيم أيضا، رائحة الركود تتصاعد من كل شيء؟ كان يفكر بمرارة، غالب الأحيان، فى الكلمات التى قالها سير لويس، عرضا، وهو يمشط شعره أمام المرآة، «من الوهم أن تتصور نفسك حرا تفعل ما تشاء!» كان يعانى ما بين الحين والحين، صداعا مبرح الألم وأخذت أسنانه تثير له المتاعب.. وتخيل لسبب أو لآخر «أن ذلك إنما يرجع إلى إفراطه فى التدخين، فحاول التخلص من تلك العادة دون جدوى. ولم يعد عليه صراعه ضد التدخين إلا بمزيد من الشقاء.

ومع ذلك كان هو نفسه الآن بلا حول ولا طول، فكم بالأحرى يكون حال الآخرين؟ لقد بدوا أشبه بشخوص خيال مريض، حجب الضوء عنها، فرغت من معانيها، أخليت مثل بزات قماشية، تأخذ

أماكنها في هذه الدراما، التي لا لون لونها، في صراع الإرادات، نسيم، جوستين ـ ليلى ـ بمحيطهم الوهمي ـ الأشبه بمشروعات حالمة في عالم مليء بتماثيل شمع لا معالم لها. كان من العسير أن يحس أنه مدين لهم منذ الآن بأي حب. كان صمت ليلى يوحي بوضوح، قبل أي شيء بجرم مشاركتها في الإثم.

الخريف يقترب من نهايته، ونور عاجز، حتى الآن، عن تقديم ما يدل على اتخاذ إجراء ما. كانت الخطوط التي تربط بعثة ماونت أوليف بلندن قد غدت موحلة ببرقيات مطولة، مطولة. مليئة بالتكرار الحاد السليط الصادر عن عقول تسعى للتحكم في العملية التي أدرك ماونت أوليف الآن أنها ليست مجرد مصادفة، لكنها كانت في الحقيقة قدرا ومصيرا، كما كان من المثير أيضا، وبطريقة تبدو متناقضة، هذا الدرس الأول الكبير والذي كان على مهنته أن تعلمه له، حيث كان يراقب الأمر كله، بعيدا عن نطاق مخاوفه وتردده وإحجامه، بنوع من الانتباه كان يستغرقه بإحساس يكاد يكون إعجابا مخيفا، إلا أنه كان يشبه مومياء ضجرة وهو يواجه حملقة نور، يكاد يكون خجلا من بهاء ورونق هذا الزي سابق الاستعمال، كان يتعمد ـ بطريقة واضحة ـ حض الوزير أو تهديده، كان الرجل العجوز يفيض برغبة محمومة في أن يجامله. كان أشبه بقرد يقفز في حماس عند طرف سلسلة. ولكن ماذا في وسعه أن يفعل؟ إنه يتظاهر ويتصنع حتى يغطي أعذاره الواضحة: كان من الضروري التأكد من الحقائق، لاتزال هنالك متابعة للخيوط، وهلم جرا.

وفعل ماونت أوليف مالم يفعله من قبل في حياته الوظيفية. احمر لونه، دق بعنف المنضدة المتربة بينهما، في حنق يتسم بالود. اتخذ

سماء سحابة رعدية. تكهن بقطيعة فى العلاقات الدبلوماسية. ذهب بعيدا للغاية مرشحا نور الحصول على وسام. . . مدركا أن هذا هو ملاذه الأخير. ولكن كل ذلك كان عبثا.

كان شخص ممليك العريض المتأمل يقعى معترضا ضوء النهار، يعد بكل شىء. ولا ينفذ شيئا. ثابت الجنان لا يتحرك. ، خبيث بعض الشىء، إن كل واحد منهم يدفع الآخر الآن إلى ما بعد نقطة التوفيق فيما بينهم بطريقة مهذبة: ما سكيلين والمندوب السامى يضغطان على لندن كى تتخذ إجراء، ولندن غارقة فى الأبهة والسؤدد تضغط على ماونت أوليف، وماونت أوليف يضغط على نور، والرجل العجوز فرض عليه إحساس بأنه عقيم عديم التأثير. كان هو أيضا عاجزا عن الصدام مع ممليك دون عون من الملك، والملك مريض، مريض للغاية. وعند قاعدة الهرم كان يجلس وزير الداخلية بمجموعة المصاحف التى لديه، والتى لا تقدر بثمن، وقد أغلق عليها دواليب مليئة بالتراب.

وسطع فى ذهن ماونت أوليف، وقد أكره على أى حال على الحفاظ على الضغط الدبلوماسى، إحساس مرعب بالعبث وعدم الجدوى، بينما كان يجلس (كفتى أول طعن فى السن) يستمع إلى سيل أعذار نور، يشرب القهوة ويتفرس فى هاتين العينين الكليلتين الضارعتين: «ولكن، أى دليل تريد ياباشا أكثر من الأوراق التى أحضرتها إليك؟». وبسط الوزير يديه على اتساعهما، يتلمس الهواء بينهما فى نعومة، كأنما يدهنه بالطلاء. كان يطفح شعورا كالبلسم، يسترخى ويعتذر: «إنه يمضى قدما فى الموضوع»، نق فى عجز، «هنالك أكثر من حصانى واحد، كبداية»، أضاف فى استماتة، وأخذ رأسه الشبيه برأس سلحفاة مجعدة تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف فى

حركة منتظمة كبندول الساعة. تأوه ماونت أوليف، فى داخله، وهو يفكر فى تلك البرقيات الطويلة التى تأتى تترى واحدة بعد الأخرى بلا نهاية كالدودة الشريطية . إن نسيم، كما يمكن القول، قد دس نفسه الآن بعناية بين مناوئيه المختلفين فى وضع لا يستطيع أحد منهم، فى الوقت الراهن، أن يطوله، لقد أحبطت اللعبة الآن وعوقت.

دونكين وحده هو الذى استمد من تلك الجولات المتبادلة فكاهة ساخرة - تتميز بها مصر تميزا خاصا. لقد علمته مشاعره الخاصة قبل المسلمين أن يحدد دوافعه بوضوح، أن يتبين لعبة الأطماع الطفولية فيما وراء الصمت المسرحى للوزير، وفيما وراء وعوده الهينة اللينة. حتى هيستيريا ماونت أوليف، التى كانت تتجمع فى مواجهة هذه الحواجز والعقبات، كانت تثير متعة سكرتير مرءوس، لقد غدا رئيسه قصير النفس، ضيق الخلق، تحت كل هذه الضغوط. من ذا الذى كان يعتقد بإمكان حدوث مثل هذا التغيير؟.

إن الملاحظة القائلة بأن هنالك أكثر من حصانى واحد، كانت ملاحظة غريبة، إنها ثمرة بعد نظر رافائيل وهو يحلق لسيده فى هدوء ذات صباح، كالمعتاد. وأعطى ممليك أذنا صاغية لما قاله الحلاق - ألم يكن أوروبيا؟ كانا يناقشان أمور اليوم بينما الحلاق الضئيل يحلق له فى الصباح. كان رافائيل مليئا بالأفكار والآراء، لكنه لا ينطقها إلا تلميحا، يبسطها حتى تقدم نفسها فى صورة تفهم مباشرة.

كان يعرف أن ممليك، رغم أنه لم يفصح عن ذلك، يعانى من إلحاح نور وإصراره، وكان يعرف أيضا أنه لن يتخذ إجراء إلا إن شفى الملك بالقدر الذى يجعله يمنح نور فرصة المثول بين يديه. كانت المسألة مسألة حظ ووقت. ما المانع فى تلك الأثناء من سلب حصانى قدر

المستطاع؟ إنه حالة واحدة فقط من كل اثنتى عشرة حالة تماثلها، ترقد، يتجمع التراب فوقها (وربما الرشاوى أيضا) بينما يرقد الملك مريضا.

سوف يحس الملك، ذات يوم أنه أحسن حالا بكثير تحت إشراف أطبائه الألمان الجدد، وحينئذ سوف يرسل إلى نور، يمنحه فرصة المثول بين يديه. تلك هى الطريقة التى سوف يتم إخراج المسألة بها، وتكون الخطوة التالية: دوى الهاتف الذى على هيئة عنق إوزة عجوز فى الديوان الأصفر، والرجل العجوز يقول (مخفيا صوته الظافر): «أنا نور، إننى أتحدث إليك من الديوان الملكى ذاته. إننى ماثل الآن بين يدى الملك بناء على طلبه. ذلك الأمر الذى تحدثنا فيه، والخاص بالحكومة البريطانية، يجب أن يكون الآن قد أحرز تقدما ما وأن يستمر هذا التقدم. عليك أن تتقدم بالحمد والشكر لله!».

«عليك أن تتقدم بالحمد والشكر لله!»، بدءا من هذه النقطة وما بعدها، سوف تتقيد يدا مmليك. إلا أنه الآن لايزال حرا، حرا فى التعبير عن ازدرائه للوزير الأكبر سنا، بعدم الفاعلية والنشاط.

«هنالك أخوان، ياصاحب السعادة»، هكذا قال رافائيل، فى صوت قصصى، وقد ارتسم على وجهه الصغير الأشبه بوجه الدمية تعبير نضج كئيب. «هنالك أخوان يحملان اسم حصنانى، وليس واحدا فقط، ياصاحب السعادة». وتنهد بينما أصابعه البيضاء تمسك بتجعيدات صغيرة من جلد مmليك الداكن ليعمل فيها بموساه. كان يتقدم فى بطء، إذ إن تسجيل فكرة فى عقل مmليك أشبه بمحاولة دهان حائط. على المرء أن ينتظر حتى يجف الوجه الأول من الطلاء (الفكرة الأولى) قبل تقديم الثانية. «أحد هذين الأخوين غنى بالأرض، والآخر غنى بالنقود ـ إنه الذى أحضر المصحف. ما فائدة الأراضى لسعادتكم؟ إن

كيس نقود أحدهما ليس له قاع . . » وأوحى صوته بكل ازدراء من لا يملك أرضا ، للأرض الطيبة .

«حسنا ، حسنا ، ولكن . . » ، قال ممليك فى نفاد صبر لا يكاد يبين ، بل حتى دون أن يحرك شفتيه تحت قبلة الموسى القاطعة . كان نافد الصبر ، إذ يجب تطوير الفكرة الرئيسية . وابتسم رافائيل ، وظل صامتا للحظة ، ثم قال مفكرا : «حقا إن الأوراق التى تسلمتها من سعادته ، تحمل إمضاء حصنانى ـ اسم العائلة . من ذا الذى فى وسعه أن يقول أى الأخوين وقعها؟ من المذنب ومن البرىء؟ وإن كنت حكيما حقا ، فهل تضحى برجل المال بديلا عن رجل الأرض؟ أنا لا أفعلها ياصاحب السعادة ، لا أفعلها» .

«ماذا تفعل أنت يا رافائيل؟» .

«يجب أن يبدو الأمر ، بالنسبة لأناس مثل البريطانيين ، أن الفقير هو المذنب وليس الغنى . إننى فقط أفكر بصوت مرتفع ياصاحب السعادة ، رجل صغير الشأن فى وسط مهام كبيرة» .

وتنفس ممليك فى هدوء عبر فمه ، مبقيا عينيه مغلقتين ـ كان ماهرا فى عدم إظهار دهشته البتة . ومع ذلك ، فإن الفكرة علقت بذهنه فى تكاسل . ملأته بحيرة وتعجب مفكر متأمل . لقد تلقى خلال الشهر الأخير ثلاث إضافات إلى مكتبته . مما جعله لا يشك فى الثراء النسبى لزبونه ، حصنانى الأكبر سنا . كان الوقت يقترب من أعياد الميلاد ، وأخذ يمعن التفكير ، لو كان فى وسعه أن يرضى كلا من البريطانيين وجشعه الخاص . . إذن سوف يكون غاية فى الذكاء!

كان ماونت أوليف يجلس إلى أوراقه على مسافة لا تزيد على ثمانمائة ياردة فى المقعد الذى يتمدد عليه ممليك ، عبر مياه النيل بنية

اللون ـ كانت ترقد على مكتبه المصقول بطاقة دعوة وردية كبيرة للمشاركة فى واحد من أكبر الأحداث الاجتماعية التى تجرى خلال العام ـ الصيد السنوى الذى يدعو له نسيم كل عام فى بحيرة مريوط . وسند الدعوة إلى المحبرة حتى يقرأها مرة أخرى وهو يحس بتأنيب عابر .

إلا أنه كان هنالك اتصال آخر ، ربما كان أكثر أهمية ـ إذ رغم كل ذلك الصمت الطويل ، تعرف على خط ليلى الذى يتسم بالعصبية فوق ظرف له رائحة الحبر . . ظرف كان فى داخله صفحة من كراسة تمارين ، وعليها خربشات الكلمات والجمل مكتوبة كيفما اتفق ، كأنما فى عجلة شديدة : «دافيد سأسافر إلى الخارج ، ربما تطول المدة أو تقصر ، لا أعرف . فذاك أمر ضد إرادتى ، ونسيم يصر عليه ، لكن يجب أن أراك قبل أن أغادر . يجب أن تكون لدى الشجاعة لألقاك فى الليلة السابقة على مغادرتى . لا تخذلنى . ليس لدى ما أطلبه ، لكن هنالك ما أود أن أخبرك به . إن هذا العمل ، لم أكن أعرف عنه شيئا حتى يوم الكرنفال . أقسم لك على ذلك ، وأنت الآن فقط من يمكنه إنقاذ . . . » .

هكذا جرى الخطاب ، تداخل فيه الحابل بالنابل . واختلطت مشاعر ماونت أوليف ـ أحس براحة مشوشة ترتعش ، على نحو ما ، عند الطرف النهائى للغضب والأنفة . سوف تكون ، بعد كل هذا الوقت ، فى انتظاره ، بعد الظلام قرب «الأوبرج بلو» فى عربة تجرها الخيل ، بعيدة عن الطريق بين أشجار النخيل ! كانت فى هذه الخطة على الأقل ، لمسة من خيالها الجامح القديم . ولسبب ما يجب ألا يعرف نسيم بهذا اللقاء ـ لماذا لا يتقبله؟ إلا أن المعلومات التى تفيد بأنه ليس لها ، على الأقل دور فيما يحتضنه ابنها من مؤامرات ، غمرته بالراحة والحنان . كان يرى ليلى ، طوال هذا الوقت ، امتدادا عدوانيا لنسيم ، وكان

يروض نفسه على كراهيتها! «ياليلاى المسكينة»، قال فى صوت مرتفع، وقد أمسك بالظرف إلى أنفه يستنشق عبير الحبر(*). ورفع سماعة الهاتف ليتحدث مع إيرول فى رقة: «أعتقد أن كل قسم الاستقبال مدعو إلى حفل صيد آل حصنانى؟ نعم؟ إننى أوافق على أنه سوف يكون رابط الجأش فى مثل ذلك الوقت. . . أنا بالطبع لن أذهب. لكننى أحب أن تقبلوا جميعا وأن تعتذروا عنى، فقط، حفاظا على أن يكون المظهر العام طبيعيا. هل ستفعلون هكذا؟ شكرا جزيلا، هنالك شىء آخر، سوف أغادر الليلة السابقة على الصيد لعمل خاص وأعود فى اليوم التالى ـ من المحتمل أن تتقاطع سبلنا، على الطريق الصحراوى. كلا إنى سعيد أيها الزملاء أن تحظوا بمثل هذه الفرصة. أتمنى لكم، بالقطع، صيدا طيبا».

مرت الأيام العشرة التالية وكأنها حلم من الأحلام، لا يقطعه إلا وخزات متتالية لحقيقة لم تعد بعد مخدرا، لتمزق أمسك بأعصابه يكممها، غدت واجباته عذابا من ملل وضجر. أحس أنه يستهلك على نحو يفوق كل تقدير، يُستنفد حتى النهاية. كان يواجه وجهه فى مرآة الحمام، وهو يقدمه لطرف الموسى فى قرف لا يمكن مداراته، غدا شعره الآن عند الفودين رماديا بصوة ملحوظة. وكان هنالك، فى مكان ما، من جناح الخدم مذياع يدمدم ويخربش نغم أغنية قديمة كانت تتردد طوال الصيف السكندرى «أبدا للحياة»(**). كان لابد أن يشمئز منها الآن. تلك المرحلة الجديدة ـ إنها مرحلة انتقالية مليئة بشذرات متفرقة من العادات والواجب والأحوال ـ والتى غمرته بنفاد

(*) عربية بحروف لاتينية.

(**) بالفرنسية فى الأصل.

صبر مزعج. كان، فيما وراء كل ذلك، متنبها، يلملم نفسه لهذا اللقاء الذى طال انتظاره مع ليلى. إنه الذى سيقرر، بصورة ما، ليس المعنى الجسدى الملموس لعودته إلى مصر، ولكن المعنى النفسى مرتبطا بحياته الداخلية. يا إلهى! إنها طريقة حمقاء لتناول هذا الأمر، لكن كيف يمكن للمرء أن يعبر، بصورة أخرى، عن مثل تلك الأشياء؟ كان عليه اجتياز حاجز، من نوع ما، فى داخله ـ سن الحلم الذى بلغته مشاعره، والذى عليه تجاوزها.

ساق السيارة التى تحمل علما، عبر قرقعة الصحراء، يستمتع بالصفير العذب لماكينتها التى يجرى تبريدها، وبصهيل الريح عند ستائرها الجانبية. لقد انقضى زمان منذ كان قادرا على السفر هكذا وحيدا عبر الصحراء ـ مما ذكره برحلات أقدم وأكثر سعادة. كان يطير يخترق الهواء الأبيض عداد السرعة يحوم حول الستين، وهو يدندن لنفسه، فى رقة، رغم ضيقه، اللازمة الشعرية:

أبدا للحياة

أبدا فى الليل

عندما يتحرق قلبك للحب...

كم من الزمان مضى عليه منذ ضبط نفسه يغنى هكذا؟ دهر، لم تكن سعادة حقيقية، لكنها كانت وسيلة تمكنه من إراحة عقله. حتى الأغنية التى تطفح كراهية كانت تساعده على استعادة صورة الإسكندرية المفقودة، والتى فتنته ذات يوم. هل يمكن أن تصبح هكذا مرة أخرى؟

كان الوقت قد تأخر، بالفعل، فيما بعد الظهر، عندما بلغ حافة الصحراء، وانحنى انحناءة مفاجئة بطيئة نحو أحياء المدينة الفقيرة

الخشنة المزدحمة. السحب تغطى السماء، وعاصفة رعدية تهب فوق الإسكندرية، وأخرى مطرية تنهمر شرقا فوق مياه البحيرة الثلجية الخضراء، تطير إبراً براقة فوق صفحة الماء. كان لا يكاد يسمع صوت المطر الخافت فوق همس السيارة ولمح المدينة اللؤلؤية، عبر غمامة داكنة كالبساط، ومنائرها تنطح حواجز سحاب غروب مبكر، يبدو ككتان تشرب بالدم. وريح بحر تعبث، تعنف، عند حد التقاء البحر بمصب النهر. وحزمات من دخان تتجول فى الأعلى، وغمام مصبوغ بالدم يلقى أضواء متلألئة غريبة فى شوارع المدينة البيضاء وميادينها. المطر فى الإسكندرية ظاهرة شتوية نادرة قصيرة العمر. ريح البحر تهب الآن تغير اتجاهها، تجلو السماء فتصبح صحوا فى غضون دقائق، تطوى سحاب الصيف كما تطوى السجادة. والنضرة البراقة كالزجاج لسماء الشتاء تستعيد أضواءها، تصقل المدينة، مرة أخرى، حتى تتألق كقطعة من كوارتز فى مواجهة الصحراء، أشبه بقطعة فنية جميلة. لم يعد نافد الصبر. والغسق أخذ فى ابتلاع الشمس الغاربة. وأخذت إطارات سيارته، عندما اقترب من خطوط العشش والأكواخ القبيحة والمستودعات والمخازن الكائنة فى الميدان الخارجى، تدخن مضطربة فوق القطران المبتل، الأمطار الخفيفة تهدئ من حرارتها، كان الوقت خانقا.

وولج، فى بطء، ظلال العاصفة التى بدت كعجيبة رائعة فى الضوء عند خط الأفق وقد شد إلى الخلف كالقوس. ولضوء الشمس تلألؤ غريب ينثر ياقوتا فوق السفن فى حوض الميناء (الجاثمة الرابضة تحت مدافعها كضفادع ذات قرون). إنها المدينة القديمة، مرة أخرى، وأحس بكآبتها المنتشرة تحت المطر، بينما يعبرها فى طريقه إلى المقر الصيفى. كان البرق اللامع، غير المألوف، للعاصفة الرعدية يعيد خلقها من جديد، يضفى عليها منظرا شبحيا، جوا روائيا ـ الأرصفة

مشققة، مصنوعة من ورق القصدير وأصداف القواقع وقرون مشققة والميكا. الأبنية المشيدة بالطوب الأحمر، تحولت إلى لون دم ـ الثور. والمحبون مشتتون فى ميدان محمد على وقد أفقدهم المطر، غير المعتاد، معرفة وجهتهم، يسيرون مهمومين بائسين كآلات مشوشة. والترام البنفسجى يتكتك على امتداد واجهة البحر وسط سعف النخيل الذى يضرب بعضه بعضا. لقد أهملت المدينة القديمة التى غطاها التراب المبلل القادم من الصحراء التى تحيط بها، حتى غدا كالمادة اللاصقة. أحس بها كلها من جديد، تركها تمتد بانوراميا فى وجدانه ـ أنين باخرة ركاب تبحر نحو حد الغروب، أو القطارات التى تنساب كوابل من ورق اللعب الدينارى نحو الداخل وعجلاتها، تدمدم بين الوديان المليئة بالحصباء وتراب المعابد التى هجرت منذزمن وامتلأت بالغرين. . .

رأى ماونت أوليف الآن كل ذلك وهو يحس بسأم الحياة الدنيا والذى أدركه أخيرا عندما وضع النضج لمسته على كتفى البالغ الراشد ـ تلك الخاصية المميزة للخبرات التى تجعل الإنسان طاعنا الريح تعصف بالميناء، الطرقات التى تحدها الحبال المبللة تتمايل، تترنح، تهتز كأوراق شجرة كبيرة. الدموع تسيل أسفل حاجز الرياح تحت الممسحات الدءوبة بلا ضجيج. . . فترة قصيرة فى هذا الظلام الغريب المليء بالكدمات والذى يضيؤه البرق بما يلائمة، ثم تأتى الريح، الريح الأساسية الشمالية، تسوق البحر، تهصره قمما بيضاء كالريش، تدق قبة السماء حتى تنعكس، مرة أخرى، فى وجوه الرجال والنساء، سماء شتاء مفتوحة. كان لايزال لديه وفرة من وقت.

ساق السيارة إلى المقر الصيفى ليتيقن أن طاقم العاملين قد أخبروا بمقدمه. كان ينوى البقاء ليلة واحدة، ويعود فى الصباح إلى القاهرة.

دخل من الباب الأمامى مستخدما مفتاحة الخاص. رن الجرس وانتظر يستمع إلى «على» يتخبط، بينما يسمع خطا العجوز تقترب، وصلت الريح الشمالية تزأر، تضغط النوافذ، تثبتها فى أطرها، توقفت الأمطار فجأة وكأنها ارتدت على عقبيها.

كان لا يزال لديه ساعة أو يقاربها حتى يحين موعد لقائه بها: كان وقتا كافيا يستحم فيه ويبدل ثيابه، أحس، لدهشته الخاصة، أنه مستريح تماما، لم يعد تعذبه الشكوك أو تفرحه السلوى. لقد وضع نفسه، بغير تحفظ، بين يدى الحظ والمصادفة.

أكل سندويتشا وشرب من الويسكى القوى كأسين قبل أن يخرج وتبدأ السيارة انسيابها الناعم فوق الكورنيش الكبير إلى «الأوبرج بلو»، والذى كان مقاما فى ضواحى المدينة، تحيط به كالأهداب قطع متناثرة من الكثبان الرملية، وتجمعات غريبة من أشجار النخيل. صفت السماء الآن مرة أخرى، تدافعت القمم البيضاء تدق نفسها بعنف فى دعامات الشاطبى المعدنية وابلا من رذاذ. البرق، عند طرف الأفق، ما يزال يختلج متقطعا وإن كان خافتا. تلك الومضات الباهتة توحى بما يشبه توهجات مدفعية سفن حربية بعيدة فى اشتباك بحرى.

انحرف بالسيارة فى لين خارج الطريق إلى موقف سيارات الأوبرج المهجور، وأطفأ، وهو يفعل ذلك، أنوارها الجانبية. جلس لحظة حتى يعتاد الغسق المائل إلى الزرقة. كان الأوبرج خاليا. الوقت لا يزال مبكرا للغاية حتى يزحم الراقصون ومن سوف يتناولون العشاء، الأرضية الرشيقة الأنيقة والبار، ثم رآها. كانت خارج الطريق على الجانب الآخر من الحديقة، إلى جوار رقعة كثبان رملية عارية وبعض أشجار النخيل المائلة. كانت عربة تقف هناك، تتموج أضواء

مصابيحها الزيتية عتيقة الطراز فى ضعف كيراعات نسيم بحر خفيف. وجلس شخص، لايكاد يبين، فى موضع السائق مرتديا طربوشا ـ وكان واضحا أنه فى غفوة.

اجتاز الحصى بخطى خفيفة مرحة وهو يسمعه يصر تحت حذائه. نادى عندما اقترب من العربة، «ليلى»، فى صوت رقيق، رأى ظل السائق يستدير فى مواجهة السماء، يثبت يقظته وانتباهه. سمع صوتا من داخل العربة ـ صوت ليلى ـ أو شيء ما يشبهه، «آه، دافيد. إذن فقد التقينا أخيرا، لقد قطعت كل تلك المسافة لأقول لك...».

مال إلى الأمام حائرا، مجهدا عينيه حتى يرى، لكنه لم يستطع أن يرى أكثر من هيئة غائمة، لامرئ ما، فى ركن العربة البعيد. «ادخل العربة»، صاحت بصوت آمر «ادخل العربة حتى نتحدث».

هنا تملك ماونت أوليف إحساس بأنه أمام وهم وخيال. لم يستطع أن يحدد بالضبط لماذا؟ أحس كما يحس المرء فى الأحلام، عندما يسير دون أن يلمس الأرض، أو يبدو كأنه يصعد عن قصد عبر الهواء، كفلينة عبر الماء، كانت مشاعره كقرون استشعار، تتحسس طريقها نحو الشخص الداكن، محاولا أن يجمع ويقيم معنى هذه العبارات المتعثرة، يحلل هذا الإحساس الغريب الاتجاه الذى تحمله ويكمن فيها، مثل ترنيمة أجنبية تدب فى أصوات مألوفة. هنالك، فى مكان ما، تعثرت وسقطت كل انطباعاته.

كان الأمر هكذا: لم يتعرف ماونت أوليف على الصوت تماما، أو، بصورة أخرى، تعرف على ليلى لكنه يصدق تماما ما تنقله أذناه. ويمكن القول، أن ما سمعه لم يكن ذلك الصوت العزيز الذى عاش عليه فى خياله، والذى كان يصدر عن ليلى كما يتذكرها، إنها تتحدث

الآن بصوت يشبه غرغرة غير منسقة لديك رومى. تتحدث بطريقة تتسم بالنزق، فى صوت مقصوص الأطراف إلى حد ما، وافترض أن مرجع ذلك إلى انفعالها، وعواطف أخرى، من ذا الذى يدرى؟ إلا أن. . . العبارات التى كانت تتناقص لتتلاشى، كانت تعود لتبدأ من جديد، من وسطها، لترتد وتخمد تماما فى الوقت الذى يلزم أن تترابط فيه فكرتان معا. وتجهم وهو يحاول تحليل هذا النوع الغريب، غير الحقيقى، من تشتت الصوت، الذى لم يكن هو صوت ليلى ـ أم أنه كان كذلك؟ وحطت يدها فوق ذراعه. كان قادرا على تأملها فى شغف فى حزمة الضوء الناعم الذى يلقى به مصباح الزيت بحامله النحاسى، إلى جوار مقعد السائق. كانت يد ريانة، غير مهندمة، أظافرها قصيرة غير مطلية، والبشرة منتفخة متصلبة. «ليلى، أهى أنت حقيقة؟»، سأل بطريقة تكاد تكون عفوية، وهو لا يزال خاضعا لذلك الشعور بالوهم، بفقدان الاتجاه، وكأن حلمين تداخلا، حل أحدهما مكان الآخر. «ادخل العربة»، قال الصوت الجديد لليلى الخفية.

وبينما يتقدم مطيعا إلى الأمام، إلى العربة المتأرجحة، شم فى هواء الليل رائحة خليط عطورها العجيب ـ وأحس مرة أخرى، بأن الذكرى التى كان قانعا بها، تزايله بطريقة تثير الاضطراب، روائح ماء البرتقال والنعناع وماء الكولونيا والسمسم. كانت رائحتها أشبه برائحة امرأة عربية عجوز. ثم شم رائحة الويسكى الغثة. كان عليها هى أيضا أن تشدد أعصابها بشرب الكحول استعدادا لهذا اللقاء. واصطرع التعاطف والتردد فى أعماقه، أبت صورة ليلى القديمة المتألقة واسعة الحيلة الرشيقة الأنيقة، أبت فى مكان ما أن تثبت نفسها فى الصورة الجديدة، يجب عليه ـ ببساطة ـ أن يرى وجهها، قالت وكأنها قد قرأت أفكاره: «ها أنذا جئت أخيرا لألقاك دون خمار»، وفجأة أخذ يفكر

وقد جفل، «يا إلهى، إننى ببساطة لم أتوقف كى أفكر، كم يمكن أن يكون عمر ليلى الآن!».

وأتت بحركة خفيفة للسائق العجوز ذى الطربوش، فشد الفرس العجوز ببطء إلى الخلف فوق حصباء الكورنيش الكبير المضيئة، وأخذت العربة تتحرك فى خطى متمهلة. توالت مصابيح الشارع، حادة الزرقة، واحدا بعد الآخر، تحدق فى العربة. استدار ماونت أوليف، مع أول ضوء اخترق المكان، يحملق فى المرأة الجالسة إلى جواره. كان فى وسعه أن يتعرف عليها بصورة مبهمة للغاية. رأى امرأة ممتلئة الجسد، بوجه مربع لسيدة مصرية، سنوات عمرها غير مؤكدة، والوجه مجدور بقسوة، والعينان مرسومتان بقلم الأنتيمون بطريقة عجيبة بعيدة عن الحقيقة. كانتا هما العينين المتمردتين الحزينتين لكائن ما، أخرق، مكتنز، أشبه بالصور الكرتونية: حيوان كرتونى يرتدى ملابس الآدميين ويمثل دورهم. حقا، لقد كانت غاية فى الشجاعة أن جاءت تلقاه سافرة. كانت تجلس قبالته، كائنا غريبا يحملق فيه بعينين مرسومتين يرى المرء مثلهما فى الصور المنقوشة بالألوان فوق الجص، تحملق فيه بنظرة توسل بائسة محروقة تثير الشفقة. كان يحيط بها، وهى تواجه حبيبها، جو من جرأة خادعة. رغم أن شفتيها كانتا ترتعشان، وكانت وجنتاها الكبيرتان تهتزان مع كل ارتجاجة، على الطريق، للعجلات المطاطية المصمتة، حملق كل منهما فى الآخر مدة ثانيتين كاملتين قبل أن يبتلع الظلام الضوء مرة أخرى. رفع يدها إلى شفتيه. كانت تنتفض كورقة من أوراق الشجر، رأى خلال الضوء الخاطف السريع شعرها غير الممشط، يتناثر، يتدلى خلف رقبتها دون نظام، ورداءها الأسود فاسد الذوق لا يراعى شيئا. كان مظهرها كله يوحى بالخلاعة والارتجال. والجلد الداكن ملىء

بطريقة خرقاء بندوب الجدرى، خشن مثل جلد فيل. لم يعرفها البتة «ليلى!». قال صارخا (يكاد يكون أنينا)، متظاهرا بأنه قد تعرف أخيرا عليها مرحبا بصورة حبيبته (التى ذابت الآن أو تحطمت إلى الأبد) فى هذا الكائن العجيب الذى يثير الرثاء ـ سيدة مصرية بدينة تحمل كل دلالات الشذوذ وغرابة الأطوار، والسن مسطور فوق مظهرها. كان ينظر إليها فى كل مرة تظهر فيها المصابيح، وفى كل مرة كان يجد نفسه يواجه شيئا ما أشبه بصورة كرتونية لحيوان ـ الفيل، مثلا، كان من العسير أن يتنبه لكلماتها. كان عاكفا تماما على مشاعره وذكرياته المتسارعة. «لقد عرفت وجوب لقائنا ثانية، ذات يوم. لقد عرفت ذلك». وضغطت يده، ومرة أخرى ذاق طعم أنفاسها مثقلة بالسمسم والنعناع والويسكى.

كانت تتكلم الآن وهو يستمع إليها فى قلق، لكن الانتباه الذى يعطيه المرء للغة غير مألوفة، وفى كل مرة تطل فيها أضواء مصابيح الشارع عليهما، كان يحملق فيها مضطربا ـ كأنما ليرى إن كان قد حل أى تغيير سحرى مفاجئ فى مظهرها. ثم طرأت عليه فكرة أخرى، «ماذا لو كنت أنا أيضا قد تغيرت بهذا القدر الذى تغيرت به ـ إن كانت هى حقا هذه الجالسة إلى جوارى؟». ماذا حقا؟ لقد تبادلا فى الماضى البعيد، فى بعض الأحيان، صورهما على شكل حلى تتدلى من العنق. الآن، بهتت صورته، تغيرت. ماذا يمكنها أن ترى فى وجهه ـ آثار الضعف والوهن التى قلبت قوة شبابه وأهدافه رأسا على عقب؟ لقد لحق الآن بطبقة هؤلاء الذين يتعاملون مع الحياة فى رشاقة. بالتأكيد، لابد أن يكون تخنثه وعدم فاعليته مسطورا على وجهه الأحمق الضعيف، حسن المنظر؟ ونظر إليها فى حزن، فى شغف يرثى له، ليرى إن كانت حقا قد تعرفت عليه. نسى أن النساء لا يتخلين أبدا

عن صورة ما انتاب قلوبهن من عواطف، كلا، سوف تظل إلى الأبد، يعميها حبها القديم، ترفض أن يفر أمام حب جديد. «أنت لم تتغير ولو ليوم واحد»، قالت المرأة المجهولة بعطرها الكريه، «يامعشوقى، ياحبيبى، ياملاكى». وأحمر ماونت أوليف خجلا من هذا التحبب الصادر من شفتين مجهولتين. وماذا عن ليلى التى يعرفها؟ أدرك فجأة أن الصورة العزيزة التى سكنت قلبه طويلا قد ذابت الآن، محيت تماما! لقد أصبح فجأة، وجها لوجه أمام معنى الحب والزمن. لقد فقدا، وإلى الأبد، القدرة على إخصاب عقل كل منهما للآخر! وأحس، فقط، بالإشفاق على نفسه والتقزز حيث كان يجب عليه الإحساس بالحب! ولم تكن تلك المشاعر، فى بساطة، مسموحا بها من قبل، وأخذ يلعن نفسه فى صمت، بينما كان يصعدان ويهبطان الطريق المظلم إلى جوار بحر الشقاء، مثلهما مثل مرضى يستنشقون هواء الليل، ويداهما تتلامسان فى العربة العتيقة التى يجرها الحصان. كانت تتكلم فى سرعة وبطريقة غامضة، تقفز من موضوع إلى موضوع. ورغم كل ذلك بدا أن كل ما تقوله الآن إنما هو مقدمة لبيان أساسى جاءت تلقيه. كان عليها أن تغادر غدا مساء: «تلك هى أوامر نسيم، سوف تعود جوستين من البحيرة لتأخذنى. سنختفى معا، نفترق عند القنطرة، وأذهب أنا إلى المزرعة فى كينيا، إلى متى؟ إن نسيم لن يقول ولا يستطيع أن يقول، كان علىّ أن أراك، أن أتحدث معك. ليس من أجلى ـ ليس على الإطلاق من أجلى، من أجل حبى، إنه ما عرفته عن نسيم وقت الكرنفال. كنت على وشك لقياك. لكن ما أخبرنى به عن فلسطين، جمد الدم فى عروقى! أن نقوم بعمل ما ضد البريطانيين! كيف يمكننى فعل ذلك! لابد أن نسيم قد جن. إننى لم أحضر لأننى لم أكن أعرف ماذا سأقول لك، كيف أواجهك. لكنك الآن تعرف كل شىء!».

أخذت، الآن تسحب أنفاسها فى حدة فى سرعة، كأنما كل الذى قالته لم يكن غير مقدمة لحديثها الرئيسى الذى أخرجته أخيرا وبصورة فجائية، «إن المصريين سيصيبون نسيم بالضرر، والبريطانيون يحاولون دفعهم إلى ذلك، يجب أن تستخدم نفوذك لوقف هذا، إننى أسألك أن تنقذ ابنى، يجب أن تستمع إلىّ. يجب أن تساعدنى. إننى لم أسألك معروفا من قبل».

الدموع والوجنتان اللتان خططتهما الألوان الطباشيرية بدت غريبة عنه فى أضواء الشارع. بدأ يتهته. صرخت فى صوت مرتفع، «إننى أتضرع إليك أن تمد لى يد المساعدة». بدأت تئن فجأة، تهتز مثل عربية تتوسل إليه، مما أثار إحساسه العميق بالإذلال، صاح: «ليلى، كفى». لكنها كانت تتأرجح من جانب إلى آخر وهى تكرر الكلمات، «إنك وحدك من يستطيع إنقاذه الآن»، وكأنها تتحدث بها إلى نفسها أكثر من التوجه بها إلى شخص آخر. بدأت بعض الحركات حتى تهبط على ركبتيها فى العربة وتقبل قدميه. أخذ ماونت أوليف، عند ذلك، ينتفض غضبا ودهشة وتقززا. كانا يمران الآن أمام الأوبرج للمرة العاشرة. صاح فى غضب: «إن لم تتوقفى فورا...»، غير أنها كانت تنتحب مرة أخرى، قفز بطريقة خرقاء، خارجا، إلى الطريق. كان أمرا كريها أن ينهى لقاءهما على هذا النحو. توقفت العربة. قال وهو يحس بالغفلة، فى صوت بدا قادما من بعيد، دون تعبير واضح المعالم غير نزق عتيق الطراز: «إننى لا أستطيع مناقشة مسألة رسمية مع شخص من عامة الناس». هل يمكن أن يكون هنالك ما هو أشد سخفا من هذه الكلمات؟ أحس وهو ينطقها بخجل مر. «وداعا، ليلى» قال هامسا فى سرعة، وهو يعصر يدها مرة أخرى، قبل أن يستدير. انطلق على عقبيه، فتح باب سيارته، صعد فيها وهو يلهث وقد تملكه شعور

بالحماقة البشعة، أدار السيارة. أحس فجأة أنه ليس هنالك من مكان معين يذهب إليه. كل خفقة، كل رغبة، قد تعثرت وشحبت.

بدأ بعد فترة طويلة، يسوق السيارة فى بطء وفى حرص عائدا إلى المقر الصيفى، يحدث نفسه همسا. كان المنزل غارقا فى الظلام. دخل مستخدما مفتاحه. أخذ يسير من حجرة إلى حجرة يضىء كل الأنوار. أحس فجأة أن عقله قد خف تماما من إحساسه بالوحدة. لم يكن فى مقدوره اتهام الخدم بهجران المكان، حيث أخبر هو «عليا» بأنه سيتناول عشاءه فى الخارج. سار فى البهو جيئة وذهابا، مدة طويلة، ويديه فى جيبه. شم رائحة الحجرات، التى لم تدفأ، رطبة حوله. أنبأه وجه الساعة الخالى الكئيب بأن الوقت بعد التاسعة مباشرة. توجه إلى حجرة الكوكتيل، صب لنفسه كأسا من الويسكى القوى للغاية والصودا، شربه دفعة واحدة وهو يشهق كأنما يتناول جرعة من ملح الفواكه. كان عقله يطن كسلك عالى الجهد. فكر فى ضرورة أن يخرج وأن يتناول عشاءه بنفسه. ولكن أين؟ فجأة بدت له الإسكندرية كلها، ومصر كلها، كريهة، شاقة، تثير ضجر روحه ومللها.

شرب عدة كئوس أخرى مستمتعا بالدفء الذى بعثته فى دمائه ـ لم يكن معتادا على المشروبات التى عادة ما يشربها بكمية محدودة للغاية. لقد تركته ليلى وجها لوجه مع الحقيقة التى يعتقد أنها كانت، على الدوام، كامنة وراء النسيج المترب لأفكاره الرومانسية. لقد كانت هى مصر، بصورة ما، مصره الخاصة بعقله، والآن تقشرت الصورة القديمة، تجردت عارية. «من القسوة أن أحتسى المزيد»، قال لنفسه وهو يفرغ الزجاجة. نعم، تلك هى الحقيقة. لم يكن قاسيا البتة، ولم يكن على سجيته أبدا هكذا. كان موقفه من الحياة يختفى دوما وراء

الإجراءات والحلول الوسط، ولقد أفقدته تلك النقيصة، على نحو ما، القدرة على رؤية صورة مصر التى غذته طويلا. هل كانت كلها، إذن، أكذوبة؟

أحس أنه يوجد فى مكان ما، بداخله، سد غدا مهددا، حاجز بلغ نقطة الانهيار. واتته فكرة يستعيد بها هذا الاتصال المفقود مع حياة هذه الأرض التى تضمه، أن يفعل شيئا لم يفعله البتة منذ شبابه: عليه أن يخرج، يتعشى فى الحى العربى، بتواضع وبساطة كاتب صغير فى المدينة، صانع أو تاجر، هنالك فى مكان ما، فى مطعم وطنى صغير، سوف يأكل حمامة وشيئا من الأرز وطبقا من الحلوى، سوف يجعله الطعام يفيق ويستقر، بينما يعيد إليه ما حوله إحساس الاتصال بالحقيقة. لم يكن فى وسعه أن يتذكر البتة إحساسه بالسكر هكذامن قبل، كانت أقدامه ثقيلة كالرصاص. غمرت أفكاره مشاعر غير واضحة من تأنيبه لذاته.

فجأة، وهو لا يزال تحت تأثير هذه الرغبة المفككة، نصف العقلانية، اتجه إلى دولاب البهو ليخرج منه طربوشا أحمر كان أحدهم قد تركه بعد حفل كوكتيل فى الصيف الماضى. تذكره فجأة. كان يرقد هنالك بين زحام عصى الجولف وركابات السروج ومضارب التنس. لبسه وهو يضحك ضحكة مكتومة، فقد بدل مظهره تماما، دهش لهذا التحول وهو ينظر مهتزا إلى نفسه فى مرآة البهو: إنه لا يواجه الآن زائرا أجنبيا متخفيا فى مصر ـ إنه يواجه إنسانا ما: رجل أعمال سورى، سمسار من السويس، مندوب خط طيران من تل أبيب. كان هنالك شىء واحد ضرورى يقتضيه الشرق الأوسط ـ نظارة سوداء، تلبس داخل البيوت فى الشتاء! وكان هنالك زوج منها فى الدرج العلوى من مكتبه.

ساق السيارة فى بطء إلى ميدان محطة الرمل الصغير. كان سعيدا للغاية، إلى حد غير معقول، بملبسه المزخرف. أوقف السيارة بعناية فى موقف السيارات قرب فندق سيسيل. أغلقها وسار فى هدوء يحيط به جو امرئ تخلى عن عادة عمره كله ـ سار، يغمره شعور جديد بالبهجة وامتلاك الذات، إلى الأحياء العربية حيث يمكن أن يجد العشاء الذى يبحث عنه. عندما غدا على أطراف الكورنيش أحس للحظة بخوف وشك يثيران الكدر، إذ رأى شخصا مألوفا لديه يعبر الطريق من بعيد ويسير متجها إليه على امتداد سور البحر. كان من المستحيل ألا يتعرف على مشية بلتازار الهائمة المتميزة. وتملك ماونت أوليف إحساس أخرق بالخجل، إلا أنه استمر فى طريقه. ولفرحته فإن بلتازار نظر نحوه مرة واحدة ثم نظر بعيدا دون أن يتعرف على صديقه. لقد عبر كل منهما الآخر فى لمحة، وأطلق ماونت أوليف أنفاسه عاليا فى ارتياح. كان غريبا حقا ذلك الذى أنعمت به عليه قبعة آنية الزهور الحمراء تلك، والموجودة فى كل مكان، فقد غيرت إلى حد بعيد معالم وجهه ـ كذا النظارة السوداء! وضحك، فى هدوء ضحكة مكتومة بينما يستدير بعيدا عن واجهة البحر، منتقيا الأزقة والدروب الملتوية الصغيرة والتى يمكن أن تقوده نحو الأسواق العربية والمطاعم الموجودة حول الميناء التجارى.

كانت نسبة التعرف عليه فى تلك النواحى، واحدا فى المائة ـ فقليل من الأوروبيين هم الذين يأتون إلى هذا الجزء من المدينة. كان الحى يرقد فيما وراء حزام المصابيح الحمراء، حيث يقيم صغار أصحاب الدكاكين، مقرضو النقود، مقهى المضاربين، تجار السفن والمهربون. هنا، فى الشارع المفتوح ينتاب المرء وهم بأن الزمن يتمدد مسطحا ـ أى يمكن القول ـ أشبه بجلد ثور. خريطة الزمن التى يمكن للمرء أن يقرأها من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر؛ وهو يملؤها بنقاط وشواهد

معروفة. هذا العالم من الزمن الإسلامى يمتد إلى الوراء إلى عطيل وما بعده. المقاهى طيبة الرائحة. ورجع أصوات الطيور المغردة بأقفاصها المليئة بالمرايا حتى تمنح الطير وهما بالصحبة، أغنيات حب تغنيها تلك الطيور للصحبة التى تتخيلها، والتى لم تكن أى شىء غير انعكاس لذاتها! كم كان غناؤها، الذى يصور الحب البشرى، محطما للقلب. هنا أيضا، جلس الخصيان فى ظل أنفاس شعلات النفط الشنيعة، يلعبون النرد ويدخنون النرجيلات الطويلة، والتى تطلق مع كل نفس يسحب منها فقاعة موسيقية صوتها أشبه بنحيب الحمام. جدران المقاهى القديمة لطخها عرق الطرابيش المعلقة فوق الخوابير. مجموعات النرجيلات الملونة مرصوصة فى صفوف فوق رف طويل، مثل بنادق قديمة الطراز، وقد أحضر كل واحد من المدخنين معه مقبضه المحبب إليه الخاص به. هنا أيضا العرافون، ومن يفتحون البخت بورق اللعب ـ أو هؤلاء الذين يملئون كف يدك بالحبر بمهارة، يفتحون المندل ليكشفوا لك عن أعمق أسرار حياتك مقابل نصف قرش. هنا الباعة الجائلون يحملون أحمالا سحرية من أشياء ظاهرة مختلفة الألوان متنوعة، من سجاد ناعم الوبر من شيراز وبلوخستان إلى ورق اللعب الذى ينبئ بالمستقبل على طريقة أبناء مرسيليا، بخور الحجاز، الخرز الأخضر ضد العين الشريرة، أمشاط، بذور، مرايا لأقفاص الطيور، توابل تعاويذ ومراوح ورقية. . . . والقائمة لا تنتهى. وكل واحد منهم يحمل ـ بالطبع ـ فى جرابه الخاص مثل بائع الغفران فى العصور الوسطى ـ نتاج أدب وفن الفجور العالمى الكبير، مناديل أو بطاقات بريدية، فى كل واحدة منها رسوم مصورة، متنوعة إلى حد يثير الشفقة، تصور الفعل الذى نحلم به كثيرا ونخافه نحن البشر، غامض وسرى، نهر الجنس الذى يسيل دوما، قطرة فقطرة، عبر السدود

الواهية التى تقيمها تشريعاتنا النكدة، والتأنيب الذاتى لحب يفتقد اللذة. . . . النهر السرى العريض الذى ينساب من بترونيوس إلى فانك هاريس. (إن انحراف وتداخل أفكار ماونت أوليف المشوشة من السكر، يصعد ويختفى فى أشكال تبدو مصاغة صياغة جزئية، مزوقة مثل فقاقيع الصابون). كان الآن على راحته تماما. لقدوصل إلى تفاهم مع حالة التشوش غير المألوفة، التى كان عليها. لم يعد يشعر أنه ثمل. لقد غدا الآن، فى بساطة منتفخا بحالة من الإحساس الهائل بكرامته وأهميته الذاتية، مما أضفى عليه قدرة رائعة على إمعان الفكر فى حركته. سار فى بطء كامرأة حامل قرب أوانها، يتشرب ما حوله من مناظر وأصوات.

دخل، أخيرا، بعد مدة طويلة، محلا صغيرا خلب لبه بأفرانه المشتعلة، وجرعات كبيرة من الدخان كانت تتجمع فى حزم داخل الحجرة، ووخزته بالجوع فجأة رائحة الزعتر والحمام المشوى والأرز. كان هنالك واحد أو اثنان فقط يتناولان عشاءهما، وكان من العسير رؤيتهما فى هذه السحب من الدخان. جلس ماونت أوليف وقد أحاط نفسه بجو من يذعن، دون رغبة منه، لقانون الجاذبية. أمر بالطعام فى عربيته الرائعة، رغم أنه كان لا يزال مبقيا الطربوش والنظارة على حالهما. كان واضحا أن مظهره الآن، يمكن أن يعطى بسهولة انطباعا بأنه مسلم. كان مالك القهوة رجلا ضخما أصلع تترى الوجه، تركيا، وقد قام على الفور بخدمة زائره دون أى تعليق. ووضع أيضا كوب شراب إلى جوار طبق ماونت أوليف، وملأه حتى حافته، دون أن ينطق كلمة، بالعرقى عديم اللون، المصنوع من شجر العلك والذى يسمى مستكة(*) ـ غص ماونت أوليف من الشراب وغمغم، إلا أنه

(*) عربية بحروف لاتينية.

ابتهج به كثيرا ـ إذ كان أول مشروب، تذوقه على الإطلاق من شرق البحر المتوسط، وكان قد نسى وجوده منذ أعوام طويلة مضت، كما نسى أيضا كم كان قويا. وتملكه حنين إلى الماضى فأمر بكوب آخر حتى يعاونه على إنهاء الأرز الساخن باللحم والحمامة (كان ساخنا إلى حد أنه كان من العسير عليه التقاطه بأصابعه)، لكنه الآن يحلق فى السماء السابعة بهجة وسعادة. كان فى طريقه لاستعادة صورة مصر الغائمة المبهمة والتى أوقع لقاءه بليلى الضرر بها أو سرقت منه بصورة ما.

كانت الشوارع، فى الخارج، مليئة بخفقات الدفوف وأصوات الأطفال ترتفع بنوع من تسابيح الذكر. كانوا يتوجهون، فى مجموعات إلى الحوانيت يكررون نفس المقطع مرة بعد أخرى. واستطاع بعد تكرارها مرات ثلاث أن يحلل الكلمات. وكان ذلك أمرا طبيعيا.

يارب الشجرة المهتزة

ونهاية الإنسان

ثبت أوراقنا الصغيرة

فوق فروع خالية من الأذى

فنحن أطفالك الصغار

«حسنا، تبالى»، قال وهو يبتلع ملء فمه من العرقى النارى ويبتسم وقد وضح له معنى تلك المواكب الصغيرة. كان هنالك شيخ وقور يجلس قبالته إلى جوار النافذة، ويدخن نرجيلة طويلة القصبة. ولوح بيديه العجوزتين الرشيقتين، ناحية الضجيج، وصاح: «الله، ضجيج الأطفال». وابتسم ماونت أوليف يرد له ابتسامته. قال: «قل لى،

ياسيدى، إن كنت مخطئا، أليس صياحهم هذا من أجل السدر، أليس كذلك؟». وأضاء وجه العجوز وهو يومئ برأسه مبتسما ابتسامته الورعة: «لقد خمنت الأمر، ياسيدى، تخمينا صحيحا». وأحس ماونت أوليف بالسعادة من نفسه، وامتلأ أكثر من أى وقت مضى بالحنين إلى تلك السنوات التى أوشكت أن تنسى. قال: «الليلة إذن، يجب أن يكون نصف شعبان، حيث يجب أن تهز شجرة المنتهى، أليس كذلك؟».

وأومأ الرجل إيماءة مبتهجة مرة أخرى، قال الشيخ العجوز: «من ذا الذى يعرف؟ ربما كان اسمانا مكتوبين فوق الأوراق الساقطة من الشجرة؟» ونفخ فى رقة ورضاء مثل القطار اللعبة. «سوف تنفذ إرادة الله».

هنالك اعتقاد أنه فى ليلة نصف شعبان، تهز شجرة لوط التى فى الجنة، وتحمل الأوراق الساقطة منها، أسماء هؤلاء الذين سوف يموتون فى العام القادم. وتسمى بعض المراجع هذه الشجرة، بشجرة المنتهى. سعد ماونت أوليف للغاية، بتعريفه للأغنية القصيرة، حتى إنه طلب كوبا أخيرا من العرقى، احتساه، وهو ينهض ليدفع الحساب. ووضع الشيخ العجوز أنبوب النرجيلة جانبا، وتقدم نحوه، على مهل، عبر الدخان. قال: «إننى أعرف، يا أفندينا غرضك من الحضور إلى هنا. إن ما تبتغيه سوف أكشف لك عنه». ووضع إصبعين بنيين فوق معصم ماونت أوليف، وهو يتحدث فى رقة وتواضع، كمن لديه أسرار يستطيع الإفضاء بها. كان لوجهه صراحة ونقاء قديس من الصحراء. وفرح به ماونت أوليف فقال: «أيها الشيخ المبجل. بح بما تحس به إذن، لزائر سورى لا يستحق فضلك». وانحنى العجوز

مرتين، ونظر فيما حوله محاذرا، ثم قال: «هلا تفضلت ولحقت بى، ياسيدى المحترم»، وظل واضعا أصبعيه على ماونت أوليف، كما يفعل الأعمى. خرجا إلى الشارع معا، وقلب ماونت أوليف الرومانسى يدق بعنف ـ هل آن له الآن أن يطلع على بعض الرؤى الصوفية للحقيقة الدينية؟ لقد سمع الكثير من القصص عن الأسواق والرجال المتدينين الذين يقبعون هنالك، فى انتظار تنفيذ مهام خاصة باسم ذلك العالم غير المرئى، العالم الروحى الغامض المجهول الذى تحرسه العناية، عالم الأطباء الهرمزيين الخرافى. وسارا فى سحابة هينة، لينة، من المجهول والشيخ الصامت يترنح ثم يستعيد نفسه مع كل خطوة ويبتسم ابتسامة طوبائية مؤثرة. سارا بتلك الخطوة البطيئة عبر الشوارع المظلمة ـ والتى تحولت بفعل الليل إلى أنفاق طويلة معتمة أو كهوف عديمة الأشكال لاتزال تصلها أصداء موسيقى مزامير القرب أو أصوات المناوشات التى تحجبها الحوائط السميكة والنوافذ المغطاة بالقضبان الحديدية.

واستجابت أحاسيس ماونت أوليف المرهفة لكل أمر عجيب، لجمال وغموض هذه المدينة الدرية، والظلال المنحوتة هنا وهناك، معالم يمكن التعرف عليها بمصباح نفطى أو كهربى يتدلى من عود واه، ويهتز مع الريح. واستدار أخيرا إلى شارع تقطعة الأعلام الملونة، ثم باحة مظلمة تماما تفوح أرضها برائحة بول الجمال والياسمين. لاح منزل مقام بين جدران سميكة، يمكن للمرء أن يرى لمحة من ظله فى السماء. دخلا معا بناء غير منظم، عابرين بابا طويلا كان يقف مفتوحا فتحة ضيقة. غرقا فى ظلام يكاد يكون مطلقا. وقفا يلتقطان أنفاسهما فى صمت مدة نصف ثانية. كان ماونت أوليف يحس بالسلالم، التى نخرها السوس والتى كانت تتسلق الحوائط إلى الأدوار العليا، أكثر من

أن يراها. سمع زقزقة الفئران وتزاحمها فى الطرقات المهجورة، كما سمع شيئا آخر ـ صوت يذكر المرء بالبشر بطريقة غامضة، ولكن على أى نحو؟ لم يكن فى استطاعته أن يتذكر تماما. أخذا يتخبطان فى بطء عبر طرقة خشبية عطنة، كانت تخب، تترنح تحت أقدامهما. وهنا أمام باب، قال الشيخ العجوز فى رقة: «لقد أحضرتك إلى هنا، حتى ترى أن مسراتنا البسيطة، لا تقل عن تلك التى فى وطنك يا افندينا». ثم أضاف هامسا، «انتظرنى هنا لحظة إن شئت»، أحس ماونت أوليف الأصبعين يفارقان معصمه والباب يغلق خلفه، ظل ساكن الجأش فى صمت الواثق لحظة أو لحظتين.

ثم غدا الظلام تاما، مرة واحدة، حتى إن النور إن دخل كان يمنحه وهما آنيا بأن شيئا ما يجرى بعيدا للغاية، هناك فى السماء. كأن أحدا فتح ثم أغلق باب فرن فى الآخرة. لم يكن ذلك الضوء غير شرارة عود ثقاب.. لكنه رأى فى الضوء الأصفر الناعم أنه واقف فى حجرة عالية موحشة، جدرانها خربة مشوهة مغطاة برسوم ونقوش لأكف داكنة ـ علامات تحمى المتطيرين من العين الشريرة. كانت خالية إلا من كنبة محطمة ترقد، مثل تابوت، وسط الأرضية، ونافذة واحدة تحطم كل زجاجها، كانت تؤثر فى بطء على بصره، بظلمة أكثر زرقة لسماء عامرة بالنجوم. حملق فى الضوء يرفرف ويخفق. سمع مرة أخرى زقزقة الفئران، وأصواتا أخرى خفية: همسات وضحكات مكتومة، وصوت أقدام عارية فوق الخشب... فجأة فكر فى حجرات نوم مدرسة بنات داخلية: وكأنما تجسدت الفكرة ذاتها التى اختلقها، إذ تدفق من الباب عند نهاية الحجرة حشد من الشخوص الصغيرة ترتدى جلابيب بيضاء ملوثة، كأنها ملائكة أصابتها الهزيمة. لقد سقط فى منزل لدعارة الأطفال. أدرك ذلك فجأة وقد انتابته نوبة من التقزز

والشفقة. كانت وجوههن الصغيرة مدهونة بأصباغ كثيفة، وشعورهن مشدودة فى ضفائر وشرائط. كن يضعن خرزات خضراء لحمايتهن من العين الشريرة. إن مثل تلك المخلوقات الصغيرة، تشبه تلك التى يراها المرء منقوشة فوق القوارير اليونانية ـ تسبح خارجة من المقابر والمدافن يحيط بها جو حزين من خبيث الفعال وهى تفر هربا من العدالة. كانت الأولى منهن تحمل الضوء ـ خيطا مفتولا فى طبق من زيت الزيتون. انحنت لتضع هذه الزبالة، الأشبه بشعلة المستنقعات، فوق الأرض فى الركن، وللحال تمددت ظلال هؤلاء الأطفال، طويلة شائكة، فوق السقف مثل جيش من عزائم محبطة. «بالله، كلا»، قال ماونت أوليف فى صوت أجش، واستدار يتحسس الباب المغلق. كانت به سقاطة خشبية لا تفتح إلا من ناحية واحدة. وضع وجهه فى ثقب فى الإطار وأخذ ينادى فى رقة. «أوه أيها الشيخ، أين أنت؟». تقدمت الشخوص الصغيرة، أحاطت به وهى تتمتم بعبارات فاجرة مثيرة للشفقة وعبارات التحبب التى تقتضيها تجارتهن فى أصوات ملائكة تحطمت قلوبها. أحس بأصابعهن الدافئة، خفيفة الحركة، فوق كتفيه تشد أكمام معطفه. «أوه، أيها الشيخ»، نادى مرة أخرى وهو يروغ منهن. «ليس هذا ما أبتغيته». إلا أنه لم يكن هنالك غير الصمت فيما وراء الباب. أحس بأذرع الأطفال الحادة تلتف حول وسطه كنباتات متسلقة فى دغل استوائى. كانت أصابعهن الصغيرة الحادة تبحث عن أزرار معطفة. تفضهن عنه مستديرا بوجهه الشاحب إليهن ليحتج احتجاجا بلا رابط. وطأت إحداهن، دون قصد منها، الطبق بفتيله الطافى. أحس فى الظلام بتوتر الاضطراب يجتاحهن مثل النار فى الهشيم. أثارت احتجاجاته خوفهن أن يفقدن زبونا مربحا. ظهر الخوف والقلق فى أصواتهن، ونبرة خاصة من الذعر والرعب وهن

يتحدثن الآن إليه، يتملقن، يهددن بصورة ما، السماء وحدها تعلم أى عقاب يمكن أن يحل بهن، إن أفلت منهن! بدأن يقاتلن، يهاجمنه. أحس برجفة أجسادهن الصغيرة الجائعة وهن يتكدسن حوله، يلهثن وقد تقطعت أنفاسهن لجاجة وإلحاحا، لكنهن مصرات على ألا يفلت منهن. أخذت الأصابع تهيم فوقه مثل النمل حقا ـ لاحت له فجأة ذكرى كانت مدفونة فى مكان ما فيما سبق له من قراءات يتذكرها، ذكرى رجل شد مقيدا فوق الرمال المحترقة فوق عش نمل أبيض، ليلتقط لحمه من فوق عظامه.

«كلا»، صرخ فى غير تماسك مرة أخرى. إن وازعا سخيفا منعه من أن يضرب، يوزع صفعات وحشية، ربما كانت هى وحدها القادرة على تحريره (كانت الصغيرات، صغيرات جدا)، أمسكن الآن بذراعيه، كن يتسلقن ظهره ـ وواتته ذكريات حمقاء عن حرب الوسائد فى غرف النوم المظلمة فى المدرسة الداخلية. أخذ يدق بعنف على الباب بكوعيه. ضاعفن توسلاتهن فى صوت كالعواء. كانت أنفاسهن حارة حرارة دخان الخشب. «أوه، يا أفندى، ياولى نعمة الفقراء، يامداوى حزننا وأسانا. . . ». أخذ ماونت أوليف يئن، يصارع، لكنه أحس بنفسه يحمل تدريجيا إلى الأرض. أحس تدريجيا بركبتيه الخائرتين تهويان تحت هذا الانقضاض الذى تجمع الآن غضبا محتدا منتصرا.

«كلا»، صرخ فى صوت ملىء بألم مبرح. أجابته جوقة من الأصوات، «يالله، نعم، نعم». كانت رائحتهن، وقد تكاثرن عليه، كرائحة قطيع من الماعز. طفت فوق عقله القرقرات والهمسات الداعرة، وعبارات التملق والمداهنة واللعنات. أحس أنه يوشك على الإغماء.

فجأة وضحت له كل الأمور ـ كأن ستارة قد أزيحت جانبا ـ لتكشف له على نفسه جالسا إلى جوار أمه أمام نار هادرة وصورة كتاب مفتوح على ركبتيها. كانت تقرأ فى صوت مرتفع وهو يحاول متابعة الكلمات كما تنطقها، إلا أن انتباهه كان ينجذب دوما إلى الصورة الكبيرة الملونة التى تصور جاليفر وقد وقع فى أيدى أهالى ليليبوت الصغار. كانت رائعة بتفاصيلها الدقيقة. البطل يرقد، مقيد الأطراف، حيث سقط، وهم قد تمكنوا منه بشبكة عنكبوتية حقيقية من حبال التثبيت التى لفت حوله تربطه إلى الأرض، بينما الناس النمل تهيم فوق جسده الهائل تدعم وتثبت حبالا أكثر فأكثر حتى إن كل صراع يقوم به هذا الشىء الضخم قد غدا عبثا بلا جدوى. كانت هنالك دقة علمية خبيثة فى كل هذا: المعصمان والكاحلان والرقبة، كلها ربطت فى اتجاه معاكس لحركتها. عشرة أوتاد دفع بها بين أصابع يده الهائلة لتمسك بكل أصبع مثبتا إلى أسفل على حدة. لفت ضفائره بعناية حول ساريات صغيرة دفع بها إلى الأرض إلى جانب دبست أطراف معطفه بمهارة فى الثنينات الأرضية. كان يرقد هنالك يحملق فى السماء فى دهشة لا يفصح عنها، عيناه الزرقاوان مفتوحتان على اتساعهما، وقد تهدلت شفتاه، كان جيش الليليبوتين يتجول فوقه بعربات يد ذات عجلة واحدة وبالأوتاد والمزيد من الحبال، كان مظهرهم يوحى بسعار أشبه بنمل محموم حول صيد أو فريسة، وجاليفر يرقد هنالك طوال الوقت فوق حشائش ليليبوت الخضراء فى واد ملىء بالزهور الميكروسكوبية الدقيقة، مثل بالون أسير . . .

ووجد نفسه (رغم أنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفية هروبه فى النهاية) يستند إلى الأحجار الثلجية لجسر الكورنيش، وبحر الفجر أسفله، يدحرج تموجاته البطيئة فى مواجهة الجسور الصخرية، يتدفق

برقة فى القنوات. فقط تذكر نفسه جاريا دائخا خلال الشوارع الملتوية، يتعثر فى الظلام، قاطعا الطريق وواجهة البحر، وفجر شاحب يشق طريقه عبر تموجات البحر، وحملت إليه ريح خفيفة قادمة من ناحية البحر، رائحة القار ورطوبة الملح اللزجة. أحس كأنه ملاح سفينة تجارية، ألقى به عاجز، فى ميناء أجنبى، عند الطرف الآخر من العالم. كانت جيوبه مقلوبة كالأكمام. كان يرتدى قميصا وبنطلونا ممزقين، وقد اختفت أزرار قميصه الثمينة وأزرار الكمين ودبوس رباط العنق، وتلاشت محفظته. أحس أنه مريض حتى الموت. لكنه، وقد أخذ يستعيد حواسه تدريجيا، تعرف على المكان الذى هو فيه عندما لمح جامع الجوهرى الذى كان ينتصب واقفا يتلقى ضوء الفجر وسط لفيف أشجاره ونخيله. سرعان ما سيأتى المؤذن الأعمى مثل سلحفاة عتيقة ليرتل أذان الفجر للإله الواحد الحى. ربما كان على بعد ربع ميل من المكان الذى ترك فيه سيارته. أحس، الآن، وقد جرد من طربوشه ونظارته السوداء، كأنما قد غدا عاريا. بدأ السير مهرولا فى ألم على امتداد الجسر الصخرى. كان سعيدا أنه ليس هناك حوله من أحد يستطيع التعرف عليه. كان الميدان المهجور خارج الفندق قد بدأ للتو استيقاظه مع أول ترام. كان يتكتك مبتعدا فارغا نحو الأزاريطة. كانت مفاتيح السيارة قد اختفت أيضا، وكان عليه أن يقوم بعمل مخز، أن يكسر مقبض باب السيارة بمفك أخذه من شنطة السيارة الخلفية. كان مذعورا طوال الوقت خشية أن يحضر شرطى يسأله، أو ربما يقبض عليه للاشتباه. كان يضطرب بمشاعر الاحتقار لذاته والتقزز، يعانى صداعا يفلق الرأس. أخيرا كسر الباب وساق بطريقة وحشية ـ ولحسن الحظ كانت مفاتيح السائق فى السيارة ـ فى اتجاه رشدى عبر شوارع مهجورة. كان قد اختفى أيضا مفتاح القفل أثناء الملحمة. أجبر على

كسر مقبض نافذة فى البهو حتى يدخل المنزل. فكر، فى البداية، أن يقضى الصباح نائما بعد أن يستحم ويبدل ثيابه، لكنه، وهو واقف تحت الدش الساخن، أدرك أنه يعانى قلقا عقليا بالغا. كانت أفكاره تطن كسرب من نحل، لا تدع له مجالا للراحة. قرر فجأة مغادرة المنزل والعودة إلى القاهرة حتى قبل أن يستيقظ الخدم. أحس أنه لن يستطيع مواجهتهم.

بدل ملابسه خلسة، جمع حاجياته، انطلق عبر المدينة نحو الطريق الصحراوى، تاركا المدينة فى عجلة، شأنه فى ذلك شأن أى لص عادى. لقد وصل إلى قرار. سوف يطالب بمنصب فى بلد آخر. لن يضيع مزيدا من الوقت فوق مصر الخداع والبؤس هذه، تلك المساحة من الأرض التى تحول المشاعر والذكريات إلى تراب، تلك التى تحقر الصداقة وتحطم الحب. لم يعد يفكر الآن فى ليلى، لابد أنها قد عبرت الليلة الحدود. لقد غدت الآن بالفعل وكأنها لم توجد أبدا.

كان لديه من الوقود فى خزان السيارة ما يكفى للعودة. ألقى، وهو يستدير عند المنحنيات الأخيرة للطريق خارج المدينة، نظرة واحدة إلى الخلف، وهو يهز كتفيه تقززا، بينما السراب اللؤلؤى للمآذن يصعد من دخان البركة وضباب الفجر. هدر قطار ما فى مكان ما بعيد للغاية. أدار مذياع السيارة مدويا ليغرق أفكاره، بينما يسرع على امتداد الطريق الرئيسى الصحراوى الفضى إلى العاصمة الشتوية. اندلعت أفكاره، من كل جانب كأرانب فزعة، تجرى إلى جوار السيارة المسرعة فى سعار من الذعر. أدرك أنه قد بلغ حدودا جديدة من نفسه، وأن الحياة سوف تغدو منذ الآن شيئا مختلفا تماما. كان مقيدا بنوع من العبودية طوال هذا الوقت، والآن تقطعت الروابط. سمع الصوت الخافت الناعم للآلات

الموسيقية، وصوت المدينة المألوف يقتحم عليه المكان، مرة أخرى، باسترخائها وضعفها الخبيث.

أبدا للحياة

أبدا فى فراشك

عندما يأكل الحزن القلب

أغلق المذياع لاعنا. أخمد الصوت وهو يسوق متجهما فى ضوء الشمس وقد انحسرت عن الجوانب القليلة للكثبان الرملية.

قطع المسافة فى وقت جيد للغاية. وصل أمام السفارة ليجد إيرول ودونكين يحملان سيارة الأخير السياحية بكل معدات الصيادين المحترفين - صناديق البنادق وأكياس الطلقات والنظارات المكبرة والترامس. سار فى بطء نحوهما وهو يحس بالخجل. حياه كلاهما فى ابتهاج كان عليهما أن يبدآ الرحيل إلى الإسكندرية فى منتصف النهار. كان دونكين مهتاجا فرحا. لقد حملت جرائد هذا الصباح تقارير تفيد أن الحالة الصحية للملك قد تحسنت، وأنه سوف يسمح بالمقابلات الرسمية فى نهاية الأسبوع. قال دونكين: «الآن، ياسيدى جاءت فرصة نور كى يجعل مليك يتخذ إجراء. سوف ترى». أومأ ماونت أوليف فى فتور. وقعت الأخبار على أذنيه بلا صدى، خالية من النغم، خالية من اللون: لم تترك أثرا. لم يعد يبالى بما يمكن أن يحدث. بدا أن قراره بطلب النقل قد استغرقه، بطريقة غريبة، بعيدا عن أى مسئولية شخصية أخرى تمس مشاعره الخاصة.

أخذ يسير مكتئبا فى المقر السكنى. أمر بإحضار صينية إفطاره فى البهو. أحس بالانفعال وشرود البال. دق الجرس طالبا صندوق

الرسائل ليرى إن كان فيها أى بريد شخصى. لم يكن هنالك ما يثير الاهتمام كثيرا: خطاب طويل حافل بالهزر واللغو من سير لويس الذى كان يتشمس فى نيس، مليء بالشائعات المرحة المسلية حول أصدقاء مشتركين. ثم بالطبع نادرة، لا يمكن تجنبها، عن راوية مشهور، ليختتم بها الخطاب: «إننى أتمنى، أيها الصبى العزيز، أن تكون البزة الرسمية لاتزال تناسبك. لقد فكرت الأسبوع الماضى فيك، عندما التقيت بكلودل، الشاعر الفرنسى، والذى كان سفيرا أيضا، فقد أخبرنى بنادرة فاتنة، وقعت وقت أن كان يخدم فى اليابان. كان يتريض ذات يوم، وعندما استدار وجد مقره السكنى كله قطعة من النيران تتوهج فرحة. كانت عائلته معه، لذا لم يكن فى حاجة للخوف على سلامتهم. إلا أن مخطوطاته، مجموعته التى لا تقدر بثمن، من كتب وخطابات، كانت كلها فى المنزل المشتعل. أسرع عائدا فى حالة شديدة من الذعر والرعب. كان واضحا أن المنزل سوف يحترق حتى النهاية. عندما بلغ الحديقة رأى شخصا ضئيلا فخيما يسير نحوه ـ كان كبير الخدم اليابانى، يسير بطيئا، حذرا، نحو السفير وذراعيه مرفوعتين أمامه كالسائر فى نومه، وفوقهما كانت ترقد البزة الرسمية للشاعر. وقال كبير الخدم السائر فى رزانة ووقار: «ليس هنالك ما يزعجك ياسيدى. لقد أنقذت الشيء الثمين الوحيد». وماذا عن المسرحية التى كان قد انتهى من نصفها، والأشعار الراقدة فوق مكتب يحترق؟ وفجأة فكرت فيك. لا أدرى لماذا؟».

قرأ وهو يتنهد. ابتسم فى حزن وحسد. ما الذى يمكن أن يتخلى عنه حتى يعتزل فى نيس، فى تلك اللحظة؟ كان هنالك خطاب من والدته، وبعض الفواتير من أصحاب محلات فى لندن، ومذكرة من

سمسار، وخطاب قصير من شقيقة بورسواردن . . . لم يكن هنالك شىء له أهمية حقيقية.

جاءت دقة على الباب ثم ظهر دونكين. بدا منكسرا بعض الشىء. قال: «لقدكان وزير الخارجية الآن على الخط الهاتفى برسالة من مكتب نور تقول بأنه سوف يقابل الملك فى نهاية الأسبوع، إلا أن . . . جابر ألمح إلى أن قضيتنا لا تسندها تحريات مميلك الخاصة».

«ماذا يعنى بذلك؟».

«إنه يقول، بالفعل، أننا قد أخطأنا الحصنانى. إذ إن المذنب الحقيقى هو أخوه الذى يعيش فى مزرعة فى مكان ما خارج الإسكندرية».

«ناروز»، قال ماونت أوليف فى دهشة وريبة.

«نعم، حسنا، من الواضح أنه . . .».

وانفجر كلاهما ضاحكا وقد استشاط غضبا. قال ماونت أوليف وهو يضرب كفه بقبضته، «صدقا وأمانة، إن المصريين رائعون حقا. كيف بالله وصلوا إلى مثل تلك النتيجة؟ إن المرء فى بساطة، قد غلب على أمره».

«على أى حال، تلك قضية مميلك. ولقد اعتقدت أنك، ياسيدى، تحب معرفة ما حدث. إننى وإيرول سنرحل إلى الإسكندرية. إذ ليس هنالك من شىء آخر، أم هنالك شىء آخر؟».

هز ماونت أوليف رأسه، أغلق دونكين الباب فى رقة خلفه. «إنهم سيستديرون الآن إلى ناروز. أى لخبطة تلك لسياسات متصارعة واختلافات وتباينات». وغرق يائسا فى أحد المقاعد، عاقدا أصابعه،

عابسا مدة من الوقت طويلة قبل أن يصب لنفسه كوبا آخر من الشاى . أحس، الآن، بعجزه عن التفكير، عن اتخاذ أبسط قرار. يمكنه أن يكتب إلى كنيلورث ووزير الخارجية فى ذات ذلك الصباح يطلب نقله . إنه أمر كان عليه أن يفكر فيه مليا منذ زمن طويل، وتنهد فى بطء .

جاءت طرقة أخرى على الباب، وإن كانت أكثر استحياء . «ادخل»، قال فى إعياء. فتح الباب، وتهادى إلى الحجرة كلب كالبطة ـ كلب يشبه السجق مكتئب تتبعه إنجيلا إيرول، قالت فى إخلاص، بصوت حاد يتسم بمزاح عدوانى، «آسفة على اقتحامى المكان هكذا، إلا أننى أتيت نيابة عن زوجات قسم الاستقبال. لقد وجدناك وحيدا، لذا قررنا أن نفكر معا، وكانت النتيجة (فلوك)». ونظر الكلب والرجل، كل منهما إلى الآخر، للحظة، فى صمت حائر وريبة . جاهد ماونت أوليف أن يتكلم. كان يلعن دوما نوع الكلاب ـ السجق، بأرجلها القصيرة للغاية، حتى إنها تبدو، وهى تسير فى تثاقل أقرب إلى الترنح أشبه بالضفادع. كان يلهث مجهدا وقد سال لعابه، أقعى فى النهاية كأنما يعبر ـ مرة وإلى الأبد ـ عن غدم افتنانه بكل هذه المعيشة الكلبية، مخلصا نفسه من بعض الطين الذى كان عالقا به، فوق السجادة الشيرازية الجميلة. «أليس بديعا؟». صاحت زوجة رئيس قسم الاستقبال. تكلف ماونت أوليف بعض الجهد حتى يبتسم، حتى يبدو وقد فاض بالسعادة، معبرا عن الشكر الواجب لمثل هذه الحركة التى جاءت بعد إمعان الفكر والتأمل. كان يضطرب غيظا وكدرا قال مبتسما ابتسامته الرشيقة(*) «يبدو ظريفا فاتنا. ظريفا فاتنا حقا. إننى ممتن لك امتنانا هائلا يا إنجيلا. لقد كانت فكرة رقيقة». تثاءب الكلب فى كسل قالت فى خفة: « إذن أخبر الزوجات أن الهدية قد لاقت

(*) بالفرنسية فى الأصل .

قبولا». ثم اتجهت نحو الباب. «سوف يبتهجن لذلك. إذ ليس هنالك رفقة مثل رفقة الكلب. هل هناك ما يماثلها؟» هز ماونت أوليف رأسه جادا، محاولا أن يبدو كأنما يعنى ما يقول: «ليس هنالك ما يماثلها».

جلس مرة أخرى، بينما كانت تغلق الباب خلفها. رفع كوب الشاى إلى شفتيه، محملقا فى نفور، ودون أن تطرف عيناه، فى عينى الكلب الخامدتين. دقت الساعة فى رقة فوق رف المدفأة. كان الوقت قد حان للذهاب إلى المكتب. هنالك الكثير الذى يجب إنجازه. كان قد وعد بإنهاء التقرير الاقتصادى الحاسم فى حينه لإرساله فى حقيبة بريد هذا الأسبوع. يجب أن يقتحم حجرة الحقائب بخصوص لوحته. يجب عليه. . . .

ومع ذلك ظل جالسا ينظر إلى الكائن الصغير المكتئب فوق الحصيرة. أحس فجأة كأنما أطبقت عليه موجة من الامتهان الإنسانى - عبرت عنها المعجبات به، بهذه الهدية التى لا يرغبها. كان عليه أن يقوم بدور حارس المريض، ودور الرجل الممرضة لهذا الكلب الصغير قصير الأقدام. هل غدا ذلك هو الشىء الذى ترك له الآن ليطرد الحزن عنه؟ وتنهد. ضغط الجرس وهو يتنهد. . . .

* * *

(١٦)

كان يوم وفاته فى كرم أبو جيرج يشبه أى يوم آخر من أيام الشتاء، وإن اختلف فى شىء فقد اختلف فقط فى أمر تفصيلى صغير ومحير، لم يدرك هو مغزاه فى البداية: الاختفاء المفاجئ للخدم تاركين إياه فى المنزل بمفرده. كان يرقد طوال الليل وحتى الآن فى نوم مضطرب، وسط ثمار وافرة لخياله الجامح، والكثيفة كثافة نباتات استوائية. كان يستيقظ من حين لآخر يؤنسه صوت الكركى الطائر فوقه، فى السماء، فى الظلام. كان الشتاء على أشده، وهجرة الطائر الكبير قد بدأت، وامتدادات البحيرة الطويلة الزجاجية أخذت تمتلئ بزوارها المجنحين كمحطة نهائية كبيرة لهم. كان فى وسع المرء أن يسمع طوال الليل وصول الأسراب ـ والحفيف الكثيف لأجنحة البط أو «الكرانوك، كرانوك»، المعدنية للإوز الطائر على ارتفاع عال، وهو يحيط بقمر الشتاء. فى وسعك أن تسمع، بين أجمات البوص ونبات الحلفا وفى الأماكن التى صقلها الصقيع باللون الأسود أو الأخضر ـ الأرقط، تسمع زقزقة وأزيز البط الملكى. المنزل العتيق، بجدرانه العطنة، حيث تقضى العقارب والبراغيث بياتها الشتوى وسط فجوات القرميد المتربة، يبدو فارغا للغاية، مقفرا موحشا بالنسبة إليه، بعد أن ذهبت ليلى. كان يسير فيه متحديا، مثيرا أكبر قدر ممكن من الضجيج بحذائه، صارخا على الكلاب، مطرقعا سوطه عبر باحة المنزل. الشخوص التى تشبه اللعب، وأذرع طاحونة الهواء، والتى تحدد الجدران فى مواجهة

العين الشريرة، والموجودة فى كل مكان وزمان، تعمل بلا توقف، تعصف بها ريح الشتاء، وأذرعها السيلولويدية الدقيقة تصدر، وهى تدور، أصواتا ناعمة، تؤنس سامعها، على نحو ما.

لقد توسل إليه نسيم كثيرا كى يصحب ليلى وجوستين، إلا أنه رفض. تصرف حقا كدب، رغم إدراكه حقيقة أن المنزل، دون أمه، سوف تكون وحشته صعبة الاحتمال. أغلق على نفسه مفرخة البيض، ولم تلق طرقات أخيه وصرخاته الوحشية غير الصمت المرير. لم تكن هنالك وسيلة يشرح بها الأمور لنسيم. رفض الظهور حتى عندما جاءت ليلى تتوسل معه ـ خشية أن يضعف عزمه تحت إلحاحها، ربض هنالك فى صمت، ظهره إلى الحائط وقد حشا فمه بقبضته حتى يكظم شهقاته المكتومة. أى إثم ذلك الذى يتحمله المرء لعصيانه واجبه كابن! . وفى النهاية تركاه. سمع قرقعة الخيل فى الباحة، وغدا وحيدا.

مضى شهر، بعد ذلك، قبل أن يسمع صوت أخيه على الهاتف. كان ناروز قد سار طوال اليوم فى غابة من دقات قلبه، يقظا إلى ما يجرى فى الأرض من أعمال فى تصميم وغضب مركز. كان يعدو سريعا فوق حصانه على امتداد النهر الذى ينساب بطيئا فى ميراثه، وصورته المنعكسة تطير إلى جواره، وسوطه الكبير ملفوف، كالمعتاد، عند طرف السرج الأمامى. أحس أن السن قد تقدمت به الآن بما لا يقاس ـ وأحس رغم ذلك، وفى ذات الوقت، أنه جديد على العالم كجنين معلق من حبله السرى. الأرض أرضه، بنية شحمية مثل زق خمر قديم تحت المطر، تلزمه وتجبره، إنها كل ما ترك له كى يعتنى به ـ الأشجار يهرسها الصقيع، الرمال سممتها أملاح الصحراء، وأحواض الماء عامرة بالمسك والإوز. الصمت طوال اليوم إلا تثاؤب السواقى

وأنينها، وهى تؤدى رسالتها الأبدية (للإسكندر أذنا حمار) تحملها الرياح إلى أركان الأرض البعيدة، لتلقح التاريخ مرة أخرى بذكرى الإله ـ الجندى الملوثة، أو نخر واختلاج الجاموسة السوداء بجبينها الذى يُحطم ويُهشم وهى تتمرغ فى حمأة الخنادق والسدود. وفى الليل تتردد مقاطع النداءات المتعددة للبط فى الظلام، تنادى الواحدة منها الأخرى فى قلق أو رضاء ـ فتلك هى شفرة المسافرين. ستائر من ضباب، سحب منخفضة يشقها الشروق والغروب، وكلاهما نهاية عالم، بروعة لا نظير لها، إنه الموت فى الأماتست(*) والأصداف اللؤلؤية.

كان ذلك هو موسم الصيد الذى يحبه، تنشط فيه نيران الخشب الهائلة وكلاب الصيد الهائمة. . . إنه وقت غمس الأحذية فى دهن الدب، ضبط البنادق وفرز الطلقات، ودهان الشراك. . . لكنه هذا العام، ليس لديه أى اهتمام للحاق بصيد البط السنوى الكبير الذى يدعو إليه نسيم. أحس أنه حجب وراء عالم مختلف. كان وجهه يحمل سمات مرارة حقود تناول دم المسيح وجسده، لكنه يرفض الغفران. لم يعد فى وسعه التخلص من حزنه خاصة مع كلبه وبندقيته ـ كان يفكر الآن فقط فى تاؤر، والأحلام التى يشاركها ـ ومعرفته التى تتملكه فى حدة لدوره الذى كرس له هنا، وسط أراضيه، وفى مصر كلها. . . هذه الأحلام المربكة، تترابط، تتداخل تتقاطع ـ مثل الروافد العديدة للغاية للنهر الكبير ذاته، حتى حب ليلى، يهدد أحلامه الآن ـ إنه يشبه نبات اللبلاب البراق الطفيلى الذى يعيق نمو الشجرة. فكر بطريقة غامضة، ودونما احتقار، فى أخيه الذى لا يزال فى المدينة

(*) حجر كريم أرزق. (المترجم).

(والذى ماكان له أن يغادر إلا فميا بعد) يتحرك بين بشر يتسمون بالوهن كتماثيل الشمع، مجتمع النساء المصبوغ فى الإسكندرية. وهو إن فكر فى حبه لكليا فإنما يفكر فيه كحب هجره الآن، تركه مثل عملة براقة فى جيب شحاذ. . . . ثم أخذ يعدو سريعا بحصانه على امتداد أرصفة وجسور المصب التى تغطيها الطحالب الخضر، وحيث أشجار النخيل المتعفنة، تنخر فيها الرياح، والتى يعيش نفس حياتها.

أبلغه «على»، فى الأسبوع الماضى، بوجود رجال لا يعرفهم فوق الأرض، لكنه لم يعط الأمر أى اهتمام، إذ غالبا ما يختصر أحد البدو الضالين الطريق فيسير عبر الزراعة، أو غريب يسير ممتطيا جواده عبر حدود الأملاك بحثا عن الطريق إلى المدينة. كان أكثر اهتماما عندما اتصل به نسيم هاتفيا يخبره أنه سيزور كرم أبو جيرج ومعه بلتازار الذى يود دراسة بعض التقارير عن أنواع جديدة من البط شوهدت فى البحيرة. (كان فى وسع المرء أن يمسح، من فوق السطح، كل المصب بمنظار قوى).

كان هذا، فى الحقيقة، ما يفعله الآن فى تلك اللحظة بالذات. كان يدير بصره فوق الأرض، فى صبر وحب استطلاع، من شجرة إلى شجرة، ومن رقعة بوص إلى أخرى، خلال تلسكوبه العتيق. كانت كلها ترقد غامضة، خالية من السكان ساكنة فى ضوء الفجر. انتوى أن يقضى النهار كله فى الخارج، هنالك بين الزراعات، حتى يتجنب، إن كان ذلك ممكنا رؤية أخيه. إلا أن إخلال الخدم بواجباتهم أثار، الآن، حيرته. كان فى الحقيقة أمرا لا يمكن تفسيره. كان معتادا، عندما يستيقظ، يهدر مناديا «عليا» فيحضر إليه وعاء نحاسيا كبيرا، له صنبور طويل، ملىء بالماء الساخن ليسكبه عليه، بينما يقف فى الحمام الفيكتورى المهشم، يشهق كالفحيح. لكن اليوم؟ الباحة ساكنة،

والحجرة التى ينام «على» فيها مغلقة، ومعلق مفتاحها فى موضعه على مسمار خارجها. لم يكن هنالك من أحد فى الجوار.

تسلق إلى الشرفة، إلى تلسكوبه فى خطى واسعة. تسلق السلم الخشبى الخارجى إلى السطح ليقف بين أبراج الحمام، يدقق النظر فى أراضى الحصنانى. كشفت له المعاينة الطويلة الصبورة أنه ليس هنالك من شىء خارج عن المألوف. همهم وأغلق النظارة. كان عليه أن يعول اليوم نفسه. عاد ينزل من علاه ليأخذ الحقيبة الرياضية الجلدية ويشق طريقه إلى المطبخ ليملأها بالطعام. هنا وجد القهوة فوق نار هادئة، وبعض الأوانى فوق نار الفحم، لكن، لا أثر للطباخين. أخذ يهمهم برما وهو يلوك قطعة خبز بينما يجمع بعض الطعام لغذائه. طرأت له فكرة. إن صفيره الحاد الغاضب كان، فى الظروف الطبيعية، يستدعى كل كلاب الصيد تدمدم وتبصبص بأذيالها فى الباحة عند حذائه، أيا كان المكان الذى اتخذته لها مأوى من البرد. لكن اليوم، لم يحدث شىء غير إرجاع الريح إليه صدى صفيره الأجوف. هل اصطحبهم «على» مثلا فى جولة ما يقوم بها؟ لكن الأمر لا يبدو كذلك. صفر مرة أخرى بصوت أعلى وانتظر واقفا وقد أبعد قدماه عن بعضهما البعض، والقدمان فى حذائه الطويل الذى يصل إلى ما فوق الركبة، وقد وضع يديه على ردفيه. توجه إلى الإسطبلات حيث وجد حصانه. كان كل شىء هنا كالمعتاد تماما. وضع عليه السرج ولجمه واقتاده إلى المربط. توجه إلى الدور العلوى لإحضار سوطه. طرأت عليه فكرة أخرى بينما يلف السوط. . استدار إلى البهو وأخذ مسدسا من المكتب. فحصه ليتأكد أن خزانته محشوة بالذخيرة. ثبته فى حزامه.

خرج يمتطى الحصان فى رقة وحذر نحو الشرق. لقد انتوى القيام، أولا، بجولة استكشافية للأرض قبل أن يلقى بنفسه بين الزراعات

الخضراء حيث يبغى قضاء اليوم. كان الطقس منعشًا، يصفو فى سرعة، وضباب المستنقعات مليء بأشكال وخطوط سريعة التلاشى، سريعة التصاعد. سار الحصان وراكبه فى رشاقة ناعمة على امتداد الطرق المعتادة، بلغ حافة الصحراء خلال نصف ساعة دون أن يرى أى شىء لا يرغب فى رؤيته، ورغم أنه كان ينظر حوله فى عناية من تحت جفنيه المشعرين. صدرت عن حوافر الحصان ضجة ما وهو يسير فوق الأرض اللينة. توقف عشر دقائق عند الركن الشرقى للزراعات يمشط الأرض، مرة أخرى، بتلسكوبه. ومرة أخرى لم يكن هنالك شىء له أهمية خاصة. لم يهمل أبسط علامة يمكن أن تشير إلى زيارة أجنبى، أى أثر فى الصحراء، أى علامات أقدام فوق جسر المعدية الطرى. كانت الشمس تصعد فى بطء، لكن الأرض كانت نائمة تحت الضباب الرقيق. ترجل فى الأماكن، يفحص مضخات الأعماق ويستمع فى سعادة إلى ضربات قلبها الغاضبة، يشحم ذراعا فيها هنا أو هناك. عاد يمتطى الحصان، يتجه رأسا نحو خمائل النباتات الأكثر كثافة، بما فيها من أشجار زيتون طرابلس المحبب إليه، وأشجار السنط، ونطاقات وأحزمه شجر العرعر وما ينتج عنه من دبال، ومصدات ـ الريح التى تحمى القمح الهندى وهى تطقطق وتقرقع. كان على أى حال، لا يزال متخذا حذره. سار فى رفقات قصيرة سريعة، يشد العنان ما بين الحين والحين، يتسمع مدة دقيقة كاملة. لم يكن هنالك من شىء غير ثرثرة الطبيعة البعيدة، وصوت انزلاق أجنحة البشروش فوق سطح البحيرة، مزامير البط الرخيمة، وروعة نعاق الإوز البرى (وكأنه صادر عن بوق ضخم فى أجمل ألحانه). كل شىء عادى مألوف، كل شىء معروف. كان لا يزال حائرا وإن لم يكن قلقًا.

أخيرا اتخذ طريقه إلى شجرة النبق (*) الكبيرة المنتصبة فى قوة وسط ما يحيط بها من أرض خلاء، وفروعها الكبيرة التى تشبه النصب التذكارى تقطر الندى الذى تكثف ـ هنا، منذ زمن بعيد، وقف يصلى هو وماونت أوليف تحت الفروع المقدسة، والتى لا تزال محملة بثمارها

البشرية العجيبة، ففى كل مكان منها تظهر كالبراعم نذور المؤمنين مربوطة بمزق من قماش ملون: البفتة والخرز. كانت مربوطة فى كل فرع وغصن وورقة حتى إنها تبدو كشجرة عيد ميلاد عملاقة. هنا ترجل ليأخذ بعض القطع التى حزمها وحملها فى عناية. انتصب واقفا فقد سمع أصوات حركة فى الفرجات بين الأشجار حوله. كان من الصعب تحديدها أو فرزها ـ انزلاق جسم بين الأوراق، أو ربما إمساك سرج فى فرع بينما الحصان وراكبه يتحركان فى سرعة خارج مكمن ما؟ استمع ثم ضحك ضحكة مكتومة ساخرة، كأنه يضحك من نكتة خاصة تذكرها. كان يأسو لمصير أى امرئ يتحرش به فى مثل هذا المكان ـ الذى يعرف فيه كل مدق وكل فرجة بين الأشجار، غبيا. كان على أرضه ـ وكان هو السيد.

عاد مسرعا إلى حصانه فى خطى واسعة وساقاه العجيبتان منفردتان، ولكن دون صوت. امتطى الحصان. سار فى بطء خارجا من ظلال الفروع الكبيرة حتى يعطى لسوطه الطويل مدى أوسع لحركة معصمه مما يغطى المدخلين الوحيدين إلى الزراعات. إن على أعدائه، إن كان لمثل هؤلاء وجود، أن يحضروا إليه عبر واحد من هذين الممرين. أعطى ظهره للشجرة وحاجزها الشوكى الكبير. ضحك متكتكا فى سعادة، وقد جلس هنالك يقظا متنبها، ورأسه إلى ناحية

(*) بالعربية بحروف لاتينية.

مثل كلب صيد يتسمع . أخذ يحرك لفات سوطه فى رقة وشبق راسما به دوائر تتلوى فوق العشب مثل الحية . . . ربما تكشف كل ذلك عن إنذار كاذب ، ربما يأتى «على» للاعتذار عن إهماله فى ذاك الصباح؟ إن وضع سيده مستعدا سيخيفه ، على أى حال ، فقد رأى من قبل كيف يعمل السوط . . . وجاءت الضجة ثانية ، فأر ـ ماء غطس بقوة فى القناة وسبح بعيدا فى سرعة . كان فى وسعه أن يرى حركة غامضة فوق المدق الذى يوجد دغلان على جانبيه . جلس دون حراك كتمثال فارس ، وقد أمسك بالمسدس خفيفا فى يده اليسرى ، وسوطه يرقد إلى الخلف منه قليلا ، وذراعه فى وضع الاستعداد كصياد يوشك أن يرمى رمية طويلة . وانتظر هكذا مبتسما . كان صبره بلا نهاية .

كان الصوت البعيد لإطلاق رصاص فوق البحيرة أمرا عاديا ، ضمن مفردات أصوات ـ البحيرة . إنه ينتمى إلى موسيقى طائر النورس ، إلى زوار وافدين من شاطئ البحر ، وطيور الماء الأخرى التى تحتشد فى المستنقعات الزاخرة بالبوص . عندما يبدأ الصيد الكبير تنطلق تموجات ثلاثين بندقية مرة واحدة ، تنساب فى ذات الوقت كالترنيمة فى سماء مريوط . لقد علمت العادة المرء تدريجيا أن يفرق بين مختلف الأصوات وأن يتعرف عليها . ولقد قضى نسيم ، أيضا ، طفولته هنا ومعه بندقية . كان فى وسعه أن يفرق بين قرقعة بندقيةطويلة مصوبة إلى الإوز الطائر والخبطة الخفيفة لعيار اثنى عشر . كان الرجلان يقفان إلى جوار حصانيهما عند المعدية ، عندما تجعد الهواء مجرد تجعيدة صغيرة ، وقعت على طبلة الأذن كنقرة ، كقطرات ماء تنزلق فوق مجداف ، كقطرات ماء من صنبور فى منزل قديم ، والتى كانت بالكاد أقل مما سمعاه ، لكنها كانت بالتأكيد طلقات رصاص . وأدار بلتازار رأسه محملقا فوق البحيرة ، قال : «إنها أصوات طلقات مسدس» . ابتسم

نسيم هازا رأسه: «يمكنني القول إنها بندقية محدودة القدرة. لصياد صيد وراء بطة جاثمة؟». إلا أنه كانت هنالك طلقات أكثر مما يمكن أن تستوعبه خزنة أى من السلاحين مرة واحدة، امتطيا الحصانين وقد أصابتهما الحيرة، إلى حد ما، حيث أرسل الحصانين إليهما. إلا أن «عليا» كان قد اختفى. كان قد ربط الحصانين إلى مربط المعدية، وعهد بهما إلى رجل المعدية واختفى فى الضباب.

سارا على امتداد الجسور، فى خفة، جنبا إلى جنب وقد ارتفعت الشمس. سطح البحيرة يصعد إلى السماء كأنه خشبة مسرح ما، يتدفق ضبابا إلى أعلى. الحقيقة تتلاشى، هنا وهناك. وسط السراب، ومساحات الأرض معلقة فى السماء، مقلوبة رأسا على عقب، خمس منها أو ست مركبة فوق بعضها البعض، بقدر ما تعرضت لهذه الظاهرة. كانت أول دلالة على وجود خلل ما، رؤية شخص يرتدى جلبابا أبيض، يهرب فى الضباب. من ذا الذى يهرب من فارسين على طريق كرمة أبو جيرج؟ متشرد؟ توقفا وقد أدارت الحيرة رأسيهما. قال نسيم أخيرا فى صوت مختنق: «أعتقد أنى سمعت صرخات آتية من ناحية المنزل». اندفعا بحصانيهما، كان نفس القلق قد حفزهما فى ذات الوقت، فى عدو نشط متجهين نحو المنزل.

كان هنالك حصان ناروز واقفا ينتفض خارج بوابات قصر العزبة. كان مصابا بطلقات رصاص فى شفتيه ـ وسحجة تدمى فى غزارة ـ أكسبته ابتسامة دامية غريبة. كان يصهل، عندما وصلا، فى صوت خافت. وجاءت ـ قبل أن يترجلا ـ صرخات من خمائل النخيل، واندفع شخص طائرا عبر الأشجار يلوح لهما. كان «عليا». أشار ناحية الزراعات صارخا اسم ناروز. كان للاسم المفعم بالتطير والنذر ـ

بالنسبة إلى نسيم ـ وقع نعى غريب بالفعل، رغم أنه لم يكن قد مات بعد. صاح على: «إنه هنالك إلى جوار الشجرة المقدسة». دفع كلاهما بكعبيه فى جنبى حصانه، وانطلقا عبر الزراعات بأسرع ما يستطيعان.

كان يرقد فوق العشب أسفل شجرة النبق، وقد شكلت رأسه مع رقبته زواية جعلت وجهه يتجه إلى الأمام كأنما يتفحص جراح الطلقات فى جسده. كانت عيناه ـ فقط ـ هما اللتان تتحركان. لكن تلك الحركة لم تكن تتجاوز ركبتى منقذيه، وقد أحال الألم زرقتهما الزاهية الطبيعية إلى زرقة معتمة. كان سوطه ملفوفا على جسده بطريقة ما. ربما حدث ذلك عندما سقط من فوق السرج. ترجل بلتازار وسار إليه متأنيا، يقوق بذلك الصوت الذى يصدره، دوما، لسانه. كان الصوت متعاطفا وإن كان فى الحقيقة تأنيبا لذاته، لدهشته وعجبه، للشعور الذى يستجيب به جزء من عقله المهنى للمأساة الإنسانية. كان يبدو له أنه لايحق له الاهتمام هكذا. تسك، تسك. كان نسيم شاحبا للغاية، هادئا للغاية، لكنه لم يقترب من جسد شقيقه الذى هوى، وإن كان له عليه تأثير مخيف ـ كان الأمر يبدو كأن بلتازار يضع مادة مفجرة، قوية للغاية، يمكن أن تنطلق، تقتلهما. كان ما يقدمه من عون هو الإمساك بالحصان فقط. قال ناروز فى صوت برم ـ صوت طفل محموم يعتمد على مرضه لينال ما يشاء من متع ـ قال شيئا لم يكن متوقعا: «أريد رؤية كليا». جرت العبارة ناعمة على لسانه، كأنه كان يستعيدها فى عقله منذ قرون. لعق شفتيه. بدا لبلتازار، من حيث كان يقف، أن ابتسامة ماقد استقرت فوق شفتيه، لكنه أدرك أن هذا التقلص لم يكن غير تكشيرة ألم. أسرع فى خفة إلى زوج مقصاته الجراحية القديمة والتى كان أحضرها لاستخدامها عند التعامل مع الأسلاك الطرية لحواجز البط، شق بقوة ثوب ناروز من شماله إلى جنوبه. اقترب نسيم. نظر

كلاهما إلى الجسد الأشعث القوى، وقد غاصت فيه ثقوب الطلقات زرقاء عديمة الدماء أشبه بعقد فى شجرة بلوط. كانت كثيرة، كثيرة. أتى بلتازار بحركته التى تدل على الشك، والتى تحاكى، بطريقة ساخرة، رجلا صينيا يسلم بيديه على نفسه.

دخل آخرون من الناس إلى المكان الخالى. غدا التفكير أكثر يسرا. أحضروا ستارة قرمزية هائلة حتى يحملوه عليها، عودة إلى المنزل. امتلأ المكان الآن على نحو غريب بالخدم. عادوا من جديد كما يعود المد. أقتم الجو بما أثاروه من اهتمام. طحن ناروز أسنانه وأنّ عندما رفعوه إلى العباءة القرمزية وحملوه عائدين إلى المنزل، عبر الزراعات، وكأنه مهر جريح. ما أن اقترب من المنزل حتى قال فى نفس الصوت الطفولى الواضح: «أرى كليا»، ثم خمد فى صمت محموم تقطعه تنهدات مرتعشة، ما بين الحين والحين.

قال الخدم «حمدا لله، الطبيب هنا. كل شىء سوف يكون على ما يرام!».

أحس بلتازار بعينى نسيم تستديران نحوه. هز رأسه فى حزن ويأس. كرر فى رقة صوته الذى يشبه النقيق لن يستغرق الأمر ساعات دقائق، ثوانى. بلغوا المنزل هكذا، أشبه بموكب دينى غريب يحملون جسد الابن الأصغر. كانوا يموءون وينتحبون فى رقة ولكن بأمل وثقة فى شفائه. حملقت النسوة فى الرأس الناتئ والجسد الممدود فى الستارة القرمزية، فانتفخت تحت ثقله، غدت كشراع. نسيم يصدر التوجيهات فى كلمات محددة، «برفق هنا»، «ببطء عند الركن». وهكذا عادوا به تدريجيا إلى حجرة النوم الموحشة والتى كان قد انطلق منها خارجا هذا الصباح. انهمك بلتازار فى فتح حزمة لوازم طبية

كانت موضوعة فى الصوان لاستخدامها إن وقعت حوادث فى البحيرة، بحثا عن حقنة تحت الجلد، وقنينة مورفين. كان يصدر عن فم ناروزالآن نقيق وأنين. انغلقت عيناه. لم يعد فى وسعه سماع الحوار الغامض الذى كان يجريه نسيم هاتفيا مع كليا فى ركن آخر من المنزل.

«لكنه يموت ياكليا».

احتجت كليا فى أنين غير واضح: «ماذا فى وسعى أن أفعل يانسيم؟ إنه لاشيء بالنسبة لى، لم يكن، ولن يكون. أوه. إن الأمر مقزز للغاية ـ أرجوك يانسيم، لا تفرض علىّ الحضور».

«بالطبع كلا، لكننى فكرت فى بساطة، أنه وهو يموت. . .».

«إن رأيت أنه يتوجب علىّ ذلك، فسأحس أنى مجبرة على فعله».

«إننى لا أفكر فى أى شيء. لم يبق أمامه الكثير حيا، ياكليا».

«أسمع فى صوتك وجوب حضورى. أوه، يانسيم. كم هو مقزز أن يحب الناس دون موافقة الآخرين ورضائهم! هل ترسل السيارة إلىّ أم أتصل هاتفيا بسليم؟ إن لحمى خائر فوق عظامى».

«شكرا لك يا كليا». قال نسيم فى إيجاز، وهو كاسف البال حزين، فقد جرحته، لسبب ما، كلمة مقزز. سار فى بطء عائدا إلى حجرة النوم. لاحظ فى طريقه، أن الباحة قد امتلأت بالناس ـ ليس الخدم فقط، فقد كان هنالك العديد من الغرباء. الفاجعة تجذب الناس كما يجذب الجرح الذباب. فكر نسيم، كان ناروز فى غفوة الإغماء. جلسا يتحدثان همسا، تساءل نسيم فى حزن: «إذن فهو لابد ميت، دون أمه؟». بدا له أن ذلك يشكل عبئا إضافيا إلى إثمه إذ إنه هو الذى أجبر ليلى كى تغادر. «وحيدا هكذا». كشر بلتازار تكشيرة من فقد

صبره، قال: «من العجب أنه لايزال حيا حتى الآن. وليس هنالك من شيء على الإطلاق. . . » هز بلتازار رأسه الداكنة الذكية في حزن. وقف نسيم وقال: «إذن يجب أن أخبرهم أنه ليس هنالك من أمل في شفائه إنهم لابد سيبدأون في الإعداد لموته».

«افعل ما تشاء».

«يجب أن أستدعى طوبيا القس. يجب أن ينال الأسرار المقدسة الأخيرة، سر القربان المقدس. ولسوف يعرف الخدم الحقيقة من ذلك».

«افعل ما تراه صالحا لك»، قال بلتازار بطريقة جافة. انزلق صديقه الفارع الطول إلى أسفل السلم، إلى الباحة ليعطى تعليماته. كان لابد من إرسال فارس في الحال إلى القس ومعه تعليمات بتكريس كل المقدسات في الكنيسة، والحضور بأقصى سرعة إلى كرم أبو جيرج، ليناول ناروز القربان المقدس الأخير. ما أن ذاعت الأنباء حتى ارتفعت زفرة هائلة. إذ غدا الأمر الرهيب متوقعا، استطالت وجوه الخدم من الهول. صاحوا في ألم شديد: «وماذا عن الطبيب؟».

ابتسم بلتازار عابسا، كان جالسا على مقعد إلى جوار الرجل الذى يموت. ردد لنفسه في رقة هامسا: «وماذا عن الطبيب؟». يالها من سخرية، وضع كفه البارد فوق جبهة ناروز للحظة، يحيط به جو من اليقين والاستسلام. درجة حرارة عالية، دستة من ثقوب الطلقات، «وماذا عن الطبيب؟».

أخذ يتأمل عبث ما يقوم به الإنسان من أعمال، وما تتعرض له حياة أقل الكائنات خبثا وأكثرها براءة من أحداث رهيبة. أشعل سيجارة. خرج إلى الشرفة. أخذت مئات العيون المتلهفة تبحث عن عينيه. عبس

فى الكل قاطبة، عبوسا شديدا. لو كان فى قدرته اللجوء إلى سحر الحكايات الخرافية المصرية القديمة، والعهد الجديد، لأمر ناروز فى سعادة أن ينهض. ولكن. . . «وماذا عن الطبيب؟».

كان المريض رغم النزيف الداخلى، ورغم طنين النبض فى أذنه، والحمى والألم يرقد فى راحة ـ بمعنى ما ـ يقتصد فى جهده انتظارا لظهور كليا. التبس عليه حفيف الأصوات القليلة ووقع أقدام على السلم. كان ينبئ عن ظهور الكاهن. رفرف جفناه ثم سكنا كما كانا، مرهقين لسماع الصوت الغليظ للشاب الذى يشبه الإوزة، بوجهه الشحمى الذى ينبئ أنه قد أكل لتوه خنزيرا رضيعا. عاد إلى يقظته النائية، راضيا بطوبيا يعامله ككائن فاقد الإحساس، بل حتى ككائن ميت، شريطة أن يحتفظ للصورة الشقراء بقدر صغير من نطاق موته ـ الشقراء البعيدة عن عقله كما كانت دوما وهى رغم ذلك صورة يمكن أن تستجيب لكل معاناته المدخرة. كان منتفخا بالرغبة، يتمدد كامرأة حبلى. عندما تقع فى الحب، تكتشف أن الحب متسول، لا يحس بالخجل لتسوله. إن مجرد الشفقة الإنسانية يمكن أن يكون لها ردود فعل تواسى المحب إن غاب الحب، محاكاة كاذبة لسعادة متخيلة ـ سار اليوم فى بطء. وهى لم تحضر بعد. وأخذت الفكرة تغرى بلتازار الذى خمن بفراسته الصادقة سبب صبره وانتظاره!! فى وسعى أن أقلد صوت كليا ـ هل سيعرف؟ فى وسعى أن أخفف ألمه ببضع كلمات أقولها له بصوتها!! كان بلتازار متكلما من جوفه، مقلدا من الطراز الأول. إلا أن صوتا آخر رد على الصوت الأول، «كلا، يجب عدم التدخل فى تصاريف القدر مهما كانت مُرة، بتقديم أكاذيب، يجب أن يموت كما قدر له أن يموت». قال الصوت الأول فى مرارة: «إذن لماذا كان المورفين؟ لماذا سلوى الدين وعزائه؟ ولا عزاء أو سلوى بتقليد

صوت بشرى مرغوب، وضغطة يد مقلدة؟ إن فى وسع المرء فعل هذا فى سهولة!! إلا أنه هز رأسه الداكن وقال: «كلا»، فى عناد مرير، وهو يستمع إلى صوت الكاهن الكريه يقرأ نبذات من الكتاب المقدس من الشرفة، وصوته يختلط بهمهمة الناس وهرجهم أسفل فى الباحة. لم لا يكون الإنجيل هو ما كان يمكن أن يكونه تقليد صوت كليا؟ وقبل حاجب المريض حزينا فى بطء وهو يفكر متأملا.

وأخذ ناروز يحس بالعالم السفلى يسحبه، يجرجره، وكلاب الحواس الخمس المتوحشة تشده بقوة أكبر فوق المقرعة إلى المقود، وواجهها بإرادة شديدة البأس، كسبا للوقت فى انتظار الإلهام البشرى الوحيد الذى ينتظره ـ صوت وعطر فتاة حنطتها أحاسيسه وقبرتها كصورة ثمينة كان فى وسعه أن يسمع أعصابه تتكتك بعيدا فى لولب آلامها، وفقاقيع الأوكسجين ترتفع أبطأ فأبطأ لتنفجر فى دمه. كان يدرك أنه يفقد ذخيرته، يفقد الزمن. وأخذ الشلل يتجمع فى بطء يستقر فوق عقله، مخدرا ألمه.

ذهب نسيم إلى الهاتف مرة أخرى، كان شاحبا شحوب الشمع، وبقعة وردية محمومة تصبغ وجنتيه. تحدث فى صوت عذب عال هيستيرى كصوت أمه. كانت كليا فى طريقها بالفعل إلى كرم أبو جيرج. إلا أن جزءا من الطريق، على مايبدو، كان قد جرفه انهيار أحد السدود. كان سليم يشك فى إمكان وصولها إلى المعدية هذا المساء.

بدأ الآن صراع هائل فى صدر ناروز ـ صراع للمحافظة على التوازن بين القوى التى تقتتل فى داخله. كان جهازه العقلى ينقبض ويئن، يبذل جهدا للانتظار، وعروقه نافرة مصقولة فى لون الأبنوس لما كان يعانيه من انفعال وتوتر، تتحكم فيها إرادته. كان يطحن أسنانه فى

وحشيه أشبه بخنزير برى وحشى، وهو يحس بنفسه إلى سقوط. جلس بلتازار كأنه صورة منحوتة على نصب تذكارى، وقد وضع يدا فوق حاجبه، ويدا أمسك بها بعنف عضلات معصمه وهى تتلوى. همس بالعربية: «استرح يا عزيزى، استرح فى يسر يامحبوبى». وأمده حزنه بسيطرة كاملة على نفسه، منحه هدوءا كاملا. إن الحقيقة مُرة حتى إن إدراكها يمنح المرء نوعا من الرفاهية.

سار الأمر هكذا فترة من الوقت، ثم انفجرت أخيرا من الحلق المشعر للرجل، الذى يموت، كلمة واحدة هائلة، كليا. نطقها فى صوت أجوف لأسد جريح، صوت احتوى الغضب والعقاب والحزن الغامر فى ذلك الزئير المفاجئ. كانت كلمة مجردة هى اسمها، بسيطة بساطة نداء «الله» أو نداء «يا أم» ـ ومع ذلك فقد كان لها صداها كأنما تصدر عن شفتى قاهر يموت، أو ملك مقال، يعى ويدرك أن الجسد والروح يذوبان فى داخله. ودوى اسم كليا فى أرجاء المنزل كله، مخضبا ببهاء ألمه الشديد، ملقيا بالصمت بين جماعات الخدم الزوار الذين يتهامسون، طارحا آذان كلاب الصيد إلى وراء، يتذللون ويبصبصون بأذنابهم: يرن فى عقل نسيم بمرارة جديدة مخيفة، أعمق من الدموع كثيرا. وما أن تلاشت الصرخة الكبرى فى بطء، حتى خيم نبأ موته فوقهم بثقل جديد ساحق ـ مثل ضغط باب مقبرة كبيرة ينغلق على الأمل.

جلس الطبيب، الصورة المنحوتة المهزومة، إلى جوار فراش الألم، ودون حراك مثل الألم ذاته. كان يفكر وقد غمره ضوء الإدراك الذهنى الناصع: «إن عبارة تقول، خارج فكى الموت». يمكن أن تعنى شيئا مثل صرخة ناروز تلك وشجاعته. أو عبارة تقول: «خارج فكى الجحيم، لابد تعنى جحيم العقل الخاص. كلا، إننا لا نستطيع أن نفعل شيئا».

وتضاءل الصوت العظيم فى رقة. إلى دمدمة أشبه بصوت أوراق تجمع معا، إلى خشخشة الموت الطويلة، متلاشيا فى طنين أشبه بطنين ذبابة أمسك بها فى بيت عنكبوت ناء بعيد.

وانتحب نسيم، فى الشرفة، انتحابة واحدة رخيمة. كان صوته أشبه بذلك الصوت الذى يصدر عن ساق شجرة البامبو عندما يجذب فرع منها، مثل فاصل موسيقى افتتاحى احتفالى لسيمفونية كبرى. كان لهذه الشهقة الصغيرة صداها، هنالك أسفل فى الظلام، حيث انتقلت من شفة إلى شفة ومن قلب إلى قلب. وأشعل نحيب كل منهم نحيب الآخر كما تشتعل الشموع الواحدة من الأخرى، أشبه إلى حد بعيد، بعمل أوركسترالى للحن الرئيسى الحزين وارتفع عويل مرتعش ممزق من البئر الخالى صاعدا نحو السماء المظلمة، زفرة طويلة خافتة اختلطت وتداخلت مع صوت المطر الخافت فوق بحيرة مريوط. لقد بدأ ميلاد موت ناروز. وأخذ بلتازار، وقد أحنى رأسه، يقتبس فى رقة لنفسه تلك السطور من اليونانية:

أسى الشعور بالفراق ينبض الآن
كريح فى شراع سفينة
فقد تجسد موت إنسان فى بدنه الأبيض
أشرعة الروح امتلأت
زاخرة وأبدية بنسمات شبحية.

كانت تلك هى إشارة ذيوع الخبر، بدأت فى المنزل، ممارسة مشاهد رهيبة قبطية للسهر على الميت قبل دفنه، مشاهد مشحونة برعب قديم واستسلام.

حمل الموت النساء إلى مملكتهن. جعل كلا منهن حرة، تلقى بميراث أحزانها. زحفن إلى الأمام كجسد واحد. ازدادت سرعتهن وهن يصعدن السلم، وجوههن ذاهلة وقد تغير شكلها، وهن يطلقن أول صرخة رهيبة. تحولت أصابعهن إلى مخالب تمزق لحمهن، صدورهن، خدودهن فى استسلام شهوانى، بينما يتحركن فى سرعة فوق السلم. كن يطلقن ذلك العويل الغريب الذى تقشعر منه الأبدان والذى يدعى «الزغاريد»(*). ألسنتهن تتموج فى سقوف أفواههن مثل الماندولين(**). جوقة تشق الآذان، بترديد صادر عن اللسان، بكل أنغام الصوت ودرجاته.

دوى المنزل العتيق بزعيق النسوة الأشبه بطائر العقاب، وقد استولين عليه، وغزون حجرة الموت ليحطن بالجثة الساكنة، وهن لايزلن يرددن إعلان الموت ذاك والذى يجعل الدم يتخثر فى العروق، إشارة مفعمة باستسلام حيوانى لا يحتمل. بدأن رقصات الحزن الشعائرية، بينما نسيم وبلتازار يجلسان صامتين فوق مقعديهما ـ وقد غرقت رأساهما فى صدريهما، ويدا كل منهما متشابكتان ـ صورة حية للإخفاق البشرى. تركا تلك الصرخات المرتعشة العنيفة تخترق لحمهما الحى، الإذعان والاستسلام لشعائر هذا الحزن القديم هو الشيء الوحيد المسموح به الآن: غدا الحزن سعارا، متهتكا يقف على حافة الجنون. كانت النسوة يرقصن وقد أحطن بالجسد، يضربن صدورهن، عاويات مولولات، لكنهن يرقصن رقصة بطيئة منتظمة، يستعدنها من تلك الرسوم التى نسيت منذزمن فوق حواشى جدران مقابر العالم القديم. كن يتحركن، يتأرجحن، ينتفضن من حلوقهن إلى كعوبهن، يتلوين،

(*) بالعربية بحروف لاتينية.

(**) آله موسيقية وترية. (المترجم).

يستدرن، ينادين الرجل الميت أن ينهض. «قم يايأسى، قم يا موتى، قم يا رجلى الذهبى، ياموتى، ياجملى، ياحامى! أيها الجسد العامر بالبذور قم». ثم تلك الولولة البشعة تمزق حلوقهن، والدموع المرة تنساب من عقولهن الممزقة. كن يدرن ويدرن، ينومهن نواحهن تنويما مغناطيسيا، فيسرى حزنهن فى المنزل كله، بينما ارتفع من أسفل، من الباحة المظلمة، طنين رجالهن، قاتما وأكثر عمقا، وهم ينتحبون، يلمسون أيدى بعضهم البعض مواسين، وهم يكررون العزاء لبعضهم البعض: «معلهش(*) يرحمه الله! لا شىء يعود من الأحزان».

تضاعف الحزن وتكاثر. جاءت النسوة الآن، فى أعداد، من كل مكان. كان البعض منهن قد ارتدين بالفعل ملابس الحداد، الأردية القذرة القطنية داكنة الزرقة وقد لطخن وجوههن بالنيلة، ودعكن رماد أفرانهن فى جدائل شعورهن المحلولة السوداء السائبة. إنهن يجبن الآن على صرخات أخواتهن، فى الدور العلوى، بصرخات مثيلة، كاشفات عن أسنانهن البراقة. تسلقن السلم. انهمرن فى الحجرات العلوية، حجرة بعد حجرة، كشياطين لاتعرف الرحمة، فى سعار منظم، يهاجمن المنزل القديم، يتوقفن فقط لإطلاق تلك الصرخات المرعبة، وهن يقمن بعملهن.

دفعن بهياكل السرر والدواليب والأرائك إلى الشرفة. رمين بكل ذلك إلى الباحة. ومع كل شىء يسقط، يتحطم، تنطلق صرخة جديدة، محمومة ـ زغرودة تبقبق ممدودة ـ تنفجر، يجيئها الرد من كل أركان المنزل. هشمت المرايا إلى آلاف الشظايا، عكس وضع الصور فوق الحوائط، قلبت السجاجيد، حطمت كل الأوانى الصينية

(*) بالعربية بحروف لاتينية.

والزجاجية، ماعدا فناجين القهوة السوداء التى تستخدم فى الجنازات ـ وطئت بالأقدام حتى سحقت إلى ذرات، كنست كلها إلى الشرفة فى كومة. كل ما يمكن أن يوحى بانتظام الحياة الأرضية أو العائلية أو الشخصية وتواصلها، يجب أن ينبذ الآن ويمحى التحطيم المنظم لذكرى الموت ذاته، ممثلا فى الأطباق والصور، فى أدوات الزينة أو الملابس . . . لقد حطم المنزل كله الآن، وكل ما تبقى منه بعد ذلك غطى بالجوخ الأسود.

نصبت فى تلك الأثناء خيمة كبيرة ملونة، سرادق يأتى إليه المعزون ليجلسوا طوال «ليلة الوحدة والوحشة»، يشربون القهوة فى صمت، من الفناجين السوداء، ويستمعون إلى الأنين المتهدج العميق، الذى يضخم من وقت لآخر، فى انفجار جديدمن الصراخ، أو ضجة امرأة أصابها الإغماء، أو أخرى تتدحرج فوق الأرض ملبوسة، يجب بذل كل جهد حتى تكون جنازة هذا الرجل العظيم ناجحة.

بدأ ظهور معزين آخرين، بعضهم جاء للعزاء الشخصى والبعض الآخر من المحترفين، أو هكذا يمكن القول. كان هؤلاء الذين جاءوا للعزاء الشخصى، فى جنازة صديق، قد حضروا ليقضوا الليلة فى السرادق الملون تحت الأضواء الباهرة. إلا أنه كان هنالك آخرون، معزيات محترفات من القرى المحيطة، وكان الموت بالنسبة إليهن منافسة مفتوحة من شعر الندب. كانت كلما دخلت واحدة منهن من بوابة المنزل أطلقت صرخة طويلة مرتعشة أشبه بالهياج الجنسى، مما كان يثير أحزان المعزين الآخرين حتى إنهم كانوا يستجيبون لها من كل أركان المنزل ـ وشهقات النحيب المنخفضة ترتفع إلى ترديد قوى مرتعش باللسان يجعل الدم يتخثر فى العروق ويخترق الأعصاب.

إن تلك الندابات المحترفات قد أحضرن معهن كل الشعر الوحشى لجماعتهن، كل الذكريات المشحونة بسنوات ممارسة شعائر الموت. كن فى الغالب صغيرات، جميلات. كن يحملن معهن الطبول والدفوف الشعائرية، والتى كن يرقصن على دقاتها، كما يستعملنها فى تنظيم وقفات حزنهن وإثارة الأحزان الذاوية عند هؤلاء الذين غدوا بالفعل جزءا من حفل الشعائر. «شكرا لصاحب البيت»، كن يصرخن فى اعتزاز وإجلال. بدأن رقصهن فى بطء محسوب حول الميت، يستدرن، يتلوين فى نشوة رحمة وشفقة وهن ينشدن الشعر العربى فوق ناروز. كن يمدحن أخلاقه، استقامته، جماله وثراءه. المقاطع الشعرية المتقنة الإلقاء تقاطع بنحيب وأنين الحاضرين فى الدور العلوى وفى السرادق. كان التأثر بالشعر قويا، حتى إن كبار السن الجالسين على المقاعد الخشبية الصلبة فى الخيمة، ضاقت حلوقهم لتنفجر فى شفاههم شهقة بكاء، وقد تدلت رءوسهم وهم يهمسون. «معلهش»(*).

كان بينهم محمود شيباب، ناظر المدرسة وصديق آل حصنانى، جالسا فى الصدارة، مرتديا أفضل ما لديه من ثياب، كذا زوج طماق من غطاء الحذاء فى لون اللؤلؤ، وطربوشا قرمزيا جديدا. أصابته، الآن، ذكريات الليالى المنسية التى قضاها فى شرفة المنزل العتيق، يستمع إلى الموسيقى، وهو يثرثر مع ليلى، بألم حقيقى، لا ادعاء فيه. كان أهل الدلتا غالبا ما يتخذون من ليلة السهر إلى جوار جثة الميت ذريعة ليفرغوا أحزانهم الخاصة فى الفجيعة العامة، لذا وجد نفسه يفكر فى شقيقته المتوفاة وينتحب. استدار إلى الخادم. ضاغطا بعض النقود

(*) بالعربية بحروف لاتينية.

فى يده، وهو يقول: «قل لعلام المغنى، ينشد المقطع الخاص بمرثية النسوة، مرة أخرى، إن سمحت. أود أن أندبها مرة أخرى». وعندما بدأت القصيدة العظيمة، استند إلى الوراء فى رفاهة، وقد فاض منتعشا بأسى يمكن أن يجد فى الشعر متنفسا له. وطلب آخرون أيضا أن تنشد لهم مقاطع الندب الأثيرة لديهم، مقدمين إلى المنشدين النقود الواجبة. وهكذا أعيدت إلى الحياة كل أحزان أهل الريف مرة أخرى، خالصة من المرارة، يغلب عليها الإحياء من جديد عبر صورة ناروز الميتة.

سيظل كل ذلك حتى الصباح، الرقصات الدائرية الغريبة، تموجات الدفوف وانتفاضاتها، صرخات الألسن المرتعشة والنبض البطىء للمرثيات وقد زينت باستعارات رائعة وصور شعرية عن دار ـ الموت. كان البعض قد سقط من الإرهاق مبكرا، وأصاب الإغماء الهستيرى العديد من خدم المنزل بعد ساعتين من مثل ذلك الغناء، لكن المحترفات كن، على أى حال، يعرفن قوتهن الحقيقية ويتصرفن باعتبارهن القائمات على تنفيذ الشعائر. كن إن أرهقهن الحزن الزائد أو انفجار الصرخات الطويل، يهبطن إلى الأرض لراحة قصيرة، بل كن، فى بعض الأحيان، يدخن السجائر. ثم يعدن، مرة أخرى، يلحقن بدائرة الراقصات، وقد استعدن نشاطهن.

الآن، وقد تم التعبير عن فورة الحزن الأولى الطويلة، أرسل نسيم إلى القساوسة الذين سيضيفون ضوء الشموع الطويلة الشاحبة وضجيج المزامير إلى صوت الماء والإسفنج ـ حيث يجب غسل الجسد. وأخيرا وصلوا. كان اللذان سيغسلان الجسد من العاملين بالكنيسة القبطية الصغيرة. كانا جاهلين، جلفين، وانفجرت مشادة كلامية شائنة ـ إذ كانت ملابس الميت هى منحة إعداد الجسد. ولم يجد الرجلان فى

صوان ناروز الرث ما يمكن أن يكون جزاء مناسبا لجهدهما . كانت هنالك عباءات وأحذية قديمة قليلة، ورداء نوم ممزق، وغطاء رأس صغير مطرز يعود تاريخه إلى زمن ختانه. كان ذلك ما يمتلكه ناروز. وما كان الرجلان ليتقبلا بأخذ نقود، فقد كان ذلك فألا مشئوما. وبدأ نسيم فى الثورة غضبا، لكنهما وقفا هنالك عنيدين كبغلين يرفضان غسل ناروز مالم يحصلا على الأجر طبقا للشعائر والطقوس، واضطر نسيم وبلتازار أخيرا إلى خلع بزتيهما كى يعطياهما إلى الرجلين كأجر لهما. وارتديا ملابس ناروز القديمة الممزقة وقد انتابتهما رعشة من الرهبة، عباءتان تهدلتا على جسديهما الطويلين مثل عباءات التخرج. لكن المراسيم يجب أن تستكمل بأى صورة من الصور، حتى يمكن أخذه عند الفجر، إلى الكنيسة، كسبا للوقت ـ وإلا فإن النداببن القائمين على تنفيذ الشعائر سيستمرون هكذا أيامًا وليالى: كان مثل هذا الندب والتفجع يتصل فى الأيام القديمة أربعين يوما! أمر نسيم بإعداد التابوت. كان الإنشاد يقاطع طوال الليل بأصوات الشواكيش والمناشير الصادرة من حوش إصلاح العربات والعجلات. كان نسيم قد أنهك الآن إنهاكا تاما، وقد نام نوما متقطعا فوق أحد المقاعد، حيث كانت توقظه، من وقت لآخر، صرخات ثاقبة، أو بعض المشاكل الشخصية التى كانت تثور بين الخدم، والتى تحتاج إلى حل يحكم به فيما بينهم.

الشدو والإنشاد، ارتعاشة أضواء الشموع الوردية، حفيف الإسفنج وخدوش الموسى فى لحم الميت. إنه لا يحس الآن ألم الحلاقة، لكنه خدر الروح الذى لا علاقة له بالأرض. صوت المياه، تقطر قطرات هزيلة ودعك الإسفنج فى رقة فوق جسد أخيه، بدا له كل ذلك جزءا من نسيج تفكير وإحساس جديد تماما عليه. أنات المغسلين

وهما يديرانه، وخبطة جسده فوق المنضدة عند إدارته، أشبه بالخبطة الرقيقة لجسد أرنب ميت عندما يلقى به فوق منضدة المطبخ . . . . وأخذ يرتجف .

أخيرا غُسل ناروز، دهن بالزيت ورش برذاذ حصا لبان وزعتر، رقد مستريحا فى تابوته الخشن وقد ارتدى كفنا كان يحتفظ به، شأنه شأن أى قبطى، لمثل تلك اللحظة : كفن من كتان أبيض، غمس فى مياه نهر الأردن . لم يكن لديه مجوهرات أو بزات ثمينة حتى يأخذها معه إلى القبر، إلا أن بلتازار لف سوطه الكبير الملطخ ببقع الدم ووضعه تحت الوسادة . (كان على الخدم فى صباح اليوم التالى، أن يحملوا جسد إنسان بائس، وجهه كله كان كالعجينة بفعل ضربات هذا السلاح الفريد . كان، كما يبدو، قد جرى صارخا مجهولا، عبر الزراعة ليسقط فاقد الحس فى قناه ويغرق . قام السوط بعمله فى دقة بالغة حتى إنه لم يكن من الممكن التعرف على هذا الإنسان) .

اكتمل الجزء الأول من العمل الآن . لم يعد هنالك غير انتظار الفجر . . سمح للندابات بالدخول، مرة أخرى، إلى غرفة الميت، ومرة أخرى استأنفن رقصهن العاطفى وضرباتهن على الطبول . استأذن بلتازار كى يغادر . لم يكن هنالك من شىء يمكنه أن يمد يد المساعدة به . سار الرجلان عبر الباحة وذراع كل منهما فى ذراع الآخر، يستندان إلى بعضهما البعض كأنما من الإنهاك والإرهاق .

«إن لقيت كليا عند المعدية، فدعها تعود» .

«بالتأكيد، سوف أفعل ذلك» .

تصافحا فى بطء، احتضن الواحد منهما الآخر . استدار نسيم عائدا

إلى المنزل، يتثاءب وينتفض. جلس ناعسا فى المقعد. استمر أياما ثلاثة قبل أن يتطهر المنزل من الحزن، وتطلق الشعائر التى يؤديها القسيس لروح ناروز. سوف يأتى أولا الموكب الطويل منتشرا فى غير نظام ومعه المشاعل والأعلام، فى الفجر المبكر قبل أن يرتفع الضباب، والنسوة بوجوههن التى اسودت الآن كالمجانين، يمزقن شعورهن، والشمامسة ينشدون، «اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك»، فى أصوات عميقة متهدجة. وفوق أرضية الكنيسة الباردة يتساقط العشب كالمطر على وجه ناروز الشاحب وتتلو الأصوات، «من التراب وإلى التراب نعود»، وفقرات من الإنجيل تنساب ترتيلا يحف به إلى السماء، وصرير المسامير اللولبية النحاسية بعدما ينزل الغطاء. كل ذلك رآه فى عقله مسبقا، وهو جالس ناعس فوق المقعد الخشبى الصلب إلى جوار التابوت المنحوت الخشن. وتساءل فيما يمكن أن يحلم به ناروز الآن وسوطه الكبير ملفوف تحت وسادته؟

* * *



لو رنس داريل

واحد من أهم الروائيين الإنجليز وأكثرهم مبيعًا فى القرن العشرين. وكتابه «رباعية الإسكندرية» هو بلا شك أحب أعماله للقراء. وتدور الأحداث فى الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية. فى هذا العالم البراق والفاسد الذى قارب شفا الانهيار يحاول «ل. چ. دارلى» أن يقنع نفسه بنهاية علاقته مع الجميلة المثيرة «جوستين حوسنانى» ليبدأ رحلة مراوغة للخداع الجنسى والسياسى أطلق عليها المؤلف «بحث فى الحب المعاصر».

"لا يوجد شك فى عظم إنجاز داريل."

چورچ شتاينر

"داريل متمكن فى خلق الإثارة. لقدبهرنى من البداية."

وليب

"إنجاز معجز ومبهر."

ملحق جريدة التاي

"واحدة من أعظم أعمال الأدب الإنجليزى. تل
إنسانية خالدة لا تتغير."

جريدة الت

"الكتابة دائما رائعة، ليس فقط فى الف
الشاعرية الرائعة، بل أيضا فى التعليقات الذكي
الساخرة." فيليب توينبى،
جريدة الأوبزرفر

6 221102 023115

دار الشروق
www.shorouk.com